﴿الجـــزء الثانى﴾

من كتاب الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى

تأليف العالم العلامة المحقق الفهامة وحيد
الاوان وفريد الزمان بحر العلوم الراوى
الشيخ أحمد بن خالد الناصرى
السلاوى حفظه الله
وأدام علاه
آمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(الخبر عن دولة بني مرين ملوك فاس والمغرب وذكر أوليتهم وأصلهم)

(اعلم) ان العلامة الرئيس أبا زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله قسم جيل زناتة الى طبقتين الطبقة الاولى هي التي كان منها مغراوة ملوك فاس وبنو يفرن ملوك سلا وقد تقدم الكلام على دولتهم مستوفى والطبقة الثانية هي التي كان منهم بنو عبد الواد ملوك تلمسان والمغرب الاوسط وبنو مرين ملوك فاس والمغرب الاقصى وهؤلاء هم الذين تعلق الغرض الآن بذكرهم فاعلم ان جيل زناتة في المغرب كما قال الرئيس المذكور جيل قديم معروف العين والاثر وهم لهذا العهد آخذون من شعار العرب في سكنى الخيام واتخاذ الابل وركوب الخيل والتقلب في الارض وايلاف الرحلتين وتخطف الناس من العمران والاباية من الانقياد الى النصفة وشعارهم من بين البربر اللغة التي يتراطنون بها وهي مشتهرة بنوعها عن سائر رطانة البربر ومواطنهم في سائر مواطن البربر بافريقية والمغرب فمنهم ببلاد النخيل ما بين غدامس والسوس الاقصى حتى ان عامة تلك القرى الجريدية بالصحراء منهم ومنهم قوم بالتلول بجبال طرابلس وضواحي افريقية وبجبل أوراس بقايا منهم سكنوا مع العرب الهلاليين لهذا العهد وأذعنوا لحكمهم والاكثر منهم بالمغرب الاوسط حتى انه ينسب اليهم ويعرف بهم فيقال وطن زناتة ومنهم بالمغرب الاقصى أمم أخر وكان بنو مرين منهم قبل استيلائهم على ملك المغرب أحياء ظواعن بمجالات القفر من فجيج الى سجلماسة الى ملوية وربما يتخطون في ظعنهم الى بلاد الزاب ويذكر نسابتهم ان الرياسة كانت فيهم في تلك العصور لمحمد بن ورزير بن فكوس بن كرماط بن مرين ومرين يتصل نسبه برانا ابن يحيى أبي الجيل وكان لمحمد المذكور سبعة من الولد اثنان منهم شقيقان وهم حمامة وعسكر وخمسة أبناء علات وكان يقال لهم بلسان زناتة تيربعين ومعناه الجماعة ويزعمون ان محمد بن ورزير لما هلك قام بأمره في قومه ابنه حمامة بن محمد وكان الاكبر من ولده ثم من بعده شقيقه عسكر بن محمد ثم من بعده ابنه المخضب بن عسكر وهلك سنة أربعين وخمسمائة في بعض الحروب التي كانت بين عبد المؤمن والمرابطين

ثم قام بأمر بني مرين بعد المخضب ابن عمه أبو بكر بن حمامة بن محمد الى ان هلك فقام بأمرهم ابنه أبو خالد محيو بن أبي بكر ولم يزل مطاعا فيهم الى ان استنفرهم يعقوب المنصور الى غزوة الارك بالاندلس فشهدوها وأبلوا فيها البلاء الحسن وأصابت محيو بن أبي بكر يومئذ جراحات هلك منها بصحراء الزاب سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة وكان من رياسة عبد الحق ابنه من بعده وبقائها في عقبه ما نذكره ان شاء الله

﴿الخبر عن دخول بني مرين أرض المغرب الاقصى واستيلائهم عليه والسبب في ذلك﴾

كان السبب في دخول بني مرين لهذا القطر المغربي انه لما كانت وقعة العقاب بالاندلس سنة تسع وستمائة وهزم الناصر وهلك الجمهور من حامية المغرب ورعاياه حتى خلت البلاد من أهلها ثم حدث عقب ذلك الوباء العظيم الذي تحيف الناس الا قليلا وهلك الناصر سنة عشر بعدها فبايع الموحدون ابنه يوسف المنتصر وهو يومئذ صبي حدث لا يحسن التدبير وشغلته مع ذلك أحوال الصبا ولذات الملك عن القيام بأمر الرعية فتضافرت هذه الاسباب على الدولة الموحدية فاضعفتها حينها وأمرضتها المرض الذي كان سببا لحينها وكان بنو مرين يومئذ موطنين ببلاد القبلة من زاب افريقية الى سجلماسة يتنقلون في تلك القفار والصحاري لا يدخلون تحت حكم سلطان ولا تنالهم الدولة بهضيمة ولا يؤدون اليها ضريبة كثيرة ولا قليلة ولا يعرفون تجارة ولا حرثا انما شغلهم الصيد وطراد الخيل والغارات على أطراف البلاد وكانت طائفة منهم ينتجعون تخوم المغرب وتلوله زمان الربيع والصيف فيكتالون من أطراف البلاد ما يحتاجون اليه من الميرة ويرعون فيها تلك المدة أنعامهم وشاءهم حتى اذا أقبل فصل الشتاء اجتمع نجعهم بأكرسيف ثم شدوا الرحلة الى بلادهم فكان ذلك دأبهم على مر السنين فلما كانت سنة عشر وستمائة أقبل نجعهم على عادته للارتفاق والميرة حتى اذا أطلوا على المغرب من ثناياه ألفوه قد تبدلت أحواله وبادت خيله ورجاله وفنيت حماته وأبطاله وعريت من أهله أوطانه وخف منها سكانه وقطانه ووجدوا البلاد مع ذلك طيبة المنبت خصيبة المرعى غزيرة الماء واسعة الاكناف فسيحة المزارع متوفرة العشب لقلة راعيها مخضرة التلول والربا بالعدم غاشيها فاقاموا بمكانهم وبعثوا الى اخوانهم فأخبروهم بحال البلاد وما هي عليه من الخصب والأمن وعدم المحامي والمدافع فاغتنموا الفرصة وأقبلوا مسرعين بنجعهم وحللهم وانتشروا في نواحي المغرب وأوجفوا عليها بخيلهم وركابهم واكتسحوا بالغارات والنهب بسيطها ولجأت الرعايا الى حصونها ومعاقلها وتم لهم ما أرادوا من الاستيلاء على بسيط المغرب وسهله وانتجاع مواقع طله ووبله

﴿الخبر عن رياسة الامير أبي محمد عبد الحق بن محيو المريني رحمه الله﴾

لما دخل بنو مرين المغرب كان الامير عليهم يومئذ عبد الحق بن محيو بن أبي بكر بن حمامة بن محمد المريني فكثر عيثهم وضررهم بالمغرب وأعضل داؤهم وتضاعف على الرعية بلاؤهم فرفعت الشكايات بهم الى الخليفة بمراكش وهو يومئذ يوسف المنتصر بن الناصر بن المنصور فجهز لهم جيشا كثيفا من عشرين ألفا وعقد عليه لابي علي بن وانودين وكتب له الى صاحب فاس السيد أبي ابراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن يأمره بالخروج معه لغزو بني مرين والاثخان فيهم وعدم الابقاء عليهم مهما قدر على ذلك واتصل الخبر ببني مرين وهم في جهات الريف وبلاد بطوية فتركوا أثقالهم وعيالهم بحصن تازوطا من أرض الريف وصمدوا الى الموحدين فالتقى الجمعان بوادي نكور فكان الظهور لبني مرين على الموحدين فهزموهم وقتلوهم وامتلأت الايدي من أسلابهم وأمتعتهم ورجع الموحدون الى فاس يخصفون عليهم من ورق النبات المعروف عند أهل المغرب بالمشعلة لكثرة الخصب يومئذ واعتمار الفدن بالزرع وأصناف الباقلى فسميت تلك السنة يومئذ بعام المشعلة وهي سنة ثلاث عشرة وستمائة ثم زحف الامير عبد الحق

فى ذى الحجة من السنة المذكورة بجموع بنى مرين الى رباط تازا حتى وقف بازاء زيتون ابن متونة فخرج عاملها لحربه فى جيش كثيف من الموحدين والعرب والحشد من قبائل تسول ومكناسة وغيرهم فقتلت بنو مرين العامل المذكور وهزموا جيوشه وجمع عبد الحق الاسلاب والخيل والسلاح وقسم ذلك كله فى قبائل بنى مرين ولم يمسك منها لنفسه شيأ وقال لبنيه اياكم أن تأخذوا من هذه الغنائم شيأ فانه يكفيكم منها الثناء والظهور على أعدائكم

﴿حرب بنى مرين مع عرب رياح ومقتل الامير عبد الحق رحمه الله﴾

لما انتصر بنو مرين على أعدائهم الموحدين حصل فى نفوس بنى عسكر بن محمد من عشيرتهم نفاسة عليهم وضاقت صدورهم من استقلال بنى عمهم حمامة بن محمد بالرياسة دونهم فخالفوا الامير عبد الحق وعشيرته الى مظاهرة الموحدين وأوليائهم من عرب رياح وكانت رياح يومئذ أشد قبائل المغرب قوة وأقواهم شوكة وأكثرهم خيلا ورجالا الحدوث عهدهم بالعز والبداوة فأغراهم الموحدون يومئذ ببنى مرين لينتصفوا لهم منهم واتفقت كلمتهم عليهم وسمعت بنو مرين باقبال العرب والموحدين وبنى عسكر اليهم فاجتمعوا الى أميرهم عبد الحق فقالوا والله ماترى فى أمر هؤلاء العرب المقبلين الينا فقال يامعشر مرين أما مادمتم فى أمركم مجتمعين وفى آرائكم متفقين وكنتم على حرب عدوكم أعوانا وفى ذات الله اخوانا فلا أخشى ان ألقى بكم جميع أهل المغرب وان اختلفت أهواؤكم وتشتت آراؤكم ظفر بكم عدوكم فقالوا والله انا نجدد لك الآن بيعة على السمع والطاعة وان لانختلف عليك ولانفر عنك أو نموت دونك فانهض بنا اليهم على بركة الله فنهض الامير عبد الحق فى جموع بنى مرين فكان اللقاء بقربة من وادى سبو على أميال من تافرطاست فكانت بينهم حرب بعد العهد بمثلها وقتل فيها الامير عبد الحق وكبير أولاده ادريس ولما رأت بنو مرين ماوقع باميرها وابنه حميت وغضبت وأقسمت بأيمانها ان لايدفن حتى يأخذوا بثاره فصمموا العزم لقتال رياح واستأنفوا الجد لقراعهم وصبروا وصابروا لا فنصرهم الله على عدوهم فهزموا رياحا وقتلوا منهم خلقا كثيرا وشردوهم فى الشعاب والاودية ورؤس الهضاب واحتووا على ما كان فى محلتهم من السلاح والخيل والاثاث وقام بامر بنى مرين بعد هلاك عبد الحق ابنه عثمان على مانذكره ان شاء الله

﴿بقية أخبار الامير عبد الحق وسيرته﴾

قالوا كان الامير عبد الحق المرينى مشهورا فى قومه بالتقى والفضل والدين موسوما بالصلاح وصحة اليقين معروفا بالورع والعفاف موصوفا فى سيرته بالعدل والانصاف يطعم الطعام ويكفل الايتام ويؤثر المساكين ويحنو على المستضعفين وكانت له بركة معروفة ودعوة مستجابة موصوفة وكانت قلنسوته وسراويله يتبرك بهما فى جميع أحياء زناتة وكانوا يحملون فضلة وضوئه فيستشفون بها لمرضاهم وكان يسرد الصوم فلا يزال صائما طول عمره فى الحر والبرد لا يرى مفطرا الا فى أيام الاعياد كثير الذكر والاوراد لايفترعنها فى سائر الحالات متحريا الاكل الحلال لا يقتات الامن لحوم ابله وألبانها أو ممايعانيه من الصيد معظما فى بنى مرين مطاعا فيهم يقفون عند أمره ولا يصدرون الا عن رأيه

﴿حكى﴾ ابن أبى زرع عمن حدثه من الثقات أنه قدم على أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق فى وفد من أعيان فاس وفقهائها وذلك فى رمضان سنة ثلاث وثمانين وستمائة والامير يعقوب يومئذ برباط الفتح يريد العبور الى الاندلس برسم الجهاد قال فجرى فى مجلسه ذكر والده الامير عبد الحق فقال الامير يعقوب كان الامير عبد الحق رحمه الله صادق القول اذا قال فعل واذا عاهد وفى لم يحلف بالله قط بارا ولا حانثا ولم يشرب مسكرا قط ولا ارتكب فاحشة تضع الحوامل ببركة ازاره متى عسرت عليهن الولادة وكان

يسرد الصوم ويقوم أكثر الليل واذا سمع بخير صالح أو عابد قصد لزيارته واستوهب منه الدعاء شديد الخوف من الصالحين متواضعا لهم وكان مع ذلك سما لاعدائه قاهرا لهم وماوجدنا الا بركته وبركة من دعا له من الصالحين اهـ قالوا وكان الامير عبد الحق فى ابتداء أمره قليل الاولاد فرأى ذات ليلة فى منامه كأن شيأ بال من ذكره فصار بحرا ثم عاد نارا خرجت منه فعلون فى جو المغرب ثم احتوت على جميع أقطاره فكان تأويلها تملك بنيه الاربعة من بعده وهذا مثل الرؤيا التى رآها عبد الملك بن مروان من بوله فى المحراب أربع مرات فكان تأويلها ان ولى الخلافة أربعة من بنيه الوليد وسليمان ويزيد وهشام وكان للامير عبد الحق تسعة من الولد ادريس وهو أكبرهم وقتل معه فى حرب رياح وعثمان ومحمد وأبو بكر ويعقوب وهؤلاء الاربعة هم الذين ولوا الامر بعده وعبد الله وعبد الرحمن ويقال له بلسانهم رحوا وزيان وأبو عياد وبنت هى العاشرة والله أعلم

﴿الخبر عن رياسة الامير أبى سعيد عثمان بن عبد الحق رحمه الله﴾

لما فرغ بنو مرين من حرب رياح وجمعوا من اتباعهم اجتمعوا الى الامير أبى سعيد عثمان بن عبد الحق وكان أكبر بنى أبيه بعد ادريس فعزوه بمصاب أبيه وأخيه وبايعوه عن رضى منهم فاجتمعت عليه كلمتهم ولما فرغ الامير أبو سعيد من تجهيز أبيه وأخيه ودفنهما أقسم أن لا يرجع عن حرب رياح حتى يثأر بمائة شيخ منهم فسار اليهم وأثخن فيهم حتى شفا نفسه وأذعنوا الى الطاعة ولاذوا بالسلم فسالمهم على اتاوة يؤدونها اليه كل سنة ثم ضعفت شوكة الموحدين وتداعى أمرهم الى الاختلال وأشرف ملكهم على ربوة الاضمحلال وتقاصر ظل حكامهم عن البدو جملة وفسدت السابلة واختلط المرعى بالهمل فلما رأى الامير أبو سعيد ما عليه أمر الموحدين من الضعف وما نزل برعايا المغرب من الجور والعسف جمع أشياخ مرين وندبهم الى القيام بامر الدين والنظر فى مصالح المسلمين فاسرعوا الى اجابته وبادروا التلبية دعوته فسار بهم أبو سعيد فى نواحى المغرب يتقرى مسالكه وشعوبه ويتتبع تلوله ودروبه ويدعو الناس الى طاعته والدخول فى عهده وحمايته فمن أجابه منهم أمنه ووضع عليه قدرا معلوما من الخراج ومن أبى عليه نابذه وأوقع به فبايعه من قبائل المغرب هوارة وزكارة ثم تسول ومكناسة ثم بطوية وفشتالة ثم سدراتة وبهلولة ومديونة ففرض عليهم الخراج وفرق فيهم العمال ثم فرض على أمصار المغرب مثل فاس ومكناسة وتازا وقصر كتامة ضريبة معلومة يؤدونها على رأس كل حول على ان يكف الغارة عنهم ويصلح سابلتهم ثم لما كانت سنة عشرين وستمائة غزا بلاد فازاز ومن بها من ظواعن زناتة فأثخن فيهم حتى أذعنوا للطاعة وقبض أيديهم عن اذاية الناس بالغارات والنهب فى الطرقات ثم فى سنة احدى وعشرين بعدها غزا عرب رياح أهل ازغار وبلاد الهبط فأثخن فيهم حتى كاد يأتى عليهم ولم يزل دأبه ذلك من تدويخ بلاد المغرب وأقطاره حتى هلك باغتيال علج له كان رباه صغيرا فشب وسول له الشيطان الفتك به فترصد غرته وطعنه بحربة فى منحره فمات لوقته سنة ثمان وثلاثين وكان ذا نجدة وشجاعة وعزم وكرم وايثار مكرما للفقهاء وأهل الصلاح سالكا فى ذلك سنن أبيه رحمه الله

﴿الخبر عن رياسة الامير أبى معرف محمد بن عبد الحق رحمه الله﴾

لما هلك الامير أبو سعيد قام بالامر بعده أخوه أبو معرف محمد بن عبد الحق فاقتفى سنن أخيه فى تدويخ بلاد المغرب وأخذ الضريبة من أمصاره وجباية المغارم من باديته وبعث الرشيد بن المأمون صاحب مراكش قائده أبا محمد بن وانودين لحرب بنى مرين وعقد له على مكناسة فاجحف باهلها فى المغارم ثم نزل بنو مرين فى بعض الاحيان بنواحيها وأجلبوا عليها فنادى أبو محمد فى عسكره وخرج اليهم فدارت بينهم حرب شديدة هلك فيها خلق من الجانبين وبارز محمد بن ادريس ابن عبد الحق قائدا من قواد الفرنج

فاختلفا ضربتين هلك العلج باحداهما وجرح محمد بالاخرى فاندمل جرحه وصار أثرا فى وجهه لقب من أجله بابى ضربة ثم شدّ بنو مرين على الموحدين فانكشفوا ورجع ابن وانودين الى مكناسة مفلولا وبقى بنو عبد المؤمن أثناء ذلك فى مرض من الايام وتثاقل عن الحماية ثم أومضت دولتهم ايماضة الخمود وذلك انه لما هلك الرشيد بن المأمون سنة أربعين وستمائة وولى أخوه على وتلقب بالسعيد وبايعه أهل المغرب انصرفت عزائمه الى غزو بنى مرين وقطع أطماعهم عما سمت اليه من تملك المواطن فجهز عساكر الموحدين لقتالهم ومعهم قبائل العرب والمصامدة وجموع الفرنج فنهضوا سنة اثنتين وأربعين وستمائة فى جيش كثيف يناهز عشرين ألفا فسمع الامير أبو معرّف باقبالهم فاستعد لقتالهم وزحف اليهم فكان اللقاء بموضع يعرف بصخرة أبى بياش من أحواز فاس فدارت بينهم حرب شديدة وصبر الفريقان ولما كان عشى النهار قتل الامير أبو معرّف بن عبد الحق فى الجولة بيد زعيم من زعماء الفرنج تحامل الافعى فرس أبى معرّف به وأمكنت العلج فيه الفرصة فاغتنمها وطعنه فمات فانهزمت بنو مرين وتبعهم الموحدون فاتخذوا الليل جملا وأسروا طول ليلتهم بحللهم وعيالاتهم وأموالهم فاصبحوا بجبال غمائة من نواحى تازا فاعتصموا بها أياما ثم خرجوا الى بلاد الصحراء وولوا عليهم أبا بكر بن عبد الحق على ما نذكره وكانت هذه الوقعة وهلاك الامير أبى معرّف عشية يوم الخميس تاسع جمادى الآخرة سنة اثنتين وأربعين وستمائة

﴿الخبر عن دولة الامير أبى بكر بن عبد الحق رحمه الله﴾

هذا الامير هو الذى رفع من راية بنى مرين وسما بها الى مرتبة الملك وكنيته أبو يحيى وهو أوّل من جند الجنود منهم وضرب الطبول ونشر البنود وملك الحصون والبلاد واكتسب الطارف والتلاد بايعه بنو مرين بعد مهلك أخيه أبى معرّف فى التاريخ المتقدم فكان أوّل ما ذهب اليه ورآه من النظر لقومه ان قسم بلاد المغرب وقبائل جبايته بين بنى مرين وأنزل كلا منهم بناحية منه سوّغهم اياها سائر الايام طعمة لهم وأمر كل واحد من أشياخ بنى مرين ان يستركب الرجل ويستلحق الاتباع فحسنت حالهم وكثرت غاشيتهم وتوفرت جموعهم

﴿استيلاء الامير أبى بكر على مكناسة وبيعة أهلها لابن أبى حفص بواسطته﴾

ثم سار الامير أبو بكر بحلته فنزل جبل زرهون ودعا أهل مكناسة الى بيعة الامير أبى زكريا بن أبى حفص صاحب افريقية لانه كان يومئذ على دعوته وفى ولايته وحاصرها وضيق عليها بمنع المرافق وترديد الغارات الى ان أذعنوا الطاعة فافتتحها صلحا بداخلة أخيه يعقوب بن عبد الحق لزعيمها أبى الحسن ابن أبى العافية وبعثوا ببيعتهم الى الامير أبى زكريا الحفصى وكانت البيعة من انشاء أبى المطرف بن عميرة المخزومى وكان من أعلام ذلك العصر ومشاهيره وولى القضاء لبنى عبد المؤمن بمدينة سلا ثم استقضوه بعدها بمكناسة فشهد هذه القضية وكتب البيعة ولما فتح الامير أبو بكر مكناسة أقطع أخاه يعقوب ثلث جبايتها جزاء له على وساطته وكان فتح مكناسة سنة ثلاث وأربعين وستمائة ثم آنس الامير أبو بكر من نفسه الاستبداد ومن قبيله الاستيلاء فاتخذ الآلة لذلك وسما بنفسه الى مرتبة الملك وأعد له عدّته وانتهى الخبر الى السعيد صاحب مراكش بتغلب الامير أبى بكر على مكناسة وصرفها لابن أبى حفص فوجم لها وفاوض الملأ من أهل دولته فى أمره وأراهم كيف اقتطع الامر عنهم شيأ فشيأ حتى لم يبق بيدهم الا قرارة مراكش وما حولها بعد امتداد ظل ملكهم على المغربين وافريقية والاندلس ثم نهض السعيد من مراكش سنة خمس وأربعين وستمائة يريد مكناسة وبنى مرين أوّلا ثم تلمسان ويغمراسن ابن زيان ثانيا ثم افريقية وابن أبى حفص آخرا ولما وصل الى وادى بهت عرض جيوشه وميزها واتصل الخبر بالامير أبى بكر وهو بمكناسة فخرج وحده ليلا يتجسس الاخبار ويستطلع أحوال السعيد

وجوعه فتقدم حتى أشرف على محلة السعيد من كثب ولاعلم لاحد به فرأى مالاطاقة له به ورأى من الرأى ان يخلى للسعيد عن البلاد ولايناجزه الحرب فلحق بمكناسة واستدعى بنى مرين من أماكنهم التى عين لهم فتلاحقوا به وساروا الى قلعة تازوطا من بلاد الريف فتحصنوا بها وتقدم السعيد الى مكناسة فتلقاه أهلها خاضعين مستشفعين اليه بشيوخهم وصبيانهم فعفا عنهم ثم سار الى فاس فنزل بظاهرها من ناحية القبلة وخرج اليه أشياخها فسلموا عليه وسألوه الدخول الى البلد فتكرم عنهم وأبى ثم ارتحل الى رباط تازا فنزل بظاهرها وهنالك بعث اليه الامير أبو بكر بيعته فقبلها وكتب له ولقومه بالامان وكان فيما خاطبه به الامير أبو بكر ان قال له ارجع ياأمير المؤمنين الى حضرتك وأنا أكفيك أمر يغمراسن وأفتح لك تلمسان فشاور السعيد خاصته فى ذلك فقالوا لاتفعل ياأمير المؤمنين فان الزناتى أخو الزناتى لايسلمه ولايخذله وانانخاف أن يصطلحا على حربك فأسعفهم وكتب الى الامير أبى بكر يقول له أقم بموضعك وابعث الى بحصة من قومك فأمده بخمسمائة من بنى مرين وعقد عليها الابن عمه أبى عياد بن أبى يحيى بن حمامة وتقدم السعيد الى تلمسان فكان من هلاكه على قلعة تامزردكت ماقدمناه فى أخبار دولته وكان الامير أبو بكر لما نازل حصن تازوطا وأهل ذلك الحصن يومئذهم بنو وطاس بطن من بنى مرين أجمعوا الفتك به غيرة ونفاسة عليه فدس اليه بذلك بعض شيوخهم وأعلمه بما تواطأوا عليه من غدره فارتحل الامير أبو بكر عنهم الى بنى يزناسن وكانوا نازلين يومئذ بعين الصفا فأقام هنالك معهم حتى رجعت اليه الحصة التى كانت مع السعيد وأعلموه بمقتله وافتراق جموعه فانتهز الامير أبو بكر الفرصة فى فل الموحدين واعترضهم بآكرسيف فاستلبهم وانتزع الآلة من أيديهم وأدار اليه كتيبة الفرنج والناشبة من الاغزاز واتخذ المركب الملوكى من يومئذ ثم أغذ السير الى مكناسة فدخلها واستولى عليها وأقام بها أياما ثم نهض الى أعمال وطاط وحصون ملوية فافتتحها ودوخ جبالها وذلك أواخر صفر سنة ست وأربعين وستمائة

﴿استيلاء الامير أبى بكر على فاس وبيعة أهلها له﴾

لما فرغ الامير أبو بكر من فتح حصون ملوية صرف عزمه الى فتح فاس وانتزاعها من يد بنى عبد المؤمن وكان العامل بها يومئذ السيد أبا العباس من بنى عبد المؤمن فأناخ عليها الامير أبو بكر بخيله ورجله وتلطف فى مداخلة أهلها وضمن لهم جميل النظر وحميد السيرة وكف الاذى عنهم فأجابوه ووثقوا بعهده وغنائه وأووا الى ظله وركنوا الى طاعته وانتحال الدعوة الحفصية بأمره ونبذوا طاعة بنى عبد المؤمن بأسامن صريخهم فبايعوه بالرابطة خارج باب الشريعة وحضر هذه البيعة الشيخ أبو محمد الفشتالى ونشده الله على الوفاء بما اشترط على نفسه من النظر لهم والذب عنهم وسلوك طريق العدل فيهم فكان حضوره ملاك تلك العقدة والبركة التى يتعرف أثرها خلفهم فى تلك البيعة ودخل الامير أبو بكر مدينة فاس بزوال يوم الخميس السادس والعشرين من ربيع الآخر سنة ست وأربعين وستمائة بعد موت السعيد صاحب مراكش بشهرين ولما دخل الامير أبو بكر قصبة فاس آمن السيد أبا العباس عامل الموحدين بها وأخرجه من القصبة بعياله وأولاده وبعث معه سبعين فارسا يبلغونه الى مأمنه فاجازوه وادى أم الربيع ورجعوا ثم نهض الامير أبو بكر الى منازلة تازا وبها يومئذ السيد أبو على بن محمد أخو أبى دبوس فنازلها أربعة أشهر حتى نزلوا على حكمه فقتل بعضهم ومن على آخرين منهم وسد ثغورها وأقطع أخاه يعقوب بن عبد الحق رباط تازا وحصون ملوية ورجع الى فاس فأقام بها نحو سنة واستقامت له الامور وقدمت عليه الوفود وأمر القبائل بالنزول فى البسائط وعمارة القرى والمداشر وأمنت الطرقات وتحركت التجار ورخصت الاسعار وصلح أمر الناس واغتبطوا بولايته

انتقاض أهل فاس على الامير أبي بكر ومحاصرته اياهم

لما استولى الامير أبو بكر على المغرب وملك مدينة فاس كما ذكرنا نهض في ربيع الاول سنة سبع وأربعين وستمائة الى معدن العوام من بلاد فازاز لفتح بلاد زناتة وتدويخ نواحيها واستخلف على فاس مولاه السعود بن خرباش من جماعة الحشم أحلاف بني مرين وكان الامير أبو بكر لما افتتح فاسا استبقى من كان فيها من عسكر بني عبد المؤمن من غير نسبهم على الوجه الذي كانوا عليه من الخدمة مع الموحدين وكان من جملتهم طائفة من النصارى نحو المائتين وعليهم قائد منهم يقال له شريد الفرنجي فكانوا من حصة السعود هنالك فوقعت بينهم وبين شيعة الموحدين من أهل فاس مداخلة وعزم الفاسيون على الفتك بالسعود وتحويل الدعوة الى المرتضى فاجتمعوا الى القاضي أبي عبد الرحمن المغيلي وفاوضوه في ذلك فوافقهم على رأيهم فاستدعوا شريدا وقالوا له تقتل هذا الاسود وتضبط البلد حتى نكتب الى المرتضى فيبعث الينا من يقوم بأمرنا فأجابهم الى ذلك وكان ميله الى الموحدين وهواه معهم لكونه صنيعتهم وكان الذي مشى في هذه الثورة وتولى كبرها المشرف ولد القاضي المذكور وابن جشار وأخوه وابن أبي طاط وولده فلما كانت صبيحة يوم الثلاثاء الموفي عشرين من شوال سنة سبع وأربعين وستمائة طلع الاشياخ المذكورون الى القصبة للسلام على السعود على عادتهم في ذلك فدخلوا عليه بمجلس حكمه وهاجوه ببعض المحاورات فغضب وانتهرهم فوثبوا به ونادوا بشعارهم وكان شريد الفرنجي واقفا في عسكره أمام القصبة قد واطأهم على ذلك فاقتحم على السعود فقتله وقتل معه أربعة من رجاله واحتز العامة رأسه ورفعوه على عصا وطافوا به في أسواق البلد وسككها واقتحموا القصر فانتهبوه وسبوا الحرم ونصبوا النصراني لضبط البلد وبعثوا ببيعتهم الى المرتضى صاحب مراكش واتصل الخبر بالامير أبي بكر وهو بمنازل بلاد فازاز فأفرج عنها وأغذ السير الى فاس فأناخ عليها بعساكره وشمر لحصارها وقطع المادة عنها وبعث أهل فاس الى المرتضى بالصريخ فلم يرجع اليهم قولا ولا ملك لهم ضرا ولا نفعا ولا وجد لكشف ما نزل بهم حيلة ولا وجها سوى انه استجاش على الامير أبي بكر يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان وأمله لكشف هذه النازلة عمن انحاش الى طاعته فأجابه يغمراسن الى ذلك وطمع ان يكون ذلك سببا في تملك المغرب وسما الصعود الى ذروة ملكه فاحتشد لحركته ونهض من تلمسان للأخذ بحجزة الامير أبي بكر عن فاس وأهلها واتصل بالامير أبي بكر خبر نهوضه اليه لتسعة أشهر من منازلته فاسا فجمر الكتائب عليها وصمد اليه قبل فصوله عن تخوم بلاده فلقيه بوادي ايسلي من بسيط وجدة فتزاحف القوم وكانت ملحمة عظيمة هلك فيها عبد الحق بن محمد بن عبد الحق بيد ابراهيم بن هشام من بني عبد الواد ثم انكشفت بنو عبد الواد ونجا يغمراسن بن زيان الى تلمسان برأس طمرة ولجام وترك محلته بما فيها فاحتوى عليها الامير أبو بكر وانكفأ راجعا الى فاس للأخذ بمخنقها فوصل اليها في جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وستمائة وأناخ عليها بكلكله واستأنف الجد وأرهف الحد وشدد في الحصار وأيس أهل فاس من اغاثة المرتضى وسقط في أيديهم ورأوا انهم قد ضلوا ولم يجدوا وليجة من دون مراجعة طاعة بني مرين فسألوا الامير أبا بكر الامان فبذله لهم على غرم ما أتلفوا له بالقصر من المال يوم الثورة وقدره مائة ألف دينار فتحملوها وأمكنوه من قياد البلد فدخلها في الثالث والعشرين من الشهر المذكور فأقام بها الى رجب الموالي له وطالبهم بالمال فسوفوه وتلوّوا في المقال فلما رأى ذلك منهم قبض على جماعة من أشياخها وأمنائها وأثقلهم بالحديد وطالبهم بالمال والاثاث الذي انتهبوه من القصر فقال له شيخ يعرف بابن الخبا انما فعل الذنب مناسة فكيف تهلكنا بما فعل السفهاء منا ولو فعل الامير ما أشير به عليه لكان صوابا من الرأي فقال وما ذلك قال تعمد الى هؤلاء النفر الستة الذين سعوا في الفتنة فتأخذ رؤوسهم وتشرد بهم من خلفهم ثم تأخذنا نحن بغرم المال فقال لعمري لقد أصبت ثم أمر بالقاضي المغيلي وابنه

وابن أبي طاط وابنه وابن جشار وأخيه فقتلوا ورفعت على الشرفات رؤسهم وأخذ الباقين بغرم المال طوعا وكرها ﴿قال ابن خلدون﴾ فكان ذلك مما عبد رعية فاس وقادها الاحكام بني مرين وضرب الرهب على قلوبهم فخشعت منهم الاصوات وانقادت منهم الهمم ولم يحدثوا بعدها أنفسهم بغمس يد في فتنة وكان مقتل النفر المذكورين خارج باب الشريعة يوم الاحد الثامن من رجب المذكور

﴿استيلاء الامير أبي بكر على مدينة سلا ثم ارتجاعها منه وهزيمة المرتضى بعد ذلك﴾

لما أكمل الله للامير أبي بكر فتح مدينة فاس واستوسق أمر بني مرين بها رجع الى ما كان فيه من منازلة بلاد فازاز فافتتحها ودوخ أوطان زناتة واقتضى مغارمهم وحسم علل الثائرين بها ثم تخطى ذلك الى مدينة سلا ورباط الفتح سنة تسع وأربعين وستمائة فملكها وتاخم الموحدين بثغرها واستعمل عليها ابن أخيه يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق وعقد له على ذلك الثغر وضم الاعمال اليه وبلغ الخبر بذلك الى المرتضى بمراكش فأهمه الشأن وأحضر الملأ من الموحدين وفاوضهم واعتزم على حرب بني مرين وسرح العساكر سنة خمسين وستمائة فأحاطت بسلا ثم افتتحوها وعادت الى طاعة المرتضى وعقد عليها لابي عبد الله بن يعلو من مشيخة الموحدين ثم أجمع المرتضى النهوض بنفسه الى بني مرين فبعث في المدائن والقبائل حاشرين فاهرعت اليه أمم الموحدين والعرب والمصامدة وغيرهم وفصل من مراكش سنة ثلاث وخمسين وستمائة في نحو الثمانين ألفا وولى السير حتى انتهى الى جبال بهلولة من نواحي فاس وصمد اليه الامير أبو بكر في عساكر بني مرين ومن اجتمع اليهم من ذويهم والتقى الجمعان هنالك وصدقهم بنو مرين الجلاد فاختل مصاف الموحدين وانهزمت عساكر المرتضى وأسلمه قومه ورجع الى مراكش مفلولا واستولى بنو مرين على معسكره واستباحوا سرادقه وانتهبوا فساطيطه وغنموا جميع ما وجدوا بها من المال والذخيرة واستاقوا سائر الكراع والظهر وامتلأت أيديهم من الغنائم واعتز أمرهم وانبسط سلطانهم وكان يوماله ما بعده ﴿وفي القرطاس﴾ ان انهزام جيش المرتضى في هذه المرة كان عن جولان فرس بين أخبيتهم ليلا فحسبوا ان بني مرين قد أغاروا عليهم فانهزموا لا يلوون على شئ والله أعلم ثم غزا الامير أبو بكر بعد هذا بلاد تادلا فاستباح حاميتها من بني جابر عرب جشم واستلحم أبطالهم وألان من حدهم وخضد من شوكتهم وفي خلال هذه الحروب كان مقتل علي بن عثمان بن عبد الحق وهو ابن أخي الامير أبي بكر شعر منه بفساد الدخلة والاجماع للتوثب على الامر فدس لابنه أبي حديد مفتاح ابن أبي بكر بقتله فقتله في جهات مكناسة سنة احدى وخمسين وستمائة والله تعالى أعلم

﴿استيلاء الامير أبي بكر على سجلماسة ودرعة وسائر بلاد القبلة﴾

لما كانت سنة خمس وخمسين وستمائة نهض الامير أبو بكر الى محاربة يغمراسن بن زيان وسمع به يغمراسن فنهض اليه أيضا فكان اللقاء بابي سليط فاقتتلوا وانهزم يغمراسن واعتزم الامير أبو بكر على اتباعه فثناه عن رأيه في ذلك أخوه يعقوب بن عبد الحق لعهد تأكد بينه وبين يغمراسن فرجع ولما انتهى الى القرمدة من أحواز فاس بلغه ان يغمراسن قصد سجلماسة ودرعة لمداخلة كانت له من بعض أهلها وعورة أطمعته في ملكها فاسرع الامير أبو بكر السير بجموعه الى سجلماسة فدخلها قبل وصول يغمراسن اليها بيوم ثم جاء يغمراسن حتى نزل خارجها بباب تاحسنت وسقط في يده ويئس من غلبة الامير أبي بكر عليها ودارت بينهما حرب تكافأ الفريقان فيها وهلك سليمان بن عثمان بن عبد الحق ابن أخي الامير أبي بكر وانقلب يغمراسن الى بلاده وعقد الامير أبو بكر على سجلماسة ودرعة وسائر بلاد القبلة ليوسف بن يزكاسن واستعمل على الجباية عبد السلام الاوربي وجعل مسلحة الجند بها لنظر أبي يحيى القطراني وملكه قيادتهم وانكفأ راجعا الى فاس والله تعالى أعلم

﴿وفاة الامير أبي بكر رحمه الله﴾

لما رجع الامير أبو بكر من حرب يغمراسن على سجلماسة أقام بفاس أياما ثم نهض الى سجلماسة أيضا متفقدا لثغورها فانقلب منها عليلا ووصل الى فاس فتوفي بقصره من قصبتها أواسط رجب سنة ست وخمسين وستمائة ودفن داخل باب الجيزيين من أبواب عدوة الاندلس بازاء الشيخ أبي محمد الفشتالي حسبما أوصى بذلك وتصدى للقيام بالامر بعده ابنه عمر على ما نذكره

﴿الخبر عن دولة أبي حفص الامير عمر بن أبي بكر بن عبد الحق رحمه الله﴾

لما مات الامير أبو بكر رحمه الله اشتمل العامة من بني مرين على ابنه أبي حفص عمر فبايعوه ونصبوه للامر وتبار وا في خدمته ومالت المشيخة وأهل العقد والحل الى عمه يعقوب بن عبد الحق وكان غائبا عند مهلك أخيه بتازا فلما بلغه الخبر أسرع اللحاق بفاس وتوجهت اليه وجوه الاكابر وأحس عمر بميل الناس الى عمه يعقوب فقلق لذلك وأغراه أتباعه بالفتك بعمه فاعتصم بالقصبة ثم سعى الناس في الاصلاح بينهما فتفادى يعقوب من الامر ودفعه الى ابن أخيه على ان تكون له بلاد تازا وبطوية وملوية التي كان أقطعه اياها أخوه من قبل فانفصلوا على ذلك وخلص الامر لعمر واستقر بفاس أشهرا الى ان غلب عليه عمه المذكور حسبما نقص عليك

﴿الخبر عن دولة السلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق رحمه الله﴾

هذا السلطان جليل القدر عظيم الشان وهو سيد بني مرين على الاطلاق وستسمع من أخباره الحسنة ما يستغرق الوصف ويستوقف السمع والطرف وهو رابع الاخوة الاربعة الذين ولوا الامر بالمغرب من بني عبد الحق وكانت أمه واسمها أم اليمن بنت على البطوي رأت وهي بكر كأن القمر خرج من قبلها حتى صعد الى السماء وأشرق نوره على الارض فقصت رؤياها على أبيها فسار الى الشيخ الصالح أبي عثمان الورياكلي فقصها عليه فقال ان صدقت رؤياها فستلد ملكا عظيما فكان كذلك ولما انفصل الامير يعقوب بن عبد الحق عن ابن أخيه عمر بولاية تازا وما أضيف اليها اجتمع اليه كافة بني مرين وعذلوه فيما كان منه من التخلي عن الملك وحملوه على العود في الامر ووعدوه من أنفسهم المظاهرة والنصر الى ان يتم أمره فاجاب وبايعوه وصعد الى فاس فبرز الامير عمر للقائه ولما تراآ الجمعان خذل عمر جنوده وأسلموه فرجع الى فاس مفلولا ووجه الرغبة الى عمه أن يقطعه مكناسة وينزل له عن الامر فأجابه الى ذلك ودخل السلطان يعقوب مدينة فاس فملكها سنة سبع وخمسين وستمائة ونفذت كلمته في بلاد المغرب ما بين ملوية وأم الربيع وما بين سجلماسة وقصر كتامة واقتصر عمر على امارة مكناسة فتولاها أياما ثم اغتاله بعض عشيرته فقتلوه لنحو سنة من امارته فكفي الامير يعقوب أمره واستقام سلطانه وذهب التنازع والشقاق عن ملكه وكان يغمراسن بن زيان لما سمع بموت قرنه الامير أبي بكر سما له أمل في الاجلاب على المغرب فجمع لذلك قومه من بني عبد الواد واستظهر ببني توجين ومغراوة ووعدهم ومناهم وأطمعهم في غيل الاسد ثم نهض بهم الى المغرب حتى اذا انتهوا الى كلدامان صمد اليهم الامير يعقوب فلقيهم وردهم على أعقابهم ومر يغمراسن في طريقه بتافرسيت من بلاد بطوية فاحرقوا وانتسفوا واستباحوا وأعظم النكاية ورجع الامير يعقوب الى فاس واقتفى مذهب أخيه الامير أبي بكر في فتح أمصار المغرب وتدويخ أقطاره وكان مما أكرمه الله به ان فتح أمره باستنقاذ مدينة سلا من أيدي نصارى الاصبنيول فكان له بها أثر جميل وذكر خالد رحمه الله

﴿استيلاء نصارى الاصبنيول على مدينة سلا وايقاع السلطان يعقوب بهم وطردهم عنها﴾

كان يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق قد استعمله عمه الامير أبو بكر بن عبد الحق على مدينة سلا لما ملكها

كما ذكرناه ولما استرجعها الموحدون من يده أقام يتقلب في جهاتها مترصدا للفرصة وأمكنته فيها ولما بويع عمه السلطان يعقوب بن عبد الحق أسخطته بعض الاحوال منه فذهب مغاضبا حتى نزل عين غبولة وألطف الحيلة في تملك رباط الفتح وسلا ليعتد بهما ذريعة لما أسر في نفسه من التوثب على الامر فتمت له الحيلة وملك سلا وركب عاملها أبو عبد الله بن يعلو البحر فارا الى آزمور وخلف أمواله وحرمه فتملك يعقوب بن عبد الله ذلك وتمكن من البلد وجاهر بالخلع وصرف الى منازعة عمه السلطان يعقوب وجوه العزم وتمكنت الوحشة بين اليعقوبين وداخل يعقوب سلا تجار الحرب من الاصبنيول في الامداد بالسلاح فتبار وا في ذلك وكثرت سفن المترددين منهم اليها حتى كثروا أهلها وزاد عددهم فعزموا على الثورة بها واهتبلوا فيها غرة عيد الفطر من سنة ثمان وخمسين وستمائة عند اشتغال الناس بعيدهم وثار وا بسلا في اليوم الثاني من شوال فوضعوا السيف في أهلها وقتلوا الرجال وسبوا الحرم وانتهبوا الاموال وكان الحادث بها عظيما وضبطوا البلد وتحصن يعقوب بن عبد الله برباط الفتح وطار الصريخ الى السلطان يعقوب بن عبد الحق وهو يومئذ بمدينة تازا دخلها أوائل شعبان من السنة المذكورة لاستشراف أحوال يغمراسن بن زيان فوصل اليه الخبر في اليوم الرابع من شوال المذكور فنهض السلطان يعقوب من فوره بعد ان صلى العصر بتازا من ذلك اليوم فاسرى ليلته تلك في نحو الخمسين فارسا ومن الغد صلى العصر بظاهر سلا فكان قطعه مسافة ما بينهما في يوم وليلة وهذا أمر خارق للعادة بلا شك أظهره الله على يد هذا السلطان اصدق عزمه وحسن نيته والا فالمسافة ما بين تازا وسلا ست مراحل أو أكثر ثم تلاحقت به جيوش المسلمين من القبائل والمتطوعة من جميع آفاق المغرب فحاصر النصارى بها وضيق عليهم ووالى القتال عليهم بالليل والنهار حتى اقتحمها عليهم عنوة لاربع عشرة ليلة من حصارها وأثخن فيهم بالقتل ونجا من نجا منهم الى سفنهم فنشر واقلاعهم وذهبوا يلتفتون وراءهم ثم شرع السلطان يعقوب رحمه الله في بناء السور الغربي من سلا الذي يقابل الوادي منها فانها كانت لا سور لها من تلك الجهة من أيام عبد المؤمن بن علي فانه كان قد هدم أسوار قواعد المغرب مثل فاس وسبتة وسلا حسبما قدمنا الخبر عنه في دولته ومن هذه الثلمة كان دخول النصارى الى سلا فشرع السلطان يعقوب رحمه الله في بنائه فبناه من أول دار الصناعة قبلة الى البحر جوفا وكان رحمه الله يقف على بنائه بنفسه ويناول الحجر بيده ابتغاء ثواب الله وتواضعا وسعيا في صلاح المسلمين حتى تم السور المذكور على أحسن وجه وأكمله ودار الصناعة المذكورة في هذا الخبر هي الدار التي كانت تصنع بها الاساطيل البحرية والمراكب الجهادية يجلب اليها العود من غابة المعمورة فتصنع هنالك ثم ترسل في الوادي وكان ذلك من الامر المهم في دولة الموحدين حسبما سلف ﴿قال في الجذوة﴾ دار الصناعة بسلا بناها المعلم أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن الحاج من أهل اشبيلية وكان من العارفين بالحيل الهندسية ومن أهل المهارة في نقل الاجرام ورفع الاثقال بصيرا باتخاذ الآلات الحربية الجافية اه وأما يعقوب ابن عبد الله الثائر فانه خشي بادرة السلطان يعقوب بن عبد الحق فخرج من رباط الفتح وأسلمه فضبطه السلطان وثقفه ثم نهض الى بلاد تامسنا فاستولى عليها وملك مدينة آنفى وهي المسماة الآن بالدار البيضاء فضبطها ولحق يعقوب بن عبد الله بحصن علودان من جبال غمارة فامتنع به وسرح السلطان ابنه أبا مالك عبد الواحد وعلي بن زيان لمنازلته وسار هو الى لقاء يغمراسن فلقيه وعقد معه المهادنة وافترقا على السلم ووضع أوزار الحرب ورجع السلطان الى المغرب فخرج عليه بنو أخيه ادريس على ما نذكره

﴿خروج بني ادريس بن عبد الحق على عمهم السلطان يعقوب بن عبد الحق رحمه الله﴾

قد تقدم لنا ان الامير عبد الحق المريني كان له تسعة من الولد أكبرهم ادريس وقتل مع والده في حرب رياح وكان لادريس هذا عدة أولاد بقوا في كفالة أعمامهم ولما أفضى الامر الى السلطان يعقوب كان

أولاد ادريس قد ملكوا أمر أنفسهم واشتدت شكيمتهم فنفسوا عليه ما آتاه الله من الملك ورأوا أنهم أحق به منه لان أباهم هو الاكبر من ولد عبد الحق كما مرّ فخرجوا على عمهم يعقوب ولحقوا بقصر كتامة وتابعوا ابن عمهم يعقوب بن عبد الله على رأيه واجتمعوا الى كبيرهم محمد بن ادريس بن عبد الحق وانضم اليهم من كان على رأيهم من عشيرتهم ومواليهم واعتصموا بجبال غمارة فنهض اليهم السلطان يعقوب وتلطف بهم حتى استنزلهم واسترضاهم وعقد لعامر بن ادريس منهم سنة ستين وستمائة على عسكر من ثلاثة آلاف فارس أو يزيدون من المتطوعة من بني مرين وأغزاهم الاندلس لجهاد العدو وبها وجاهم وفرض لهم في العطاء وشفع بهذه الفعلة الحسنة عمله في واقعة سلا وهو أول جيش عبر البحر الى الاندلس من بني مرين فكان لهم في الجهاد والمرابطة مواقف مذكورة ومقامات محمودة تبع الخلف فيها السلف ودام ذلك فيهم برهة من الدهر وقاموا عن أهل المغرب والاندلس بهذا الواجب العظيم رحمهم الله وجزاهم عن المسلمين خيرا * وأما يعقوب بن عبد الله صاحب سلا فانه أقام خارجا بالنواحي متنقلا في الجهات الى ان قتله طلحة بن محلي من أولياء السلطان يعقوب على ساقية غبولة من ناحية رباط الفتح سنة ثمان وستين وستمائة فكفي السلطان يعقوب أمره

﴿حصار السلطان يعقوب حضرة مراكش ونزوع أبي دبوس منها اليه وهلاك المرتضى بعد ذلك﴾

لما فرغ السلطان يعقوب من شأن الخارجين عليه من عشيرته أجمع رأيه لمنازلة المرتضى والموحدين في دارهم وحضرتهم ورأى انه أوهن لشوكتهم وأقوى لامره عليهم فبعث في قومه واحتشد أهل مملكته واستكمل التعبية وسار سنة ستين وستمائة حتى انتهى الى جبل جيليز فشارف دار الخلافة ونزل بعقرها وأخذ بمخنقها وخفقت ألويته على جنباتها وعقد المرتضى على حربه لابي دبوس ادريس بن محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن فعبا كتائبه ورتب مصافه وبرز لمدافعتهم ظاهر الحضرة فكانت بينهم حروب بعد العهد بمثلها هلك فيها الامير عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق ففت مهلكه في عضدهم وارتحلوا عنها الى أعمالهم واعترضتهم عساكر الموحدين بوادي أم الربيع وعليهم يحيى بن عبد الله بن وانودين فاقتتلوا في بطن الوادي وانهزمت عساكر الموحدين هزيمة شنعاء وتركوا الاموال والاثاث فاحتوى بنو مرين على ذلك كله وهي واقعة أم الرجلين ثم سعى سماسرة الفتن عند الخليفة المرتضى في ابن عمه وقائد حربه أبي دبوس بانه يطلب الامر لنفسه وشعر هو بالسعاية في جانبه فخشي بادرة المرتضى ولحق بالسلطان يعقوب سنة احدى وستين وستمائة عند دخوله الى فاس من محاصرته مراكش فأقام عنده مليا ثم سأله الاعانة على أمره بعسكر يمده به وآلة يتخذها الملكه ومال يصرفه في ضرورياته على ان يشركه في الفتح والغنيمة والسلطان فامده السلطان يعقوب بخمسة آلاف من بني مرين وبالمستجاد من الآلة والكفاية من المال وأهاب له بالعرب والقبائل من أهل مملكته وغيرهم ان يكونوا معه يدا واحدة حتى يبلغ مراده من فتح مراكش وسار أبو دبوس في الكتائب حتى شارف الحضرة ودس الى أشياعه من الموحدين بأمره فثار وا بالمرتضى فكان من فراره الى آزمور ونزوله على صهره ابن عطوش ومقتله على يده ما قدمناذكره في دولته واستتب أمر أبي دبوس بمراكش وثبت قدمه بها فبعث اليه السلطان في الوفاء بالمشارطة فاستنكف واستكبر ونقض العهد وأساء الرد فنهض اليه السلطان يعقوب في جموع بني مرين وعساكر المغرب بنخام عن اللقاء واعتصم بالاسوار فزحف اليه السلطان يعقوب وحاصره أياما ثم سار في الجهات والنواحي يحطم الزروع وينسف الاقوات وعجز أبو دبوس عن مدافعته فاستجاش عليه بيغمراسن ابن زيان ليفت في عضده ويشغله عما أمامه عما وراءه فكان ما نذكره

﴿وقعة تلاغ بين يعقوب بن عبد الحق ويغمراسن بن زيان﴾

لما نازل السلطان يعقوب حضرة مراكش وربض على ترائبها للتوثب عليها لم يجد أبو دبوس ملجأ من دون الاستظهار عليه بيغمراسن بن زيان لما أخذ بحجزته عنها فبعث اليه بالصريخ فى ذلك وأكد العهد وأسنى الهدية فشمر يغمراسن لاستنقاذه وجذب السلطان يعقوب عنه من خلفه بشن الغارات على ثغور المغرب وايقاد نار الفتنة بها فهاج عليه من السلطان يعقوب ليث عاديا وأرهف منه حدا ماضيا فأفرج للوقت عن مراكش ورجع عوده على بدئه يريد تلمسان وصاحبها يغمراسن بن زيان فنزل فاسا وتلوم بها أياما حتى أخذ أهبة الحرب وعدة النزال ثم نهض الى تلمسان منتصف محرم سنة ست وستين وستمائة وسلك على آكرسيف ثم على تافرطاست وتزاحف الفريقان بوادى تلاغ وعبا كل منهما كتائبه ورتب مصافه وبرز النساء فى القباب سافرات على سبيل التحريش والتحريض والتحم القتال وطال القراع والنزال ولما فاء الفيء ومال النهار وكثرت حشود بنى مرين جموع بنى عبد الواد ومن اليهم انكشفوا ومنحوا العدو أكتافهم وهلك فى الحومة أبو حفص عمر بن يغمراسن بن زيان وكان كبير أولاده وولى عهده وهلك معه جماعة من عشيرته ولما انهزم بنو عبد الواد بقى يغمراسن فى ساقتهم حاميا لهم من بنى مرين أن تركبهم من خلفهم فكان رداء لهم الى ان وصلوا الى بلادهم وكانت وقعة تلاغ يوم الاثنين الثانى عشر من جمادى الاخيرة من السنة المذكورة ورجع السلطان يعقوب الى مكانه من حصار مراكش والله غالب على أمره

فتح حضرة مراكش ومقتل أبى دبوس وانقراض دولة الموحدين بها

لما قفل السلطان يعقوب من حرب يغمراسن صرف عزمه الى غزو مراكش والعود الى حصارها كما كان أول مرة فنهض اليها من فاس فى شعبان سنة ست وستين وستمائة ولما عبر وادى أم الربيع بث السرايا وشن الغارات وأطلق الاعنة والايدى للنهب والعيث فحطم زروعها وانتسف آثارها وتقرى نواحيها كذلك بقية عامه ثم غزا عرب الخلط من جشم بتادلا فأثخن فيهم واستباحهم ثم نزل وادى العبيد فأقام هنالك أياما ثم غزا بلاد صنهاجة فاستباحها ولم يزل ينقل ركابه فى أحواز مراكش ويجوس خلالها الى آخر ذى القعدة من سنة سبع وستين وستمائة فاجتمع أشياخ القبائل من العرب والمصامدة عند أبى دبوس وقالوا له يا مولانا كم تقعد عن حرب بنى مرين وقد ترى ما نزل بنا فى حريمنا وأموالنا منهم فاخرج بنا اليهم لعل الله يجعله سبب الفتح فانهم قليلون وجمهورهم وذوو الشوكة منهم قد بقوا برباط تازا لحراسة ذلك الثغر من بنى عبد الواد ولم يزالوا يفتلون له فى الذروة والغارب حتى أجابهم الى رأيهم فاستعد للحرب وبرز من حضرة مراكش فى جيوش ضخمة وجموع وافرة فاستجره السلطان يعقوب بالفرار أمامه ليبعد عن مدد الصريخ فيستمكن منه فلم يزل أبو دبوس يسعى خلفه حتى نزل ودغفوا فحينئذ كر عليه السلطان يعقوب فالتحمت الحرب واختل مصاف أبى دبوس وفر يسابق الى مراكش وأين منه مراكش فأدركته الخيول وحطمته الرماح فخر صريعا واحتز رأسه وجىء به الى السلطان يعقوب فسجد شكرا لله تعالى وذلك يوم الاحد ثانى محرم سنة ثمان وستين وستمائة ثم تقدم السلطان يعقوب نحو مراكش وفر من كان بها من الموحدين الى تينملل وبايعوا اسحق أخا المرتضى فبقى ذبالة هنالك الى ان قبض عليه سنة أربع وسبعين وستمائة وجىء به فى جماعة من قومه الى السلطان يعقوب فقتلوا جميعا وانقرض أمر بنى عبد المؤمن والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين * ثم خرج الملأ وأهل الشورى من الحضرة الى لقاء السلطان يعقوب ففرح بهم وأمنهم ووصلهم ودخل مراكش فى عسكر ضخم وموكب فخم يوم الاحد التاسع من محرم المذكور وورث ملك آل عبد المؤمن وتملاه واستوسق أمره بالمغرب وتطامن الناس لبأسه وسكنوا لظل سلطانه وأقام بمراكش الى رمضان من سنته ثم أغزا ابنه الامير أبا مالك عبد الواحد بن يعقوب بلاد السوس فافتتحها وأوغل فى ديارها ودوخ أقطارها

ورجع الى أبيه واستمر السلطان يعقوب بمراكش يصلح شؤنها الى رمضان من سنة تسع وستين وستمائة فخرج بنفسه الى بلاد درعة فاوقع بعربها الوقيعة المشهورة التى خضدت من شوكتهم ورجع لشهرين من غزاته ثم أجمع الرحلة الى دار ملكه بفاس فعقد على مراكش لمحمد بن على بن يحيى من كبار أوليائهم ومن أهل خؤلته وكان من طبقة الوزراء وأنزله بقصبة مراكش وجعل المسالح فى أعمالها النظره وعهد اليه بتدويخ الاقطار ومحو آثار بنى عبد المؤمن وفصل من مراكش قاصدا حضرة فاس فى شوال من السنة المذكورة والله تعالى أعلم

مراسلة السلطان أبى عبد الله محمد المستنصر بالله الحفصى للسلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق رحمهما الله

كانت دولة بنى أبى حفص أصحاب تونس وافريقية فرعا من دولة بنى عبد المؤمن وشعبة منها حسبما نبهنا عليه غير مرة ولما ضعفت دولة بنى عبد المؤمن بمراكش والمغرب كان صاحب افريقية أبو زكريا يحيى ابن عبد الواحد الهنتاتى يأمل الاستيلاء عليها والتملك لها ويتمنى ذلك لوساعده القدر لانه كان يرى انه أولى بتلك الحضرة من غيره حتى من بنى عبد المؤمن لانها أرض سلفه وموطن أصله وعشيرته لان عمالة مراكش لم تعرف الا للمصامدة من قديم الزمان وقبيلة هنتاتة هى صميمها وذؤابتها فلهذا ونحوه كان بنو أبى حفص يتطاولون الى ملك مراكش ولما تغلب بنو مرين بالمغرب وغلبوا على الكثير من ضواحيه كانوا يدعون الى أبى زكريا الحفصى تأليفا لاهل المغرب واستجلابا لمرضاتهم واتيانا لهم من ناحية أهوائهم اذ كانت صبغة الدعوة الموحدية قد رسخت فى قلوبهم فلودعوا الى غيرها من أول الامر لحاصوا عنها حيصة حمر الوحش ولما لم يمكن بنى مرين ان يدعوا الى بنى عبد المؤمن لانهم أقتالهم واياهم ينازعون ولهم يحاربون ويجالدون دعوا الى طاعة الحفصيين الذين هم فرع منهم والدعوة الى الفرع كالدعوة الى أصله فلم تنفر نفوس أهل المغرب عنها وانما كان بنو مرين يسرون من ذلك حسوا فى ارتغاء ولهذا لما استقل السلطان يعقوب بالامر وتمكن له السلطان بالمغرب قطع دعوة الحفصيين حالا بعد ان كان أولا يدعو اليها هو واخوته من قبله وكان بنو أبى حفص ينشطون لذلك ويمدون بنى مرين ويمدونهم بالمال والسلاح وغير ذلك ولما عزم السلطان يعقوب على منازلة مراكش كتب الى أبى عبد الله محمد المستنصر بالله بن أبى زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص يخبره بذلك ويستمده حتى كأنه نائب عنه لاغير وأرسل بكتابه مع ابن أخيه عامر بن ادريس بن عبد الحق فى جماعة من وجوه دولته فاكرم المستنصر وفادتهم ثم لما فتح السلطان يعقوب مراكش واستولى عليها بعث اليه المستنصر بهدية فيها من أصناف الخيل الجياد والسلاح والثياب الرفيعة ما اختاره واستحسنه وبعث بذلك مع جماعة من وجوه دولته أيضا وفيهم الكاتب أبو عبد الله محمد الكنانى فتلطف الكاتب المذكور فى ذكر المستنصر على منبر مراكش حتى تم له ذلك بمحضر وفد الموحدين فعظم سرورهم وانقلبوا الى صاحبهم بالخبر واتصلت المودة والمهاداة بين المستنصر والسلطان يعقوب سائر أيامهم ولما هلك المستنصر وبويع ابنه أبو زكريا يحيى المدعو بالواثق اقتفى سنن أبيه فى ذلك فبعث الى السلطان يعقوب بهدية حافلة مع قاضى بجاية أبى العباس الغمارى سنة سبع وسبعين وستمائة فعظم موقعها من السلطان يعقوب وكان لابى العباس الغمارى هذا بالمغرب ذكر تحدث الناس به دهرا وقطع السلطان يعقوب لاول أمره الدعوة الى الحفصيين كما قلنا والله تعالى أعلم

عقد السلطان يعقوب ولاية العهد لابنه أبى مالك بسلاو وما نشأ عن ذلك من خروج قرابته عليه

كان السلطان يعقوب حين خرج من مراكش بعد فتحها قاصدا حضرة فاس دار ملك بنى مرين اجتاز

عدينة سلا فاراح بها أياما فطرقه مرض وعك منه وعكا شديدا فلما أبل من مرضه جمع قومه وعقد العهد لاكبر أولاده أبي مالك عبد الواحد بن يعقوب لما علم من أهليته لذلك وأخذ له البيعة عليهم جميعا فاعطوها طواعية وعز ذلك على القرابة من بني عبد الحق وهم أولاد سوط النساء بنو ادريس بن عبد الحق وبنو عبد الله بن عبد الحق وبنو رحو ابن عبد الحق وانما قيل لهم أولاد سوط النساء لان هؤلاء الثلاثة من بني عبد الحق كانوا أشقاء أمهم اسمها سوط النساء فلما بايع السلطان يعقوب لابنه أبي مالك بولاية العهد آسفهم ذلك لانهم كانوا يرون انهم أحق بالامر حسبما سلف فارتدوا على أعقابهم وقلبوا لعمهم ظهر المجن وعادت هيف الى أديانها واسرواّ من ليلتهم من سلا ولم يصحبوا الا بجبل علودان من بلاد غمارة عش خلافهم ومدرج فتنتهم وكان ذلك في عيد الفطر من سنة تسع وستين وستمائة وانضم اليهم بنو أبي عياد بن عبد الحق وشايعوهم على رأيهم فخرج السلطان يعقوب في أثرهم وقدم بين يديه ابنه الامير يوسف بن يعقوب في خمسة آلاف فاحاط بهم وأخذ بمخنقهم ولحق به أخوه أبو مالك في عسكره ومعه مسعود بن كانون شيخ سفيان ثم لحق بهم السلطان يعقوب في عساكره فحاصروهم ثلاثا ولما رأوا ان قد أحيط بهم سألوا الامان فبذله لهم وأنزلهم ومسح صدورهم واسترضاهم واستل سخائمهم ووصل بهم الى حضرته فسألوا منه الاذن في اللحاق بتلمسان حياء مما ارتكبوه من الخلاف فاذن لهم فاجازوا البحر الى الاندلس وخالفهم عامر بن ادريس لما آنس من ميل عمه اليه فبقي بتلمسان حتى توثق لنفسه بالعهد وعاد الى قومه بعد منازلة السلطان يعقوب لتلمسان حسبما نذكره عن قريب ﴿قال ابن خلدون﴾ واحتل هؤلاء القرابة من بني عبد الحق بارض الاندلس على حين أقفر من الحامية جوها واستأسد العدو على ثغورها وتحلبت شفاهه لالتهامها فتبوؤها أسودا ضارية وسيوفا ماضية معودين اقاء الابطال وقراع الحتوف والنزال مستغلظين بخشونة البداوة وصرامة العز وبسالة التوحش فعظمت نكايتهم في العدو واعترضوا في صدره شجى دون الوطن الذي كان طعمة له في ظنه وارتدوه على عقبه ونشطوا من هم المسلمين المستضعفين وراء البحر وبسطوا من آمالهم لمدافعة طاغيتهم وزاحموا أمير الاندلس في رياستها بمنكب قوي فتجافى لهم عن خطة الحرب ورياسة الغزاة من أهل العدوة من أعياصهم وغيرهم من أمم البربر وتأنقوه في مستقر عزه وساهموه في الجباية بفرض العطاء والديوان فبذله لهم واستعدوا على العدو وحسن أثرهم فيه حسبما نلم بالبعض من ذلك ان شاء الله

﴿هجوم النصارى على العرائش وتيشمس من ثغور المغرب﴾

لما كان المحرم من سنة ثمان وستين وستمائة هجم النصارى على مدينة العرائش وتيشمس من ثغور العدوة المغربية فقتلوا رجالها وسبوا نساءها وانتهبوا أموالها وأضرموها نارا ورجعوا عودهم على بدءهم فركبوا أجفانهم ولحقوا ببلادهم ولم تنلهم شوكة السلطان يعقوب لانه كان مشغولا بفتح مراكش في التاريخ المذكور ولم يبين في القرطاس هؤلاء النصارى من هم

﴿وقعة ايسلي بين السلطان يعقوب بن عبد الحق ويغمراسن بن زيان﴾

لما أنعم الله على السلطان يعقوب بامتداد ظل ملكه في أقطار المغرب ونواحيه ونفوذ كلمته في حواضره وبواديه وتم له الصنع بفتح مراكش ووراثة كرسي بني عبد المؤمن بها وعاد الى فاس كما قلنا تحرك ما كان في نفسه من ضغائن يغمراسن بن زيان وما آسفه به من تخذيل عزائمه ومجاذبته عن قصده ورأى ان وقعة تلاغ لم تنسف صدره ولا أطفأت نار موجدته فاجمع أمره لغزوه ونشطه لذلك ما صار اليه من الملك وسعة السلطان فحشد جميع أهل المغرب وعزم على استئصاله وقطع دابره فعسكر بفاس وبعث ولده أبا مالك الى مراكش في جماعة من خواصه حاشرين في صدائها وضواحيها فاجتمع عليه من

قبائل العرب والمصامدة وصنهاجة وبقايا عساكر الموحدين بالحضرة وحامية الامصار من جند الفرنج وناشبة الغز واستكثر من ذلك كله واحتفل السلطان يعقوب بفاس كذلك ثم نهض منها غرة صفر سنة سبعين وستمائة فسار حتى نزل وادي ملوية فاقام عليه اياما حتى لحقه ابنه أبو مالك في جموعه وتوافت لديه أمداد العرب من قبائل جشم أهل تامسنا الذين هم سفيان والخلط والعاصم وبنو جابر ومن معهم من الاثبج وقبائل ذوي حسان والشبانات من معقل أهل السوس الاقصى وقبائل رياح أهل ازغار وبلاد الهبط فعرض هنالك عساكره وميزها ورتبها فيقال انها بلغت ثلاثين ألفا وارتحل يريد تلمسان ولما انتهى الى انكاد قدمت عليه رسل ابن الاحمر ووفد أهل الاندلس يستصرخونه على العدو ويسألونه الاعانة والنصر ويخبرونه بانه قد كلب عليهم وشره لالتهام بلادهم فتحركت همته رحمه الله للجهاد ونصر المسلمين واغاثة المستضعفين منهم ونظر في صرف الشواغل عن ذلك وجنح للسلم مع يغمراسن وعزم عليها واستشار الملأ من أشياخ العرب وبني مرين في ذلك فصوبوا رأيه لما كانوا عليه أيضا من ايثار الجهاد ومحبته فبعث السلطان يعقوب جماعة من أشياخ القبائل الى يغمراسن يدعونه الى الصلح واجتماع الكلمة وقال لهم في جملة قوله ان الصلح خير كله فان جنح يغمراسن اليه وأناب فذاك والا فاسرعوا الي بالخبر فسارت الاشياخ الى يغمراسن فوافوه بظاهر تلمسان وقد أخذ أهبته واستعد للقاء واحتشد قبائل زناتة المجاورين له في تلك البلاد من بني عبد الواد وبني راشد وأحلافهم ومغراوة من عرب بني زغبة فبلغوه الرسالة وعرضوا عليه مقالة السلطان يعقوب فأبى واستكبر وصم عن سماع قولهم وموعظتهم وقال أبعد مقتل ولدي أصالحه والله لا كان ذلك أبدا حتى آخذ بثأره وأذيق أهل المغرب النكال من أجله فرجعت الرسل الى السلطان يعقوب بالخبر وتزاحف الفريقان فكان اللقاء على وادي ايسلي من بسيط وجدة وعبأ السلطان يعقوب كتائبه ورتب مصافه وجعل ابنه عبد الواحد في الميمنة وابنه يوسف في الميسرة ووقف هو في القلب ودارت بينهم رحى الحرب وركدت مليا وهلك في الحومة أبو عنان فارس بن يغمراسن بن زيان في جماعة من بني عبد الواد وهلك عامة عسكر الفرنج الذين كانوا معهم لثباتهم بثبات يغمراسن فطحنتهم رحى الحرب وتقبض على قائدهم برنيس وانهزم الباقون ونجا يغمراسن في فله حاميا لهم ومدافعا عنهم من خلفهم ومر في هزيمته بفساطيطه فأضرمها نارا تفاديا من معرة استيلاء العدو عليها وانتهبت بنو مرين باقي معسكره واستبيحت حرمه وارتحل السلطان يعقوب من الغد في أثره حتى اذا انتهى الى وجدة وقف عليها فأمر بهدمها فتسارعت أيدي الجند اليها وجعلوا عاليها سافلها وألصقوا بالرغام جدرانها وتركوها قاعا صفصفا وكانت هذه الوقعة منتصف رجب من سنة سبعين وستمائة ثم تقدم الى تلمسان فنزل عليها وحاصرها أياما وأطلق الايدي في ساحتها بالنهب والعيث ثم شن الغارات على البسائط فاكتسحها سبيا ونسفها نسفا وهلك في طريقه الى تلمسان وزيره عيسى بن ماساي وكان من عليه وزرائه وحماة ميدانه وله في ذلك أخبار مذكورة وكان مهلكه في شوال من السنة المذكورة وقدم عليه وهو محاصر لتلمسان الامير أبو زيان محمد بن عبد القوي بن العباس ابن عطية كبير بني توجين من زناتة في جيش كثيف من قومه مباهيا بنوده وطبوله وآلة حربه وكان قدومه هذا بقصد مظاهرة السلطان يعقوب على يغمراسن وتلمسان لعداوة كانت بينهما فأكرم السلطان يعقوب وفادته واستركب الناس للقائه واتخذ زينة السلاح لمباهاته واستمر الحصار على تلمسان وعظمت نكاية بني توجين فيها بتخريب الرباع وانتساف الجنات وقطع الثمار وافساد الزرع وتحريق القرى والضياع لما كان يغمراسن يعاملهم في بلادهم بمثل ذلك أو أكثر ولما امتنعت تلمسان على السلطان يعقوب وأيس من فتحها لحصانتها واشتداد شوكة حاميتها عزم على الافراج عنها وأشار على الامير محمد بن عبد القوي بالقفول الى مأمنه قبل ان ينهض هو عن تلمسان وصله وقومه وملأ حقائبهم من

التحف وجنب لهم مائة من الخيل المقربات الجياد بمراكبها وأراح عليهم ألف ناقة حلوب وعمهم بالخلع الفاخرة والصلات الوافرة واستكثر لهم من السلاح والفازات والفساطيط وحملهم على الظهر وارتحلوا الى منجاتهم ومقرهم من جبل وانشريس وتلوم السلطان يعقوب عليهم أياما ريثما وصلوا حذرا عليهم من يغمراسن أن ينتهز الفرصة فى اتباعهم ثم أقلع السلطان عن تلمسان وثنى عنانه الى المغرب فوصل الى رباط تازا فى أول يوم من ذى الحجة من السنة المذكورة فعيد بها عيد النحر ثم ارتحل الى فاس فدخلها فاتح سنة احدى وسبعين وستمائة فأقام بها الى اليوم الحادى عشر من صفر فتوفى ولده وولى عهده الامير أبو مالك عبد الواحد بن يعقوب فأسف لفقده ثم صبر واحتسب ثم نهض الى مراكش فدخلها أوائل ربيع الثانى من السنة المذكورة فأقام بها اشهرا حتى أصلح من شأنها ثم نهض الى طنجة وسبتة على مانذكره

فتح طنجة وسبتة وما كان من أمر العزفى بهما

قد تقدم لنا فى دولة أبى حفص عمر المرتضى أن الفقيه أبا القاسم العزفى استبد عليه بسبتة وتوارث ذلك بنوه من بعده وكان هؤلاء العزفيون من بيوتات سبتة وأهل الرياسة والعلم والدين فيهم ولما ضعف أمر بنى عبد المؤمن بالمغرب استقل الفقيه أبو القاسم بن أبى العباس العزفى برياستها وضبطها وانتظم فى طاعته سائر أعمالها ولما كانت سنة ثلاث وستين وستمائة بعث الفقيه المذكور أجفانه الى مدينة آصيلا فهدموا أسوارها ونقضوا قصبتها لانه خاف عليها من خلائها أن يملكها العدو ويمتنع بها واستمرت أموره فى سبتة ونواحيها على السداد وكانت طنجة تالية لسبتة فى سائر أحوالها وكانتا معا من أحصن بلاد المغرب فدخل صاحب طنجة وهو أبو الحجاج يوسف بن محمد الهمدانى المعروف بابن الامير فى طاعة أبى القاسم المذكور ثم انتقض عليه لمضى سنة من طاعته واستبد وخطب لابن أبى حفص صاحب افريقية ثم للخليفة العباسى صاحب بغداد ثم لنفسه وسلك فى طنجة مسلك العزفى فى سبتة ولبثوا على ذلك ماشاء الله حتى اذا ملك بنو مرين المغرب وافتتحوا معاقله وحصونه وهلك الامير أبو بكر بن عبد الحق وابنه أبو حفص عمر من بعده فتحيز بنوه فى أتباعهم وحشمهم الى ناحية طنجة وآصيلا فأوطنوا ضاحيتها وعاثوا فى نواحيها وضيقوا على أهل طنجة حتى شارطهم ابن الامير على خراج معلوم على ان يكفوا الاذية ويحموا الحوزة ويصلحوا السابلة فاتصلت يده بيدهم وترددوا الى البلد لاقتضاء حاجاتهم ثم مكروا وأضمروا الغدر فدخلوا فى بعض الايام متأبطين السلاح وفتكوا بابن الامير غيلة فثارت بهم عامة أهل طنجة واستلحموهم لحينهم فى مصرع واحد سنة خمس وستين وستمائة واجتمعوا على ولده فبايعوه وبقيت فى ملكته خمسة أشهر ثم استولى عليها أبو القاسم العزفى فنهض اليها بعساكره من الرجل برا وبحرا وملكها وفر ابن الامير فلحق بتونس ونزل على المستنصر الحفصى واستقرت طنجة فى ايالة العزفى فضبطها وقام بأمرها وولى عليها من قبله وأشرك الملأ من أشرافها فى الشورى ولما استولى السلطان يعقوب على حضرة مراكش ومحى دولة آل عبد المؤمن منها وفرغ من أمر عدوه يغمراسن هم بتلك الناحية وأحب أن يضيفها الى مابيده ليصفو له أمر المغرب الاقصى كله فنهض الى طنجة ونازلها مفتتح اثنتين وسبعين وستمائة لانها كانت فى البسيط دون سبتة فكان أمرها أسهل فحاصرها نحو ثلاثة أشهر فامتنعت عليه ويئس منها وعزم على الافراج عنها فبينما هو يقاتل فى عشى اليوم الذى عزم على النهوض فى غده اذا بجماعة من رماتها قاموا على برج ورفعوا لواء أبيض ونادوا بشعار بنى مرين وذلك لخلاف وقع بينهم داخل البلد فتسارع الجند اليهم فملكوهم البرج فتسوروا اليه الحيطان وقاتلوا عليه سائر ليلتهم الى الصباح ثم تكاثرت جيوش بنى مرين واقتحموا البلد عنوة ونادى منادى السلطان يعقوب بالامان فلم يهلك من أهلها الا نفر يسير ممن رفع يده للقتال وشهر السلاح ساعة الدخول وكان

ذلك في ربيع الاول سنة اثنتين وسبعين وستمائة ولما فرغ السلطان يعقوب من طنجة بعث ولده الامير يوسف الى سبتة فحاصرها العزفي أياما ثم لاذ بالطاعة على ان يبقى ممتنعا بحصنه ويؤدى للسلطان خراجا معلوما كل سنة فقبل السلطان منه ذلك وأفرجت عنه عساكره وعاد الى فاس والله غالب على أمره

﴿فتح سجلماسة وما كان من أمرها﴾

قد ذكرنا ما كان من استيلاء الامير أبى بكر بن عبد الحق على سجلماسة ودرعة وانه عقد على مسلحتها لابى يحيى القطرانى الذى كان السبب فى فتحها عليه ولما هلك الامير أبو بكر استبد القطرانى المذكور بسجلماسة ثم غلبه عليها المرتضى وقتل القطرانى بواسطة القاضى ابن حجاج حسبما تقدم ذلك كله ثم غلب عليها بعد حين يغمراسن بن زيان بواسطة عرب المنبات من بنى معقل أهل الصحراء وعقد عليها لعبد الملك بن محمد العبد الوادى المعروف بابن حنينة نسبة الى أمه وهى أخت يغمراسن بن زيان ولما فتح السلطان يعقوب بلاد المغرب وانتظمها فى ملكته وجه عزمه الى افتتاح سجلماسة وانتزاعها من أيدى بنى عبد الواد المتغلبين عليها فنهض اليها فى رجب سنة اثنتين وسبعين وستمائة فى جموع بنى مرين وقبائل المغرب من العرب والبربر ونازلها ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات وغير ذلك ﴿قال ابن خلدون﴾ ونصب عليها هندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة فى البارود بطبيعة غريبة ترد الافعال الى قدرة باريها اه كلامه ﴿قلت﴾ وفيه فائدة أن البارود كان موجودا فى ذلك التاريخ وان الناس كانوا يقاتلون به ويستعملونه فى محاصراتهم وحروبهم يومئذ وفيه رد لما نقله أبو زيد الفاسى فى شرح منظومته الموضوعة فى العمل الجارى بفاس قال كان حدوث البارود سنة ثمان وستين وسبعمائة حسبما ذكره بعضهم فى تأليف له فى الجهاد وانه استخرجه حكيم كان يعمل الكيمياء ففرقع له فاعاده فأعجبه فاستخرج منه هذا البارود اه وصرح الشيخ أبو عبد الله بنانى فى حاشيته على مختصر الشيخ خليل بان حدوثه كان فى وسط المائة الثامنة وهو غير صواب لما علمت من كلام ابن خلدون انه كان موجودا قبل ذلك بنحو مائة سنة ويغلب على ظنى ان لفظ الستمائة تصحف بالسبعمائة فسرى الغلط من ذلك والله أعلم * وأقام السلطان يعقوب على حصار سجلماسة حولا كاملا وكان سفهاؤها يصعدون فوق الاسوار ويعلنون بالسب والفحش الى ان هتك المنجنيق ذات يوم طائفة من سورها فدخلت من هنالك عنوة بالسيف وعاث الجند فى أهلها فقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية وأتى القتل على عاملها عبد الملك ابن حنينة ومن كان بها من أشياخ بنى عبد الواد وعرب المنبات وكان فتحها آخر صفر وقيل يوم الجمعة ثالث ربيع الاول سنة ثلاث وسبعين وستمائة وكمل بفتحها للسلطان يعقوب فتح بلاد المغرب وتمشت طاعته فى أقطاره فلم يبق فيه أهل حصن يدينون بغير دعوته ولا جماعة تتحيز الى غير فئته

﴿أخبار السلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق المرينى فى الجهاد وما كان﴾
﴿له بالاندلس من الذكر الجميل والفخر الجزيل رحمه الله﴾

قد تقدم لنا ما كان للعدو الكافر على المسلمين فى وقعة العقاب من الظهور والغلبة وأن تلك الوقعة كانت سبب ضعف المسلمين بالمغرب والاندلس واستيلاء العدو الكافر على جل ثغورها وحصونها ولما ضعف أمر الموحدين بالمغرب استبد السادة منهم بالاندلس وصاروا الى المنافسة فيما بينهم واستظهار بعضهم على بعض بالطاغية واسلام حصون المسلمين اليه فى سبيل تلك الفتنة فمشت رجالات الاندلس بعضهم الى بعض وأجمعوا على اخراج الموحدين من أرضهم فثاروا بهم لوقت واحد وأخرجوهم وتولى كبر ذلك محمد بن يوسف بن هود الجذامى ثم من بعده محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الاحمر ونازع ابن هود

الرياسة بالاندلس ولا تسأل عما ذهب فى منازعتهما من حصون المسلمين الكثيرة وبلادهم العديدة الشهيرة التى منها قرطبة واشبيلية قاعدتا أرض الاندلس كان كل واحد من هذين الثائرين يتقرب الى الطاغية بما غلب عليه من ذلك ليعينه على صاحبه والامر لله وحده وانقرض أمر ابن هود عن أمد قريب واستمرت دولة ابن الاحمر فى عقبه الى آخر المائة التاسعة ولما استتب أمر ابن الاحمر بالاندلس عقد السلم مع الطاغية على ان ينزل له عن جميع بسائط عرب الاندلس فنزل له عنها أجمع ولجأ بالمسلمين الى سيف البحر معتصمين باوعاره ومتشبثين بمعاقله وحصونه واختار ابن الاحمر لنزوله مدينة غرناطة واتخذها كرسى مملكته وابتنى بها السكاه حصن الحمراء وكان ابن الاحمر هذا يدعى بالشيخ وكان قد عهد الى ولده القائم من بعده محمد المعروف بالفقيه لانتحاله طلب العلم فى صغره وأوصاه اذا نابه أمر من العدو أو وصل اليه مكروه ان يستنصر عليه ببنى مرين ويدرأ بهم فى نحره ويجعلهم وقاية بين العدو وبين المسلمين فلما تكالب الطاغية على بلاد الاندلس بادر محمد الفقيه الى العمل باشارة والده وأوفد مشيخة الاندلس كافة على السلطان يعقوب رحمه الله فلقيه وفدهم منصرفا من فتح سجلماسة فتبادر والسلام عليه وألقوا اليه كنه الخبر عن كلب العدو على المسلمين وثقل وطأته فحيى وفدهم واستبشر بقدمهم وبادر لاجابة داعى الله وايثار الجنة وكان السلطان يعقوب رحمه الله منذ أول أمره موثرا عمل الجهاد كلفا به مختار اله لو أعطى الخيار على سائر أعماله حتى لقد كان اعتزم على الغزو الى الاندلس أيام أخيه الامير أبى بكر وطلب اذنه فى ذلك فلم يأذن له فكان فى نفسه من ذلك شغل وله اليه صاغية فلما قدم عليه هذا الوفد نبهوا عزيمته وأيقظوا همته فاعمل فى الاحتشاد وبعث فى النفير ونهض من فاس فى شوال سنة ثلاث وسبعين وستمائة فوصل الى طنجة وأقام هنالك وجهز خمسة آلاف من قومه أزاح عللهم وأجزل أعطياتهم وعقد عليهم لابنه أبى زيان وأعطاه الراية واستدعى من العزفى صاحب سبتة السفن لاجازتهم فوافاه بقصر المجاز منه عشرون اسطولا فاجاز العسكر المذكور ونزل بطريف فى السادس عشر من ذى القعدة من السنة المذكورة فازاح الامير أبو زيان بطريف ثلاثا ثم دخل دار الحرب وتوغل فيها وأجلب على ثغورها وبسائطها وامتلأت أيديهم من المغانم وأثخنوا بالقتل والاسر وتخريب العمران ونسف الآثار حتى نزل بساحة شريش فخام حاميتها عن اللقاء وتحصنوا بالاسوار وقفل الامير أبو زيان الى الجزيرة الخضراء وقدامه لائت أيدى عسكره من الاموال وحقائبهم من السبى وركائبهم من السلاح والاثاث ورأى أهل الاندلس ان قد ثأروا بمام العقاب بعد أن لم تنتصر لهم راية من ذلك اليوم الى الآن والله غالب على أمره

الجواز الاول للسلطان يعقوب الى الاندلس برسم الجهاد

ثم اتصل الخبر بالسلطان يعقوب رحمه الله ان العدو قد أخذ فى الاستعداد وعزم على الخروج الى بلاد المسلمين فاعتزم على الغزو بنفسه وخشى على ثغور بلاده من عادية يغمراسن صاحب تلمسان فبعث حافده تاشفين بن عبد الواحد بن يعقوب فى وفد من بنى مرين لعقد السلم مع يغمراسن والرجوع للاتفاق والموادعة ووضع أوزار الحرب بين المسلمين للقيام بوظيفة الجهاد فاكرم موصله وموصل قومه وبادر الى الاجابة والالفة وأوفد مشيخة بنى عبد الواد على السلطان يعقوب لعقد السلم وبعث معهم الرسل وأسنى الهدية وجمع الله كلمة الاسلام وعظم موقع هذه السلم من السلطان يعقوب لما كان فى نفسه من الميل الى الجهاد وايثار مبرورات الاعمال فبث الصدقات شكرا لله تعالى على ما منحه من التفرغ لذلك ثم استنفر الكافة واحتشد القبائل والجموع ودعا المسلمين الى جهاد عدوهم وخاطب فى ذلك سائر أهل المغرب من زناتة والعرب والموحدين والمصامدة وصنهاجة وغمارة وأوربة ومكناسة وجميع قبائل البربر من المرتزقة والمتطوعة وأهاب بهم وشرع فى عبور البحر فاجازهم من فرضة قصر المجاز فى صفر سنة أربع

وسبعين وستمائة واحتل بساحل طريف وكان السلطان يعقوب حين استصرخه ابن الاحمر وأوفد عليه مشايخ الاندلس اشترط عليه السلطان يعقوب النزول عن بعض الثغور بساحل الفرضة لاحتلال عساكره بها فتجافى له عن رندة وطريف ولما أحس الرئيس أبو محمد بن اشقيلولة باجازة السلطان يعقوب قدم اليه الوفد من أهل مالقة ببيعتهم وصريخهم وكان أبو محمد بن اشقيلولة وأخوه أبو اسحق من أصهار ابن الاحمر وكانا مستوليين على مالقة ووادى آش وقمارش ووقعت بينهما وبين ابن الاحمر منافسة فخرجا عن طاعته ولما عبر السلطان يعقوب الى الاندلس بادر أبو محمد بن اشقيلولة اليه واتصل به وأمحضه الود والنصح وسابق ابن الاحمر فى ذلك ونازعه فى بروز مقدمه والاذعان له وربما صدرت من ابن اشقيلولة فى حق ابن الاحمر جفوة بمحضر السلطان يعقوب أدت الى بعض الفساد وانصرف ابن الاحمر مغاضبا للسلطان من أجل ذلك ولما احتل السلطان بناحية طريف ملأت كتائبه ساحة الارض ما بينها وبين الجزيرة الخضراء ثم نهض الى العدو قبل ان يسبق اليهم الخبر فدخل دار الحرب وانتهى الى الوادى الكبير فعقد هنالك لولده الامير يوسف على خمسة آلاف من عسكره قدمها بين يديه ثم تبعه على أثره وسرح كتائبه فى البسائط وخلال المعاقل تنسف الزروع وتحطم الغروس وتخرب العمران وتنهب الاموال وتكتسح السرح وتقتل المقاتلة وتسبى النساء والذرية حتى انتهى الى حصن المدور وبياسة وأبدة واقتحم حصن بلمة عنوة وأتى على سائر الحصون فى طريقه فطمس معالمها واكتسح أموالها وقفل السلطان يعقوب رحمه الله والارض تموج سبيا الى ان عرس باستجة من تخوم دار الحرب وجاءه النذير باتباع العدو آثاره لاستنقاذ أسراه واسترجاع أمواله وان زعيم الفرنج وعظيمهم نونه خرج فى طلبهم فى أمم النصرانية من المحتلم الى الشيخ فقدم السلطان الغنائم بين يديه وسرح ألفا من الفرسان أمامها وسار يقتفيها من خلفها حتى اذا أطلت رايات العدو من ورائهم كان الزحف ورتب المصاف وجرد السيف وذكر اسم الله وراجعت زناتة بصائرها وعزائمها وتحركت هممها وأبلت فى طاعة ربها والذب عن دينها وجاءت بما يعرف من بأسها وبلائها فى مقاماتها ومواقفها فلم يكن الا كلا ولا حتى هبت ريح النصر وظهر أمر الله وانكشفت جموع النصرانية وقتل الزعيم نونه وكان هذا اللعين زعيم النصرانية بالاندلس قد قدمه الفنش على جيوشه واستعمله على حروبه وفوض له فى جميع أموره وكان النصارى قد سعدوا بطائره وتيمنوا بنقيبته لانه لم تهزم له قط راية وكان وبالا على بلاد الاسلام كثير الغارات عليها حتى جمع الله بينه وبين السلطان يعقوب فأراحه من تعب الحرب وكد الغارات وألحقه بأمه الهاوية ومنح المسلمين رقاب الفرنج واستحر فيهم القتل حتى بلغت قتلاهم عدد الالوف وجمعوا من رؤسهم ما أذن أذنوا عليها الصلاتى الظهر والعصر واستشهد من المسلمين ما يناهز الثلاثين أكرمهم الله تعالى بالشهادة وآثرهم بما عنده ونصر الله حزبه وأعز أولياءه وأظهر دينه وبدا للعدو ما لم يكن يحتسبه بمحاماة هذه العصابة عن الملة وقيامها بنصر الكلمة وبعث السلطان يعقوب رحمه الله برأس الزعيم نونه الى ابن الاحمر فيقال انه بعثه سرا الى قومه بعد ان طيبه وأكرمه ولاية أخلصها لهم ومداراة وانحرافا عن السلطان يعقوب ظهرت شواهد ذلك عليه بعد حين ﴿واعلم﴾ ان هذا الزعيم يسميه كثير من المؤرخين دون نونه ولفظة دون معناها فى لسانهم السيد أو العظيم أو ما أشبه ذلك فلذا أسقطناها وقفل السلطان يعقوب من غزاته هذه الى الجزيرة الخضراء منتصف ربيع من السنة المذكورة فقسم فى المجاهدين الغنائم وما نفلوه من أموال عدوهم وسباياهم وأسراهم وكراعهم بعد الاستئثار بالخمس لبيت المال على موجب الكتاب والسنة ليصرفه فى مصارفه ويقال كان مبلغ الغنائم فى هذه الغزاة مائة ألف من البقر وأربعة وعشرين ألفا من السبى ومن الاسارى سبعة آلاف وثمانمائة وثلاثون ومن الكراع أربعة عشر ألفا وستمائة وأما الغنم فاتسعت عن الحصر كثرة حتى لقد زعموا انه قد بيعت الشاة الواحدة بدرهم

وكذلك السلاح وأقام السلطان يعقوب بالجزيرة أياما ثم نهض في جمادى الاولى من السنة المذكورة غازيا الشبيلية فجاس خلالها وتقرّى نواحيها وأقطارها وأثخن بالقتل والنهب في جهاتها وعاث في عمرانها وأوغل في مسيره حتى وقف على بابها وزعقت طبوله في جوّها وخفقت ألويته على جنباتها ولجأت الفرنج الى الاسوار واعتمدوا على الحصار ولم يخرج اليه منهم أحد ثم ارتحل الى شريش فاذاقها من وبال العيث والاكتساح مثل ذلك وأوأكثر ورجع الى الجزيرة لشهرين من غزاته فبيعت الفرنجية من سبيها بمثقال ونصف لكثرة السبي حينئذ ودخل فصل الشتاء فنظر السلطان يعقوب في اختطاط مدينة بفرضة المجاز من العدوة لنزول عسكره منتبذا عن الرعية لما يلحقهم من ضرر العسكر وجفائهم وتخير لها مكانا ملاصقا للجزيرة فاوعز ببناء المدينة المشهورة بالبنية ثم أجاز البحر الى المغرب في رجب من سنته أعني سنة أربع وسبعين وستمائة فكان مغيبه وراء البحر ستة أشهر واحتل بقصر مصمودة وأمر ببناء السور على بادس مرفإ السفن ومحل العبور من بلاد غمارة ثم رحل الى فاس فدخلها في النصف من شعبان من السنة المذكورة

﴿فتح جبل تينملل ونبش قبور بني عبد المؤمن على يد الملياني عفا الله عنه﴾

قد تقدم لنا ان جبل تينملل كان حصنا للموحدين وملجأ لهم اذا نابهم مكروه وكان مسجده مزارا اعظيما لهم لانه مدفن امامهم وملحد خلفائهم فكانوا يعكفون عليه ويلتمسون بركة زيارته ويقدمون ذلك بين يدى غزواتهم قربة يتقربون بها الى الله تعالى ولما استولى السلطان يعقوب على مراكش فرمن كان بها من الموحدين الى الجبل المذكور واعتصموا به وبايعوا اسحق أخا المرتضى وأملوا منه رجع الكرة وادالة الدولة واستمر الحال على ذلك الى هذه السنة فنهض عامل مراكش من قبل السلطان يعقوب وهو محمد ابن علي بن محلي أحد خؤولته ونازل الجبل المذكور وحاصره مدة ثم اقتحمه عنوة واقتض عذرته وفك ختامه وتقبض على خليفة الموحدين اسحق وابن عمه السيد أبي سعيد بن أبي الربيع ومن معهما من الاولياء وجنبوا الى مصارعهم بباب الشريعة من مراكش فضربت أعناقهم وصلبت أشلاؤهم وكان فيمن قتل منهم الكاتب القبائلي وأولاده وعاثت عساكر بني مرين في جبل تينملل واكتسحوا أمواله ونبشوا قبور خلفاء بني عبد المؤمن واستخرجوا أشلاءهم وكان فيها شلو يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب المنصور فقطعت رؤسهم وتولى كبر ذلك أبو علي بن أحمد الملياني كان أبو علي هذا ثار على الحفصيين بمدينة مليانة فجهزوا اليه عساكرهم وأجهضوه عنها ففر الى السلطان يعقوب فقبله وآواه وأقطعه بلد اغمات اكراما له فحضر هذه الوقعة في جملة العسكر وارتكب هذا الفعل الشنيع ورأى انه قد شفى نفسه باستخراج هؤلاء الائمة من أرماسهم والعبث باشلائهم وقد أنكر الناس عامة والسلطان يعقوب خاصة هذه الفعلة منه ولم يرضوها ومع ذلك فقد تجاوز له السلطان يعقوب عنها تأنيسا لغربته ورعيا لجواره ولما توفي السلطان يعقوب وولي بعده ابنه يوسف سعى اليه في الملياني هذا فنكبه على ما نذكره ان شاء الله ولما وصل السلطان يعقوب من غزوته الى فاس انتقض عليه طلحة بن محلي أحد أخواله وتمنع بجبل آصرو من بلاد فازاز فسار اليه السلطان يعقوب وحاصره به فاناب الى الطاعة ونزل على الامان وذلك في منتصف رمضان سنة أربع وسبعين وستمائة وفي ثاني يوم من شوال من هذه السنة ثارت العامة باليهود بفاس بسبب حدث أحدثوه فقتلوا منهم أربعة عشر يهوديا ولولا ان السلطان ركب بنفسه ورد العامة عنهم لكانت اياها

﴿بناء المدينة البيضاء المسماة اليوم بفاس الجديد﴾

لما فتح جبل تينملل ومحيت منه بقية آل عبد المؤمن وتمهد ملك المغرب للسلطان يعقوب واستفحل أمره

وكثرت غاشيته رأى أن يختط بلدا ينسب اليه ويتميز بسكناه وينزل فيه بحاشيته وأوليائه الحاملين لسرير ملكه فامر ببناء المدينة البيضاء الاصقة لمدينة فاس على ضفة واديها المخترق لها من جهة أعلاه وشرع في تأسيسها ثالث شوال من سنة أربع وسبعين وستمائة وركب السلطان بنفسه فوقف عليها حتى خطت مساحتها وأسست جدرانها وجمع الايدى عليها وحشر الصناع والعملة لبنائها وأحضر لها أهل النجامة والمعدلين لحركات الكواكب فاختاروا لها من الطوالع ما يرضون أثره ويحمدون سيره وأسست فيه وكان في أولئك المعدلين امامان شهيران أبو الحسن بن القطان وأبو عبد الله بن الحباك المقدمان في الصناعة فكمل تشييد هذه المدينة على ما رسم رحمه الله وكما رضى ونزلها بحاشيته وذويه سنة أربع وسبعين المذكورة واختط الناس بها الدور والمنازل وأجريت فيها المياه الى القصور وكانت من أعظم آثار هذه الدولة وأبقاها على الايام ﴿قال ابن أبى زرع﴾ ومن سعادة طالعها انه لا يموت فيها خليفة ولم يخرج منها لواء قط الا كان منصورا ولا جيش الا كان ظافرا ثم أمر رحمه الله ببناء قصبة مكناسة فشرع في بنائها وبناء جامعها في السنة المذكورة ثم استوزر صنيعته أبا سالم فتح الله السدراتى وأجرى له رزق الوزارة على عادتهم ثم كافأ يغمراسن بن زيان على هديته التى كان بعث بها اليه قبل اجازته الى الاندلس فبعث اليه فسطاطا رائقا كان صنع له بمراكش وثلاثين من البغال الفارهة ذكرانا وإناثا وغير ذلك مما يباهى به ملوك المغرب وفي سنة خمس وسبعين وستمائة أهدى اليه الامير محمد بن عبد القوى التوجيني صاحب جبل وانشريس أربعة من الجياد انتقاها من خيل المغرب كافة ورأى أنها على قلة عددها أحفل هدية وفي نفسه أثناء هذا كله من أمر الجهاد شغل شاغل يتخطى اليه سائر أعماله حسبما نذكره ان شاء الله

﴿الجواز الثانى للسلطان يعقوب الى الاندلس برسم الجهاد﴾

لما قفل السلطان يعقوب من غزوته الاولى واستنزل الخوارج وثقف الثغور وهادى الملوك واختط المدينة البيضاء لنزوله كما ذكرنا خرج فاتح سنة خمس وسبعين وستمائة الى جهة مراكش لسد ثغورها وتثقيف أطرافها وتوغل في أرض السوس وبعث وزيره فتح الله السدراتى في العساكر فجاس خلالها ثم انكفأ راجعا وهنالك خاطب السلطان يعقوب رحمه الله قبائل المغرب كافة بالنفير الى الجهاد فتثاقلوا عليه فلم يزل يحرضهم وهم يسوفون الى ان دخلت سنة ست وسبعين بعدها ولما رأى تثاقل الناس عليه نهض الى رباط الفتح وتلوم به أياما في انتظار الغزاة فابطؤا عليه فخف في خاصته وتقدم في حاشيته حتى انتهى الى قصر المجاز وقد تلاحق به الناس من كل جهة لما رأوا من عزمه وتصميمه فاجاز بهم البحر واحتل بطريف آخر محرم من السنة المذكورة ثم ارتحل الى الجزيرة الخضراء ثم الى رندة فوافاه بها الرئيسان أبو محمد عبد الله بن أبى الحسن على بن اشقيلولة صاحب مالقة وأخوه أبو اسحق ابراهيم بن أبى الحسن برسم الجهاد معه ثم ارتحل السلطان من رندة فاتح ربيع الاول من السنة المذكورة حتى انتهى الى اشبيلية فعرس عليها يوم المولد النبوى وكان بها يومئذ ملك الجلالقة ابن اذفونش فلم يجد بدا من الخروج اليه بعد ان خام عن اللقاء أولا فبرز في جموعه وصفها على ضفة الوادى الكبير من ناحية السلطان وأظهر من أبهة الحرب ما قدر عليه فكانت جيوشه كلها في الدروع السوابغ والبيض اللوامع والسيوف البواتر وغير ذلك من آلات الحرب التى يكاد شعاعها يدهش البصر وزحف اليه السلطان يعقوب رحمه الله بعد ان صلى ركعتين ودعا الله تعالى ووعظ الناس وذكرهم فرتب مصافه وجعل ولده الامير يوسف في المقدمة وزحف على التعبية فاقتتلوا مليا ثم انهزمت الفرنج فتساقط بعضهم في الوادى وانحدر آخرون مع ضفته وتصاعد آخرون كذلك واقتحم المسلمون عليهم وسط الماء وقتلوهم في لجته حتى صار الماء أحمر وطفت جيفهم من الغد عليه فكان فيهم عبرة لمن اعتبر وبات السلطان والمسلمون تلك الليلة على صهوات خيولهم يقتلون ويأسرون وأضرموا النيران بساحة اشبيلية حتى صار الليل

نهارا ٠

نهارا وباتت الفرنج على الاسوار ينفخون فى القرون ويحترسون طول ليلتهم ثم ارتحل السلطان من الغد الى جبل الشرف وبث السرايا فى نواحيه فلم يزل يتقرى تلك الجهات حتى أباد عمرانها وطمس معالمها ودخل حصن قطنيانة وحصن جليانة وحصن القليعة عنوة وأثخن فى القتل والسبى ثم ارتحل بالغنائم والاثقال الى الجزيرة الخضراء فدخلها فى الثامن والعشرين من ربيع الاول المذكور فاراح بها وقسم الغنائم فى المجاهدين ثم خرج غازيا مدينة شريش منتصف ربيع الآخر فنازلها وأذاقها نكال الحرب ووبال الحصار وقطع الزياتين والاعناب وسائر الاشجار وأباد خضراءها وحرق ديارها وأثخن فيها بالقتل والاسر وكان السلطان يعقوب يباشر قطع الشجر والثمر بيده وسرح ولده الامير يوسف من معسكره فى سرية للغارة على اشبيلية وحصون الوادى الكبير فبالغ فى النكاية واكتسح حصن روطة وشلوقة وغليانة والقناطر ثم صبح اشبيلية فاكتسحها وانكفأ راجعا بالمغانم والسبى الى السلطان يعقوب فسر بمقدمه وقفلوا جميعا الى الجزيرة الخضراء فاراح السلطان بها أياما وقسم فى المجاهدين غنائمهم ثم جمع أشياخ القبائل وندبهم الى غزو قرطبة وقال يا معشر المجاهدين ان اشبيلية وشريش وأحوازها قد ضعفت وبادت ولم يبق لكم بها كبير نفع ولا نكاية وان قرطبة وأعمالها بلاد حصينة عامرة وعليها اعتماد الفرنج ومنها معاشهم ومادتهم فان غزوتموها واستأصلتم خضراءها مثل ما فعلتم باشبيلية وشريش كان ذلك سبب ضعف النصرانية بهذا القطر فاجابوا بالسمع والطاعة فدعا لهم وفرق فيهم الاموال والخلع وخاطب ابن الاحمر يستنفره للجهاد معه وقال له ان خروجك معى الى قرطبة يكون لك مهابة فى قلوب الفرنج ما عشت سوى ما تستوجبه من الله تعالى من الثواب فى ذلك ونهض السلطان الى قرطبة فاتح جمادى الاولى من سنة ست وسبعين المذكورة فوافاه ابن الاحمر بناحية شدونة فاكرم موصله وشكر خفوفه الى الجهاد وبداره اليه ونازلوا حصن بنى بشير فدخلوه عنوة وقتلت المقاتلة وسبيت النساء ونفلت الاموال وهدم الحصن حتى لم يبق له أثر ثم بث السلطان رحمه الله السرايا والغارات فى البسائط فاكتسحوها وامتلأت الايدى وأثرى العسكر وفاض عليهم من الغنم والبقر والمعز والخيل والبغال والحمير والقمح والشعير والزيت والعسل ما لا يوصف ثم ساروا يتقرون المنازل والعمران فى طريقهم حتى احتلوا بساحة قرطبة فنازلوها وخفقت ألوية السلطان فى نواحيها وزعقت طبوله فى فضائها وتقدم فى أبطاله وحماته حتى وقف على بابها ثم دار باسوارها ينظر كيف الحيلة فى قتالها ووقف ابن الاحمر بعساكر الاندلس أمام محلة المسلمين يحرسونها خوفا من كرة العدو وخنس الفرنج وراء الاسوار وانبثت بعوث المسلمين وسراياهم فى نواحى قرطبة وقراها فنسفوا آثارها وخربوا عمرانها وترددوا على جهاتها ودخلوا حصن الزهراء بالسيف وأقام السلطان على قرطبة ثلاثا ثم ارتحل عنها الى حصن بركونة فدخله عنوة ثم ارجونة كذلك ثم قدم بعثا الى مدينة جيان فقاسمها حظها من الخسف والدمار وخام الطاغية عن اللقاء وأيقن بخراب عمرانه واتلاف بلاده فجنح الى السلم وخطبه من السلطان يعقوب ورغب فيه اليه وبعث الاقسة والرهبان للوساطة فى ذلك فرفعهم السلطان يعقوب الى ابن الاحمر وجعل الامر فى ذلك اليه تكرمة لمشهده ووفاء بحقه وقال لوفد الفرنج انما أنا ضيف والضيف لا يصالح على رب المنزل فساروا الى ابن الاحمر وقالوا له ان السلطان يعقوب قد رد الامر اليك ونحن قد جئناك لنعقد معك صلحا مؤبدا لا يعقبه غدر ولا حرب وأقسموا له بصلبانهم ان لم يرضه القنش ليخلعنه لانه لم ينصر الصليب ولا حمى الحوزة فاجابهم ابن الاحمر اليه بعد عرضه على أمير المسلمين والتماس اذنه فيه لما فيه من المصلحة وجنوح أهل الاندلس اليه منذ المدد الطويلة فانعقد السلم فى آخر شهر رمضان من السنة المذكورة وقفل السلطان يعقوب من غزاته هذه وجعل طريقه على غرناطة احتفاء بالسلطان ابن الاحمر وخرج له عن الغنائم كلها فاحتوى عليها ابن الاحمر وساقها الى غرناطة وقال له

السلطان يعقوب يكون حظ بنى مرين من هذه الغزاة الاجر والثواب مثل ما فعل يوسف بن تاشفين رحمه الله مع أهل الاندلس يوم الزلاقة ولما قفل السلطان يعقوب من هذه الغزوة اعتل الرئيس أبو محمد ابن اشقيلولة ثم هلك غرة جمادى من السنة المذكورة فلحق ابنه محمد بالسلطان يعقوب آخر شهر رمضان وهو متلوم بالجزيرة الخضراء منصرفه من الغزو كما ذكرناه فتنزل له عن مالقة ودعاه الى حوزها منه وقال له ان لم تحزها أعطيتها للفرنج ولا يتملكها ابن الاحمر فحازها السلطان يعقوب منه وعقد عليها لابنه أبى زيان منديل بن يعقوب فسار اليها وتملكها وعز ذلك على ابن الاحمر غاية لانه لما بلغه وفاة أبى محمد ابن اشقيلولة سما أمله اليها وان ابن أخته وهو محمد الوافد على السلطان يعقوب شيعة له لا يبغى به بدلا فأخطأ ظنه وخرج الامر بخلاف ما كان يرتقب ولما قضى السلطان يعقوب بالجزيرة الخضراء صومه ونسكه خرج الى مالقة فدخلها سادس شوال من السنة وبرز اليه أهلها فى يوم مشهود واحتفلوا له احتفال أيام الزينة سرورا بمقدم السلطان واغتباطا بدخولهم فى دعوته وانخراطهم فى سلك رعيته وأقام فيهم الى خاتم سنته ثم عقد عليها لعمر بن يحيى بن محلى من صنائع دولتهم وأنزل معه المسالح وترك عنده زيان بن أبى عياد بن عبد الحق فى طائفة لنظره من أبطال بنى مرين واستوصاه بمحمد بن اشقيلولة وارتحل الى الجزيرة الخضراء ثم أجاز منها الى المغرب فاتح سنة سبع وسبعين وستمائة وقد اهتزت الدنيا لمقدمه وامتلأت القلوب سرورا وابتهاجا بما أراه الله من نصر المسلمين بالاندلس وعلو راية الاسلام على كل راية وعظمت بذلك كله موجدة ابن الاحمر ونشأت الفتنة كما نذكره ان شاء الله

﴿حدوث الفتنة بين السلطان يعقوب وابن الاحمر وما نشأ عن ذلك﴾
﴿من حصار الجزيرة الخضراء وغير ذلك﴾

قد تقدم لنا ان بنى اشقيلولة كانوا أصهار الابن الاحمر وانهم لما قدموا على السلطان يعقوب بالجزيرة الخضراء فى جوازه الاول صدرت من ابن اشقيلولة كلمات أحفظت ابن الاحمر وغاظته فذهب لاجلها مغاضبا وانحرف عن السلطان يعقوب ولم يشهد معه الغزو ولا عرج على الجهاد ولما نصر الله السلطان يعقوب على عدوه وقتل العلج وبعث برأسه الى ابن الاحمر طيبه وبعثه الى قومه انحرافا عن السلطان وموالاة للعدو ولما جاز السلطان يعقوب الجواز الثانى انقبض عنه ابن الاحمر ولم يلقه حتى خاطبه السلطان واستنفره الى الجهاد فلحقه بشدونة كما مر ولما صنع الله للسلطان ما صنع من الظهور والعز الذى لا كفاء له واستولى على مالقة من يد ابن اشقيلولة ارتاب ابن الاحمر بمكانه وظن به الظنون وتخوف منه ما كان من يوسف بن تاشفين للمعتمد بن عباد وغيره من ملوك الطوائف فغص بمكانه وأظلم الجو بينهما ودارت بينهما مخاطبات شعرية على ألسنة الكتاب فى معنى العتاب ولم تزل القوارص بين السلطانين تجرى وعقارب السعاية تدب وتسرى وخوف ابن الاحمر على ملكه يشتد ويزيد وأواصر الاخوة الاسلامية تتلاشى وتبيد الى ان استحكمت البغضاء وضاق بينهما رحب الفضاء ففزع ابن الاحمر الى مداخلة الطاغية فى شأنه واتصال يده بيده وحبله بحبله وأن يعود الى منزلة أبيه معه من ولايته ليدافع به السلطان يعقوب وقومه عن أرضه ويأمن معه من زوال سلطانه فاغتنم الطاغية هذه الفرصة ونكث عهد السلطان يعقوب ونقض السلم وأعلن بالحرب وأغزا أساطيله الجزيرة الخضراء حيث كانت مسالح السلطان يعقوب وجنوده وأرست بالزقاق حيث فراض المجاز وانقطعت عساكر السلطان وراء البحر وحال العدو بينهم وبين اغاثته اياهم واتصلت يد ابن الاحمر بيد الطاغية واتفقا على منع السلطان يعقوب من عبور البحر وداخل ابن الاحمر عمر بن يحيى بن محلى صاحب مالقة فى النزول له عنها بعوض ففعل واستولى ابن الاحمر عليها ثم راسل هو والطاغية يغمراسن بن زيان من وراء البحر وراسلهم هو فى مشاقة السلطان وافساد ثغوره وازال العوائق المانعة له من حركته والاخذ

بأذياله عن النهوض الى الغزو وأسنوا فيما بينهما الهدايا والتحف وجنب يغمراسن الى ابن الاحمر ثلاثين من عتاق الخيل مع ثياب من عمل الصوف وبعث اليه ابن الاحمر مكافأة على ذلك عشرة آلاف دينار فلم يرض بالمال ورده وأصفقت آراؤهم جميعا على السلطان يعقوب ورأوا ان قد أبلغوا فى احكام أمرهم وسد مذاهبه اليهم واتصل خبر هذا كله بالسلطان وهو بمراكش كان خروج اليها من جمعه من الغزو فى المحرم سنة سبع وسبعين وستمائة لما كان من عيث عرب جشم بتامسنا وافسادهم السابلة فثقف أطرافها وحسم مادة فسادها ثم اتصل به خبر ابن محلى ونزوله عن مالقة لابن الاحمر ومنازلة الطاغية بأساطيله للجزيرة الخضراء وتضييقه على المسلمين بها فبلغ ذلك منه كل مبلغ ونهض من مراكش ثالث شوال من السنة يريد طنجة فوصل الى قرية مكول من بلاد تامسنا فتوالت عليه بها الامطار والسيول وعاقته عن النهوض وبينما هو فى ذلك ورد عليه الخبر أيضا بنزول الطاغية على الجزيرة الخضراء برا واحاطة عسكره بها بعد ان كانت أساطيله منازلة لها فى البحر منذ ستة أشهر أو سبعة وانه مشرف على التهامها وبعثوا اليه يستصرخونه ويخبرونه بالحال فاعتزم على الرحيل ثم اتصل به الخبر الثاني بخروج مسعود بن كانون السفياني ببلاد نفيس من أرض المصامدة خامس ذي القعدة من السنة وان الناس اجتمعوا اليه من قومه وغيرهم فانخرقت على السلطان الفتوق وتوالت عليه الخطوب ولم يدر ما يصنع الا انه رأى ان يقدم أمر ابن كانون والعرب فكر راجعا اليه وقدم بين يديه حافده تاشفين بن أبي مالك ووزيره يحيى بن حازم العلوي وجاء هو على ساقتهم وفر مسعود بن كانون وجموعه أمام السلطان فانتهب معسكرهم وحللهم واستباح عرب الحارث من سفيان ولحق مسعود بجبل سكسيوة فاعتصم به وشايع عبد الواحد السكسيوي القائم به على خلافه ونازله السلطان يعقوب بعساكره أياما وسرح ابنه الامير أبا زيان منديل الى بلاد السوس لتمهيدها وتدويخ أقطارها فأوغل فى ديارها وقفل الى أبيه فى آخر يوم من السنة المذكورة واتصل بالسلطان ما تضاعف على أهل الجزيرة من ضيق الحصار وشدة القتال واعواز الاقوات وانهم ختنوا الاصاغر من أولادهم خشية عليهم من معرة الكفر فأهمه ذلك وكان أقسم أن لا يرتحل عن ابن كانون حتى ينزل على حكمه أو يهلك دون ذلك فأعمل النظر فيما يكون به خلاص أهل الجزيرة فعقد لولي عهده ابنه الامير يوسف وكان بمراكش على الغزو اليها وكان أهل الجزيرة كما قلنا قد أحاط بهم العدو برا وبحرا وانقطعت عنهم المواد وعميت عليهم الانباء الا ما يأتيهم به الحمام من جبل طارق وفني أكثرهم بالقتل والجوع وسهر الليل على الاسوار وشدة الحصار حتى أشرف بقيتهم على الهلاك وأيسوا من الحياة فحينئذ جمعوا صبيانهم وختنوهم كما مر وبينما هم على ذلك قدم الامير يوسف بجيوشه الى طنجة وكان قدومه اليها فى أوائل صفر من سنة ثمان وسبعين وستمائة وكان السلطان يعقوب لما بعث ابنه الامير يوسف الى طنجة قد كتب الى الثغور باعداد الاساطيل وعمارتها وتوجيهها اليه وقسم الاعطيات وحض الناس على النهوض فتوفرت همم المسلمين على الجهاد وأجابوا من كل ناحية وأبلى الفقيه أبو حاتم العزفي صاحب سبتة لما بلغه الخطاب من السلطان فى شأن الاساطيل البلاء الحسن وقام فيه المقام المحمود فهيأ خمسة وأربعين أسطولا واستنفر كافة أهل بلده من المحتلم الى الشيخ فركبوا البحر أجمعون ولم يبق بسبتة الا النساء والشيوخ والصبيان ورأى ابن الاحمر ما نزل بأهل الجزيرة وأشراف الطاغية على أخذها فندم على ما اتاه اياه وأعد أساطيل سواحله من المنكب والمرية ومالقة فكانت اثني عشر اسطولا فبعثها مددا للمسلمين وقدم من بادس وسلا وآنفى خمسة عشر اسطولا فنض فى الوقت اثنان وسبعون اسطولا واجتمعت كلها بمرفأ سبتة قد أخذت بطرفي الزقاق فى أحفل زي وأكمل استعداد ثم تقدمت الى طنجة ليراها الامير يوسف فشاهدها ومر بها وعقد لهم رايته مع جماعة من أبطال بني مرين رغبوا فى الجهاد ثم أقلعت الاساطيل عن طنجة ثامن ربيع الاول سنة ثمان وسبعين

وستمائة وانتشرت قلوعهم فى البحر فأجازوه وباتوا ليلة المولد الكريم بعرفاء جبل الفتح وصبحوا العدو وأساطيله يومئذ تناهز أربعمائة فتظاهر المسلمون فى دروعهم وأسبغوا من شكتهم وأخلصوا لله عزائمهم وتنادوا بالجنة وشعارها ووعظ خطباؤهم وذكر صلحاؤهم والتحم القتال ونزل الصبر فلم يكن الا كلا ولا حتى نضحوا العدو بالنبل ففسدت افروطتهم واختل مصافهم وانكشفوا وتساقطوا فى عباب البحر فاستلحمهم السيف وغشيهم اليم واستولى المسلمون على أساطيلهم فملكوها وأسروا قائدها الملند فى جماعة من حاشيته واستمر مثقفا بفاس حتى فر بعد ذلك وسر المسلمون الذين بداخل الجزيرة بفساد افروطة العدو وهلاكها ولما رأى عسكر الطاغية الذى فى البر ما أصاب أهل البحر منهم من القتل والاسر داخلهم الرعب وخافوا من هجوم الامير يوسف عليهم اذ كان مقيما بساحل طنجة مستعدا للعبور فقوضوا أبنيتهم وأفرجوا عن البلد لحينهم وانتشر المسلمون والنساء والصبيان بساحة البلد كأنما نشروا من قبر وغلبت مقاتلتهم كثيرا من عسكر العدو على متاعهم فغنموا من الحنطة والادام والفواكه ما ملأ أسواق البلد أياما حتى وصلتها الميرة من النواحى وأجاز الامير يوسف البحر من حينه فاحتل بساحل الجزيرة وأرهب العدو فى كل ناحية لكنه صده عن الغزو شأن الفتنة مع ابن الاحمر فرأى ان يعقد مع الطاغية سلما ويصل يده بيده لمنازلة غرناطة دار ابن الاحمر فاجابه الطاغية الى ذلك رهبة من بأسه وموجدة على ابن الاحمر فى مدده أهل الجزيرة وبعث أساقفته لعقد ذلك واحكامه فأجازهم الامير يوسف الى أبيه وهو بناحية مراكش فغضب لها وأنكر على ابنه وزوى عنه وجه رضاه وأقسم أن لا يرى اسقفا منهم الا ان يراه بارضه ورجعهم الى طاغيتهم مخفق السعى كاسفى البال ووصلت فى هذه السنة هدية السلطان أبى زكريا يحيى الواثق الحفصى مع أبى العباس الغمارى حسبما مرت الاشارة اليه قبل هذا * ثم ان السلطان يعقوب رحمه الله رجع الى فاس وبعث خطابه الى الآفاق مستنفرا للجهاد وفصل عنها غرة رجب من سنة ثمان وسبعين وستمائة حتى انتهى الى طنجة وعاين ما اختل من أحوال المسلمين فى تلك الفترة وماجرت اليه فتنة ابن الاحمر من اعتزاز الطاغية وما حدثته نفسه من التهام الجزيرة الاندلسية ومن فيها وكان قد أمر أمره فى هذه المدة وظاهره أعداء ابن الاحمر من بنى اشقيلولة وغيرهم عليه حتى حاصروا غرناطة ومرج أمر الاندلس وتغلبت أطرافها وأشفق السلطان يعقوب رحمه الله على المسلمين الذين بها وعلى ابن الاحمر مما ناله من خسف الطاغية فراسله فى الموادعة واتفاق الكلمة على أن ينزل له عن مالقة التى خادع عنها ابن محلى كما تقدم فامتنع ابن الاحمر وأساء الرد فى ذلك فرجع السلطان يعقوب الى ازالة العوائق عن شأنه فى الجهاد وكان من أعظمها فتنة يغمراسن واستيقن ما كان بينه وبين ابن الاحمر والطاغية ابن اذفونش من الاتصال والاصفاق على تعويقه عن الغزو فبعث الى يغمراسن يسأله عن الذى بلغه عنه ويطلب منه تجديد الصلح وجمع الكلمة فلج فى الخلاف وكشف وجه العناد وأعلن بما وقع بينه وبين أهل العدوة الاندلسية مسلمهم وكافرهم من الوصلة وانه معتزم على وطء بلاد المغرب فصرف السلطان يعقوب عزمه الى غزو يغمراسن وقفل الى فاس لثلاثة أشهر من حلوله بطنجة فدخلها آخر شوال من السنة المذكورة وأعاد الرسل الى يغمراسن لاقامة الحجة عليه وقال له فيما خاطبه به الى متى يا يغمراسن هذا النفور والتمادى فى الغرور أما آن أن تنشرح الصدور وتنقضى هذه الشرور فى كلام غير هذا فصم يغمراسن عن ذلك كله ولم يرفع به رأسا ولما أيس السلطان يعقوب من اقلاعه ورجوعه نهض اليه من فاس آخر سنة تسع وسبعين وستمائة وقدم ابنه الامير يوسف فى العساكر وتبعه فأدركه بتازا ولما انتهى الى ملوية تلوم أياما فى انتظار العساكر ثم ارتحل حتى نزل وادى تافنا وصمد اليه يغمراسن بجموع زناتة والعرب بحللهم ونجعهم وشائهم ونعمهم والتقت طوالع القوم أولا فكانت بينهما حروب ثم ركب على آثارهما العسكران والتحم القتال سائر النهار وكان

الزحف بالموضع المعروف باللعب من أحواز تلمسان ثم انكشفت بنو عبد الواد عندما أراح القوم وانتهب معسكرهم بما فيه من الكراع والسلاح والفساطيط والمتاع وبات عسكر السلطان يعقوب تلك الليلة على متون جيادهم واتبعوا من الغد آثار عدوهم واكتسحت أموال العرب الناجعة الذين كانوا مع يغمراسن وامتلأت أيدي بني مرين من شائهم ونعمهم وتوغلوا في أرض يغمراسن ووافاه هنالك محمد بن عبد القوي أمير بني توجين لقيه بناحية القصبات وعاثوا جميعا في بلاده تخريبا ونهبا ثم أذن السلطان يعقوب لبني توجين في اللحاق ببلادهم وأخذهم بمخنق تلمسان محاصرا لها حتى يصل محمد بن عبد القوي الى مأمنه من جبل وانشريس خوفا عليه من غائلة يغمراسن واتباعه اياه ثم أفرج عنها وقفل الى المغرب فدخل حضرة فاس في رمضان سنة ثمانين وستمائة ثم نهض الى مراكش فدخلها فاتح سنة احدى وثمانين بعدها فبنى بها بامرأة مسعود بن كانون السفياني لانه كان قد هلك قبل هذه السنة وسرح ابنه الامير يوسف الى السوس لتدويخ أقطاره ثم وافاه وهو بمراكش صريخ الطاغية على ما نذكره الآن

﴿الجواز الثالث للسلطان يعقوب الى الاندلس مغيثا للطاغية ومغتنما فرصة الجهاد﴾

لما كان السلطان يعقوب رحمه الله بمراكش سنة احدى وثمانين وستمائة قدم عليه كتاب طاغية الاصبنيول واسمه هراندة مع وفد من بطارقته وزعماء دولته مستصرخا له على ابنه سانجة الخارج عليه في طائفة من النصارى وانهم غلبوه على أمره زاعمين بانه شاخ وضعف عن تدبيرهم ولم يقدر على القيام بنصرتهم فاستنصره عليهم ودعاه لحربهم وأمله لاسترجاع ملكه من يدهم فاغتنم السلطان يعقوب هذه الفرصة في الحال وجعل جوابه نفس النهوض والارتحال فسار معهم لم يعرج على شيء حتى أتى قصر المجاز وهو قصر مصمودة فعبر منه واحتل لوقته بالجزيرة الخضراء في ربيع الثاني من سنة احدى وثمانين المذكورة وأوعز الى الناس بالنفير الى الجهاد واجتمعت عليه مسالح الثغور بالاندلس وسار حتى نزل صخرة عباد وهنالك قدم عليه الطاغية هراندة ذليلا لعزة الاسلام مؤملا لصريخ السلطان فاكرم موصله وأكرم وفادته ﴿وذكر ابن خلدون وابن الخطيب وغيرهما من الاثبات﴾ ان هذا الطاغية لما اجتمع بالسلطان يعقوب قبل يده اعظاما للقدرة وخضوعا للعزة فدعا السلطان رحمه الله بماء فغسل يده من تلك القبلة بمحضر من كان هنالك من جموع المسلمين والفرنج ثم التمس الطاغية من السلطان أن يمده بشيء من المال ليستعين به على حربه ونفقاته فأسلفه السلطان مائة ألف دينار من بيت مال المسلمين رهنه الطاغية فيها تاجه الموروث عن سلفه ﴿قال ابن خلدون﴾ وبقي هذا التاج بدار بني يعقوب بن عبد الحق فخرا للاعقاب لهذا العهد ﴿قلت﴾ وما أبعد حال هذا الطاغية المهين من حال عطارد بن حاجب التميمي الذي لم يسلم قوس أبيه على تطاول السنين والقصة مشهورة فانظر ما بين الهمم العربية والعجمية من البون وحال الفريقين في الابتذال والصون * ثم ان السلطان يعقوب رحمه الله تقدم مع الطاغية ودخل دار الحرب غازيا حتى نازل قرطبة وبها يومئذ سانجة ابن الطاغية الخارج عليه مع طائفته فقاتلها أياما ثم أفرج عنها وتنقل في جهاتها وبعث سراياه الى جيان فأفسدوا زروعها ثم ارتحل الى طليطلة فعاث في جهاتها وخرب عمرانها حتى انتهى الى حصن مجريط من أقصى الثغر فامتلأت أيدي المسلمين وضاق معسكرهم بالغنائم التي استاقوها فقفل السلطان من أجل ذلك الى الجزيرة فاحتل بها في شعبان وأقام بها الى آخر السنة المذكورة وكانت غزوة لم يسمع الدهر بمثلها ﴿وفي هذه السنة﴾ توفي يغمراسن بن زيان على ما في القرطاس ﴿وذكر ابن خلدون﴾ أنه لما حضرته الوفاة أوصى ابنه عثمان وقال له يا بني ان بني مرين بعد استفحال ملكهم واستيلائهم على حضرة الخلافة بمراكش لا طاقة لنا بلقائهم فاياك أن تحاربهم فان مددهم موفور ومددك محصور ولا يغرنك اني كنت أحاربهم ولا أنكص عن لقائهم لاني كنت أخشى معرة الجبن عنهم بعد التمرس بهم والاجتراء عليهم وأنت لا يضرك ذلك لانك لم تحاربهم

قف واعتبر

ولم تمرس بهم فعليك بالتحصن ببلدك متى زحفوا اليك وحاول ما استطعت الاستيلاء على ماجاورك من عمالات الموحدين أصحاب تونس يستفحل بها ملكك وتكافئ حشد العدو بحشدك قال فعمل ابنه عثمان على وصيته وأوفد أخاه محمد بن يغمراسن على السلطان يعقوب وهو بالاندلس فى جوازه الرابع فعقد معه السلم على ماحب وانكفأ راجعا الى أخيه فطابت نفسه وتفرغ لافتتاح البلاد الشرقية

﴿انعقاد الصلح بين السلطان يعقوب وابن الاحمر والسبب فى ذلك﴾

لما اتصلت يد السلطان يعقوب رحمه الله بيد الطاغية وقام معه فى ارتجاع ملكه خشى ابن الاحمر عاديته فجنح الى موالاة ابنه سانجة الخارج عليه ووصل يده بيده وأكد له العقد واضطرمت الاندلس نارا وفتنة بسبب هذا الخلاف ولما قفل السلطان يعقوب من غزوته مع الطاغية وقد ظهر على ابنه أجمع على منازلة مالقة التى استحوذ عليها ابن الاحمر وخدع عنها ابن محلى فنهض السلطان اليها من الجزيرة الخضراء فاتح سنة اثنتين وثمانين وستمائة فغلب أولا على الحصون الغربية كلها ثم أسف الى مالقة فأناخ عليها بعساكره وضاق على ابن الاحمر النطاق ولم تغن عنه موالاة سانجة شيأ وبداله سوء المغبة فى شأن مالقة وندم على تناولها فأعمل نظره فى الخلاص من ورطتها ولم يراها الا الامير يوسف ابن السلطان يعقوب فخاطبه بمكانه من المغرب مستصرخا له لرقع هذا الخرق ورتق هذا الفتق وجمع كلمة المسلمين على عدوهم فأجابه واغتنم المثوبة فى مسعاه وعبر البحر الى الاندلس فى صفر سنة اثنتين وثمانين المذكورة فوافى أباه بعسكره على مالقة ورغب منه السلم لابن الاحمر فى شأنها والتجافى له عنها فاسعف رغبة ابنه لما يؤمل فى ذلك من رضا الله عز وجل فى جهاد عدوه واعلاء كلمته وانعقد السلم وانبسط أمل ابن الاحمر وتجددت عزائم المسلمين للجهاد وقفل السلطان يعقوب الى الجزيرة الخضراء فبث السرايا فى دار الحرب فأوغلوا وأثخنوا ثم استأنف الغزو بنفسه الى طليطلة فخرج من الجزيرة غازيا غرة ربيع الثانى من سنة اثنتين وثمانين المذكورة حتى انتهى الى قرطبة فأثخن وغنم وخرب العمران وافتتح الحصون ثم ارتحل نحو البرت وترك محلته على بياسة بالمغانم والاثقال وترك معها خمسة آلاف فارس يحمونها من كرة العدو ثم أغذ السير فى أرض قفرة ليلتين حتى انتهى الى البرت من نواحى طليطلة فسرح الخيل فى البسائط وجالت فى أكنافها ولم تنته الى طليطلة لتثاقل الناس بكثرة الغنائم وأثخن فى القتل وقفل على غير طريقه فأثخن وخرب وانتهى الى أبدة فوقف بساحتها وقاتلها ساعة من نهار فرماه علج من خلف السور بسهم أصاب فرسه فارتحل عنها الى معسكره ببياسة فأراح بها ثلاثا ينسف آثارها ويقتلع أشجارها وقفل الى الجزيرة وبين يديه من السبي والغنائم مايعجز عنه الوصف فدخلها فى شهر رجب من السنة المذكورة فقسم الغنائم ونفل من الخمس وولى على الجزيرة حافده عيسى بن عبد الواحد بن يعقوب فهلك شهيدا على شريش بسهم مسموم لشهرين من ولايته ثم عبر السلطان الى المغرب فاتح شعبان ومعه ابنه أبو زيان منديل فأراح بطنجة ثلاثا ثم نهض الى فاس فدخلها آخر شعبان ولما قضى صيامه ونسك عيده ارتحل الى مراكش لتمهيدها وتفقد أحوالها وقسم من نظره لنواحى سلا حظا فأقام برباط الفتح شهرين اثنين وتوفيت فى هذه المدة الحرة أم العز بنت محمد بن حازم العلوى وهى أم الامير يوسف وكانت وفاتها برباط الفتح فدفنت بشالة ثم نهض السلطان يعقوب الى مراكش فدخلها فاتح ثلاث وثمانين وستمائة وبلغه مهلك الطاغية هراندة بن اذفونش واجتماع النصرانية على ابنه سانجة الخارج عليه فتحركت همته الى الجهاد ثم سرح ابنه الامير يوسف ولى عهده بالعسكر الى بلاد السوس لغزو العرب الذين بها وكف عاديتهم ومحو آثار الخوارج المنتزين على الدولة فأجفلوا أمامه واتبع آثارهم الى الساقية الحمراء آخر العمران من بلاد السوس فهلك أكثر العرب فى تلك القفار جوعا وعطشا وقفل راجعا لما بلغه من اعتلال والده السلطان يعقوب فوصل الى مراكش وقد أبل من مرضه وعزم على الجهاد شكرا لله تعالى

على نعمة العافية ﴿وفي هذه السنة﴾ وصل ماء عين غبولة الى قصبة رباط الفتح بامر السلطان يعقوب وكان ذلك على يد المعلم المهندس أبي الحسن على بن الحاج والله تعالى أعلم

﴿الجواز الرابع للسلطان يعقوب الى الاندلس برسم الجهاد﴾

لما اعتزم السلطان يعقوب على العبور الى الاندلس عرض جنوده وحاشيته وأزاح عللهم وبعث في قبائل المغرب بالنفير ونهض من مراكش في جمادى الآخرة لثلاث وثمانين وستمائة واحتل برباط الفتح منتصف شعبان فقضى به صومه ونسكه ثم ارتحل الى قصر المجاز وشرع في اجازة العساكر والحشود من المرتزقة والمتطوعة خاتم سنته ثم أجاز البحر بنفسه غرة صفر من سنة أربع وثمانين بعدها واحتل بظاهر طريف ثم سار الى الجزيرة الخضراء فاراح بها أياما ثم خرج غازيا حتى انتهى الى وادى لك وسرح الخيول في بلاد العدو وبسائطه يحرق وينسف فلما خرب بلاد النصرانية ودمر أرضهم قصد مدينة شريش فنزل بساحتها وأناخ عليها في العشرين من صفر سنة أربع وثمانين المذكورة وبث السرايا والغارات في جميع نواحيها وبعث عن المسالح التي كانت بالثغور فتوافت لديه ولحقه حافده عمر بن عبد الواحد بجمع وافر من المجاهدين من أهل المغرب فرسانا ورجالا ووافته حصة العزفي صاحب سبتة غزاة ناشبة تناهز خمسمائة وأوعز الى ولى عهده الامير يوسف باستنفار من بقي من أهل العدوة وكان السلطان رحمه الله لما أناخ على شريش بعث وزيره محمد بن عطوا ومحمد بن عمران عيو نافوافوا حصن القناطر وروطة واستكشفوا ضعف الحامية واختلال الثغور وعادوا الى السلطان فأخبروه ثم عقد السلطان لحافده منصور بن عبد الواحد على ألف فارس من بني مرين والغز وعرب العاصم والخلط والاثبج وأعطاه الراية وبعثه لغزو اشبيلية وذلك في يوم الاحد التاسع والعشرين من صفر من السنة المذكورة فغنموا ومروا بقرمونة في منصرفهم فاستباحوها وأثخنوا بالقتل والاسر ورجعوا وقد امتلأت أيديهم من الغنائم ثم عقد ثانية لحافده عمر بن عبد الواحد على مثلها من الفرسان في يوم الخميس الثالث من شهر ربيع الاول من السنة وأعطاه الراية وسرحه الى بسائط وادى لك فرجعوا من الغنائم بما ملأ العساكر بعد ان أثخنوا فيها بالقتل والتخريب وتحريق الزروع واقتلاع الثمار وأبادوا عمرانها ثم سرح ثامن ربيع المذكور عسكرا من خمسمائة فارس للاغارة على حصن ركش فوافوه على غرة فاكتسحوا أموالهم وسبوا ثم عقد تاسع ربيع أيضا لابنه أبي معرف على ألف من الفرسان وسرحه لغزو اشبيلية فساروا حتى هجموا عليها يوم المولد الكريم وتحصنت منه حاميتها بالاسوار فخرب عمرانها وقطع أشجارها وامتلأت أيدى عسكره سبيا وأموالا ورجع الى محلة السلطان وهي نازلة على شريش كما قدمنا مملوءة الحقائب ثم عقد ثالثة لحافده عمر منتصف ربيع المذكور لغزو حصن كان بالقرب من معسكره كان أهله يقطعون الطريق على من خرج من المحلة مفردا أو في قلة وسرح معه الرجل من الناشبة والفعلة بآلات من المساحي والفؤس وأمده بالرجل من المصامدة وغزاة سبتة فاقتحموه عنوة على أهله وقتلوا المقاتلة وسبوا النساء والذرية وألهقوا خذه بالتراب ونسفوا آثاره نسفا ولسبعة عشر من الشهر ركب السلطان الى حصن مرتقوط قريبا من معسكره فخربه وحرقه بالنار واستباحه وقتل المقاتلة وسبى الاهل ولعشرين من شهره المذكور وصل ولى عهده الامير يوسف من العدوة المغربية بنفير أهل المغرب وكافة القبائل في جيوش ضخمة وعساكر موفورة وركب السلطان للقائهم وبرور مقدمهم وعرض العساكر القادمة معه يومئذ فكانت ثلاثة عشر ألفا من المصامدة وثمانية آلاف من برابرة المغرب كلهم متطوع بالجهاد فعقد السلطان لولى العهد على خمسة آلاف من المرتزقة وألفين من المتطوعة وثلاثة عشر ألفا من الرجل وألفين من الناشبة وذلك في يوم الجمعة الخامس والعشرين من ربيع الاول المذكور وسرحه لغزو اشبيلية والاثخان في نواحيها فعبأ كتائبه ونهض لوجهه وبث

الغارات بين يديه فاثخنوا وسبوا وقتلوا واقتحموا الحصون واكتسحوا الاموال وعاج ولى العهد على الشرف والغابة من بسيط اشبيلية فنسف قراها واقتحم بعض حصونها وقفل الى معسكر السلطان وهو بمكانه من حصار شريش وفي يوم الاثنين السادس من ربيع الثانى قدم أبو زيان منديل ابن السلطان يعقوب من المغرب في جيش كثيف فيهم خمسمائة فارس من عرب بنى جابر أهل تادلا مع كبيرهم يوسف ابن قيطون وفيهم من المتطوعة والناشبة عدد كثير فعقد له السلطان غداة وصوله وأمده بعسكر آخر وأغزاه قرمونة والوادى الكبير فاغار على قرمونة وطمعت حاميتها في المدافعة فبرزوا اليه وصدقهم القتال فانكشفوا حتى أدخلوهم البلد ثم أحاطوا ببرج كان قريبا من البلد فقاتلوه ساعة من نهار واقتحموه عنوة ولم يزل يتقرى المنازل والعمران حتى وقف بساحة اشبيلية فاغار واقتحم برجا كان هنالك عينا على المسلمين وأضرمه نارا وامتلأت أيدى عساكره وقفل الى معسكر السلطان على شريش ولثلاث عشرة ليلة من ربيع الثانى عقد السلطان لولى العهد الامير يوسف لمنازلة جزيرة كبتور فصمد اليها وقاتلها واقتحمها عنوة وفى ثانى جمادى الاولى عقد السلطان للحاج أبى الزبير طلحة بن يحيى بن محلى وكان بعد مداخلته أخاه عمر في شأن مالقة سنة خمس وسبعين خرج الى الحج فقضى فرضه ورجع ومر فى طريقه بتونس فاتهمه الدعى ابن أبى عمارة كان بها يومئذ فاعتقله سنة اثنتين وثمانين ثم سرحه ولحق بقومه بالمغرب ثم عبر الى الاندلس غازيا مع السلطان يعقوب فعقد له فى هذا اليوم على مائتين من الفرسان وسرحه الى اشبيلية ليكون ربيئة للعسكر وبعث معه لذلك عيونا من اليهود والمعاهدين من النصارى يتعرفون له أخبار الطاغية سانجة والسلطان يعقوب رحمه الله أثناء هذا كله يغادى شريش ويراوحها بالقتال والتخريب ونسف الآثار وبث السرايا كل يوم وليلة في بلاد العدو فلا يخلو يوم من تجهيز عسكر أو اغزاء جيش أو عقد راية أو بعث سرية حتى انتسف العمران فى جميع بلاد النصرانية وخرب بسائط اشبيلية ولبلة وقرمونة واستجة وجبال الشرف وجميع بسائط الفرنتيرة وأبلى فى هذه الغزوات عياد بن أبى عياد العاصمى من شيوخ جشم والخضر الغزى من أمراء الاكراد بلاء عظيما وكان لهم فيها ذكر وصيت وكذلك غزاة سبتة وكذا سائر المجاهدين من عرب جشم وغيرهم مثل مهلهل بن يحيى الخلطى صهر السلطان ويوسف بن قيطون الجابرى وغيرهم هؤلاء ممن يطول ذكرهم فلما دمرها تدميرا وأوسعها تخريبا ونسفها نسفا واكتسحها غارة ونهبا وهجم فصل الشتاء وانقطعت الميرة عن العسكر اعتزم السلطان على القفول وأفرج عن شريش لآخر جمادى الاولى من السنة المذكورة بعد ان حاصرها نحوا من ثلاثة أشهر وعشرة أيام واتصل به ان العدو أوعز الى أساطيله باحتلال الزقاق والاعتراض دون الفراض فأوعز السلطان الى جميع سواحله من سبتة وطنجة وبلاد الريف ورباط الفتح والمنكب والجزيرة وطريف بتوجيه أساطيلهم فتوافت منها ستة وثلاثون اسطولا متكاملة فى عدتها فاحجمت أساطيل العدو عنها وارتقت على أعقابها واحتل السلطان يعقوب بالجزيرة الخضراء وهى المسماة اليوم بخوزيرت غرة رمضان من سنة أربع وثمانين وستمائة ونزل بقصره من المدينة الجديدة التى بناها بازائها فبرزت أساطيل المسلمين أمامه بالمرسى وهو جالس بشور قصره فلعبوا بمرأى منه في البحر وتجاولوا وتناطحوا وتطاردوا كفعلهم ساعة الحرب فسر بذلك وأحسن اليهم وصرفهم الى حال سبيلهم

﴿وفادة الطاغية على السلطان يعقوب باحواز الجزيرة الخضراء وعقد الصلح بينهما والسبب فى ذلك﴾

﴿قال ابن خلدون رحمه الله﴾ لما نزل ببلاد النصرانية من السلطان يعقوب ما نزل من تدمير قراهم واكتساح أموالهم وسبى نسائهم وابادة مقاتلتهم وتخريب معاقلهم وانتساف عمرانهم زاغت منهم الابصار وبلغت القلوب الحناجر واستيقنوا أن لا عاصم لهم من أمير المسلمين فاجتمعوا الى طاغيتهم سانجة خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة متوجعين مما أذاقهم جنود الله من سوء العذاب وأليم النكال وجاؤه

على الضراعة لامير المسلمين فى السلم وايفاد الملا من كبار النصرانية عليه فى ذلك والا فلا تزال تصيبهم
منه قارعة أو تحل قريبا من دارهم فأجاب الى مادعوه اليه من الخسف والهضيمة لدينه وأوفد على أمير
المسلمين وهو بالجزيرة الخضراء وفدا من بطارقتهم وشمامستهم يخطبون السلم ويضرعون فى المهادنة
والابقاء ووضع أوزار الحرب فردهم أمير المسلمين اعتزازا عليهم ثم أعادهم الطاغية بترديد الرغبة على ان
يشترط ماشاء من عز دينه وقومه فاسعفهم أمير المسلمين وجنح الى السلم لما تيقن من صاغيتهم اليه وذلهم
لعز الاسلام وأجابهم الى ماسألوه واشترط عليهم ماتقبلوه من مسالمة المسلمين كافة من قومه وغير قومه
والوقوف عند مرضاته فى ولاية جيرانه من الملوك أو عداوتهم ورفع الضريبة عن تجار المسلمين بدار
الحرب من بلاده وترك التضريب بين ملوك المسلمين والدخول بينهم فى فتنة واستدعى السلطان الشيخ
أبا محمد عبد الحق الترجمان وبعثه لاشتراط ذلك واحكام عقده فسار عبد الحق الى الطاغية سانجة وهو
باشبيلية فعقد معه الصلح واستبلغ وأكد فى الوفاء بهذه الشروط ووفدت رسل ابن الاحمر على الطاغية
وهو عنده لعقد السلم معه على قومه وبلاده دون أمير المسلمين وأن يكون معه يدا واحدة عليه فاحضرهم
الطاغية بمشهد عبد الحق وأسمعهم ماعقد مع أمير المسلمين على قومه وأهل ملته كافة وقال لهم انما أنتم
عبيد آبائى فلستم معى فى مقام السلم والحرب وهذا أمير المسلمين على الحقيقة ولست أطيق مقاومته
ولا دفاعه عن نفسى فكيف عنكم فانصرفوا ولما رأى عبد الحق ميله الى رضا السلطان وسوس اليه
بالوفادة عليه لتتمكن الالفة وتستحكم العقدة وأراه مغبة ذلك فى سل السخيمة وتسكين الحفيظة فمال
الى موافقته وسأله لقى الامير يوسف ولى عهد السلطان أولا ليطمئن قلبه فوصل اليه ولقيه على فراسخ
من شريش وبات بمعسكر المسلمين هنالك ثم ارتحلا من الغد للقاء السلطان يعقوب وكان قد أمر الناس
بالاحتفال للقاء الطاغية وقومه واظهار شعائر الاسلام وأبهته وان لا يلبسوا الا البياض فاحتفلوا
وتأهبوا وأظهروا اعز الملة وشدة الشوكة ووفود الحامية وقدم الطاغية فى جماعته سود اللباس خاضعين
ذليلين فاجتمعوا بالامير بحصن الصخرات على مقربة من وادى لك وذلك يوم الاحد العشرين من شعبان
سنة أربع وثمانين وستمائة وتقدم الطاغية فلقيه أمير المسلمين باحسن مبرة وأتم كرامة يلتقى بها مثله من
عظماء الملل وقدم الطاغية بين يديه هدية من طرف بلاده أتحف بها السلطان وولى عهده كان فيها زوج
من الحيوان الوحشى المسمى بالفيل وحمارة من حمر الوحش الى غير ذلك من الطرف فتقبلها السلطان
وابنه وأضعفوا له المكافأة وكمل عقد السلم وقبل الطاغية سائر الشروط ورضى بعز الاسلام عليه وانقلب
الى قومه بملء صدره من الرضا والمسرة وسأل منه السلطان أن يبعث اليه بكتب العلم التى بايدى
النصارى منذ استيلائهم على مدن الاسلام فبعث اليه منها ثلاثة عشر حملا فيها جملة من مصاحف
القرآن الكريم وتفاسيره كابن عطية والثعلبى ومن كتب الحديث وشروحاتها كالتهذيب والاستذكار
ومن كتب الاصول والفروع واللغة والعربية والادب وغير ذلك فأمر السلطان رحمه الله بحملها الى فاس
وتحبيسها على المدرسة التى أسسها لطلبة العلم وقفل السلطان فاحتل بقصره من الجزيرة لليلتين بقيتا
من شعبان فقضى صومه ونسك عيده وجعل من قيام ليله جزء المحاضرة أهل العلم وأعد الشعراء كلمات
أنشدوها يوم عيد الفطر بمشهد الملا فى مجلس السلطان وكان من أسبقهم فى ذلك الميدان شاعر الدولة
أبو فارس عبد العزيز الملزوزى الاصل المكناسى الدار ويعرف بعزوز أتى بقصيدة طويلة من بحر الوافر
على روى الباء المفتوحة المردوفة بالالف ذكر فيها سيرة السلطان وغزواته وغزوات بنيه وحفدته
وامتدح قبائل مرين ورتبهم على منازلهم وذكر فضلهم وقيامهم بالجهاد وذكر قبائل العرب على
اختلافها وأنشدت بحضر السلطان والحاشية فأمر السلطان لمنشئها بألف دينار وخلعة ولمنشدها
بمائتين دينار ثم أعمل السلطان نظره فى الثغور فرتب بها المسالح وبعث ولده الامير أبا زيان منديلا

ليقف على الحد بين أرضه وأرض ابن الاحمر وعقد له على تلك الناحية وأنزله بحصن ذكوان قرب مالقة وأوصاه أن لا يحدث في بلاد ابن الاحمر حدثا وعقد لعياد بن أبي عياد العاصمي على مسلحة أخرى وأنزله بأسطبونة وأجاز ابنه الامير يوسف الى المغرب لتفقد أحواله ومباشرة أموره وأمره أن يبني على قبر والده أبي الملوك عبد الحق بتافرطاست زاوية فاختط هنالك رباطا حفيلا وبني على قبر الامير عبد الحق وابنه ادريس أسنمة من الرخام ونقشها بالكتابة ورتب عليها قراء التلاوة القرآن ووقف على ذلك ضياعا وأرضا تسع حرث أربعين زوجا رحم الله الجميع بمنه

﴿وفاة السلطان يعقوب بن عبد الحق رحمه الله﴾

وفي آخر ذي القعدة من سنة أربع وثمانين وستمائة مرض السلطان يعقوب بن عبد الحق مرضه الذي توفي منه فلم يزل ألمه يشتد وحاله يضعف الى ان توفي بقصره من الجزيرة الخضراء من أرض الاندلس في ضحى يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من المحرم فاتح سنة خمس وثمانين وستمائة وحمل الى رباط الفتح من بلاد العدوة فدفن بمسجد شالة وقبره اليوم طامس الاعلام رحمه الله

﴿بقية أخبار السلطان يعقوب بن عبد الحق وسيرته﴾

كان السلطان يعقوب رحمه الله أبيض اللون تام القد معتدل الجسم حسن الوجه واسع المنكبين كامل اللحية معتدلها أشيب نقي البياض حليما متواضعا جوادا مظفرا منصور الراية ميمون النقيبة لم يقصد جيشا الا هزمه ولا عدوا الا قهره ولا بلدا الا فتحه صواما قواما دائم الذكر كثير البر لا تزال سبحته في يده مقربا للعلماء مكرما للصلحاء صادرا في أكثر أموره عن رأيهم ولما استقام له الامر بنى المرستانات للمرضى والمجانين ورتب لهم الاطباء لتفقد أحوالهم وأجرى على الكل المرتبات والنفقات من بيت المال وكذا فعل بالجذمى والعمى والفقراء رتب لهم مالا معلوما يقبضونه في كل شهر من جزية اليهود وبنى المدارس لطلبة العلم ووقف عليها الاوقاف وأجرى عليهم بها المرتبات كل ذلك ابتغاء ثواب الله تعالى نفعه الله بقصده

﴿الخبر عن دولة السلطان الناصر لدين الله يوسف بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله تعالى﴾

لما مرض السلطان يعقوب بقصره من الجزيرة الخضراء مرضه نساؤه وطيرن بالخبر الى ولي عهده الامير يوسف وكان يومئذ بالمغرب فاتصل به الخبر وهو باحواز فاس فاسرع السير الى طنجة وقد مات أبوه قبل وصوله فاخذ البيعة له الوزراء والاشياخ ولما عبر اليهم البحر واحتل بالجزيرة جددوا له البيعة غرة صفر سنة خمس وثمانين وستمائة وأخذوها له على الكافة فاستتب ملكه واستقام أمره ففرق الاموال وأجزل الصلات وسرح السجون ورفع عن الناس الاخذ بزكاة الفطر ووكلهم فيها الى أمانتهم وكف أيدي الظلمة والعمال عن الناس وأزال المكوس ورفع الانزال عن دور الرعية وصرف اعتناءه الى اصلاح السابلة فازال أكثر الرتب والقبالات التي كانت بالمغرب الا ما كان منها في الاقطار الخالية والمفازات المخوفة فخضعت من تحت قهره وصلح أمر الناس في أيامه وكان أول شئ أحدث من أمره ان بعث الى ابن الاحمر وضرب له موعدا للاجتماع به فبادر اليه ولقيه بظاهر مربالة في العشر الاول من ربيع الاول من السنة المذكورة فلقاه السلطان مبرة وتكريما وتجافى له عن جميع الثغور الاندلسية التي كانت في ملكة أبيه ونزل له عنها ما عدا الجزيرة ورندة وطريف وتفرقا من مكانهما على أكمل حالات المصافاة والوصلة ورجع السلطان يوسف الى الجزيرة فقدم عليه بها وفد الطاغية سانجة مجددين عقد السلم الذي عقده لهم السلطان يعقوب رحمه الله ولما تمهد للسلطان يوسف أمر الاندلس عقد لاخيه أبي عطية العباس بن يعقوب على الثغور الغربية وأوصاه بضبطها وعقد للشيخ المجاهد أبي الحسن علي بن يوسف

ابن

ابن يزكاتن على مسلحتها وجعل اليه أمر الحرب وأعنة الخيل وأمده بثلاثة آلاف من بني مرين والعرب ثم عبر البحر الى المغرب يوم الاثنين سابع ربيع الآخر من السنة المذكورة فنزل بقصر المجاز ثم سار الى حضرة فاس فدخلها ثاني عشر جمادى الاولى منها ولحين استقراره بها خرج عليه محمد بن ادريس ابن عبد الحق في بنيه واخوته ومن انضم اليه ولحق بجبال ورغة ودعا لنفسه فسرح اليه السلطان يوسف أخاه أبا معرّف محمد بن يعقوب فبدا له في النزوع اليهم فلحق بهم وشايعهم على رأيهم من الخلاف فأغزاهم السلطان يوسف عساكره وردد اليهم البعوث والكتائب ثم تلطف في استنزال أخيه حتى نزل على الامان وفرّ بنو ادريس الى تلمسان فقبض عليهم أثناء طريقهم وجيء بهم في الحديد الى تازا فبعث السلطان يوسف أخاه أبا زيان فقتلهم خارج باب الشريعة منها في رجب من السنة ورهب الاعياص من بني عبد الحق يومئذ وخافوا بادرة السلطان يوسف فلحقوا بغرناطة متلفين على بني ادريس منهم ثم ارتحل السلطان في رمضان من السنة المذكورة الى مراكش لتمهيد نواحيها وتثقيف أطرافها فدخلها في شوال وأقام بها الى رمضان القابل من سنة ست وثمانين وستمائة فنهض من مراكش لغزو عرب معقل بصحراء درعة لانهم كانوا قد أضروا بالرعايا وأفسدوا السابلة فسار اليهم في اثني عشر ألفا من الخيل ومر على بلاد هسكورة معترضا جبل درن وأدركهم نواجع بالقفر فأثخن فيهم بالقتل والسبي واستكثر من رؤسهم فعلقت بشرفات مراكش وسجلماسة وفاس وقفل من غزوه آخر شوال من السنة المذكورة الى مراكش فنكب محمد بن علي بن محلي عاملها القديم الولاية بها من لدن انقراض الدولة الموحدية لما وقع من الارتياب باولاد محلي بكثرة خروجهم على الدولة وكانت نكبته غرة محرم سنة سبع وثمانين وستمائة وهلك في السجن في صفر الموالي له وعقد السلطان يوسف على مراكش وأعمالها لمحمد ابن عطو الجاناتي من موالي دولتهم ولاء حلف وترك معه ابنه أبا عامر عبد الله بن يوسف ثم ارتحل السلطان يوسف الى فاس فدخلها منتصف ربيع من السنة المذكورة

﴿قدوم بني اشقيلولة على السلطان يوسف بسلا واقطاعه اياهم قصر كتامة والسبب في ذلك﴾

قد تقدم لنا ان بني اشقيلولة كانوا من وجوه الاندلس وأهل الرياسة بها حتى صاهرهم ابن الاحمر بابنته وأخته وقاموا معه في اثبات قواعد ملكه ثم انحرفوا عنه الى موالاة بني مرين ونزل محمد بن عبد الله بن أبي الحسن منهم الى السلطان يعقوب عن مالقة وكان عمه أبو اسحق بن أبي الحسن صاحب وادي آش وأعمالها واتصل ذلك في بنيه الى ان بويع السلطان يوسف فقاموا بدعوته فيها ثم حصلت المصافاة وتأكدت المودة بين السلطان يوسف وابن الاحمر على ما أسلفناه آنفا فطلب ابن الاحمر من السلطان يوسف ان ينزل له عن وادي آش التي هي لبني اشقيلولة المتمسكين بدعوته كما نزل له عن غيرها من الثغور فأجابه السلطان الى ذلك وكتب الى أبي اسحق بن أبي الحسن بن اشقيلولة يأمره بالتخلي له عنها فتركها له وعبر هو وحاشيته البحر الى السلطان يوسف سنة سبع وثمانين المذكورة فلقيه بمدينة سلا فأعطاه السلطان يوسف القصر الكبير وأعماله طعمة سوّغه اياها فلم تزل ولايته متوارثة في بنيه حتى انقرضوا آخر دولة بني مرين واستمكن ابن الاحمر من وادي آش وحصونها ولم يبق له بالاندلس منازع من قرابته والله أعلم

﴿حدوث الفتنة بين السلطان يوسف وعثمان بن يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان﴾

قد تقدم لنا ان يغمراسن لما حضرته الوفاة أوصى ابنه عثمان ان لا يحدث مع بني مرين حربا ولا يواقفهم في زحف ما استطاع لاستغلاظ أمرهم عليه بملكهم المغرب الاقصى وأعماله وان عثمان قد عمل على ذلك فاوفد أخاه محمد بن يغمراسن على السلطان يعقوب بالاندلس وعقد معه السلم ورجع الى أخيه كما تقدم ولما ولي السلطان يوسف وقفل من مراكش الى فاس في هذه المرة بعد ان ترك ابنه أبا عامر عبد الله

مع محمد بن عطوا عامل مراكش ثار أبو عامر المذكور بها وخلع طاعة أبيه ودعا الى نفسه وشايعه ابن عطوا على ذلك واتصل الخبر بالسلطان يوسف وهو بفاس فاسرع السير الى مراكش وبرز اليه ابنه أبو عامر فاقتتلوا ثم انهزم أبو عامر فعاد الى مراكش واكتسح بيت المال بها وفر الى تلمسان ومعه ابن عطوا المذكور فقدماها سنة ثمان وثمانين وستمائة فآواهم عثمان بن يغمراسن ومهد لهم المكان فلبثوا عنده مليا ثم عطفت السلطان على ابنه الرحم فرضى عنه وأعاده الى مكانه وطالب عثمان ابن يغمراسن ان يسلم اليه ابن عطوا الناجم فى النفاق مع ابنه فأبى من اضاعة جواره واخفاء ذمته وأغلظ له الرسول فى القول فسطا به عثمان واعتقله فثارت من السلطان يوسف الحفائظ الكامنة وتحركت منه الاحن القديمة والنزعات المتوارثة فاعتزم على غزو تلمسان ونهض اليها من مراكش فى صفر من سنة تسع وثمانين وستمائة بعد ان عقد عليها لابنه الامير أبى عبد الرحمن يعقوب بن يوسف ثم نهض من فاس اليها آخر ربيع الآخر من سنته فى عساكره وجنوده وحشد القبائل وكافة أهل المغرب وسار حتى نازل تلمسان فتحصن منه عثمان وقومه باسوارها فحاصره السلطان يوسف وضيق عليه ونصب عليه المجانيق وكان حصاره اياها فى رمضان من السنة المذكورة ثم سار فى نواحيها ينسف الآثار ويخرب القرى ويحطم الزروع ثم نزل بذراع الصابون من ناحيتها ثم انتقل منه الى تامت وحاصرها أربعين وما وقطع أشجارها وأباد خضراءها ولما امتنعت عليه أفرج عنها وانكفأ راجعا الى المغرب وقضى نسك الفطر بعين الصفا من بلاد بنى يزناسن ونسك الاضحى وقربانه بتازا وتلبث بها أياما ثم نهض منها الى الاندلس بقصد الجهاد على ما نذكره

﴿انتقاض الطاغية سانجة واجازة السلطان يوسف اليه﴾

لما رجع السلطان يوسف من غزو تلمسان وافاه الخبر وهو بتازا ان الطاغية سانجة قد انتقض ونبذ العهد وتجاوز التخوم وأغار على الثغور فاوعز السلطان الى قائد المسالح بالاندلس على بن يوسف بن يزكاتن بالدخول الى دار الحرب ومنازلة شريش وشن الغارات على بلاد الطاغية فنهض لذلك فى ربيع الآخر من سنة تسعين وستمائة وجاس خلالها وتوغل فى أقطارها وأبلغ فى النكاية ثم فصل السلطان يوسف من تازا غازيا على أثره فى جمادى الاولى من السنة المذكورة واحتل قصر مصمودة وهو قصر المجاز واستنفر أهل المغرب وقبائله فنفروا وشرع فى اجازتهم البحر فبعث الطاغية أساطيله الى الزقاق تحجز لهم دون الاجازة فاوعز السلطان يوسف الى قواد أساطيله بالسواحل بعمارتها لمقابلة أساطيل العدو ففعلوا وقدمت فالتقت مع أساطيل العدو ببحر الزقاق فى شعبان من السنة فاقتتلوا وانكشف المسلمون ومحصهم الله وقتل قواد الاساطيل فامر السلطان يوسف باستئناف العمارة ثم أغزاهم ثانية فخامت أساطيل العدو عن اللقاء وصاعدوا عن الزقاق فلكته أساطيل السلطان فاجاز أخريات رمضان من السنة واحتل بطريف ثم دخل دار الحرب غازيا فنازل حصن بجير ثلاثة أشهر وضيق عليهم وبث السرايا فى أرض العدو وردد الغارات على شريش واشبيلية ونواحيها الى ان بلغ فى النكاية والاثخان غرضه وقضى من الجهاد وطره وهجم عليه فصل الشتاء وانقطعت الميرة عن العسكر فافرج عن الحصن ورجع الى الجزيرة الخضراء ثم عبر الى المغرب فاتح سنة احدى وتسعين وستمائة فتظاهر ابن الاحمر والطاغية على منعه من الجواز مرة أخرى كما نذكره الآن

﴿حدوث الفتنة بين السلطان يوسف وابن الاحمر واستيلاء الطاغية على طريف بمظاهرة ابن الاحمر له عليها﴾

لما قفل السلطان يوسف من الاندلس وقد أبلغ فى نكاية العدو كما قلنا عظم على الطاغية أمره وثقلت

عليه وطأته فشرع فى اعمال الحيلة فى الافساد بينه وبين ابن الاحمر وكان ابن الاحمر يتخوف من السلطان يوسف أن يغلبه على بلاده نخاص مع الطاغية نجيا وتفاوضا فى أمر السلطان يوسف وان تمكنه من الاجازة اليهم اغناه ولقرب مسافة بحر الزقاق وانتظام ثغور المسلمين حفافيه وتصرف شوانيهم وسفنهم فيه متى أرادوا فضلا عن الاساطيل الجهادية وان أم تلك الثغور هى طريف وانهم اذا استمكنوا منها منعوا السلطان من العبور وكانت عينا لهم على الزقاق وكان أسطولهم بمرفائها رصدا لاساطيل صاحب المغرب الخائضة بلجة ذلك البحر فاعترم الطاغية على منازلة طريف وبها يومئذ مسلحة بنى مرين وتكفل له ابن الاحمر بمظاهرته على ذلك والترم له بالمدد والميرة للعسكر أيام منازلتها على ان تكون له ان خلصت للطاغية وتعاهدوا على ذلك وأناخ الطاغية بعساكر النصرانية على طريف وألح عليها بالقتال ونصب الآلات من المجانيق والعرادات وأحاط بها برا وبحرا وانقطع المدد والميرة عن أهلها وحالت أساطيل العدو بينهم وبين صريخ السلطان واضطرب ابن الاحمر معسكره بمالقة قريبا من عسكر الطاغية وسرب اليه المدد من الرجال والسلاح والميرة وأصناف الاقوات وبعث عسكر المنازلة حصن اسطبونة فتغلب عليه بعد مدة من الحصار واتصلت هذه الحال أربعة أشهر حتى أصاب أهل طريف الجهد ونال منهم الحصار فراسلوا الطاغية فى الصلح والنزول عن البلد فصالحهم واستنزلهم وتملكها آخر يوم من شوال سنة احدى وتسعين وستمائة ووفى لهم بما عاهدهم عليه واستشرف ابن الاحمر الى تجافى الطاغية له عنها حسبما تعاهدا عليه فاعرض عن ذلك واستأثر بها بعد ان كان نزل له عن ستة من الحصون عوضا عنها فخرج من يده الجميع ولم يحصل على طائل فكانت حاله فى ذلك كحال صاحبة النعامة المضروب بها المثل عند العرب وبالله تعالى التوفيق

﴿ثورة عمر بن يحيى بن الوزير الوطاسى بحصن تازوطا﴾

(اعلم) ان بنى وطاس فخذ من بنى مرين لكنهم ليسوا من بنى عبد الحق وكانت الرياسة فيهم لبنى الوزير منهم وبنو الوزير يزعمون ان نسبهم دخيل فى مرين وانهم من أعقاب يوسف بن تاشفين اللمتونى لحقوا بالبادية ونزلوا على بنى وطاس فالتحموا بهم ولبسوا جلدتهم وحازوا رياستهم ولما دخل بنو مرين المغرب واقتسموا أعماله كما قدمنا بقيت بلاد الريف خالصة لبنى وطاس هؤلاء فكانت ضواحيها لنزولهم وأمصارها ورعاياها لجبايتهم وكان حصن تازوطا بها من أمنع معاقل المغرب ولما غلب الامير أبو بكر بن عبد الحق على مكناسة وأقام فيها دعوة الحفصيين ونهض السعيد بن المأمون الموحدى من مراكش لغزوه فرّ أمامه الى حصن تازوطا هذا ونزل به على بنى الوزير هؤلاء لاجيا اليهم ومستجيرا بهم فارادوا الفتك به غيرة منه وحسدا له فشعر بهم وتحول عنهم الى عين الصفا من بلاد بنى يزناسن حسبما تقدم ذلك كله ولما انقرض أمر بنى عبد المؤمن واستقام ملك المغرب لبنى مرين صرفوا اعنايتهم الى هذا الحصن فكانوا ينزلون به من الحامية من يثقون بغنائه واضطلاعه لئلا يكون آخذا بناصية هؤلاء الرهط من بنى وطاس لما يعلمون من سموّهم الى الرياسة وتطلعهم اليها وكان السلطان يوسف رحمه الله قد عقد على هذا الحصن لابن أخيه منصور بن عبد الواحد بن يعقوب وكان عمر وعامر ابنا يحيى بن الوزير رئيسين على بنى وطاس لذلك العهد فاستهونوا أمر السلطان يوسف بعد موت والده وحدثوا أنفسهم بالثورة فى ذلك الحصن والاستبداد بتلك الناحية فوثب عمر بن يحيى منهم بمنصور بن عبد الواحد فى شعبان من سنة احدى وتسعين وستمائة وفتك بحاشيته ورجاله وأزعجه عن الحصن وغلبه على ما كان بقصره من مال وسلاح ومتاع وأعشار للروم كانت مختزنة هنالك وضبط الحصن وشحنه برجاله ووجوه قومه ولحق منصور ابن عبد الواحد بعمه السلطان يوسف فهلك الليال أسفا على ما أصابه وسرّح السلطان يوسف وزيره الناصح أبا على عمر بن السعود بن خرباش الحشمى بالحاء المهملة فى العساكر لمنازلة حصن تازوطا فاناخ

عليه بكليكاه ثم تبعه السلطان يوسف على أثره وفى صحبته عامر بن يحيى بن الوزير أخو عمر الثائر فانه كان قد نزع اليه فاحاط السلطان بالحصن وضيق عليه حتى أشفق عمر لشدة الحصار ويئس من الخلاص وظن انه قد أحيط به فدس الى أخيه عامر فى كشف ما نزل به فضمن عامر للسلطان يوسف نزول أخيه ان هو تركه يصعد اليه حتى يجتمع به فاذن له السلطان يوسف فى ذلك فصعد اليه وتفاوضا فى أمرهما وآخر الامر ان عمر احتمل الذخيرة وفر ليلا الى تلمسان وبدا لعامر فى النزول عندما صار فى الحصن فامتنع به قيل لانه بلغه ان السلطان يوسف عزم على قتله أخذا بثار ابن أخيه منصور ولا قلانه أخاه من يده واستمر على ذلك الى ان قدم على السلطان يوسف وفد الاندلس وفيهم الرئيس أبو سعيد فرج بن اسمعيل بن الاحمر صاحب مالقة راغبا فى الصلح مع ابن عمه ومعتذرا عنه فارسى أساطيله بمرسى غساسة ونزل الى السلطان وقدم بين يديه هدية تناسب الحال فسمع بهم عامر الوطاسى وهو فى الحصن فبعث اليهم يسألهم الشفاعة له عند السلطان يوسف لوجاهتهم لديه فشفع له الرئيس أبو سعيد فتقبل السلطان يوسف شفاعته بشرط ان ينتقل بحاشيته الى الاندلس وكره عامر ذلك فاظهر الرضا وقدم بين يديه جماعة من حاشيته الى المرسى وركب أكثرهم الاسطول وتأخر عامر الى جوف الليل فنزل من الحصن وخاض الفلاة الى تلمسان فتبعت الخيل أثره ففاتهم وأدركوا ولده أبا الخيل فجىء به الى السلطان يوسف فبعث به الى فاس فضربت عنقه وصلب هنالك وأنزل السلطان يوسف بقية الحاشية من الاسطول فامر بهم فاستلحموا مع من كان بالحصن من أتباعهم وقرابتهم وذرياتهم وتملك السلطان يوسف حصن تازوطا وأنزل به عماله ومسلحته وقفل الى حضرته بفاس آخر جمادى الاولى من سنة اثنتين وتسعين وستمائة ولما كان السلطان نازلا على تازوطا قدم عليه رجل من فرنج جنوة بهدية جليلة فيها شجرة مموهة بالذهب عليها أطيار تصوت بحركات هندسية مثل ما صنع للمتوكل العباسى وفى هذه المدة سعى عند السلطان يوسف باولاد الامير أبى بكر بن عبد الحق وانهم أرادوا الخروج عليه فحقد عليهم لذلك وأحسوا بالشر ففروا الى تلمسان وأقاموا هنالك الى ان بعث السلطان يوسف اليهم بالامان فاقبلوا حتى اذا كانوا بصبيرة من ناحية ملوية اعترضهم الامير أبو عامر عبد الله ابن السلطان يوسف فاستلحمهم أجمعين وهو يرى انه قد أرضى أباه بذلك الفعل واتصل الخبر بالسلطان يوسف فسخطه وأقصاه وتبرأ منه فلم يزل طريدا ببلاد الريف وجبال غمارة الى ان هلك ببنى سعيد منهم آخر سنة ثمان وتسعين وستمائة وحمل الى فاس فدفن بالزاوية التى داخل باب الفتوح وخلف ثلاثة أولاد عامرا وسليمان وداود فكفلهم جدهم السلطان يوسف الى ان هلك فولى الامر بعده حافده عامر وبعد عامر سليمان وسيأتى ذكرهما ان شاء الله

﴿انعقاد الصلح بين السلطان يوسف وابن الاحمر ووفادته عليه بطنجة﴾

لما استولى الطاغية على طريف بمظاهرة ابن الاحمر له عليها ونقض الطاغية عهد ابن الاحمر فى النزول له عنها سقط فى يد ابن الاحمر وندم على فعله ورجع الى التمسك بالسلطان يوسف فاوفد عليه ابن عمه الرئيس أبا سعيد فرج بن اسمعيل ووزيره أبا سلطان عزيز الدانى فى وفد من أهل حضرته لتجديد العهد وتأكيد المودة وتقرير المعذرة عن شأن طريف فوافوه بمكانه من حصار تازوطا كما قدمنا فابرموا العقد وأحكموا الصلح وانصرفوا الى ابن الاحمر سنة اثنتين وتسعين وستمائة باسعاف غرضه من المواخاة واتصال اليد فوقع ذلك منه أجمل موقع وطار سرورا وأمن اعوانه وأجمع الرحلة الى السلطان لاحكام العقد والاستبلاغ فى العذر عن واقعة طريف والرغبة اليه فى نصرة بلاد الاندلس واغاثة المسلمين الذين بها فتهيأ لذلك وعبر البحر فى ذى القعدة من سنة اثنتين وتسعين وستمائة واحتل بجبل بنيونش من ناحية سبتة ثم ارتحل الى طنجة فلقيه بها الاميران أبو عامر عبد الله وأبو عبد الرحمن يعقوب ابنا السلطان يوسف وكان أبو عامر لا زال يومئذ من أبيه بعين الرضا ولما علم السلطان يوسف بقدومه خرج من فاس للقائه وبرور

مقدمه فوافاه بطنجة فقدم ابن الاحمر بين يدى نجواه هدية أتحف بها السلطان يوسف كان من أحسنها موقعا لديه المصحف الكبير الذى يقال انه مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه كان بنو أمية يتوارثونه بقرطبة ثم خلص الى ابن الاحمر فاتحف به السلطان يوسف فى هذه المرة فتقبل السلطان ذلك وكافأه باضعافه وبالغ فى تكريمته وأسعفه بجميع مطالبه وأراد ابن الاحمر ان يبسط العذر عن شأن طريف فتجافى السلطان يوسف عن سماع ذلك وأضرب عن ذكره صفحا وبرّ وأحفى ووصل وأجزل ونزل لابن الاحمر عن الجزيرة ورندة والغربية وعشرين حصنا من ثغور الاندلس كانت قبل فى ملكته وملكة أبيه وعاد ابن الاحمر الى أندلسه آخر سنة اثنتين وتسعين وستمائة محبوا محبورا وعبرت معه عساكر السلطان يوسف لحصار طريف ومنازلته وعقد على حربها الوزيره الشهير الذكر عمر بن السعود بن خرباش الحشمى فنازلها مدة فامتنعت عليه وأفرج عنها وفى سنة ثلاث وتسعين بعدها فرغ السلطان يوسف من بناء جامع تازا وعلقت به الثريا الكبرى من النحاس الخالص وزنها اثنان وثلاثون قنطارا وعدد كؤسها خمسمائة كاس وأربعة عشر كأسا وأنفق السلطان فى بناء الجامع وعمل الثريا المذكورة ثمانية آلاف دينار ذهبا وفى سنة أربع وتسعين بعدها خرج السلطان يوسف لغزو تلمسان فوصل الى تاوريرت وكانت تخما لعمل بنى مرين وبنى عبد الواد فنصفها للسلطان يوسف ونصفها لعثمان بن يغمراسن ولكل واحد منهما بها عامل من ناحيته فطرد السلطان يوسف عامل ابن يغمراسن وشرع فى بناء الحصن الذى هنالك فادار سوره وشيده وركب أبوابه مصفحة بالحديد وكان يقف على بنائه بنفسه من صلاة الغداة الى المساء لا يغيب عن العملة الا فى أوقات الضرورة وفرغ من بنائه وتحصينه فى رمضان من السنة المذكورة ولما تم شحنه بالعسكر والسلاح وعقد عليه لاخيه أبى بكر بن يعقوب ويكنى أبا يحيى وانكفأ راجعا الى الحضرة ثم خرج من فاس سنة خمس وتسعين بعدها بقصد تلمسان فسار حتى نزل على ندرومة فحاصرها وشدد فى قتالها ورماها بالمنجنيق أربعين يوما فامتنعت عليه فافرج عنها ثانى عيد الفطر من السنة المذكورة ثم دخلت سنة ست وتسعين وستمائة فسار الى تلمسان وبرز عثمان بن يغمراسن لمدافعته فانهزم وتحصن بالاسوار وتقدم السلطان يوسف حتى نزل على تلمسان وقتل من أهلها خلقا ثم أقلع عنها ورجع الى المغرب فقضى نسك الاضحى من السنة المذكورة برباط تازا وأمر ببناء القصر بها وسار الى فاس فدخلها فاتح سنة سبع وتسعين وستمائة ثم ارتحل الى مكناسة فقضى بها بعض الوطر ثم عاد الى فاس ثم خرج منها فى جمادى الاولى من السنة المذكورة غازيا تلمسان ومر فى طريقه بمدينة وجدة فامر ببنائها وكان أبوه السلطان يعقوب قد هدمها كما مر فبناها السلطان يوسف فى هذه المرة وحصن أسوارها وبنى بها قصبة ودار السكنى وحماما ومسجدا ثم سار الى تلمسان فنزل بساحتها وأحاطت عساكره بها احاطة الهالة بالقمر ونصب عليها القوس البعيدة النزع العظيمة الهيكل المسماة بقوس الزيار اخترعها المهندسون والصناع وتقربوا الى السلطان بعملها فاعجبته وكانت تحمل على احد عشر بغلا ولما امتنعت تلمسان عليه أفرج عنها فاتح سنة ثمان وتسعين وستمائة ومر فى عوده الى المغرب بوجدة فانزل بها الحامية من بنى عسكر بن محمد لنظر أخيه الامير أبى بكر بن يعقوب كما كانوا بتاوريرت وأمرهم بشن الغارات على أعمال تلمسان مع الساعات والاحيان ففعلوا واستولى الامير أبو بكر بذلك على أكثر تلك الجهات والله تعالى أعلم

﴿فتكة ابن الملياني بشيوخ المصامدة وتزويره الكتاب بهم والسبب فى ذلك﴾

قد تقدم لنا عند الكلام على فتح جبل تينملل ان أبا على الملياني كان قد سعى فى نبش قبور بنى عبد المؤمن والعبث باشلائهم وان الناس قد غاظهم ذلك لاسيما المصامدة منهم ولما هلك السلطان يعقوب وولى بعده ابنه يوسف استعمل أبا على الملياني على جباية المصامدة فباشرها مدة ثم سعى به شيوخ المصامدة عند السلطان بانه احتجن المال لنفسه فامر السلطان بمحاسبته فحوسب وظهرت مخايل صدقهم عليه فنكبه

السلطان يوسف أولا ثم قتله ثانيا واصطنع ابن أخيه أبا العباس أحمد بن علي المليانى واستعمله فى كتابته وأقامه ببابه فى جملة كتابه وكان السلطان يوسف قد سخط على بعض شيوخ المصامدة منهم على بن محمد كبير هنتاتة وعبد الكريم بن عيسى كبير قدميوة وأوعز الى ابنه الامير على بن يوسف بمراكش باعتقالهما فاعتقلهما فيمن لهما من الولد والحاشية وأحس بذلك أحمد بن المليانى فاستعجل الثار الذى كان يعتمده عليهم فى عمه أبى على وكانت العلامة السلطانية يومئذ موكولة الى كتاب الدولة لم تختص بواحد منهم لما كانوا كلهم ثقات أمناء وكانوا عند السلطان كأسنان المشط فكتب أحمد بن المليانى الى الامير أبى على كتابا على لسان والده يأمره فيه أمرا جزما بقتل مشيخة المصامدة ولا يمهلهم طرفة عين ووضع عليه العلامة التى تنفذ بها الاوامر السلطانية وختم الكتاب وبعث به مع البريد ﴿قال ابن الخطيب﴾ ولما أكد على حامله فى العجل وضايقه فى تقدير الاجل تأتى حتى اذا علم انه قد وصل وان غرضه قد حصل فر الى تلمسان وهى بحال حصارها فاتصل بانصارها طالبين أنوفها وأبصارها وتعجب الناس من فراره وسوء اغتراره ورجمت الظنون فى آثاره ثم وصلت الاخبار بتمام الحيلة واستيلاء القتل على اعلام تلك القبيلة فتركها شنعا على الايام وعارا فى الاقاليم على جملة الاقلام اه ولما وصل الكتاب الى ولد السلطان أخرج أولئك الرهط المعتقلين الى مصارعهم وحكم السيف فى رقاب جميعهم فقتل على بن محمد الهنتاتى وولده وعبد الكريم بن عيسى القدميوى وبنوه الثلاثة عيسى وعلى ومنصور وابن أخيه عبد العزيز بن محمد وطير الامير على بالاعلام الى والده مع بعض وزرائه وهو يرى انه قد امتثل الامر واستوجب الشكر فلما وصل الرسول بالخبر الى السلطان يوسف بطش به فقتله غيظا عليه وأنفذ البريد فى الحال باعتقال ولده وقام وقعد لذلك ومن ذلك الوقت قصر السلطان علامته على من يختاره من ثقات الكتاب وعدولهم وجعلها يومئذ للفقيه الكاتب أبى محمد عبد الله بن أبى مدين وكان من الكفاة المضطلعين بامور الدولة المتحملين للكثير من أعبائها وأما ابن المليانى فانه فر الى تلمسان والسلطان يوسف محاصر لها ولما وقع الافراج عنها بعد حين انتقل الى الاندلس فبقى هنالك الى ان توفى بغرناطة سنة خمس عشرة وسبعمائة ومن شعره يفخر بهذه الفعلة وغيرها قوله

العز ما ضربت عليه قبابى * والفضل ما اشتملت عليه ثيابى
والزهر ما أهداه غصن يراعتى * والمسك ما أبداه نقس كتابى
فالمجد يمنع أن يزاحم موردى * والعزم يأبى ان يضام جنابى
فاذا بلوت صنيعة جازيتها * بجميل شكرى أو جزيل ثوابى
واذا عقدت مودة أجريتها * مجرى طعامى من دمى وشرابى
واذا طلبت من الفراقد والسهى * ثارا فاوشك أن أنال طلابى

﴿الحصار الطويل وما تخلل ذلك من الاحداث على تلمسان﴾

تقدم لنا ان السلطان يوسف لما رجع من محاصرة تلمسان فاتح سنة ثمان وتسعين وستمائة مر فى طريقه بوجدة فانزل بها الحامية من بنى عسكر الى نظر أخيه الامير أبى بكر وأمره بشن الغارات على أعمال بنى زيان فامتثل الامير أبو بكر أمره وألح على النواحى بالغارات وافساد السابلة فضاق أهل ندرومة بذلك ذرعا وأوفدوا وفدا منهم على الامير أبى بكر يسألونه الامان لهم ولمن وراءهم من قومهم على ان يمكنوه من قياد بلادهم ويدينوا بطاعة السلطان يوسف فبذل لهم من ذلك ما أرضاهم ونهض الى البلد فدخله بعسكره وتبعهم على ذلك أهل تاونت فاوفد الامير أبو بكر جماعة من أهل البلدين على أخيه السلطان يوسف فقدموا عليه منتصف رجب من سنة ثمان وتسعين المذكورة فأدوا طاعتهم فقبلها ورغبوا اليه فى الحركة الى بلادهم ليريحهم من ملكة عدوه وعدوهم عثمان بن يغمراسن ووصفوا له من

عسفه وجوره وضعفه عن الحماية ما أكد عزمه على النهوض فنهض لحينه من فاس في رجب المذكور بعد ان استكمل حشده ونادى في قومه وعرض عسكره وأجزل أعطياتهم وأزاح عللهم وسار في التعبية حتى نزل بساحة تلمسان ثاني شعبان سنة ثمان وتسعين وستمائة فأناخ عليها بكلكله وربض قبالتها على ترائبه وأنزل محلته بفنائها وأحاط بجميع جهاتها وتحصن يغمراسن وقومه بالجدران وعولوا على الحصار ولما رأى السلطان يوسف ذلك أدار سورا عظيما جعله سياجا على تلمسان وما اتصل بها من العمران وصيرها في وسطه ثم أردف ذلك السور من ورائه بحفير بعيد المهوى وفتح فيه مداخل لحربها ورتب على أبواب تلك المداخل مسالح تحرسه وأوعد بالعقاب من يختلف الى تلمسان برفق أو ينقل اليها بقوت وأخذ بمخنقها من بين يديها ومن خلفها حتى لم يخلص اليها الطير لا بل الطيف واستمر مقيما عليها كذلك مائة شهر ولما دخلت سنة اثنتين وسبعمائة اختط الى جانب ذلك السور بمكان فسطاطه وقبابه قصرا لسكناه واتخذ به مسجدا للصلاة وأدار عليه ماسورا يحرزهما ثم أمر الناس بالبناء حول ذلك فبنوا الدور الواسعة والمنازل الرحيبة والقصور الانيقة واتخذوا البساتين وأجروا المياه وأمر السلطان باتخاذ الحمامات والفنادق والمارستان وابتنى مسجدا جامعا أقامه على الصهريج الكبير وشيد له منارا رفيعا وجعل على رأسه تفافيح من ذهب صير عليها سبعمائة دينار ثم أدار السور على ذلك كله فصارت مدينة عظيمة استبحر عمرانها ونفقت أسواقها ورحل اليها التجار بالبضائع من جميع الآفاق وسماها المنصورة فكانت من أعظم أمصار المغرب وأحفلها الى ان خربها آل يغمراسن عند مهلك السلطان يوسف وارتحال جيوشه عنها ولما تمكن السلطان يوسف من حصار تلمسان سرح كتائبه وسراياه في أعمالها وحصونها فاستولى في مدة قريبة على ندرومة وهنين ووهران وتالموت وتامزردكت ومستغانم وتنس وشرشال وبرشك والبطحاء ومازونة ووانشريس ومليانة والقصبات ولمدية وتافرجينت وجميع بلاد بني عبد الواد وبلاد بني توجين وبلاد مغراوة وبايعه ابن علان صاحب الجزائر وأخذ رعبه بملوك النواحي وكانت دولة بني أبي حفص يومئذ قد انقسمت بقسمين فصار كرسي منها بتونس وآخر ببجاية فتنافس صاحب تونس وصاحب بجاية في مصانعة السلطان يوسف والتقرب اليه بالهدايا والتحف وصار السلطان يوسف في ذلك الوقت ملك المغرب على الحقيقة والاطلاق والله غالب على أمره

﴿نكبة بني وقاصة من يهود فاس﴾

كان بنو وقاصة هؤلاء من يهود ملاح فاس وكانوا مداخلين للسلطان يوسف من صغره الى كبره وكانوا يتولون قهرمة داره ويقضون أموره الخاصة به ويخلصون الى الكثير من باطن أمره قد اقتحموا به اقتحاما وامترجوا به امتزاجا يجالسونه في خلواته وينادمونه في ساعة أنسه فعظم جاههم عند الحاشية لاقبال السلطان عليهم واستتبعوا الوزراء فمن دونهم من رجال الدولة وتعددت فيهم الرؤساء والقهارمة فكان منهم خليفة بن وقاصة وأخوه ابراهيم وصهره موسى بن السبتي وابن عمه خليفة الاصغر وغيرهم واستمروا على ذلك برهة من الدهر ثم ان السلطان يوسف استفاق استفاقة والتفت اليهم التفاتة وراجع بصيرته في شأنهم فاهمه أمرهم وشعر كاتبه بذلك القائم بامور دولته أبو محمد عبد الله بن أبي مدين فسعى عنده فيهم وأوجده السبيل عليهم فسطا بهم سطوة منكرة واعتقلوا في شعبان من سنة احدى وسبعمائة بعسكره من حصار تلمسان وقتل خليفة الكبير وأخوه ابراهيم وموسى بن السبتي واخوته بعد ان امتحنوا ومثل بهم وأتت النكبة على حاشيتهم وأقاربهم فلم تبق منهم باقية الا أن السلطان استبقى منهم خليفة الاصغر احتقارا لشأنه حتى كان من قتله بعد ما نذكره وعبث بسائرهم وطهرت الدولة من رجسهم وأزيل منها معرة رياستهم والامور بيد الله سبحانه ثم لما كانت سنة ثلاث وسبعمائة توفي عثمان ابن يغمراسن في الحصار عقب شربة لبن يقال انه جعل فيها سما وشربه فعل ذلك بنفسه تفاديا من معرة

غلبة عدوه عليه فاجتمع بنو عبد الواد لحينهم وبايعوا ابنه محمد بن عثمان واجتمعوا عليه ثم برزوا الى قتال عدوهم على العادة حتى كأن عثمان لم يمت وبلغ الخبر الى السلطان يوسف فتفجع على عثمان وعجب من صرامة قومه من بعده

﴿انتقاض ابن الاحمر واستيلاء الرئيس أبي سعيد على سبتة﴾

كان محمد بن الاحمر المعروف بالفقيه قد هلك سنة احدى وسبعمائة وولى الامر بعده ابنه محمد المعروف بالمخلوع واستبدّ عليه كاتبه أبو عبد الله محمد بن الحكيم الرندى وكان من أوّل ما فعله محمد المخلوع بعد استقلاله بالامر المبادرة الى احكام عقد الموالاة بينه وبين السلطان يوسف فاوفد عليه وزير أبيه أبا سلطان عبد العزيز بن سلطان الدانى ووزيره الكاتب أبا عبد الله بن الحكيم فوصلا الى السلطان يوسف بعسكره من حصار تلمسان فتلقاهما بالقبول والمبرة وجدّدت لهما أحكام الود والولاية وانقلبا الى مرسامها خير منقلب وطلب السلطان منهما أن يمدّوه بالرجل من عسكر الاندلس وناشبتهم المعوّدين منازلة الحصون والمناغرة بالرباط فأسعفوه ثم فسد ما بينهم المنافسات جرت الى ذلك فانتقض ابن الاحمر وعاد لسنة سلفه من موالاة الطاغية وعلى الاتم على المسلمين أهل المغرب وأحكم العهد مع هراندة بن سانجة من بنى اذفونش ملوك قشتالة خذلهم الله ثم أوعز ابن الاحمر الى ابن عمه الرئيس أبى سعيد فرج بن اسمعيل صاحب مالقة فى اعمال الحيلة فى الغدر بأهل سبتة ففعل وداخل فى ذلك بعض عمال بنى العزفى بها وأمكنه من البلد فاقتحمها بأساطيله وجنده على حين غفلة من أهلها وتقبض على بنى العزفى وعلى حاشيتهم وأركبهم الاسطول وبعث بهم الى مالقة ثم منها الى غرناطة فتلقاهم ابن الاحمر واحتفل لهم وأنزلهم بقصوره وأجرى عليهم النفقة واستقروا بالاندلس برهة من الدهر ثم عادوا الى المغرب كما نذكر واستبدّ الرئيس أبو سعيد بامر سبتة وتثقف أطرافها وسدّ ثغورها وبلغ الخبر بذلك الى السلطان يوسف فحمى أنفه وعظم عليه الامر فبعث ولده الامير أبا سالم ابراهيم فى جيش كثيف الى حصارها وحشد اليها قبائل الريف وقبائل تازا فلم يغن شيأ ورجع مهزوما فسخطه السلطان لذلك وأهمله وبقى على ذلك الى وفاة السلطان رحمه الله وكان انتقاض ابن الاحمر سنة ثلاث وسبعمائة

﴿ثورة عثمان بن أبى العلاء بجبال غمارة﴾

كان عثمان بن أبى العلاء ادريس بن عبد الله بن عبد الحق من اعياص الملك المرينى وكان قد قدم من الاندلس فى صحبة الرئيس أبى سعيد عند استيلائه على سبتة ثم ثار بعد ذلك ببلاد غمارة ودعا لنفسه وبقى متنقلا هنالك مدة فتغلب على تكساس وآصيلا والعرايش وانتهى الى قصر كتامة وخب فى الفتنة ووضع الى ان لحق بالاندلس لاول دولة السلطان أبى الربيع فولى بها مشيخة الغزاة وكانت له فى جهاد العدوّ اليد البيضاء كما سيأتى ان شاء الله وفى سنة ثلاث وسبعمائة بعث السلطان يوسف وهو محاصر لتلمسان ركب الحاج المغربى الى الحرمين الشريفين واعتنى بشأن هذا الركب فبعث معهم حامية من زناتة تناهز خمسمائة فارس من الابطال وخاطب صاحب الديار المصرية لعهده وهو الملك الناصر محمد ابن قلاوون الصالحى من مماليك بنى أيوب المعروفين بالبحرية واستوصاه بحاج أهل المغرب وأتحفه بهدية استكثر فيها من الخيل العراب والمطايا الفارهة يقال كان عدد الخيل أو المطايا أربعمائة الى غير ذلك مما يناسب من طرف المغرب وماعونه وبعث معهم الى حرم مكة مصحفا ضخما اعتنى به واستكتبه وجعل له غشاء مكللا بنفيس الدرّ وشريف الياقوت ورفيع الاحجار ونهج السلطان يوسف رحمه الله بهذا الركب والهدية السبيل لحاج المغرب فاجمعوا الحج سنة أربع بعدها فاجتمع منهم عدد وافر وركب ضخم فعقد السلطان يوسف على دلالتهم لابى زيد الغفارى وفصلوا من تلمسان فى شهر ربيع الاول من السنة

المذكورة

المذكورة وفي شهر ربيع الآخر بعده قدم حاج الركب الاول الذين حملوا المصحف والهدية وقدم معهم على السلطان يوسف شريف مكة السيد لبيدة بن أبي نمي نازعا عن سلطان الترك صاحب مصر لما كان قد قبض على أخويه حميضة ورميثة بعد مهلك أبيهم أبي نمي صاحب مكة فاستبلغ السلطان يوسف في اكرامه والتنويه بقدره وسرحه الى المغرب ليجول في أقطاره ويطوف على معالم الملك وقصوره وأوعز الى العمال بالبر وبه واتحافه على ما يناسب قدره ورجع هذا الشريف الى حضرة السلطان من تلمسان سنة خمس وسبعمائة ثم فصل منها الى مشرفه وفي شعبان من هذه السنة قدم أبو زيد الغفاري دليل ركب الحاج الثاني ومعه بيعة الشرفاء أهل مكة للسلطان يوسف لما كان صاحب مصر قد أسفهم بالتقبض على اخوانهم وكان ذلك شأنهم متى غاظهم السلطان وأهدوا الى السلطان يوسف ثوبا من كسوة الكعبة أعجب به فاتخذ منه ثوبا للبوسه في الجمع والاعياد كان يستبطنه بين ثيابه تبركا به ﴿وأما﴾ الملك الناصر صاحب مصر فانه كافأ السلطان يوسف على هديته بان جمع من طرف بلاد المشرق ما يستغرب جنسه وشكله من الثياب والحيوانات ونحو ذلك مثل الفيل والزرافة ونحوهما وأوفد به مع عظماء دولته وفصلوا من القاهرة آخر سنة خمس وسبعمائة فوصلوا الى السلطان يوسف وهو بالمنصورة في جمادى الآخرة سنة ست بعدها واهتز لقدومهم وأركب الناس لقيهم وأكرم وفادتهم وبعثهم الى المغرب للتطوف به على العادة في مبرة أمثالهم وهلك السلطان يوسف أثناء ذلك وأفضى الامر الى حافده أبي ثابت فاحسن منقلبهم وملأ حقائبهم وفصلوا من المغرب الى بلادهم في ذي الحجة من سنة سبع وسبعمائة ولما انتهوا الى بلاد بني حسن في ربيع من سنة ثمان بعدها اعترضتهم الاعراب بالقفر فانتهبوهم وخلصوا الى مصر بجريعة الذقن فلم يعاودوا بعدها الى المغرب سفرا ولا لفتوا اليه وجها وطالما أوفد عليهم ملوك المغرب بعدها من رجال دولتهم من يؤبه له ويهادونهم ويكافئون ولا يزيدون في ذلك كله على الخطاب شيأ

﴿وفاة السلطان يوسف رحمه الله﴾

كان السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله قد اتخذ في جملة حاشيته ومماليكه خصيا اسمه سعادة وكان هذا الخصي قد تصير اليه من جهة أبي علي المليانى أيام كان عاملا له على مراكش وكان السلطان يوسف في ابتداء أمره يخلط الخصيان بأهله ولا يحجبهم عن حرمه وعياله ثم حدثت للسلطان ريبة في بعض الخصيان فاعتقل جملة منهم كان فيهم عنبر الكبير عريفهم وحجب سائرهم فارتاعوا لذلك وفسدت نياتهم فسولت لهذا الخصي الخبيث نفسه الشيطانية الفتك بالسلطان فعمد اليه وهو في بعض حجر قصره فاستأذن عليه فأذن له فألفاه مستلقيا على فراشه مختضبا بحناء فوثب عليه وطعنه طعنات قطع بها امعاءه وخرج هاربا وانطلق بعض الاولياء في أثره فأدركه من العشي بناحية تاسلة فقبض عليه وجيء به الى القصر فقتلته العبيد والحاشية وصابر السلطان يوسف منيته الى آخر النهار ثم قضى رحمه الله يوم الاربعاء سابع ذي القعدة من سنة ست وسبعمائة وقبر هنالك ثم نقل بعد ما سكنت الهيعة الى مقبرتهم بشالة فدفن بها مع سلفه وأطلال ضريحه لازالت ماثلة الى الآن وبموت السلطان يوسف انقضت مدة الحصار عن آل يغمراسن وقومهم من بني عبد الواد وسائر أهل تلمسان وكانت المدة في ذلك مائة شهر كما قلنا نالهم فيها من الجهد والشدة مالم ينل أمة من الامم واضطروا الى أكل الجيف والقطوط والفيران حتى انهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الناس وخربوا السقوف للوقود وغلت أسعار الاقوات والحبوب وسائر المرافق بما تجاوز حد العادة وعجز وجدهم عنها فكان ثمن مكيال القمح ومقداره اثنا عشر رطلا ونصف مثقالين ونصفا من الذهب العين وثمن الشخص الواحد من البقر ستين مثقالا ومن الضأن سبعة مثاقيل ونصفا وأثمان اللحم من الجيف الرطل من لحم البغال والحمير بثمن المثقال ومن الخيل بعشر

المثقال والرطل من الجلد البقري ميتة أو مذكى بثلاثين درهما والهر الداجن بمثقال ونصف والكلب بمثله والفأر بعشرة دراهم والحية بمثل ذلك والدجاجة بثلاثين درهما والبيض واحدة بستة دراهم والعصافير كذلك والاوقية من الزيت باثني عشر درهما ومن السمن بمثلها ومن الشحم بعشرين درهما ومن الملح بعشرة دراهم ومن الحطب كذلك والاصل الواحد من الكرنب بثلاثة أثمان المثقال ومن الخس بعشرين درهما ومن اللفت بخمسة عشر درهما والواحدة من القثاء والفقوس بأربعين درهما والخيار بثلاثة أثمان الدينار والبطيخ بثلاثين درهما والحبة من التين والاجاص بدرهمين واستهلك الناس أموالهم وموجودهم وضاقت أحوالهم وهلكت حاميتهم فاعتزموا على الالقاء باليد والخروج للاستماتة فهيأ الله لهم الصنع الغريب ونفس عن مخنقهم بهلاك السلطان يوسف على يد الخصي المريب وأذهب الله العناء عن آل زيان وقومهم وخرجوا كأنما نشروا من القبور وكتبوا بعد هذه الحادثة في سكتهم ما أقرب فرج الله استغرابا لها ﴿قال ابن خلدون﴾ حدثني شيخنا أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الابلي قال جلس السلطان أبو زيان بن عثمان بن يغمراسن صبيحة يوم الفرج وهو يوم الاربعاء سابع ذي القعدة في زاوية من زوايا قصره يفكر واستدعى ابن حجاف خازن الزرع فسأله كم بقي من الاهراء والمطامير المختومة فقال له انما بقي عولة اليوم وغد فاستوصاه بكتمان ذلك وبينما هم يتذاكرون في ذلك دخل عليهم أخوه أبو حمو فاخبروه بذلك فوجم وجلسوا سكوتا لا ينطقون واذا بعدعة قهرمانة القصر وكانت وصيفة من وصائف بنت السلطان أبي اسحق حظية أبيهم قد خرجت من القصر اليهم وحيتهم وقالت لهم تقول لكم حظايا قصركم وبنات زيان حرمكم مالنا وللبقاء وقد أحيط بكم وأسف عدوكم لالتهامكم ولم يبق الا فواق ناقة لمصارعكم فأريحونا من معرة السبي وقربونا الى مصارعنا وأريحوا أنفسكم فينا فالحياة في الذل عذاب والوجود بعدكم عدم فالتفت أبو حمو الى أخيه أبي زيان وكان من الشفقة بمكان فقال قد صدقتك الخبر فاتنتظر بهن فقال يا موسى أرجئني ثلاثا لعل الله يجعل بعد عسر يسرا ولا تشاورني بعدها فيهن بل سرح اليهود والنصارى الى قتلهن وتعال الي نخرج مع قومنا الى عدونا فنستميت ويقضي الله ما شاء فغضب أبو حمو وأنكر عليه التأخير في ذلك وقال انما نحن والله نتربص المعرة بهن وبأنفسنا وقام عنه مغضبا وجهش السلطان أبو زيان بالبكاء قال ابن حجاف وأنا بمكاني بين يديه لا أملك متأخرا ولا متقدما الى ان غلب عليه النوم فما راعني الا حرسي بالباب يشير الي ان أعلم السلطان بمكان رسول جاء من محلة بني مرين وها هو بسدة القصر قال ابن حجاف فلم أطق رد جوابه الا بالاشارة وانتبه السلطان من همسنا فزعا فأعلمته فاستدعاه للحين فلما وقف بين يديه قال ان السلطان يوسف بن يعقوب هلك الساعة وأنا رسول حافده أبي ثابت اليكم فاستبشر السلطان أبو زيان واستدعى أخاه وقومه حتى بلغ الرسول المذكور رسالته بمسمع منهم فكانت احدى المغربات في الايام وكان من خبر هذه الرسالة ان السلطان يوسف لما هلك تطاول للامر بعده القرابة من اخوته وولده وحفدته وتحيز حافده أبو ثابت الى بني ورتاجن لخؤولة كانت له فيهم فاستجاش بهم واعصوصبوا عليه وبعث الى بني زيان ان يمطوه آلة الحرب ويكونوا مفزعا له ان أخفق مسعاه على انه ان تم أمره قوض عنهم معسكر بني مرين وأفرج عنهم فعاقدوه على ذلك فوفى لهم لما تم أمره ونزل لهم عن جميع الاعمال التي كان السلطان يوسف غلب عليها من بلادهم ورحلوا الى مغربهم والله غالب على أمره

﴿بقية أخبار السلطان يوسف وسيرته﴾

كان السلطان يوسف رحمه الله أبيض حسن القد مليح الوجه أقنى الانف مهيبا لا يكاد أحد يبدؤه بالكلام جوادا مشفقا على الرعية متفقدا لاحوالها شجاعا شهما ذا عزيمة

اذا هم ألقى بين عينيه همه * ونكب عن ذكر العواقب جانباه

وهو

وهو أول من هذب ملك بني مرين وأكسبه رونق الحضارة وبهاء الملك وكان غليظ الحجاب لا يكاد يوصل اليه الا بعد الجهد ومن أعيان كتابه الكاتب أبو محمد عبد الله بن أبي مدين العثماني ومن أعيان شعرائه أبو الحكم مالك بن المرحل السبتي وأبو فارس عبد العزيز الملزوزي المكناسي وغيرهما والله تعالى أعلم

﴿ولنذكر﴾ ما كان في هذه المدة من الاحداث (ففي سنة ست وخمسين وستمائة) وهي السنة التي بويع فيها السلطان يعقوب بن عبد الحق كان الرخاء المفرط بالمغرب بحيث كان الدقيق يباع بفاس وغيرها ربع منه بدرهم والقمح ستة دراهم للصحفة والشعير ثلاثة دراهم للصحفة وأما القطاني فلم يكن لها ثمن والعسل ثلاثة أرطال بدرهم والزيت أربعون أوقية بدرهم والزبيب درهم ونصف للربع والتمر ثمانية أرطال بدرهم واللوز صاع بدرهم والشابل الطري فردة بقيراط واللحم حمل بدرهم ولحم البقر مائة أوقية بدرهم ولحم الضأن سبعون أوقية بدرهم والكبش بخمسة دراهم وهكذا ﴿وفي سنة احدى وستين وستمائة﴾ ظهر النجم أبو الذوائب وكان ابتداء ظهوره ليلة الثلاثاء الثاني عشر من شعبان من السنة المذكورة وبقي يطلع كل ليلة وقت الصبح نحوا من عشرين يوما ﴿وفي سنة أربع وستين وستمائة﴾ كان دخول الشريف المولى حسن بن قاسم الحسني من أرض ينبع الحجاز الى سجلماسة وهذا الشريف هو جد الاشراف العلويين السجلماسيين ملوك المغرب الاقصى في عصرنا هذا أعلى الله تعالى قدرهم وخلد مجدهم وفخرهم وعند الكلام على دولتهم السعيدة نذكر كيفية دخول هذا الشريف الى المغرب والسبب فيه ان شاء الله ﴿وفي سنة ست وستين وستمائة﴾ سرق من بيت المال بقصبة فاس اثنا عشر ألف دينار وثلاث قلائد تساوي أكثر من ذلك ﴿وفي حدود السبعين وستمائة﴾ كان ظهور البارود على ما مر من ان السلطان يعقوب بن عبد الحق فتح به سجلماسة في هذه المدة والله تعالى أعلم ﴿وفي سنة سبع وسبعين وستمائة﴾ بني المسجد الجامع بفاس الجديد ﴿وفي سنة تسع وسبعين وستمائة﴾ علقت به ثرياه وذلك يوم السبت السابع والعشرين من ربيع الاول منها ووزن هذه الثريا سبعة قناطير وخمسة عشر رطلا وعدد كؤوسها مائتا كاس بالتثنية وسبع وثمانون كاسا وفيها كان الجراد العام بالمغرب أكل الشجر والزرع ولم يترك خضراء على وجه الارض وبلغ القمح عشرة دراهم للصاع ﴿وفي سنة ثمانين وستمائة﴾ بنيت قنطرة وادي النجاة وقنطرة ماريج ﴿وفي سنة ثلاث وثمانين وستمائة﴾ كان بالمغرب قحط شديد لم ير الناس قطرة ماء حتى كان اليوم السابع والعشرون من رمضان وهو اليوم الذي توفيت فيه الحرة أم العز بنت محمد بن حازم العلوية من بني علي بن عسكر وهي أم السلطان يوسف فغاث الله العباد وأحيى برحمته البلاد ﴿وفي سنة خمس وثمانين وستمائة﴾ بنيت قصبة تطاوين وفيها ركبت الناعورة الكبرى على وادي فاس شرع في عملها في رجب من السنة المذكورة ودارت في صفر من السنة بعدها ﴿وفي سنة ست وثمانين وستمائة﴾ بني سور قصر المجاز وركبت أبوابه وفيها غرس بستان المصارة بفاس الجديد وبنيت الدار البيضاء بها أيضا ﴿وفي سنة تسع وثمانين وستمائة﴾ كانت الريح الشرقية المتوالية الهبوب ونشأ عنها القحط الشديد واستمر ذلك الى آخر سنة تسعين بعدها فرحم الله بلاده وعباده وفيها توفي الشيخ الصالح أبو يعقوب الاشقر بالكندرتين من بلاد بني بهلول من أحواز فاس ولعل أبا يعقوب هذا هو الذي تنسب اليه الحمة التي قدمنا الكلام عليها في أخبار المنصور الموحدي والله أعلم وفيها بني المسجد الجامع بمدينة تازا وبنيت قبة مكناسة الزيتون ورباعها ﴿وفي سنة احدى وسبعين وستمائة﴾ أمر السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق بعمل المولد النبوي وتعظيمه والاحتفال له وصيره عيدا من الاعياد في جميع بلاده وذلك في شهر ربيع الاول من السنة المذكورة وكان الامر به قد صدر عنه وهو بصبرة من بلاد الريف في آخر صفر من السنة فوصل برسم اقامته بحضرة فاس الفقيه أبو يحيى بن أبي الصبر واعلم انه قد كان سبق السلطان يوسف الى هذه المنقبة المولدية بنو العزفي أصحاب سبتة فهم أول من أحدث عمل المولد الكريم بالمغرب

عمل المولد النبوي

والله تعالى أعلم ﴿وفى سنة ثلاث وتسعين وستمائة﴾ كان كسوف الشمس وذلك قرب زوال يوم الاحد التاسع والعشرين من رجب من السنة المذكورة كسف منها نحو الثلثين وصلى بالناس صلاة الكسوف بجامع القرويين من فاس الخطيب أبو عبد الله بن أبى الصبر حتى انجلت فخرج من المحراب ووقف بازائه فوعظ الناس وذكرهم وفى هذه السنة رفعت أيدى الموثقين من الشهادة بفاس ولم يبق بها منهم سوى خمسة عشر رجلا من أهل العدالة والمعرفة وكانوا قبل ذلك أربعة وتسعين وكان ذلك يوم الاثنين الحادى عشر من شوال من السنة المذكورة وفيها كانت المجاعة الشديدة والوباء العظيم عم ذلك بلاد المغرب وافريقية ومصر فكانت الموتى تحمل اثنان وثلاثة وأربعة على المغتسل وبلغ القمح عشرة دراهم للمد والدقيق ست أواق بدرهم وأمر السلطان يوسف بتبديل الصيعان وجعلها على مد النبى صلى الله عليه وسلم وكان ذلك بالحضرة على يد الفقيه أبى فارس عبد العزيز الملزوزى الشاعر المشهور ﴿ثم دخلت سنة أربع وتسعين وستمائة﴾ فيها اصلح أمر الناس وانجبرت أحوالهم ورخصت الاسعار فى جميع الامصار فبيع القمح بعشرين درهما للصحفة وفى هذه السنة كسفت الشمس أيضا الكسوف الكلى بحيث غاب قرص الشمس كله وصار النهار ليلا كالحالة التى تكون ما بين العشاءين وظهرت النجوم وماج الناس وضاقت نفوسهم ولولا ان الله سبحانه تداركهم بسرعة انجلائها لهلكوا جزعا وكان ذلك بعد صلاة ظهر الثلاثاء الثامن والعشرين من ذى الحجة من سنة أربع وتسعين المذكورة ﴿وفى سنة سبعمائة﴾ أسس السلطان يوسف بن يعقوب مدينته المنصورة بازاء تلمسان وهو محاصر لها الحصار الطويل حسبما مر الخبر على ذلك مستوفى وبالله تعالى التوفيق

﴿الخبر عن دولة السلطان أبى ثابت عامر بن عبد الله بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله﴾

قد تقدم لنا ان أبا عامر عبد الله ابن السلطان يوسف كان قد انتبذ عن أبيه وبقى متنقلا فى جهات الريف وبلاد غمارة الى ان هلك فى بلاد بنى سعيد منهم وانه خلف ثلاثة أولاد أحدهم أبو ثابت عامر بن عبد الله هذا الذى ولى الامر بعد جده وذلك انه لما هلك السلطان يوسف رحمه الله بالمنصورة كما تقدم كان حافده أبو ثابت هذا فى جملته وكان له فى بنى ورتاجن من أهل تلك البلاد خؤولة فلحق بهم ودعا لنفسه فبايعوه وقاموا معه فى أمره وبايعه معهم أشياخ بنى مرين والعرب بظاهر المنصورة يوم الخميس ثانى يوم وفاة جده يوسف وبادر الحاشية والوزراء ومن شايعهم بداخل المنصورة الى بيعة الامير أبى سالم ابن السلطان يوسف وكاد أمر بنى مرين يفسد وكلمتهم تفترق فبعث السلطان أبو ثابت لحينه وكان شهما مقداما الى صاحبى تلمسان أبى زيان وأبى حمو ابنى عثمان بن يغمراسن فعقد لهما عهدا على ان يرحل عنهم بجموعه وان يمدوه بالآلة ويرفعوا له كسر بيتهم ويضموه اليهم ان خاب أمله ولم يتم له أمر فأجابوه الى ذلك وحضر العقد أبو حمو فأحكمه وشرط عليه السلطان أبو ثابت أن لا يتعرضوا المدينة جده المنصورة بسوء وان يتعاهدوا مساجدها وقصورها بالاصلاح وان من أراد الاقامة بها من أهلها فلا لاحد عليه من سبيل لان الناس كانوا قد استوطنوها وألفوها وطاب مقامهم بها وتأثلوا بها الاثاث والمتاع والخرثى وسائر الماعون مما يثبط المرتحل ويثقل جناح الناهض فقبل أبو حمو ذلك كله وتفرغ السلطان أبو ثابت لشأنه وجمع كلمة قومه واختل أمر أبى سالم فلم يتم وكتب السلطان أبو ثابت الى حامية بنى مرين وحصصها التى كانت متفرقة فى الثغور الشرقية التى استولى عليها السلطان يوسف أيام حياته فاقبلوا اليه ينسلون من كل حدب وأسلموا البلاد الى أهلها من بنى عبد الواد وقتل السلطان أبو ثابت عمه أبا سالم بن يوسف ثم اتبعه بعم أبيه أبى بكر بن يعقوب فى آخرين من القرابة وغيرهم ممن يتوقع منه الشر وفر بقية القرابة خشية على أنفسهم من سطوة أبى ثابت فلحقوا بعثمان ابن أبى العلاء الثائر بجبال غمارة من عهد السلطان يوسف فشايعوه على أمره وتقوى بهم على ما نذكره

ثم ارتحل السلطان أبو ثابت قاصداً حضرة فاس في جموع لا تحصى وأمم لا تستقصى فعيد عيد الأضحى من سنة ست وسبعمائة في طريقه بين تلمسان ووجدة ثم نهض الى فاس فدخلها فاتح سنة سبع وسبعمائة ثم نهض بعد ذلك الى مراكش على ما نذكره ولما علم بنو يغمراسن ان أبا ثابت قد أبعد عنهم وانه توغل في البلاد المراكشية واشتغل بحروب الثائرين بها عمدوا الى المنصورة فجملوا عاليها سافلها وطمسوا معالمها ومحوا آثارها فأصبحت كأن لم تغن بالامس

﴿ثورة يوسف بن محمد بن أبي عياد بن عبد الحق وما كان من أمره﴾

كان السلطان أبو ثابت لما انفصل من تلمسان قدم بين يديه ابن عمه الحسن بن عامر بن عبد الله بن يعقوب وأمره بالنظر في أحوال فاس والمغرب وأمره بضبطها وتسريح مسجونها ورد مظالمها وتفريق الاموال على الخاصة والعامة ففعل ولما قدم حضرة فاس عقد لابن عمه يوسف بن محمد بن أبي عياد بن عبد الحق على مراكش ونواحيها وعهد اليه بالنظر في أحوالها وضبطها فقصد اليها واحتل بها وتمكن منها ثم حدثته نفسه بالانتزاء فاستلحق واستركب واتخذ الآلة وجاهر بالخلعان وتقبض على الوالي بمراكش الحاج المسعود فقتله من تحت السياط في جمادى الآخرة سنة سبع وسبعمائة ودعا لنفسه واتصل الخبر بالسلطان أبي ثابت وهو بفاس فسرح اليه وزيره يوسف بن عيسى بن السعود بن خرباش الحشمي بالحاء المهملة ويعقوب بن آصناك في خمسة آلاف فارس فسار والى مراكش وبرز يوسف بن محمد بن أبي عياد الى حربهم وعبر اليهم وادي أم الربيع فالتقوا معه على ضفته الشرقية فهزموه وعاد الى مراكش واتبعه الوزير ودخل ابن أبي عياد مراكش فقتل جماعة من جند الفرنج الذين بها وسبى ذراريهم وخرج منها الى اغمات فلم يستقر بها ثم فر الى جبال هسكورة فنزل على كبيرها مخلوف بن هنو الهسكوري ولحق به موسى بن سعيد الصبيحي من اغمات تدلى من سورها فلحق به ودخل السلطان أبو ثابت مراكش منتصف رجب من سنة سبع وسبعمائة وأمر بقتل أوربة المداخلين لابن أبي عياد في انتزائه فاستلحموا جميعاً ولما لحق ابن أبي عياد بمخلوف بن هنو الهسكوري واستجار به لم يجره على السلطان أبي ثابت بل قبض عليه مع ثمانية من كبار أصحابه وبعثهم في الحديد اليه وهو بمراكش فقتلوا في مصرع واحد بعد ان مثل بهم بالسياط وبعث برأس ابن أبي عياد الى فاس فطيف به فيها ونصب على سورها ثم أثخن أبو ثابت في كل من كان على رأي ابن أبي عياد وخاض معه في الفتنة فاستلحم منهم بمراكش ما ينيف على الستمائة وصلبهم على سورها من باب الرب أحد أبواب مراكش الى برج دار الحرة عزونة وقتل في اغمات منهم مثل ذلك وخرج منتصف شعبان الى منازلة السكسيوي وتدويخ جهات مراكش فنزل بتامزوارت وتلقاه السكسيوي بالبيعة والهدية والضيافة فقبل السلطان أبو ثابت ذلك منه ثم بعث قائده يعقوب بن آصناك في جيش من ثلاثة آلاف فارس الى بلاد حاحة برسم غزو قبائل زكنة ففروا بين يديه حتى دخلوا بلاد القبلة وانقطع أثرهم ورجع الى معسكر السلطان بتامزوارت وأخبره بسكون البلاد وأمنها فانكفأ السلطان أبو ثابت راجعاً الى مراكش فدخلها غرة رمضان من سنة سبع وسبعمائة ثم خرج منها في منتصفه قاصداً رباط الفتح فاجتاز على بلاد صنهاجة وعبر وادي أم الربيع من مشرع كتامة في القوارب لزيادة الماء يومئذ ثم ارتحل فاجتاز ببلاد تامسنا فتلقاه بها عرب جشم من قبائل الخلط وسفيان وبني جابر والعاصم فاستصحبهم معه الى مدينة آنفي بعد ان استأذنوه في الرجوع فلم يأذن لهم ولما احتل بآنفي دعا بأشياخهم فحضروا فاعتده فقبض على ستين منهم أودعهم سجن آنفي وضرب أعناق عشرين من فسادهم القاطعين للسبل وصلبهم على سور آنفي ثم نهض الى رباط الفتح فدخله في السابع والعشرين من رمضان فعيد هنالك عيد الفطر وقتل به ثلاثين من فتاك العرب المتهمين بالحرابة وقطع الطريق وصلبهم على أسوار العدوتين ثم ارتحل منتصف شوال لغزو عرب رياح

الموطنين بابي طويل وبحص آزغار وبلاد الهبط فغزاهم وأخذهم بالاحن القديمة فقتل منهم خلقا وسبي ذراريهم وانتهب أموالهم ونهض الى فاس فاحتل بها منتصف ذى القعدة وعيد بها عيد الاضحى ثم نهض الى سبتة على مانذكره

﴿غزو السلطان أبي ثابت بلاد غمارة وسبتة ومحاصرته لعثمان بن أبي العلاء﴾

قد تقدم لنا ان عثمان بن أبي العلاء كان قد وردمن الاندلس صحبة الرئيس أبي سعيد بن الاحمر المتغلب على سبتة أيام السلطان يوسف وانه ثار بجبال غمارة ودعا لنفسه واستحوذ عليها وكان السلطان يوسف بلغه خبره وأهمه شأنه الا انه كان يرجو ان يفتح تلمسان عن قريب ثم ينهض اليه فعاجله الحمام دون ذلك ولما أفضى الامر الى السلطان أبي ثابت وقدم حضرة فاس شغله عن عثمان بن أبي العلاء ما كان من ثورة يوسف بن محمد بن أبي عياد بمراكش كما قدمناه فعقد على حرب عثمان بن أبي العلاء لابن عمه عبد الحق ابن عثمان بن محمد بن عبد الحق فزحف اليه ونهض عثمان بن أبي العلاء الى لقائه منتصف ذى الحجة سنة سبع وسبعمائة فهزمه عثمان بن أبي العلاء واستلحم من كان معه من جند الفرنج وهلك في تلك الوقعة عبد الواحد الفودودى من رجالات الدولة المرشحين للوزارة وسار عثمان بن أبي العلاء الى قصر كتامة فدخله واستولى على جهاته وكان بطلا من الابطال وعلى اثر ذلك كان رجوع السلطان أبي ثابت من غزاة مراكش وقد حسم الداء ومحى أثر النفاق فاعتزم على النهوض الى بلاد غمارة ليمحو منها أثر دعوة ابن أبي العلاء التي كادت تلج عليه دار ملكه ويستخلص سبتة من يد ابن الاحمر المتغلب عليها لانها صارت ركابا لمن يروم الخروج على السلطان من القرابة المستقرين وراء البحر غزاة في سبيل الله فنهض السلطان أبو ثابت من فاس عقب عيد الاضحى من سنة سبع وسبعمائة حتى انتهى الى قصر كتامة فتلوم به ثلاثا حتى تلاحق به قبائل مرين والعرب والرماة من سائر البلاد فعرض جيشه وارتحل قاصدا جبال غمارة وكان عثمان بن أبي العلاء قد فر أمامه الى ناحية سبتة فسار السلطان أبو ثابت في اتباعه حتى نازل حصن علودان واقتحمه عنوة واستلحم به زهاء أربعمائة ثم نازل بلد الدمنة على شاطئ البحر فقتل الرجال وسبى النساء والذرية وانتهب الاموال وكانوا قد تمسكوا بطاعة ابن أبي العلاء وأجازوه الى القصر في وسط بلادهم وبالغوا في تضييفه واكرامه ودخلوا معه القصر وأصيلا ونهبوا كثيرا من مال أهلهما ثم ارتحل السلطان أبو ثابت الى طنجة فدخلها فاتح سنة ثمان وسبعمائة وتحصن ابن أبي العلاء بسبتة مع أوليائه من بني الاحمر وسرح السلطان أبو ثابت عساكره فتفرقت في نواحي سبتة بالغارات واكتساح الاموال (بناء مدينة تطاوين) ثم أمر السلطان باختطاط مدينة تطاوين لنزول عسكره وللاخذ بمخنق سبتة هكذا عند ابن أبي زرع وابن خلدون ﴿واعلم﴾ ان تطاوين هذه هي تطاوين القديمة وقد تقدم لنا ان قصبتها بنيت في سنة خمس وثمانين وستمائة وذلك لاول دولة السلطان يوسف بن يعقوب ابن عبد الحق ثم بنى السلطان أبو ثابت هذا المدينة عليها في هذا التاريخ الذى هو فاتح سنة ثمان وسبعمائة وكان بناؤها خفيفا شبه القرية عدا قصبتها فان بناءها كان محكما وثيقا واستمرت هذه المدينة عامرة الى صدر المائة التاسعة فخربت ثم جدد بناؤها بعد نحو تسعين سنة حسبما يأتي الخبر عن ذلك مستوفى ان شاء الله تعالى (قالوا) ولفظ تطاوين مركب من كلمتين تيط ومعناها في لسان البربر العين وون وهي كناية عن المخاطب نحو يا فلان وما أشبه ذلك (قالوا) والسبب في تسميتها بذلك انهم في وقت اختطاطهم لها كانوا يضعون الحرس على أسوارها مخافة فجأة العدو فكان الحرس ينادون بالليل أو بالنهار تطاوين تطاوين أي يا فلان افتح عينك لان عادة الحارس ان يقول ذلك فصار هذا اللفظ علما عليها ويظهر ان هذا من كلام العامة ولا أصل له وكذا قول بعضهم تيط معناها العين وون معناها المقلة ومعنى مجموع الكلمتين مقلة العين والاضافة مقلوبة كما هي في لسان بعض الامم العجمية فانه لا مستند له والله تعالى

أعلم ولما شرع السلطان أبو ثابت فى بناء مدينة تطاوين أوفد كبير الفقهاء بمجلسه أبا يحيى بن أبى الصبر الى ابن الاحمر صاحب سبتة فى شأن النزول له عن البلد وأقام هو بقصبة طنجة ينتظر الجواب بماذا يكون وفى أثناء ذلك مرض مرض موته وتوفى فى يوم الاحد الثامن من شهر صفر سنة ثمان وسبعمائة ودفن بظاهر طنجة ثم حمل شلوه بعد أيام الى مدفن آبائه بشالة فوورى هنالك رحمة الله عليه وعليهم

﴿الخبر عن دولة السلطان أبى الربيع سليمان بن أبى عامر عبد الله بن يوسف﴾
﴿ابن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله﴾

لما هلك السلطان أبو ثابت تصدى للقيام بالامر عمه على بن يوسف المعروف بابن زريقا وهى أمه وعلى هذا هو الذى قتل شيوخ المصامدة بكتاب ابن الملياني كما تقدم وخلص الملا من بنى مرين أهل الحل والعقد الى أبى الربيع المذكور أخى أبى ثابت فبايعوه واستتب أمره فتقبض على عمه على بن زريقاء وسجنه بطنجة فبقى مسجونا بها الى ان هلك سنة عشر وسبعمائة وبث السلطان أبو الربيع العطاء فى الناس وأجزل الصلات فأرضى الخاصة والعامة وصفا له الامر ثم ارتحل نحو فاس واستدعى من كان بمحلة تطاوين من الجند فأقبلوا اليه وأرضاهم بالمال كذلك ولما فصل من طنجة تبعه عثمان بن أبى العلاء من سبتة فى جيش كثيف ليضرب فى محلته ليلا فنذر به عسكر السلطان أبى الربيع فأسهروا ليلتهم وباتوا على صهوات خيولهم فوافاهم عثمان بساحة عاودان وهم على ذلك فناجزهم الحرب فهزموه وتقبض على ولده وكثير من عسكره وقتل آخرون وكان للسلطان أبى الربيع الظهور والذى لا كفاء له ووصل أبو يحيى بن أبى الصبر من الاندلس وقد أحكم عقدة الصلح مع ابن الاحمر صاحب غرناطة ولما رأى عثمان بن أبى العلاء ذلك سقط فى يده وأيس من المغرب فعبر البحر فيمن معه من القرابة الى الاندلس وولى مشيخة الغزاة بها فكانت له فى جهاد العدو اليد البيضاء وعلا أمره بالاندلس وزاحم بنى الاحمر ملوكها فى رياستهم وجبايتهم حتى كاد يستولى على الامر من أيديهم وشرقوا بدائه ومارسهم ومارسوه مدة طويلة وعدلوا فى أمره الى المصانعة والمجاملة فى أخبار ليس جلبها من غرضنا الى ان توفى لكنا نذكر من ذلك انموذجا يستدل به الواقف عليه على ماوراءه فنقول لما توفى عثمان بن أبى العلاء رحمه الله كتب على قبره ما صورته ﴿هذا قبر شيخ الحماة وصدر الابطال والكماة واحد الجلالة ليث الاقدام والبسالة علم الاعلام حامى ذمار الاسلام صاحب الكتائب المنصورة والافعال المشهورة والمغازى المسطورة وامام الصفوف القائم بباب الجنة تحت ظلال السيوف سيف الجهاد وقاصم الاعاد وأسد الآساد العالى الهمم الثابت القدم الهمام الماجد الارضى البطل الباسل الامضى المقدس المرحوم أبى سعيد عثمان ابن الشيخ الجليل الهمام الكبير الاصيل الشهير المقدس المرحوم أبى العلاء ادريس بن عبد الله بن عبد الحق﴾ كان عمره ثمانيا وثمانين سنة أنفقه ما بين روحة فى سبيل الله وغدوة حتى استوفى فى المشهور سبعمائة واثنتين وثلاثين غزوة وقطع عمره مجاهدا مجتهدا فى طاعة الرب محتسبا فى ادارة الحرب ماضى العزائم فى جهاد الكفار مصادما بين جموعهم تدفق التيار وصنع الله تعالى له فيهم من الصنائع الكبار ما سار ذكره فى الاقطار أشهر من المثل السيار حتى توفى رحمه الله وغبار الجهاد طى أثوابه وهو مراقب لطاغية الكفار وأحزابه فمات على ما عاش عليه وفى ملحمة الجهاد قبضه الله اليه واستأثر به سعيدا مرتضى وسيفه على رأس ملك الروم منتضى مقدمة قبول واسعاد ونتيجة جهاد وجلاد ودليلا على نيته الصالحة وتجارته الرابحة فارتجت الاندلس لبعده أتحفه الله برحمة من عنده توفى يوم الاحد الثانى لذى الحجة من سنة ثلاثين وسبعمائة رحمه الله ﴿وأما السلطان أبو الربيع﴾ فانه لما سار عن طنجة دخل حضرة فاس حادى عشر ربيع الاول من سنة ثمان وسبعمائة فأقام بها سنة المولد الكريم وفرق الاموال واستقامت الامور وتمهد الملك وعقد السلم مع

صاحب تلمسان أبي حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن وأقام وادعا بحضرته مجتنيا ثمرة ملكه وكان في أيامه غلاء الا أن الناس انفتحت لهم فيها أبواب المعاش والترف حتى تغالوا في أثمان العقار فبلغت قيمتها فوق المعتاد حتى لقد بيع كثير من الدور بفاس بألف دينار من الذهب العين وتنافس الناس في البناء فاتخذوا القصور المشيدة وتأنقوا فيها بالزليج والرخام وأنواع النقوش وتناغوا في لبس الحرير وركوب الفاره وأكل الطيب واقتناء الحلي من الذهب والفضة واستبحر العمران وظهرت الزينة والامور كلها بيد الله تعالى

﴿نكبة الفقيه الكاتب أبي محمد عبد الله بن أبي مدين واستئصال بني وقاصة اليهوديين بعد ذلك﴾

كان الفقيه الثابت أبو محمد عبد الله بن أبي مدين شعيب بن مخلوف من بني أبي عثمان احدى قبائل كتامة المجاورين للقصر الكبير وكان بيته بيت العلم والدين واتصلوا بخدمة بني مرين أيام دخولهم المغرب واستيلائهم عليه وكان أبو محمد هذا من خاصة السلطان يوسف بن يعقوب وجعل بيده وضع العلامة على الرسائل وفوض اليه في حسبان الخراج والضرب على أيدي العمال وتنفيذ الاوامر بالقبض والبسط فيهم واستخلصه لمناجاته والافضاء اليه بسره ولما هلك السلطان يوسف وولي بعده السلطان أبو ثابت ضاعف رتبة هذا الرجل وشفع لديه حظه ومنصبه ورفع على الاقدار قدره ثم ولي بعده أخوه أبو الربيع فسلك فيه مذهب سلفه واضطلع أبو محمد بن أبي مدين بأمور دولته وكان بنو وقاصة اليهود حين نكبوا أيام السلطان يوسف يرون ان نكبتهم كانت بسعاية أبي محمد فيهم وكان خليفة الاصغر منهم قد أفلت من تلك النكبة كما ذكرناه فلما أفضى الامر الى السلطان أبي الربيع استعمل خليفة هذا بداره في بعض المهن فباشر الامور وترقى فيها حتى اتصل بالسلطان فجعل غاية قصده السعاية بأبي محمد بن أبي مدين وكان يؤثر عن السلطان أبي الربيع انه يختلي مع حرم حاشيته وتعرف خليفة ذلك من مقالات الناس فدس الى السلطان بأن ابن أبي مدين يعرض بأنه اتهم أملك في ابنته وان صدره قد وغر لذلك وانه متربص بالدولة ومتربص بها الدوائر فتمكنت سعايته من السلطان وظن انه صادق وكان يخشى غائلة ابن أبي مدين بما كان له من الوجاهة في الدولة ومداخلة القبيل فاستعجل السلطان أبو الربيع دفع غائلته ودس الى قائد جند الفرنج بقتله فسار اليه ولقيه بمقبرة الشيخ أبي بكر بن العربي فرصده وأتاه من خلفه فطعنه طعنة كبته على ذقنه واحتز رأسه وألقاه بين يدي السلطان أبي الربيع ودخل الوزير سليمان بن برزيكن فوجد الرأس بين يديه فذهبت نفسه عليه وعلى مكانه من الدولة حسرة وأسفا وأيقظ السلطان لمكر اليهودي وأطلعه على خبثه وأخرج له براءة كان بعث بها ابن أبي مدين معه الى السلطان يتنصل فيها ويحلف على كذب ما رمي به عنده فتنبه السلطان لمكر اليهودي وعلم انه قد خدعه وندم حيث لم ينفعه الندم وفتك لحينه بخليفة بن وقاصة وحاشيته من اليهود المتصدين للخدمة وسطا بهم سطوة الملكة فأصبحوا مثلا للآخرين

﴿انتقاض أهل سبتة على بني الاحمر ومراجعتهم طاعة بني مرين﴾

كان أهل سبتة قد سئموا ملكة أهل الاندلس وثقلت عليهم ولايتهم لاسيما حين رحل عنهم عثمان بن أبي العلاء وعبر البحر بقصد الجهاد كما مر واتصل خبر ذلك بالسلطان أبي الربيع فانتهز الفرصة فيهم وعقد لثقته تاشفين بن يعقوب الوطاسي أخي وزيره عبد الرحمن بن يعقوب على عسكر ضخم من بني مرين وسائر طبقات الجند وبعثه الى سبتة فاغذ السير اليها ونزل بساحتها ولما أحس به أهل البلد تمشت رجالاتهم فيما بينهم وتنادوا بشعار بني مرين وثاروا على من كان بسبتة من حامية ابن الاحمر فاخرجوهم منها واقتحم تاشفين بن يعقوب البلد عاشر صفر من سنة تسع وسبعمائة وتقبض على قائد القصبة أبي

زكرياء

زكرياء يحيى بن مليلة وعلى قائد البحر أبي الحسين بن كماشة وعلى قائد الحرب بها من القرابة عمر بن رحوا ابن عبد الله بن عبد الحق وطير تاشفين بالخبر الى السلطان أبي الربيع فعم السرور وعظم الفرح واتصل ذلك بابن الاحمر فضاق ذرعه وخشى عادية بني مرين وجيوش المغرب حين انتهوا الى الفرضة وملكوها فقلب رأيه ورأى ان يجنح الى السلم مع السلطان أبي الربيع لشدة شوكته ولكلب الطاغية عليه في أرضه لولا ان غزاة بني مرين يكفون من غربه فبادر السلطان ابن الاحمر وهو أبو الجيوش نصر ابن محمد أخو المخلوع الذي كان قبله وأوفد رسله على السلطان أبي الربيع راغبين في السلم خاطبين للولاية وتبرع بالنزول عن الجزيرة ورندة وحصونهما ترغيبا للسلطان أبي الربيع في الجهاد فقبل منه ذلك وعقد له الصلح على ما أراد وخطب منه أخته فانكحه ابن الاحمر اياها وبعث السلطان أبو الربيع اليه بالمدد للجهاد أموالا وخيولا جنائب مع ثقته عثمان بن عيسى اليرنياني أخي وزيره ابراهيم بن عيسى واتصلت بينهما الولاية الى ان توفي السلطان أبو الربيع رحمه الله

﴿انتقاض الوزير عبد الرحمن بن يعقوب الوطاسي على السلطان أبي الربيع﴾
﴿ومبايعته لعبد الحق بن عثمان والسبب في ذلك﴾

لما انعقد الصلح بين السلطان أبي الربيع وابن الاحمر وحصلت المصاهرة بينهما والمودة كانت رسل ابن الاحمر لا تزال تتردد الى حضرة السلطان بفاس فقدم منهم ذات يوم بعض المتهمكين في اللهو المدمنين للشرب والقصف فكشف صفحة وجهه في معاقرة الخمر وتجاهر بذلك بين الناس وكان السلطان أبو الربيع قد عزل قاضي فاس أبا غالب المغيلي وولى القضاء مكانه الشيخ الفقيه أبا الحسن الزرويلي المعروف بالصغير صاحب التقييد على المدونة وكان رحمه الله قد شدد على أهل الفسوق والمناكر فسيق اليه ذات يوم هذا الاندلسي وهو سكران فامر العدول فاستروحوه واشتموا منه رائحة الخمر وأدوا شهادتهم على ذلك فامضى القاضي حكم الله فيه وجلده الحد فاضطرم الاندلسي غيظا وتعرض للوزير عبد الرحمن ابن يعقوب الوطاسي ويقال له رحو ابالسان الزناتي فكشف له عن ظهره يريه أثر السياط وينعى عليه سوء هذا الفعل مع رسل الدول فضجر الوزير من ذلك وأخذته العزة بالاثم ولعله كان في قلبه شئ على القاضي فامر وزعته باحضاره على أسوء الحالات وعزم على البطش به فتبادروا اليه واعتصم القاضي بالمسجد الجامع ونادى في المسلمين فثارت العامة بهم ومرج أمر الناس وقامت الفتنة على ساق واتصل الخبر بالسلطان فتلافى الامر وأحضر أصحاب الوزير فضرب أعناقهم وشرد بهم من خلفهم جزاه الله خيرا فأسرها الوزير في نفسه وداخل الحسن بن علي بن أبي الطلاق من بني عسكر بن محمد وكان من شيوخ بني مرين وأهل الشورى فيهم وداخل قائد الفرنج غنصالوا المنفرد برياسة العسكر وشوكة الجند وكان لهؤلاء الفرنج بالوزير اختصاص بحيث آثروه على السلطان فدعاهم لخلع طاعة السلطان أبي الربيع وبيعة عبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق كبير القرابة وأسد الاعياص فاجابوه وبايعوا له وتم أمرهم ولما كان يوم السبت الثالث والعشرون من ربيع الآخر من سنة عشر وسبعمائة فر الوزير المذكور وقائده الفرنجي ومن شايعهم على رأيهم فخرجوا الى ظاهر البلد الجديد وجاهروا بالخلعان وأقاموا الآلة والرسم وبايعوا سلطانهم عبد الحق على عيون الملا وعسكروا بالعدوة القصوى من سبو ثم ساروا الى ناحية تازا ولما استقروا برباطها أخذوا في جمع الجيوش ومكاتبة الخاصة من بني مرين والعرب يدعونهم الى بيعة سلطانهم والمشايعة لهم على رأيهم وأوفدوا على أبي حمو موسى بن عثمان ابن يغمراسن صاحب تلمسان يدعونه الى المظاهرة على أمرهم واتصال اليد والمدد بالعسكر والمال فتوقف أبو حمو ولم يقدم ولم يحجم وبقي ينتظر عما اذا ينجلي أمرهم واتصل خبر ذلك كله بالسلطان أبي الربيع فنهض اليهم وقدم بين يديه يوسف بن عيسى الحشمي وعمر بن موسى الفودودي في جيش كثيف

من بني مرين وساروهو في ساقتهم واتصل خبر خروجه بعبد الحق بن عثمان ووزيره فانكشفوا عن تازا ولحقوا بتلمسان وكانوا يظنون ان السلطان لا يخرج اليهم وجد أبو حمو اعاقبة توقفه عن نصرهم ويشسواهم من صريخه اياهم ولما ضاقت عليهم الارض بما رحبت أجاز عبد الحق بن عثمان ووزيره الى الاندلس ورجع الحسن بن علي ومن معه الى السلطان أبي الربيع بعد ان أخذ منه الامان وهلك رحو ابن يعقوب بالاندلس لمدة قريبة ولما احتل السلطان أبو الربيع بتازا حسم الداء ومحى أثر الشقاق وأثخن في حاشية الخوارج وشيعتهم بالقتل والسبي ثم اعتل أياما أثناء ذلك فتوفي بتازا بين العشاء بن ليلة الاربعاء منسلخ جمادى الاخيرة من سنة عشر وسبعمائة ودفن من ليلته تلك بصحن الجامع الاعظم من تازا رحمه الله

﴿الخبر عن دولة السلطان أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله﴾

كان هذا السلطان من أهل العلم والحلم والعفاف جوادا متواضعا متوقفا في سفك الدماء لقبه السعيد بفضل الله وأمه حرة اسمها عائشة بنت الامير أبي عطية مهلهل بن يحيى الخلطي ولما هلك السلطان أبو الربيع بتازا في التاريخ المتقدم تطاول للامر عمه أبو سعيد الاصغر وهو عثمان ابن السلطان يوسف وخب في ذلك ووضع وأسدى وألحم فلم يحصل على شيء واجتمع الوزراء والمشيخة بالقصر بعد هدأة من الليل وتفاوضوا في أمرهم حتى وقع اختيارهم على أبي سعيد الاكبر وهو عثمان ابن السلطان يعقوب ابن عبد الحق فاستدعوه فحضر فبايعوه ليلتئذ وتم أمره وأنفذ كتبه الى النواحي والجهات باقتضاء البيعة وسرح ابنه الاكبر الامير أبا الحسن علي بن عثمان الى فاس فدخلها غرة رجب من سنة عشر وسبعمائة وملك قصر الخلافة بالحضرة واحتوى على أمواله وذخيرته وفي غد ليلته أخذت البيعة للسلطان أبي سعيد بظاهر تازا على بني مرين وسائر زناتة والعرب والعسكر والحاشية والموالي والصنائع والعلماء والصلحاء ونقباء الناس وعرفائهم والخاصة والدهماء فقام بالامر واستوسق له الملك وفرق الاعطيات وأسنى الجوائز وتفقد الدواوين ورفع الظلامات وحط المغارم والمكوس وسرح السجون ورفع عن أهل فاس ما كان يلزم رباعهم من الوظائف المخزنية في كل سنة فصلح حال الناس في أيامه ثم ارتحل لعشرين من رجب من السنة فدخل حضرة فاس فاستقربها وقدم عليه وفود التهنئة من جميع بلاد المغرب ثم خرج في ذي القعدة الى رباط الفتح لتفقد الاحوال والنظر في أمور الرعية وانشاء الاساطيل الجهادية فعيد هنالك عيد الاضحى وباشر أمور الناس وأمر بانشاء الاساطيل بدار الصناعة من سلا برسم جهاد الفرنج ثم رجع الى فاس فعقد سنة احدى عشرة وسبعمائة لاخيه الامير أبي البقاء يعيش على ثغور الاندلس الجزيرة ورندة وما اليهما من الحصون ثم نهض سنة ثلاث عشرة وسبعمائة الى ناحية مراكش لما كان بها من اختلال الاحوال وخروج عدي بن هنو الهكوري ونقضه للطاعة فنازله السلطان أبو سعيد وحاصره مدة ثم اقتحم عليه حصنه عنوة وقبض عليه وبعثه موثقا في الحديد الى فاس فاودعه المطبق وقفل راجعا الى حضرته فاحتل بها مؤيدا منصورا والله تعالى أعلم

﴿غزو السلطان أبي سعيد ناحية تلمسان﴾

كان بنو مرين قد حقدوا على أبي حمو صاحب تلمسان من أجل توقفه في أمر عبد الحق بن عثمان ووزيره رحو ابن يعقوب الوطاسي وتسهيله الطريق لهم الى الاندلس ومداهنته في ذلك وكان مقتضى الصلح المنعقد بينه وبين السلطان أبي الربيع ان يقبض عليهم ويبعث بهم اليه حالا فحقد بنو مرين على أبي حمو ووجدوا في أنفسهم عليه ولما أفضى الامر الى السلطان أبي سعيد واستوسق ملكه ودوخ الجهات

المراكشية وفرغ من شأن المغرب اعتزم على غزو تلمسان فنهض اليها سنة أربع عشرة ولما انتهى الى وادي ملوية قدم ابنيه الامير بن أبا الحسن وأبا علي في عسكرين عظيمين في الجناحين وسار هو في ساقتهما فدخل بلاد بني عبد الواد على هذه التعبية فاكتسح نواحيها واصطلم نعمتها ثم نازل وجدة فقاتلها قتالا شديدا فامتنعت عليه ثم نهض الى تلمسان فنزل بالملعب من ساحتها وتحصن أبو حمو بالاسوار وغلب السلطان أبو سعيد على معاقلها وسائر ضواحيها فحطمها حطما ونسفها نسفا ودوخ جبال بني يزناسن وأثخن فيهم وانتهى في قفوله الى وجدة ففر أخوه أبو البقاء يعيش وكان في معسكره من أجل استرابة لحقته من السلطان وسار الى تلمسان فنزل على أبي حمو ورجع السلطان أبو سعيد على التعبية فانتهى الى تازا فأقام بها وبعث ابنه الامير أبا علي الى فاس فكان من خروجه عليه ما نذكره

﴿خروج الامير أبي علي على أبيه السلطان أبي سعيد والسبب في ذلك﴾

كان للسلطان أبي سعيد ولدان أحدهما وهو الاكبر من أمته الحبشية وهو أبو الحسن علي بن عثمان وثانيهما وهو الاصغر من علجة من سبي الفرنج وهو أبو علي عمر بن عثمان وكان هذا الاصغر أعلق بقلب السلطان وأحبهما اليه ولما استولى على ملك المغرب رشحه لولاية العهد وهو شاب لم يطر شاربه ووضع له ألقاب الامارة وصير معه الجلساء والخاصة والكتاب وأمره باتخاذ العلامة في كتبه ولم يدخر عنه شيأ من مراسم الرياسة والملك وعقد على وزارته لابراهيم بن عيسى اليرنياني من كبار الدولة ووجوهها وكان أخوه الاكبر أبو الحسن شديد البرور بابيه فلما رأى اقبال أبيه على أخيه أبي علي انحاش هو أيضا اليه وصار في جملته وخلط نفسه بحاشيته طاعة لابيه ومسارعة في هواه واستمرت حال الامير أبي علي على هذا وخاطبه ملوك النواحي وخاطبهم وهادوه وهاداهم وعقد الرايات وأثبت في الديوان ومحى وزاد في العطاء ونقص وكاد يستبد بالامر كله ولما قفل السلطان أبو سعيد من تلمسان أواخر سنة أربع عشرة وسبعمائة أقام بتازا وبعث ولديه الى فاس فلما استقر الامير أبو علي بها حدثته نفسه بالقيام على أبيه وخلع طاعته فراوده المداخلون له على التربص حتى يعكر بابيه ويقبض عليه باليد فأبى واستعجل الامر وركب الخلاف وجاهر بالخلعان ودعا لنفسه فاطاعه الناس ولم يتوقفوا عنه لما كان أبوه جعل اليه من أمرهم وعسكر بساحة البلد الجديد يريد غزو أبيه فبرز السلطان أبو سعيد من تازا في عسكره يقدم رجلا ويؤخر أخرى ثم بدا للامير أبي علي في وزيره ابراهيم بن عيسى وعزم على القبض عليه لانه بلغه انه يكاتب أباه فبعث للقبض عليه عمر بن يخلف الفودودي وتفطن الوزير لما أراده من المكر به فقبض هو على الفودودي ونزع الى السلطان أبي سعيد فتقبله ورضي عنه وكان الامير أبو الحسن قد لحق بابيه قبل ذلك نازعا عن جملة أخيه فقوى جناح السلطان بهما وارتحل الى لقاء ابنه أبي علي ولما تراآ الجمعان بالقرمدة ما بين فاس وتازا اختل مصاف السلطان وانهزم جريحا الى تازا فاتبعه ابنه أبو علي وحاصره بها ويقال ان أبا الحسن انما لحق بابيه بعد المحنة ثم سعى الخواص بين السلطان وابنه أبي علي بالصلح على ان يخرج له السلطان عن الامر ويقتصر على تازا وجهاتها فقط فرضي السلطان بذلك وشهد الملا من مشيخة العرب وزناتة وأهل الامصار واستحكم العقد بينهما وانكفأ الامير أبو علي راجعا الى حضرة فاس مملكا على المغرب وتوافت اليه بيعات الامصار ووفودهم واستوسق أمره ثم تدارك الله السلطان أبا سعيد بلطفه ورد عليه حقه من حيث لا يحتسب وذلك ان الامير أبا علي اعتل عقب وصوله الى فاس واشتد وجعه حتى أشرف على الهلاك وخشي الناس على أنفسهم اختلال الامر عوبته فتسايلوا الى والده السلطان أبي سعيد بتازا ولحق به سائر خواص الدولة وحملوه على تلافي الامر وانتهاز الفرصة فنهض من تازا واجتمع اليه كافة بني مرين والجند وعسكر على البلد الجديد وأقام محاصرا له وابتنى دار السكة وجعل لابنه الامير أبي الحسن ما كان لاخيه أبي علي من ولاية العهد وتفويض الامر ولما تبين للامير أبي علي اختلال أمره

بعث الى أبيه فى الصلح على ان يعوض سجلماسة وما والاها فاجيب الى ذلك ووفى له السلطان بما اشترط وارتحل الى سجلماسة سنة خمس عشرة وسبعمائة فاقام بها دولة تخيمة واستولى على بلاد القبلة ودون الدواوين واستلحق واستركب واستخدم ظواعن العرب من بنى معقل وافتتح معاقل الصحراء وقصور توات وتيكرارين وتامنطيت وغير ذلك وأما السلطان أبو سعيد فانه دخل الى فاس الجديد ونزل بقصره وأصلح شؤن ملكه وأنزل ابنه الامير أبا الحسن بالدار البيضاء من قصوره وفوض اليه فى سلطانه تفويض الاستقلال وأذن له فى اتخاذ الوزراء والكتاب ووضع العلامة على كتبه وسائر ما كان لاخيه ووفدت عليه بيعات الامصار بالمغرب ورجعوا الى طاعته وفى سنة خمس عشرة وسبعمائة أمر السلطان أبو سعيد ببناء الباب أمام القنطرة من الجزيرة الخضراء ثم بعد ذلك أدار الستارة بالمدينة المذكورة وفيها سار الى مراكش فاقام بها أياما حتى أصلح شؤنها وعاد الى الحضرة وفى سنة ثمان عشرة وسبعمائة نكب السلطان أبو سعيد كاتبه منديل بن محمد الكنانى وكان السبب فى ذلك انه لما ثار الامير أبو على على أبيه وخلعه انحاش اليه منديل هذا ثم لما اختل أمر أبى على عاد منديل الى السلطان أبى سعيد وترتب فى منزلته التى كان عليها قبل وكان الامير أبو الحسن يحقد عليه لاجل انحياشه الى أخيه لما كان بينهما من المنافسة وكان هو كثيرا ما يوغر صدر أبى الحسن بايجاب حق أخيه عليه وامتهانه فى خدمته فطوى له أبو الحسن على البث حتى اذا فصل أبو على الى سجلماسة وانفرد أبو الحسن بمجلس أبيه وخلاله وجهه أحكم السعاية فى منديل عند أبيه وكان منديل كثيرا ما يغضب السلطان فى المحاورة والخطاب دالة عليه وكبرا فاعتمد السلطان عليه بشئ من ذلك مع ما كان ابنه أبو الحسن يغريه به فسخطه سنة ثمان عشرة وسبعمائة وأذن لابنه أبى الحسن فى نكبته فاعتقله واستصفى أمواله وطوى دوانه وامتحنه أياما ثم قتله بمحبسه خنقا وقيل جوعا وذهب فى الذاهبين وأبوه أبو عبد الله محمد الكنانى هو الذى بعثه السلطان يعقوب بن عبد الحق الى المستنصر الحفصى عند فتح مراكش وعاد اليه منه بالهدية صحبة وفد أهل تونس وتلطف أبو عبد الله الكنانى حتى ذكر المستنصر فى الخطبة على منبر مراكش وفرح الوفد بذلك حسبما تقدم الخبر عنه مستوفى ونشأ ابنه منديل هذا فى ظل الدولة المرينية فكان من أمره ما قصصناه عليك

﴿وفادة أهل الاندلس على السلطان أبى سعيد واستصراخهم اياه على الطاغية وما نشأ عن ذلك﴾

كان الملوك من بنى مرين قد انقطع غزوهم عن الاندلس برهة من الدهر منذ دولة السلطان يوسف بن يعقوب لاشتغاله فى آخر أمره بحصار تلمسان واشتغال حفدته من بعده بأمر المغرب مع قصر مدتهم فتطاول العدو وراء البحر على المسلمين بسبب هذه الفترة واشتد كلبه على ثغورها مع ان القرابة من بنى مرين كانوا شجى فى صدره وقذى فى عينيه فى تلك البلاد حسبما ألمعنا اليه غير مرة ولما أفضى الامر الى السلطان أبى سعيد اشتغل فى صدر دولته بأمر ابنه أبى على ونزوجه عليه فاهتبل الطاغية الغرة فى الاندلس وزحف فى جوعه الى غرناطة سنة ثمان عشرة وسبعمائة * وكان من خبر هذه الوقعة أن الطاغية بطرة بن سانجة ويقال دون بطرة وقد نبهنا على لفظة دون فيما سبق ذهب الى طليطلة ودخل على مرجعهم الذى يقال له البابا وسجد له وتضرع بين يديه وطلب منه استئصال ما بقى من المسلمين بأرض الاندلس وأكد عزمه وتأهب لذلك غاية الاهبة فوصلت أثقاله ومجانيقه وآلات الحصار والاقوات فى المراكب وتقدم فى جوعه حتى نزل باحواز غرناطة وكان رديفه فى ذلك الجند علجا آخر يقال له جوان وانضم اليهم ملوك آخرون من ملوك الاطراف قيل سبعة وقيل أكثر وامتلأت الارض بهم وعزموا على استئصال بقية المسلمين بالاندلس وكان جيشهم فيما قيل يشتمل على خمسة وثلاثين ألفا من الفرسان وعلى نحو مائة ألف من الرجالة المقاتلة ولما رأى أهل الاندلس ذلك بعثوا صريخهم الى

السلطان أبي سعيد فقدم عليه وفدهم بحضرته من فاس وفيهم من وجوه الاندلس وصلحائها الشيخ أبو عبد الله الطنجالي والشيخ ابن الزيات البلشي والشيخ أبو اسحق بن أبي العاص وغيرهم فاعتذر اليهم السلطان أبو سعيد بمكان عثمان بن أبي العلاء من دولتهم ومحله من دار ملكهم وكان عثمان بن أبي العلاء يتولى يومئذ مشيخة الغزاة بالاندلس لان وفاته تأخرت الى سنة ثلاثين وسبعمائة حسبما مر فشرط عليهم السلطان أبو سعيد أن يمكنوه منه ليتأتى له العبور الى تلك البلاد وجهاد العدو بها من غير تشويش وقال ادفعوه الينا برمته حتى يتم أمر الجهاد ثم نرده عليكم حياطة على المسلمين وخشية من تفريق كلمتهم فاستصعب أهل الاندلس هذا الشرط لما يعلمونه من صرامة عثمان بن أبي العلاء وادلاله بباسه وبأس عشيرته فأخفق سعيهم ورجعوا منكسرين وأطالت الفرنج المقام على غرناطة وطمعوا في التهامها ثم ان الله تعالى نفس عن مخنقهم ودافع بقدرته عنهم وهيأ لعثمان بن أبي العلاء في الفرنج واقعة كانت من أغرب الوقائع وذلك انه لما كان يوم المهرجان وهو الخامس من جمادى الاولى من سنة تسع عشرة وسبعمائة عمد عثمان بن أبي العلاء الى جماعة جنده واختار من أنجاد بني مرين منهم نحو المائتين وقيل أكثر وتقدم بهم نحو جيش الفرنج فظن النصارى انهم انما خرجوا لامر غير القتال من مفاوضة أو ابلاغ رسالة أو نحو ذلك حتى اذا سامتوا موقف الطاغية ووديفه جوان صمموا نحوهما حتى خالطوهما في مراكزهما فصرعوهما في جملة من الحاشية وانهزم ذلك الجمع من حينه وولوا الادبار واعترضهم من ورائهم مسارب الماء للشرب على نهر شنيل فتطارحوا فيها وهلك أكثرهم واكتسحت أموالهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام وخرج أهل غرناطة لجمع الاموال وأخذ الاسرى فاستولوا على أموال عظيمة منها من الذهب فيما قيل ثلاثة وأربعون قنطارا ومن الفضة مائة وأربعون قنطارا ومن السبي سبعة آلاف نفس حسبما كتب بذلك بعض الغرناطيين الى الديار المصرية وكان من جملة الاسارى امرأة الطاغية وأولاده ففدت في نفسها مدينة طريف وجبل الفتح وثمانية عشر حصنا فيما حكى بعض المؤرخين فلم يقبل المسلمون ذلك ﴿قلت﴾ هذا خطأ في الرأي وضعف في السياسة قالوا وزادت عدة القتلى في هذه الغزوة على خمسين ألفا ويقال انه هلك منهم بالوادي مثل هذا العدد لعدم معرفتهم بالطريق وأما الذين هلكوا بالجبال والشعاب فلا يحصون وقتل الملوك السبعة جميعهم وقيل خمسة وعشرون واستمر البيع في الاسرى والسبي والدواب ستة أشهر ووردت البشائر بهذا النصر العظيم الى سائر البلاد ومن العجب انه لم يقتل من المسلمين سوى ثلاثة عشر نفسا وقيل عشرة أنفس وسلخ الطاغية بطرة وحشي جلده قطنا وعلق على باب غرناطة وبقي معلقا سنين وطلبت النصارى الهدنة فعقدت لهم والله تعالى أعلم

﴿انتقاض الامير أبي علي على أبيه السلطان أبي سعيد وما نشأ عن ذلك﴾

لما كانت سنة عشرين وسبعمائة انتقض الامير أبو علي صاحب سجلماسة والصحراء على أبيه السلطان أبي سعيد وتغلب على درعة وسما الى طلب مراكش فقعد السلطان أبو سعيد على حربه لاخيه الامير أبي الحسن وأغزاه اياه ثم نهض على أثره فاحتل بمراكش وثقف أطرافها وحسم عللها وعقد عليها لكندوز بن عثمان من صنائع دولتهم وقفل الى الحضرة ثم لما كانت سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة نهض الامير أبو علي في جموعه من سجلماسة وأغذ السير الى مراكش فاقتحمها بعساكره قبل أن يجتمع لكندوز أمره وتقبض عليه وضرب عنقه ورفعه على القناة وملك مراكش وسائر ضواحيها وبلغ الخبر الى السلطان أبي سعيد فخرج من حضرته في عساكره بعد أن احتشد وأزاح العلل واستوفى الاعطيات وقدم بين يديه ابنه الامير أبا الحسن ولي عهده وجاء هو على ساقته وساروا على هذه التعبية ولما انتهوا الى وادي ملوية اتصل بهم الخبر أن أبا علي يريد أن يبيتهم فأسهروا ليلتهم وباتوا على ظهور خيلهم وبعد

مضى جزء من الليل طرقهم أبو علي في جموعه فكانت الدبرة عليه وفل عسكره وارتحلوا من الغد في أثره وكان قد سلك جبل درن فافترقت جنوده في أوعاره ولحقهم من المشاق ما يفوت الوصف حتى ترجل الامير أبو علي عن فرسه وسعى على قدميه وخاص من ورطة ذلك الجبل بعد عصب الريق ولحق بسجلماسة ومهد السلطان أبو سعيد نواحي مراكش وعقد عليها لموسى بن علي الهنتاتي فعظم غناؤه في ذلك واضطلاعه وامتدت أيام ولايته وارتحل السلطان الى سجلماسة فدافعه الامير أبو علي بالخضوع ورغب اليه في الصفح والرضا والعود الى السلم فأجابه السلطان الى ذلك لما كان قد شغفه من حبه فقد كان يؤثر عنه من ذلك غرائب ورجع الى الحضرة وأقام الامير أبو علي بمكانه من مملكة القبلة الى ان هلك السلطان أبو سعيد وتغلب عليه أخوه السلطان أبو الحسن كما نذكره ان شاء الله

﴿بناء مدارس العلم بحضرة فاس حرسها الله﴾

قد تقدم لنا ان السلطان يعقوب بن عبد الحق رحمه الله كان قد بنى مدرسته التي بفاس مع غيرها مما سبق التنبيه عليه ووقف عليها كتب العلم التي بعث بها اليه الطاغية سانجة عند عقد الصلح معه ووقف عليها غير ذلك واقتفى أثره في هذه المنقبة الشريفة بنوه من بعده فاستكثروا من بناء المدارس العلمية والزوايا والربط ووقفوا عليها الاوقاف المغلة وأجروا على الطلبة بها الجرايات الكافية فامسكوا بسبب ذلك من رمق العلم وأحيوا من اسمه وأخذوا بضبعه جزاهم الله عن نيتهم الصالحة خيرا * ولما كانت سنة عشرين وسبعمائة أمر السلطان أبو سعيد رحمه الله ببناء المدرسة التي بفاس الجديد فبنيت أتقن بناء وأحسنه ورتب فيها الطلبة لقراءة القرآن والفقهاء لتدريس العلم وأجرى عليهم المرتبات والمؤن في كل شهر وحبس عليها الرباع والضياع ابتغاء ثواب الله ورغبة فيما عنده * وفي سنة احدى وعشرين بعدها بنى ولي عهده الامير أبو الحسن المدرسة التي بغربي جامع الاندلس من حضرة فاس فجاءت على أكمل الهيآت وأعجبها وبنى حولها سقاية ودار وضوء وفندقا لسكنى طلبة العلم وجلب الماء الى ذلك كله من عين خارج باب الجديد أحد أبواب فاس وأنفق على ذلك أموالا جليلة تزيد على مائة ألف دينار وشحنها بطلبة العلم وقراء القرآن وحبس عليها رباعا كثيرة ورتب فيها الفقهاء للتدريس وأجرى عليهم الانفاق والكسوة نفعه الله بقصده * وفي سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة في فاتح شعبان منها أمر السلطان أبو سعيد أيضا ببناء المدرسة العظمى بازاء جامع القرويين بفاس وهي المعروفة اليوم بمدرسة العطارين فبنيت على يد الشيخ أبي محمد عبد الله بن قاسم المزوار وحضر السلطان أبو سعيد بنفسه في جماعة من الفقهاء وأهل الخير حتى أسست وشرع في بنائها بحضره فجاءت هذه المدرسة من أعجب مصانع الدول بحيث لم يبن ملك قبله مثلها وأجرى بها ماء معينا من بعض العيون هنالك وشحنها بالطلبة ورتب فيها اماما ومؤذنين وقومة يقومون بأمرها ورتب فيها الفقهاء لتدريس العلم وأجرى على الكل المرتبات والمؤن فوق الكفاية واشترى عدة أملاك ووقفها عليها احتسابا لله تعالى وسيأتي التنبيه على ما بناه ابنه من ذلك أبو الحسن أيام ولايته وحافده أبو عنان وغيرهما ان شاء الله ﴿وبالجملة﴾ فقد كان لبني مرين جنوح الى الخير ومحبة في العلم وأهله تشهد بذلك آثارهم الباقية الى الآن في مدارسهم العلمية وغيرها وفي مثل ذلك يحسن ان ينشد

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها * من بعدهم فبألسن البنيان
ان البناء اذا تعاظم شأنه * أضحى يدل على عظيم الشان

﴿أخبار بني العزفي أصحاب سبتة﴾

قد تقدم لنا ان الرئيس أبا سعيد فرج بن اسمعيل بن الاحمر صاحب مالقة كان قد غدر بأهل سبتة وقبض على رؤسائها من بني العزفي وغربهم الى غرناطة سنة خمس وسبعمائة فاستقروا هنالك في ايالة السلطان

ابن الاحمر المعروف بالمخلوع مدة ولما استولى السلطان أبو الربيع المرينى على سبتة ونفى بنى الاحمر عنها
استأذنه بنو العزفى فى الرجوع الى المغرب والقدوم عليه فأذن لهم واستقروا بفاس وكان أبو زكرياء يحيى
وأبو زيد عبد الرحمن ابنا أبى طالب عبد الله بن أبى القاسم محمد بن أبى العباس أحمد العزفى من سرواتهم
وأهل المروءة والدين فيهم وكانوا يغشون مجالس العلم بمسجد القرويين من فاس لما كانوا عليه من
انتحاله وكان السلطان أبو سعيد أيام ولاية بنى أبيه من قبله يحضر مجالس الشيخ الفقيه أبى الحسن الصغير
وكان أبو زكرياء يحيى بن أبى طالب يلازمه ويتودد اليه فاتصل به وصارت له بذلك وسيلة عنده فلما أفضى
الامر الى السلطان أبى سعيد رعى لبنى العزفى تلك الوسيلة فأنعم عليهم وعقد لابى زكرياء منهم على سبتة
وردهم الى موطن سلفهم ومقرّ رياستهم فقدموها سنة عشر وسبعمائة وأقاموا فيها دعوة السلطان
أبى سعيد والتزموا طاعته ولما فوض السلطان أبو سعيد الى ابنه أبى على الامر وجعل له الابرام والنقض
عقد أبو على على سبتة لابى زكرياء حيون بن أبى العلاء القرشى وعزل أبا زكرياء يحيى بن أبى طالب منها
واستقدمه الى فاس فقدمها هو وأبوه أبو طالب وعمه أبو حاتم واستقروا فى جملة السلطان وهلك أبو طالب
بفاس أثناء تلك المدة ثم كان من خروج الامير أبى على على أبيه وانتقاضه عليه ما قدمناه فلحق أبو زكرياء
ابن أبى طالب وأخوه أبو زيد بالسلطان أبى سعيد نازعين اليه ومفارقين لابنه الثائر عليه واستمروا فى
جملته الى ان مرض الامير أبو على وزحف أبوه اليه وحاصره بفاس حسبما مر فحينئذ عقد السلطان
أبو سعيد لابى زكرياء على سبتة ثانيا وبعثه اليها ليقيم دعوته فى تلك الجهات وترك ابنه محمد بن أبى زكرياء
تحت يده رهنا على الطاعة فاستقل أبو زكرياء بامارتها وأقام دعوة السلطان أبى سعيد بها واتصل ذلك
منه نحو سنتين ثم هلك عمه أبو حاتم بسبتة سنة ست عشرة وسبعمائة وانتقض أبو زكرياء بن أبى طالب
على السلطان أبى سعيد ورجع الى حال سلفه من الاستبداد واقامة الشورى بالبلد واستقدم من الاندلس
عبد الحق بن عثمان الذى كان خرج على السلطان أبى الربيع مع الوزير عبد الرحمن الوطاسى فقدم عليه
وعقد له على الحرب ليفرق به كلمة بنى مرين بالمغرب ويوهن بأسهم فخف عليه وطأتهم واتصل ذلك كله
بالسلطان أبى سعيد فقام وقعد وجهز الى سبتة العساكر من بنى مرين وعقد على حربها للوزير ابراهيم
ابن عيسى اليرنيانى فزحف اليها وحاصرها فاعتذر اليه أبو زكرياء بحبس ابنه عنه ومفارقته له وانه
اذا رجع اليه ابنه بذل الطاعة وراجع الدعوة فأعلم الوزير السلطان بذلك فبعث اليه بالولد ليسلمه الى
أبيه بعد ان يقتضى منه موجبات الطاعة وأسبابها وجاء الخبر الى أبى زكرياء بان ابنه قد قدم وانه كائن
بفسطاط الوزير بساحل البحر بحيث تتأتى الفرصة فى أخذه فبعث أبو زكرياء الى عبد الحق بن
عثمان قائد الحرب وأعلمه بمكان ابنه فواطأه عبد الحق على انتزاعه منهم ثم هجم ليلا فى جماعة من
حاشيته على فسطاط الوزير فاحتمل الولد وأصبح به عند أبيه وسمع أهل عسكر الوزير بالهيعة فركبوا
وتبعوا الاثر فلم يقفوا على خبر وتفقد الوزير الولد الذى كان عنده فلم يجده واتهم الجيش الوزير بأنه
مالأ شيعة أبيه على أخذه والا فلا يقدم أحد هذا الاقدام بدون مداخلة من بعض الجيش فتقبضوا
على الوزير وجاؤا به الى السلطان ابلاء فى الطاعة وابلاغا فى العذر فشكر لهم ذلك وأطلق الوزير لعلمه
ببراءته ونصحه ثم رغب أبو زكرياء بعدها فى رضا السلطان وطاعته وولايته فنهض السلطان أبو
سعيد رحمه الله سنة ست عشرة الى طنجة لاختبار طاعة أبى زكرياء فبان له صدقه وعقد له على سبتة
واشترط هو على نفسه حمل الجباية الى السلطان واسناء الهدية فى كل سنة واستمرت الحال على ذلك
الى ان هلك أبو زكرياء سنة عشرين وسبعمائة وقام بالامر بعده ابنه محمد بن أبى زكرياء الى نظر ابن
عمه محمد بن على ابن الفقيه أبى القاسم شيخ قرابتهم وكان قائد الاساطيل بسبتة ولى النظر فيها بعد ان
نزع القائد يحيى الرنداحى الى الاندلس وتغلب محمد بن على هذا بسبتة واختلفت كلمة الغوغاء واضطرب

الامر على بنى العزفى بها فانتهز السلطان أبو سعيد الفرصة فيها وأجمع النهوض اليها فنهض سنة ثمان وعشرين وسبعمائة ونزل عليها فبادر أهل سبتة باتيان طاعتهم وعجز محمد بن أبى زكرياء عن المناهضة وظنها محمد بن على من نفسه فتعرض للامر فى أوغاد من لفيفها اجتمعوا اليه فدافعهم الملأ من أهل سبتة عن ذلك وحملوهم على الطاعة واقتادوا بنى العزفى الى السلطان أبى سعيد فانقادوا اليه واحتل السلطان بقصبة سبتة وثقف جهاتها ورم منثلها وأصلح خللها واستعمل كبار رجالاته وخواص مجلسه فى أعمالها فعقد لحاجبه عامر بن فتح الله السدرانى على حاميتها وعقد لابى القاسم بن أبى مدين العثمانى على جبايتها والنظر فى مبانيها واخراج الاموال للنفقات فيها وأسنى جوائز الملأ من مشيختها ووفر اقطاعاتهم وجراياتهم وأوعز ببناء البلد المسمى افراك على سبتة فشرعوا فى بنائها سنة تسع وعشرين وسبعمائة وانكفأ راجعا الى حضرته ﴿وقد ذكر﴾ ابن الخطيب فى كتاب الاكليل محمد بن أبى زكرياء هذا فقال فيه ماصورته فرع تأوّد من الرياسة فى دوحة وتردد بين غدوة فى المجد وروحة نشأ والرياسة العزفية تعله وتنهله والدهر يسر أمله الاقصى ويسهله حتى اتسقت أسباب سعده وانتهت اليه رياسة سلفه من بعده فألقت اليه رحالها وحطت ومتعته بقربها بعدما شطت ثم كلح له الدهر بعد ماتبسم وعاد زعزعا نسيمه الذى كان تنسم وعاق هلاله عن تمه ماكان من تغلب ابن عمه واستقر بهذه البلاد نازح الدار بحكم الاقدار وان كان نبيه المكانة والمقدار وجرت عليه جراية واسعة ورعاية متتابعة الى آخر كلامه ويعنى بقوله هذه البلاد بلاد الاندلس والله أعلم

﴿المصاهرة بين السلطان أبى سعيد فى ابنه أبى الحسن وبين أبى بكر بن أبى زكرياء﴾ ﴿الحفصى والسبب فى ذلك﴾

كان أبو تاشفين عبد الرحمن بن أبى حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن صاحب تلمسان قد ضايق بنى أبى حفص أصحاب تونس وافريقية فى بلادهم واستولى على كثير من ثغورهم وردد البعوث والسرايا الى أطراف عمالاتهم * وفى سنة تسع وعشرين وسبعمائة جهز أبو تاشفين اليهم جيشا كثيفا وعقد عليه ليحيى بن موسى من صنائع دولته ونصب مع ذلك الملك تونس وافريقية بعض أعقاب الحفصيين وهو محمد بن أبى عمران كان لجأ اليه فى بعض الفتن التى كانت له مع بنى عمه وتقدم هذا الجيش الى أبى بكر بن أبى زكرياء الحفصى فهزموه واقتحموا مدينة تونس فاستولوا عليها ونصبوا الملكها والولاية عليها محمد بن أبى عمران المذكور وليس له من الملك الا الاسم والامر كله بيد يحيى بن موسى قائد الجيش وخلص السلطان أبو بكر بن أبى زكرياء الحفصى الى بونة بحا مطرودا عن كرسى ملكه ودار عزه فعزم حينئذ على الوفادة على السلطان أبى سعيد المرينى ليأخذ له حقه من آل يغمراسن المتغلبين عليه وأراد مع ذلك تجديد الوصلة التى كانت لسلفه مع بنى مرين فأشار عليه حاجبه محمد بن سيد الناس بانفاذ ابنه الامير أبى زكرياء صاحب الثغر استكفاله عن مثلها فقبل اشارته وأركب ابنه المذكور البحر وبعث معه وزيره أبا محمد عبد الله بن تافراجين نافضا أمامه طرق المقاصد والمحاورات ونزلوا بمرسى غساسة من ساحل المغرب وقدموا على السلطان أبى سعيد بحضرته فابلغوه رسالة أبى بكر الحفصى فاهتز لذلك هو وابنه الامير أبو الحسن وقال لوفد الحفصيين والله لأبذلن فى مظاهرتكم مالى وقومى ونفسى ولأسيرن بعساكرى الى تلمسان فأنازلها وكان فيما اشترط عليهم السلطان أبو سعيد مسير أبى بكر الحفصى بعساكره الى منازلة تلمسان معه فقبلوا وانصرفوا الى منازلهم مسرورين ونهض السلطان أبو سعيد الى تلمسان سنة ثلاثين وسبعمائة ولما انتهى الى وادى ملوية وعسكر بصبرة جاءه الخبر اليقين بعود أبى بكر الحفصى الى تونس وجلوسه على كرسيها فاستدعى السلطان أبو سعيد ابنه أبا زكرياء ووزيره أبا محمد بن تافراجين وأعلمهما الخبر وأسنى جوائزهم وأمرهم بالانصراف الى صاحبهم فركبوا أساطيلهم

من غساسة وبعث معهم ابراهيم بن أبي حاتم العزفي والقاضي بحضرته أباعبد الله بن عبد الرزاق يخطبون بنت السلطان أبي بكر الحفصي لابنه الامير أبي الحسن فوصلوا الى الحفصي وأدوا الرسالة وانعقد الصهر بينهم في ابنته فاطمة شقيقة الامير أبي زكرياء وزفها اليهم في أساطيله مع مشيخة الموحدين وكبيرهم أبي القاسم بن عتو فوصلوا الى مرسى غساسة سنة احدى وثلاثين وسبعمائة فقام بنو مرين لها على أقدام البر والكرامة وبعثوا الظهر الى غساسة لركوبها وحمل أثقالها وصيغت حكمات الذهب والفضة ومدت ولايا الحرير المغشاة بالذهب واحتفل السلطان أبو سعيد رحمه الله لوفدها واعراسها بما لم يسمع بمثله في دولتهم وتحدث الناس به دهرا وهلك السلطان أبو سعيد بين يدى موصلها كما نذكر

﴿وفاة السلطان أبي سعيد بن يعقوب رحمه الله﴾

كان السلطان أبو سعيد رحمه الله لما بلغه الخبر بوصول العروس فاطمة بنت السلطان أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي سنة احدى وثلاثين وسبعمائة ارتحل بنفسه الى تازا ليشارف أحوالها كرامة لها ولابيها وسرورا بعرس ابنه فاعتل هنالك وازداد مرضه حتى اذا أشفا على الهلكة ارتحل به ولى العهد الامير أبو الحسن الى الحضرة وحمله في فراشه على أكتاد الحاشية والجند حتى نزل بوادى سبو ثم أدخله كذلك ليلا الى قصره فأدركته المنية في طريقه فتوفى في ليلة الجمعة الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة احدى وثلاثين وسبعمائة وكان مرضه بعلة النقرس فوضعوه بمكانه من بيته واستدعى ابنه أبو الحسن الصالحين لمواراته فدفن هنالك ببعض قبابه رحمه الله وكانت أيامه أعيادا ومواسم ومن أكابر كتابه الرئيس أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي السبتي

﴿الخبر عن دولة السلطان المنصور بالله أبي الحسن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله﴾

هذا السلطان هو أفخم ملوك بني مرين دولة وأضخمهم ملكا وأبعدهم صيتا وأعظمهم أبهة وأكثرهم آثارا بالمغربين والاندلس ويعرف عند العامة بالسلطان الاكحل لان أمه كانت حبشية فكان أسمر اللون والعامة تسمى الاسمر والاسود أكحل وانما الاكحل في لسان العرب أكحل العينين فقط وكان أخوه أبو على لمملوكة من سبي النصارى فكان أبيض وانضاف لذلك أن كان أبو الحسن ملكا على الحضرة وأبو على ملكا على بلاد القبلة فكانا أخوين ملكين في عصر واحد أحدهما أسمر والآخر أبيض فعرف هذا بالاكحل والآخر بالابيض للمقابلة ﴿ولما هلك السلطان أبو سعيد رحمه الله﴾ اجتمع الخاصة من المشيخة ورجالات الدولة على ولى عهده أبي الحسن المذكور وعقدوا له على أنفسهم وآتوه طاعتهم فأمر للحين بنقل معسكره من ناحية سبو الى الزيتون من ناحية فاس ولما فرغ من دفن أبيه خرج الى معسكره بالمحل المذكور واجتمع الناس اليه على طبقاتهم لاداء البيعة بفسطاطه وتولى أخذ البيعة له يومئذ على الناس الشيخ أبو محمد عبد الله بن قاسم المزوار والمزوار في لسان زناتة معناه الرئيس وكان هذا الرجل رئيس الوزعة والمتصرفين وحاجب الباب السلطاني قديم الولاية في ذلك منذ عهد السلطان يوسف بن يعقوب ثم زفت على السلطان أبي الحسن زوجته الحفصية فبنى بها بمكانه من المعسكر المذكور وأجمع رأيه على الانتقام لابيهما من عدوه أبي تاشفين الزياني على مانذكره

﴿حدوث الفتنة بين الاخوين أبي الحسن وأبي على ثم مقتل أبي على والسبب في ذلك﴾

كان السلطان أبو سعيد رحمه الله لما عهد بالامر لابنه أبي الحسن وتحقق مصيره اليه كثيرا ما يستوصيه بأخيه أبي على لكلفه به وشفقته عليه فلما خلص الامر الى أبي الحسن وكان مؤثرا رضا أبيه جهده اعتزم على الحركة الى سجلماسة لمشارفة أحوال أخيه واختبار أمره وما هو عليه من سلم أو حرب ليعمل على مقتضى ذلك فارتحل من معسكره بالزيتون قاصدا سجلماسة فتلقته وفود أخيه أبي على أثناء الطريق

مؤديا حقه وموجبا مبرته ومهنئاله بما آتاه الله من الملك ويعلمه مع ذلك بأنه متجاف عن المنازعة له قانع من تراث أبيه بما في يده طالب منه أن يعقد له بذلك فأجابه السلطان أبو الحسن الى ماسأل وعقد له على سجلماسة وماوالاها من بلاد القبلة كما كان لعهد أبيه وأشهد على ذلك الملا من بني مرين وسائر زناتة والعرب وانكفأ السلطان أبو الحسن راجعا الى تلمسان عازما على الانتقام من أبي تاشفين الزياني فسار حتى انتهى الى تلمسان ثم تجاوزها الى جهة الشرق حتى نزل بتاسالت منتظر القدوم صهره السلطان أبي بكر الحفصي عليه وفاء بالعهد الذي كان انعقد له مع السلطان أبي سعيد أيام وفادة ابنه أبي زكرياء عليه من انهما يكونان يدا واحدة على حصار تلمسان حتى يحكم الله بينهما وبين صاحبها فعسكر أبو الحسن بتاسالت ثم بعث بحصة من جنده في البحر الى صهره الحفصي مددا له وهو يومئذ بجاية يقاتل جيش بني زيان عليها ولما اتصل الخبر بأبي تاشفين صاحب تلمسان فكر في أمر أبي الحسن وأعمل الحيلة بأن دس الى أخيه الامير أبي علي صاحب سجلماسة في اذهال اليد به والاتفاق معه على أخيه أبي الحسن وان يأخذ كل واحد منهما بحجزته عن صاحبه ويشغله عنه حتى يتمكا منه ووعده أبو تاشفين ومناه ولم يزل به حتى انتقض على أخيه ونهض من سجلماسة الى درعة فقتل عاملها وولى عليها عاملا من قبله ثم سرح العساكر الى جهة مراكش وأجلب عليها بخيله ورجله واتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن وهو بمعسكره من تاسالت ينتظر قدوم الحفصي عليه فانكفأ راجعا الى الحضرة مجمعا الانتقام من أخيه ولما انتهى طريقه الى حصن تاوريرت شحنه بالعسكر وعقد عليه لابنه تاشفين ابن أبي الحسن ووقف أمره على نظر منديل بن حمامة شيخ بني تيربيعين ثم أغذ السير الى سجلماسة فنزل عليها وأخذ بمخنقها وحشر الفعلة والصناع لصنع الآلات والبناء بساحتها وأقام عليها يغاديها القتال ويراوحها حولا كاملا ونهض أبو تاشفين في عساكره من تلمسان يريد الغارة على أطراف المغرب كى يشغل أبا الحسن عن أخيه بذلك فانتهى الى تاوريرت فبرز اليه تاشفين بن أبي الحسن في عساكر مرين فهزموه وردوه على عقبه الى تلمسان ثم بعث بحصة من جنده مددا للامير أبي علي فتدمروا الى سجلماسة جماعات وأفذاذا حتى تكاملوا لديه فلم يغنوا شيأ وطاولهم السلطان أبو الحسن الحصار وأنزل بهم أنواع النكال حتى اقتحم البلد عنوة تاسع عشر محرم سنة أربع وثلاثين وسبعمائة وتقبض على الامير أبي علي عند باب قصره وجيء به الى أخيه أبي الحسن وقد خامره الجزع فلما مثل بين يديه تضرع اليه وقبل حافر فرسه فأمر أبو الحسن بتثقيفه وحمله على بغل الى فاس وانكفأ هو راجعا الى الحضرة فلما دخلها اعتقل أخاه ببعض حجر القصر أشهرا ثم قتله فصدا وخنقا وكانت سن أبي علي يومئذ سبعا وثلاثين سنة وكانت دولته بسجلماسة تسع عشرة سنة وأشهرا وكان رقيق الحاشية ينتمي الى الادب وهو الذي استقدم أبا محمد عبد المهيمن الحضرمي من سبتة واستكتبه أيام أبيه ومن شعر الامير أبي علي يخاطب أخاه أبا الحسن أيام حصاره له بسجلماسة وقد أيقن بزوال أمره

فلا يغرنك الدهر الخؤن فكم * أبادمن كان قبلي ياأبا الحسن
الدهر مذ كان لايبقى على صفة * لابدمن فرح فيه ومن حزن
أين الملوك التي كانت تهابهم * أسد العرين ثوواقى اللحدوالكفن
بعد الاسرة والتيجان قدمحيت * رسومها وعفت عن كل ذي حسن
فاعمل لاخرى وكن بالله مؤتمرا * واستغن بالله في سر وفي علن
واختر لنفسك أمرا أنت آمره * كأنني لم أكن يوما ولم تكن

﴿وفادة السلطان ابن الاحمر على السلطان أبي الحسن بحضرة فاس وفتح جبل طارق﴾

لما هلك السلطان أبو الوليد اسمعيل ابن الرئيس أبي سعيد فرج ابن الاحمر المتغلب على ملك الاندلس من

يد ابن عمه أبي الجيوش قام بالامر بعده ابنه محمد طفلا صغيرا واستبد عليه وزيره محمد بن المحروق فقتله بعد ما شب وعقل وكان الطاغية قد استولى على جبل الفتح وهو جبل طارق سنة تسع وسبعمائة وزاحم الفرنج به ثغور المسلمين وصار شجى في صدر الدولتين المرينية والاحمرية واستمر الحال على ذلك الى ان بويع الامير السلطان أبو الحسن وكان له رغبة في الجهاد اقتداء بمذهب جده يعقوب بن عبد الحق فبادر السلطان محمد بن اسمعيل ابن الاحمر الى الوفادة عليه لاحكام عقد المودة معه والمفاوضة في أمر الجهاد وغير ذلك مما فيه صلاح لدولته فقدم عليه بدار ملكه بفاس سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة فأكبر السلطان أبو الحسن موصله وأركب الناس للقائه وأنزله بروض المصارة لصق داره واستبلغ في اكرامه وفاوضه ابن الاحمر في شأن المسلمين وراء البحر وما أهمهم من عدوهم وشكى اليه حال الجبل واعتراضه شجى في صدور الثغور قبل وشكى اليه أمر بني عثمان بن أبي العلاء لانهم كانوا قد استطالوا عليه في أرضه فأشكاه أبو الحسن وعامل الله تعالى في أسباب الجهاد وكان يومئذ مشغولا بفتنة أخيه أبي علي ومع ذلك فقد أمده بالجند وعقد لابنه أبي مالك على خمسة آلاف من أنجاد بني مرين وأنفذهم مع ابن الاحمر لمنازلة جبل الفتح فاحتل أبو مالك بالجزيرة الخضراء وتتابعت اليه الاساطيل بالمدد وأرسل ابن الاحمر في الاندلس حاشرين فتسايل الناس اليه من كل جهة وزحفوا جميعا الى الجبل وأحاطوا به وأبلوا في منازلته البلاء الحسن الى ان فتحوه سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة واقتحمه المسلمون عنوة ونفاهم الله من كان به من النصارى بجامعهم وشرع المسلمون في شحنه بالاقوات ينقلونها من الجزيرة الخضراء على خيولهم خوفا من كرة العدو وباشر نقلها الاميران أبو مالك وابن الاحمر بأنفسهما ونقلها الناس عامة وتحيز الامير أبو مالك الى الجزيرة الخضراء وترك بالجبل يحيى بن طلحة بن محلى من وزراء أبيه ووصل الطاغية بعد ثلاث من فتحه فأناخ عليه وحاصره وبرز أبو مالك بعساكره من الجزيرة فنزل بازائه وزحف ابن الاحمر فنزل بازائه أيضا ثم خاف ابن الاحمر عادية العدو لقرب العهد بارتجاع الجبل وخفة من به من الحامية والسلاح فبادر الى لقاء الطاغية وسبق الناس الى فسطاطه مجلا بأنعانفسه من الله في رضا المسلمين وسد خلتهم فتلقاه الطاغية راجلا حاسرا اعظاما له وأجابه الى ما سأل من الافراج عن هذا المعقل وأتحفه بذخائر الديه وارتحل من فوره وشرع الامير أبو مالك في تحصين ذلك الثغر وسد فروجه ﴿وقال أبو العباس المقري في النفح﴾ ارتجع السلطان أبو الحسن جبل طارق بعد ان أنفق عليه الاموال وصرف اليه الجنود والحشود ونازلته جيوشه مع ولده وخواصه وضيقوا به الى ان استرجعوه ليد المسلمين واهتم ببنائه وتحصينه وأنفق عليه أحمال المال في بنائه وحصنه وسوره وبني أبراجه وجامعه ودوره ومحاربه ولما كاد يتم ذلك نازله العدو برا وبحرا فصبر المسلمون وخيب الله سعي الكافرين فاراد السلطان المذكور أن يحصن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته حتى لا يطمع عدو في منازلته ولا يجد سبيلا للتضييق عليه بمحاصرته ورأى الناس ذلك من المحال فانفق الاموال وأنصف العمال فاحاط بمجموعه احاطة الهالة بالهلال وكان بقاء هذا الجبل بيد العدو نيفا وعشرين سنة وحاصره السلطان أبو الحسن ستة أشهر وزاد في تحصينه ابنه السلطان أبو عنان رحمهما الله تعالى ﴿وأما ابن الاحمر﴾ فان أولاد عثمان بن أبي العلاء شيوخ الغزو بالاندلس لما رأوا ما حصل بينه وبين السلطان أبي الحسن من الوفاق واتصال اليد خافوا أن تعود موافقتهم بالضرر عليهم اذ كانوا أعداء الدولتين معا أما دولة المغرب فبخروجهم عليهم ومنابذتهم اياهم غير مرة وأما دولة الاندلس فباستبدادهم على أهلها ومزاحمتهم اياهم في رياستها فتشاوروا فيما بينهم وفتكوا بابن الاحمر يوم رحيله عن الجبل الى غرناطة فتقاصفوه بالرماح وقدموا أخاه أبا الحجاج يوسف بن اسمعيل مكانه فقام بالامر بعده وشمر للاخذ بثار أخيه فاحتال على بني أبي العلاء حتى قبض عليهم وأودعهم المطبق ثم غربهم الى تونس الى ان كان من أمرهم ما نذكره

﴿فتح تلمسان ومقتل صاحبها أبي تاشفين وانقراض الدولة الاولى لبني زيان بمهلكه﴾

لما استقام ملك المغرب للسلطان أبي الحسن بمقتل أخيه أبي علي صاحب سجلماسة ونصر الله جنده على الطاغية بالاندلس تفرغ لشأن تلمسان والانتقام من صاحبها أبي تاشفين الذي ضايق أصهاره من بني أبي حفص في أرضهم ونازعهم في ملكهم وكان السلطان أبو الحسن قد بعث لاول بيعته شفعاء الى أبي تاشفين في ان يتخلى عن عمل الموحدين ويرجع الى تخوم أعماله التي ورثها عن سلفه وقال له في جملة ذلك كف عنهم ولو سنة واحدة ليسمع الناس اني نافحت عن صهري ويقدر واقدري فاستنكف أبو تاشفين من ذلك وأغلظ للرسل في القول وأفحش بعض السفهاء من عبيده في الرد عليهم بمجلسه ونالوا من السلطان أبي الحسن بمحضره فعادت الرسل اليه وأعلموه بالقضية على وجهها فحمي لذلك وغضب وتأكد عزمه على النهوض الى تلمسان فكان من نهوضه أولا وانتقاض أخيه عليه وعوده اليه من تاسالت ما قصصناه قبل مستوفى ثم عاود السلطان النهوض الى تلمسان في هذه المرة فعسكر بظاهر فاس الجديد وبعث وزراءه ووجوه دولته الى قاصية البلاد المراكشية لحشد القبائل والجموع ثم تجهل وعرض جنوده وأزاح عللهم وعبى مواكبه وفصل في التعبية من فاس أواسط خمس وثلاثين وسبعمائة فسار بجر الشوك والمدر من أمم المغرب وجنوده ومر بوجدة فجمر عليها الكتائب للحصار ثم مر بندرومة فقاتلها بعض يوم ثم اقتحمها عنوة فاستولى عليها وقتل حاميتها ثم سار على التعبية حتى أناخ على تلمسان ثم بلغه الخبر بتغلب عسكره على وجدة سنة ست وثلاثين وسبعمائة فأوعز اليهم بتخريب أسوارها فاضرعوها بالارض وتوافت لديه امداد النواحي وحشودها ووفدت عليه قبائل مغراوة وبني توجين فأتوه طاعتهم وسرح كتائبه الى القاصية فتغلب على وهران وهنين ثم على مليانة وتنس والجزائر وغيرها واستولى على الضواحي ونزع اليه يحيى بن موسى كبير قواد أبي تاشفين وصاحب الثغور الشرقية من أعماله فلقاه مبرة وكرامة ورفع بساطه ونظمه في طبقات وزرائه وجلسائه وعقد على فتح البلاد الشرقية ليحيى بن سليمان العسكري شيخ بني عسكر بن محمد وصهر السلطان على ابنته فسار في الالوية والجنود فطوع ضاحية الشرق واقتحم أمصاره حتى انتهى الى المدية وتطم البلاد في طاعة السلطان أبي الحسن واحتشد جموعها فلحقوا بعسكره واستعمل السلطان أبو الحسن عماله على الجهات واختط بغربي تلمسان البلد الجديد لسكناه ونزول عساكره وأحيا معالم المنصورة التي كان اختطها عمه يوسف ابن يعقوب وخربها بنو زيان من بعده فأدار عليها سياجا من السور ونطاقا من الخندق ونصب المجانيق وآلات من وراء خندقه وجعلت رماته تنضح رماة العدو بالنبل ويشغلونهم بانفسهم حتى شيد برجا آخر يقرب منهم وترتفع شرفاته فوق خندقهم وتماصع المقاتلة بالسيوف من أعاليه ورتب المجانيق لرجمها وأحكم عملها الدكها فقاتلت من ذلك فوق الغاية وعظم أثرها في القصور العظيمة والقباب الرفيعة التي تأنق أبو تاشفين في تشييدها وكان السلطان أبو الحسن يصبح المقاتلة كل يوم ويطوف على البلد من جميع جهاته لتفقد رؤساء العسكر في مراكزهم وربما انفرد في طوافه فطاف في بعض الايام منتبذا عن الحاشية فاهتبل بنو عبد الواد غرته حتى اذا اسلك ما بين الجبل والبلد فتحوا أبوابهم وأرسلوا عليه عقبان جنودهم يحسبونها فرصة كالتي كانت ليغمراسن بن زيان في السعيد الموحدي واضطروه الى سفح الجبل حتى لحق بأوعاره وكاد ينزل عن فرسه هو ووليه عريف بن يحيى أمير عرب سويد وأحس أهل المعسكر بذلك فركبوا زرافات ووحدانا وركب ابناه الاميران أبو عبد الرحمن وأبو مالك وهما جناحا عسكره وعقابا خافقه وتهاوت اليهم صقور بني مرين من كل جو فانكشفت عساكر بني عبد الواد وولوا الادبار منهزمين لا يلوي أحد منهم على أحد واعترضهم مهوى الخندق فتطارحوا فيه وتهافتوا على ردمه فكان الهالك يومئذ فيه أكثر من الهالك بالسلاح وهلك من بني توجين يومئذ عمر بن عثمان كبير الحشم وعامل جبل

وانشريس ومحمد بن سلامة بن على كبير بنى يدللتن وصاحب قلعة تاوغزوت وهما اماماهما في زناتة الى اشباه لهما استلحموا في هذه الوقعة فخص هذا اليوم من جناح دولة بنى زيان وحطم منها واتصل الحصار مدة من ثلاث سنين حتى اذا كان السابع والعشرون من رمضان من سنة سبع وثلاثين وسبعمائة اقتحم السلطان أبو الحسن مدينة تلمسان عنوة ووقف أبو تاشفين رحمه الله عند باب قصره في جماعة من أصحابه منهم ولداه عثمان ومسعود ووزيره موسى بن على ووليه عبد الحق بن عثمان وهو الذى كان خرج على السلطان أبى الربيع وبايعه عبد الرحمن بن يعقوب الوطاسى حسبما مر فانه لحق بعد تلك الوقعة بتلمسان ثم منها الى الاندلس ثم حضر انتقاض العز في بسبنة سنة ست عشرة كما مر ثم لحق بأبى بكر الحفصى ثم نزع عنه الى أبى تاشفين واستمر عنده الى هذا اليوم فشهده في جماعة من بنيه وبنى أخيه وكانوا احلاس حرب وفتيان كريهة فمانعوا دون القصر واستماتوا عليه الى ان استلحموا ورفعت رؤسهم على عصا الرماح فطيف بها وغصت سكك البلد من داخلها وخارجها بالعساكر وكظت أبوابها بالزحام حتى لقد كب الناس على أذقانهم وتواقعوا في مساربهم فوطئوا بالحوافر وتراكمت أشلاؤهم ما بين البابين حتى ضاق المسلك ما بين السقف ورحبة الباب وانطلقت الايدى على المنازل نهبا واكتساحا ﴿وأما أبو تاشفين﴾ فانه قاتل حتى قتل ابناه عثمان ومسعود أمامه وخلصت اليه جراحات فأثخنته وتقبض عليه بعض الفرسان فساقه الى السلطان فلقيه ابنه الامير أبو عبد الرحمن فأمر به فقتل في الحين واحتز رأسه وسخط السلطان ذلك من فعله لانه كان حريصا على توبيخه وتقريعه ﴿وقال ابن الخطيب﴾ وقف أبو تاشفين وبنوه بازاء القصر مدافعين عن أنفسهم وقاموا مقام الصبر والاستجماع وصدقوا عن أنفسهم الدفاع الى ان كوثروا وأعجلتهم ميتة العز عن شد الوثاق وامكان الشمات فكان في شأنهم عبرة رحمهم الله وخلص السلطان أبو الحسن الى المسجد الجامع بحاشيته واستدعى شيوخ الفتيا بتلمسان وهما الامامان الشهيران أبو زيد عبد الرحمن وأبو موسى عيسى ابنا الامام فخلصوا اليه بعد الجهد ووعظوه وذكروه بما نال الناس من النهب والعيث فركب لذلك بنفسه وسكن الناس وقبض أيدى الجند عن الفساد وعاد الى معسكره بالبلد الجديد وقد كمل الفتح وعز النصر واستولى السلطان أبو الحسن على تلك الامارة المؤثلة بما اشتملت عليه من نفيس الحلى وثمين الذخيرة وفاخر المتاع وخطير العدة وبديع الآلة وصامت المال وضروب الرقيق وصنوف الاثاث والماعون ورفع القتل عن بنى عبد الواد أعدائه وشفا نفسه بقتل سلطانهم وعفا عنهم وأثبتهم في الديوان وفرض لهم العطاء واستتبعهم على راياتهم ومراكزهم وجمع كلمة بنى واسين من بنى مرين وبنى عبد الواد وبنى توجين وسائر زناتة وصاروا عصبا تحت لوائه وسد بكل طائفة منهم ثغرا من أعماله فأنزل منهم بقاصية السوس وبلاد غمارة وأجاز منهم الى ثغور عمله بالاندلس حامية ومرابطين واندرجوا في جملته واتسع نطاق مملكته وأصبح أبو الحسن ملك زناتة بعد ان كان ملك بنى مرين وسلطان العدوتين بعد ان كان سلطان المغرب فقط وانما الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين

﴿مراسلة السلطان أبى الحسن لسلطان مصر وبعثه المصاحف من خطه﴾
﴿الى المساجد الثلاثة شرفها الله﴾

كان للسلطان أبى الحسن مذهب ورأى في ولاية ملوك المشرق والكلف بالمعاهد الشريفة اقتداء في ذلك بعمه يوسف بن يعقوب وغيره من سلفه وضاعف ذلك لديه متين ديانته ورفيع همته ولما اقتضى من أمر تلمسان ما اقتضى واستولى على المغرب بن خاطب حينئذ صاحب مصر والشام والحجاز الملك الناصر محمد بن قلاوون وعرفه بالفتح وارتفاع العوائق عن ركب الحاج في سابلتهم وكان سفيره في ذلك فارس ابن ميمون بن وردار وعاد بجواب الكتاب وتقرير المودة بين الخلف كما كانت بين السلف فأجمع السلطان

أبو الحسن حينئذ على كتب نسخة عتيقة من المصحف الكريم بخط يده ليوقفها بالحرم الشريف حرم مكة قربة الى الله تعالى وابتغاء للمثوبة فانتسخها بيده وجمع الوراقين لتنميقها وتذهيبها والقراء لضبطها وتهذيبها وصنع لها وعاء مؤلفا من الآبنوس والعاج والصندل فائق الصنعة وغشى بصفائح الذهب ورصع بالجوهر والياقوت واتخذ له أصونة الجلد المحكمة الصنعة المرقوم أديمها بخطوط الذهب ومن فوقها غلائف الحرير والديباج وأغشية الكتان وأخرج من خزائنه أموالا عينها لشراء الضياع بالمشرق لتكون وقفا على القراء فيها وأوفد على الملك الناصر خواص مجلسه وكبار أهل دولته مثل عريف بن يحيى أمير بني زغبة من عرب بني هلال ومثل السابق المقدم في بساطه على كل خالصة عطية بن مهلهل ابن يحيى كبير أخواله من عرب الخلط وبعث كاتبه أبا الفضل بن محمد بن أبي مدين وعريف الوزعة ببابه الشيخ أبا محمد عبد الله بن قاسم المزوار واحتفل في الهدية للسلطان صاحب مصر احتفالا تحدث الناس به دهرا ﴿وقال ابن خلدون﴾ وقفت على برنامج الهدية بخط أبي الفضل بن أبي مدين الرسول المذكور ووعيته ثم أنسيته وذكر لي بعض قهارمة الدار انه كان فيها خمسمائة من عتاق الخيل المقربات بسروج الذهب والفضة ولجمها خالصا ومغشى ومموها وخمسمائة حمل من متاع المغرب وماعونه وأسلحته ومن نسج الصوف المحكم ثيابا وأكسية وبرانس وعمائم وأزرا معلمة وغير معلمة ومن نسج الحرير الفائق المعلم بالذهب ملونا وغير ملون وساذجا ومنمقا ومن الدرق المجلوبة من بلاد الصحراء المحكمة الدبغ المنسوبة الى اللمط ومن خرثي المغرب وماعونه ما تستطرف صناعته بالمشرق حتى لقد كان فيها مكيل من حصى الجوهر والياقوت واعتزمت حظية من حظايا أبيه على الحج في ذلك الركب فاذن لها واستبلغ في تكرمتها واستوصى بها وفده وسلطان مصر في كتابه وفصلوا من تلمسان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ووصلوا الى مصر في الثاني والعشرين من رمضان من السنة المذكورة وأدوا رسالتهم الى الملك الناصر وقدموا هديتهم اليه فقبلها وحسن موقعها لديه وكان يوم وفادتهم عليه بمصر يوما مشهودا تحدث الناس به دهرا ولقاهم سلطان مصر في طريقهم أنواع البر والكرامة حتى قضوا فرضهم ووضعوا المصحف الكريم حيث أمرهم صاحبه وأسنى الملك الناصر هدية السلطان من الفساطيط المشرقية الغريبة الشكل والصنعة بالمغرب ومن ثياب الاسكندرية البديعة النسج المرقومة بالذهب ورجعهم بها الى مرسلهم وقد استبلغ في تكرمتهم وصلتهم وبقي حديث هذه الهدية مذكورا بين الناس لهذا العهد اه كلام ابن خلدون ببعض ايضاح ﴿وقد ذكر﴾ الامام الخطيب أبو عبد الله بن مرزوق في كتابه المسند الصحيح الحسن من أخبار السلطان أبي الحسن هذه الهدية وفصل منها بعض ما أجمله ابن خلدون فقال أرسل السلطان أبو الحسن للناصر بن قلاوون صاحب الديار المصرية من أحجار الياقوت العظيم القدر والثمن ثمانمائة وخمسة وعشرين ومن الزمرد ثمانمائة وثمانية وعشرين ومن الزبرجد مائة وثمانية وعشرين ومن الجوهر النفيس الملوكي ثلاثمائة وأربعة وستين وأرسل حلالا كثيرة منها مذهبة ثلاثة عشر ومن الاثنان عشرين مذهبة ومن الخلادي ستة وأربعين ومن القنوع ستة وعشرين مذهبة ومن المحررات المختمة ثمانمائة ومن الرصان عشرين شقة ومن الاكسية المحررة أربعة وعشرين ومن البرانس المحررة ثمانية عشر ومن المشقفات مائة وخمسين ومن أحارم الصوف المحررة عشرين ومن شقق الملف الرفيع ستة عشر ومن الفضالي المنوعة والفرش والمخاد المنبوق والحلل ثمانمائة ومن أوجه اللحف المذهبة عشرين وحائطين حلة وحنابل مائة واثني عشر كلها حرير وفرش جلد مخروز بالذهب والفضة ومن السيوف المحلاة بالذهب المنظم بالجوهر عشرة والسروج عشرة بركب الذهب كذلك ومهاميز الذهب وثلاثة ركب فضة وستة مرجحة ومذهبة ومضمتان من ذهب مما يليق بالملوك وشاشية حديد بذهب مكلل بالجوهر ومن لزمات الفضة عشرة وسروج مخروزة بالفضة عشرة

وعشر علامات مغشاة مذهبة وعشر رايات مذهبة وعشر براقع مذهبة وعشر أمثلة مرقومة وثلاثون جلدا شرك وأربعة آلاف درقة لمط منها مائتان بنهود الذهب وثمانمائة بنهود الفضة وخباء قبة كبيرة من مائة بنيقة لها أربعة أبواب وقبة أخرى مضربة من ست وثلاثين بنيقة مبطنة بحلة مذهبة وهي من حرير أبيض ومرابطها حرير ملون وعمودها عاج وآبنوس وأكبارها من فضة مذهبة ومن البزاة الاحرار المنتقات أربعة وثلاثين ومن عتاق الخيل العراب ثلاثمائة وخمسا وثلاثين ومن البغال الذكور والاناث مائة وعشرين ومن الجمال سبعمائة وتوجهت مع هذه الهدية أم برسم الحج مع الربعة المكرمة يعني ربعة المصحف الكريم وأعطى السلطان الحرة أم أخته أم والد أبيه مريم ثلاثة آلاف وخمسمائة ذهبا ولقاضي الركب ثلاثمائة وكسوة ولقائد الركب أربعمائة وكساوى متعددة وبغلات وللرسول المعين للهدية ألفا ولشيخ الركب أحمد بن يوسف بن أبي محمد صالح خمسمائة ولجماعة الضعفاء من الحجاج ستمائة وبرسم العطاء للعرب ثلاثة آلاف وثمانمائة ولشراء الرباع ستة عشر ألفا وخمسمائة ذهبا اهـ ﴿وذكر في الكتاب المذكور﴾ ان السلطان أبا الحسن أهدى هدايا غير هذه لكثير من الملوك منها لصاحب الاندلس صلة وصدقة وهدية في مرات ومنها لملوك النصارى بعد هداياهم ومنها لسلاطين السودان كصاحب مالي ومنها لصاحب افريقية ومنها لصاحب تلمسان اهـ ﴿وقال العلامة المقريزي﴾ مؤرخ مصر في كتاب السلوك مانصه وفي ثان وعشرين من رمضان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة قدمت الحرة من عند السلطان أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب المريني صاحب فاس تريد الحج ومعها هدية جليلة الى الغاية ترل لحملها من الاسطول السلطاني ثلاثون قطارا من بغال النقل سوى الجمال وكان من جملتها أربعمائة فرس منها مائة حجرة ومائة فحل ومائتا بغل وجميعها بسروج ولجم مسقطة بالذهب والفضة وبعضها سروجها وركبها ذهب وكذلك لجمها وعدتها اثنان وأربعون رأسا منها اسرجان من ذهب مرصع بجوهر وفيها اثنان وثلاثون بازا وفيها سيف قرابه ذهب مرصع وحياصة ذهب مرصع وفيها مائة كساء وغير ذلك من القماش العالي وكان قد خرج اليه مهمندار الى لقائهم وأنزلهم بالقرافة قريب مسجد الفتح وهم جمع كثير جدا وكان يوم طلوع الهدية من الايام المذكورة ففرق السلطان الهدية على الامراء بأسرهم على قدر مراتبهم حتى نفدت كلها سوى الجوهر واللؤلؤ فانه اختص به فقدرت قيمة هذه الهدية بما يزيد على مائة ألف دينار ثم نقلت الحرة الى الميدان بمن معها ورتب لها من الغنم والدجاج والسكر والحلواء والفاكهة في كل يوم بكرة وعشية ما عمهم وفضل عنهم فكان مرتبهم كل يوم عدة ثلاثين رأسا من الغنم ونصف أردب أرزا وقنطار حب رمان وربع قنطار سكرا وثمان فانوسيات شمعا وتوابل الطعام وحمل اليها برسم النفقة مبلغ خمسة وسبعين ألف درهم وأجرة حمل أثقالهم مبلغ ستين ألف درهم ثم خلع على جميع من قدم مع الحرة فكانت عدة الخلع مائتين وعشرين خلعة على قدر طبقاتهم حتى خلع على الرجال الذين قادوا الخيول وحمل الى الحرة من الكسوة ما يجل قدره وقيل لها ان ثقل على ما تحتاج اليه ولا يعوزها شيء وانما تريد عناية السلطان اكرامها واكرام من معها حيث كانوا فتقدم السلطان الى النشو والى الامير أحمد أن يغابتجهيزها اللائق بها فقاما بذلك واستخدما لها السقائين والضوئية وهيأ كل ما تحتاج اليه في سفرها من أصناف الحلاوات والسكر والدقيق والبقسماط وطلبا الجمالة لحمل جهازها وأزودتها وندب السلطان للسفر معها جمال الدين متولي الجيزة وأمره أن يرحل بها في مركب لها بمفردها قدام المحمل ويمتثل كلما تأمر به وكتب لأميري مكة والمدينة بخدمتها أتم خدمة اهـ وفيه بعض مخالفة لما وصفه ابن مرزوق في الهدية والخطب سهل * ثم انتسخ السلطان أبو الحسن رحمه الله نسخة أخرى من المصحف الكريم على القانون الأول ووقفها على القراء بالمدينة وبعث بها من تخيره لذلك العهد من أهل

دولته سنة أربعين وسبعمائة وفعل مثل ذلك بحرم بيت المقدس ﴿قال العلامة أبو العباس المقرى فى نفح الطيب﴾ كان السلطان أبو الحسن المرينى قد كتب ثلاثة مصاحف شريفة بخطه وأرسلها الى المساجد الثلاثة التى تشد اليها الرحال ووقف عليها أوقافا جليلة كتب سلطان مصر والشام توقيعه بمسامحتها من انشاء الاديب الشهير جمال الدين بن نباتة المصرى ونص مايتعلق به الغرض منه هنا قوله وهو الذى متعينه بالسيف والقلم فكتب فى أصحابها وسطر الختمات الشريفة فأيد الله حزبه بما سطر من أحزابها واتصلت ملائكة النصر بلوائه تغدو وتروح وكثرت فتوحه لاملياء الغرب فقالت أوقاف الشرق لابد للفقراء من فتوح ثم وصلت ختمات شريفة كتبها بقلمه المجيد المجدى وخط سطورها بالعربى وطالما خط فى صفوف الاعداء بالهندى ورتب عليها أوقافا تجرى أقلام الحساب فى اطلاقها وطلقها وحبس أملاكا شامية تحدث بنعم الاملاك التى سرت من مغرب الارض الى مشرقها والله تعالى يمتع من وقف هذه الختمات بما سطر له فى أكرم الصحائف وينفع الجالس من ولاة الامور فى تقريرها ويتقبل من الواقف اهـ ﴿قال المقرى﴾ وقد رأيت أحد المصاحف المذكورة وهو الذى ببيت المقدس وربعته فى غاية الصنعة اهـ والله تعالى أعلم * واتصلت الولاية بين السلطان أبى الحسن وبين الملك الناصر الى ان هلك سنة احدى وأربعين وسبعمائة وولى أمر مصر من بعده ابنه أبو الفداء اسمعيل بن محمد ابن قلاوون فخاطبه السلطان أبو الحسن أيضا على مانذكره بعد ان شاء الله

﴿نكبة الامير أبى عبد الرحمن يعقوب ابن السلطان أبى الحسن وفرار وزيره زيان بن عمر الوطاسى والسبب فى ذلك﴾

كان السلطان أبو الحسن رحمه الله عندما نهض الى تلمسان أولا وثانيا ينتظر قدوم صهره السلطان أبى بكر ابن أبى زكرياء الحفصى عليه لما كان انعقد بينه وبين أبيه أبى سعيد رحمه الله من الاجتماع على تلمسان والتعاون على حصارها ولما فتح أبو الحسن تلمسان فى التاريخ المتقدم كان وزير الحفصيين الشيخ أبو محمد ابن تافراجين شاهدا لذلك الفتح قدم رسولا من عند مخدومه السلطان أبى بكر المذكور فاسر الى السلطان أبى الحسن بان مخدومه قادم عليه لقائه وتهنئته بالظفر بعدوه فتشوف السلطان أبو الحسن اليها لما كان يحب الفخر ويعنى به وارتحل عن تلمسان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة وعسكر بمتيجة منتظرا لوفادة صهره عليه فتكاسل الحفصى عن القدوم بسبب تثبيط محمد بن الحكيم من رجال دولته اياه عن ذلك وقال له ان لقاء سلطانين لا يتفق الا فى يوم على أحدهما فكره الحفصى ذلك وتقاعد عنه وطال مقام السلطان أبى الحسن فى انتظاره ثم طرقه بفسطاطه مرض ألزمه الفراش حتى تحدث أهل العسكر بهلكه وكان ابناه الاميران أبو عبد الرحمن وأبو مالك متناغيين فى ولاية عهده منذ أيام جدهما أبى سعيد وكان أبوهما قد جعل لهما الاول دولته ألقاب الامارة وأحوالها من اتخاذ الوزراء والكتاب ووضع العلامة وتدوين الدواوين واثبات العطاء واستلحاق الفرسان وانفراد كل بعسكره على حدة وجعل لهما مع ذلك الجلوس بمقعد فصله مناوبة لتنفيذ الاوامر السلطانية فكان لذلك رديفين له فى سلطانه ولما اشتد وجع السلطان فى هذه المرة تمشت سماسرة الفتن بينهما وتحزب أهل العسكر لهما وحربين وشوشوا بواطنهما فبث كل واحد منهما المال وحمل على المقربات وصار الجيش شيعا وهم الامير أبو عبد الرحمن بالتوثب على الامر قبل ان يتبين حال السلطان باغراء وزرائه وبطانته بذلك وتفطن خاصة السلطان لما وقع فاخبروه الخبر وحضوه على الخروج الى الناس قبل ان يتفاقم الامر ويتسع الخرق فبرز السلطان الى فسطاط جلوسه وتسامع أهل العسكر به فازدحموا الى بساطه وتقبيل يده وتقبض على أهل الظنة من الجيش فاودعهم السجن وسخط على الاميرين وأمر برحيل من كان معهما من الجند فردهم الى معسكره ثم رجع الى فسطاطه وطفئت نار الفتنة وسكن سعى المفسدين وانتبذ الناس عن الاميرين المذكورين

فبقيا

فبقيا أوحش من وتد بقاع فاشتد جزع الامير أبي عبد الرحمن وركب من فسطاطه وخاض الليل فاصبح بحلة أولاد علي أمراء بني زغبة من هلال الموطنين بأرض حمزة فتقبض عليه أميرهم موسى بن أبي الفضل ورده الى أبيه فاعتقله بوجدة ورتب العيون لحراسته ولحق وزيره زيان بن عمر الوطاسي بالموحدين أصحاب تونس فأجاروه ورضي السلطان صنيعة فرار أبي عبد الرحمن عن أخيه أبي مالك وعقد له على ثغور عمله بالاندلس وصرفه اليها وانكفأ راجعا الى تلمسان والله أعلم

﴿ثورة ابن هيدور الجزار وما كان من أمره﴾

لما تقبض السلطان أبو الحسن على ابنه أبي عبد الرحمن وأودعه السجن تفرق خدمه وحشمه في الجهات وكان منهم رجل جزار مرتب في مطبخه يعرف بابن هيدور وكان له شبه في الصورة بأبي عبد الرحمن فلحق ببني عامر بن زغبة وكانوا لذلك العهد منحرفين عن طاعة السلطان أبي الحسن لاختصاصه عريف بن يحيى أمير بني سويد أعدائهم فلما لحق بهم ابن هيدور وهذا انتسب لهم الى السلطان أبي الحسن وانه ابنه أبو عبد الرحمن فشبه لهم وبايعوه وأجلبوا به على نواحي المدية فبرز اليهم قائدها فهزموه ثم جمع لهم ونزمر بن عريف بن يحيى فهزمهم وافترق جمعهم ونبذوا الجزار عهده فلحق ببني يرناتن من زواوة فنزل على شيختهم شمسي من بني عبد الصمد منهم وكانت هذه المرأة قد ملكتهم وغلبت عليهم بقومها ورجالها وكان لها بنون عشرة فاستفحل أمر هليهم ولما نزل عليها الجزار المذكور وانتسب لها الى السلطان أبي الحسن قامت بامره وشمرت عزائمها الاجارته وحملت قومها على طاعته وشاع في الناس خبره فمن مصدق ومن مكذب وسرب السلطان أبو الحسن الاموال في قومها وبنيها على اسلامه اليه فأبت ثم نمى اليها الخبر بكذبه وتمويهه فنبذت اليه عهده وخرج عنها الى بلاد العرب فلحق بالدواودة أمراء رياح من بني هلال ونزل على سيدهم يعقوب بن علي وانتسب له في مثل ذلك فاجاره ان صدق نسبه وأوعز السلطان أبو الحسن الى صهره أبي بكر الحفصي في شأن الجزار فبعث الحفصي الى يعقوب بن علي في ذلك فاشخصه الى السلطان أبي الحسن مع بعض حاشيته فلحق به بمكانه بسبتة يريد الجهاد فامتحنه وقطعه من خلاف وانحسم داؤه وبقي بالمغرب تحت جراية من الدولة الى ان هلك في بعض السنين وأما الامير أبو عبد الرحمن فانه لما سجن بوجدة بقي هنالك الى سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة فوثب ذات يوم بالسجان فقتله واتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن فأنفذ حاجبه علان بن محمد فقضى عليه رحم الله الجميع

﴿أخبار السلطان أبي الحسن في الجهاد وما كان من وقعة طريف التي محص الله فيها المسلمين وغير ذلك﴾

لما فرغ السلطان أبو الحسن من شأن عدوه وعلت على الايدي يده وانفسح نطاق ملكه دعته همته الى الجهاد وكان كلفا به فاوعز الى ابنه الامير أبي مالك أمير الثغور الاندلسية سنة أربعين وسبعمائة بالدخول الى دار الحرب وجهز اليه العساكر من حضرته وأنفذ اليه الوزراء فشخص أبو مالك غازيا وتوغل في بلاد النصرانية واكتسحها وخرج بالسبي والغنائم الى أدنى مدر من أرضهم وأناخ بها فاتصل به الخبر ان النصارى قد جمعوا له وانهم أغذوا السير في اتباعه فاشار عليه الملا بالخروج من أرضهم وعبور الوادي الذي كان تخما بين أرض المسلمين ودار الحرب ويتحيز الى مدن المسلمين فيمتنع بها فلج في ابايته وصمم على التعريس وكان قرما ثبتا الا انه غير بصير بالحرب لصغر سنه فصبحتهم عساكر النصرانية في مضاجعهم قبل ان يركبوا وخالطوهم في بياتهم وأدركوا الامير أبا مالك بالارض قبل ان يستوي على فرسه فجدلوه واستلحموا الكثير من قومه واحتووا على المعسكر بما فيه من أموال المسلمين وأموالهم ورجعوا على أعقابهم واتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن فتفجع لهلاك ابنه واسترحم له واحتسب عند الله أجره ثم أنفذ وزراءه الى سواحل المغرب لتجهيز الاساطيل وفتح ديوان العطاء وعرض الجنود وأزاح عللهم

واستنفر أهل المغرب كافة ثم ارتحل الى سبتة ليباشر أحوال الجهاد وتسامعت به أمم النصرانية فاستعدوا للدفاع وأخرج الطاغية أسطوله الى الزقاق ليمنع السلطان من الاجازة واستحث السلطان أساطيل المسلمين من مراسي المغرب وبعث الى أصهاره الحفصيين بتجهيز أسطولهم اليه فعقدوا عليه لزيد بن فرحون قائد أسطول بجاية ووافى سبتة في ستة عشر أسطولا من أساطيل افريقية كان فيها من طرابلس وقابس وجربة وتونس وبونة وبجاية وتوافت أساطيل المغرب بمرسى سبتة تناهز المائة وعقد السلطان عليها لمحمد بن على العزفي الذى كان صاحب سبتة يوم فتحها أيام السلطان أبي سعيد وأمره بمناجزة أسطول النصارى بالزقاق وقد تكامل عديدهم وعدتهم فاستلئموا وتظاهروا في السلاح وزحفوا الى أسطول النصارى وتوافقوا مليا ثم قربوا الاساطيل بعضها من بعض وقرنوها بالاصفاد فلم يعض الا كلا ولا حتى هبت ريح النصر وأظفر الله المسلمين بعدوهم وخالطوهم في أساطيلهم واستلحموهم هبرا بالسيوف وطعنا بالرماح وألقوا أشلاءهم في اليم وقتلوا قائدهم الملند واستاقوا أساطيلهم مجنوبة الى مرسى سبتة فبرز الناس لمشاهدتها وطيف بكثير من رؤسهم في جوانب البلد ونظمت أصفاد الاسرى بدار الانشاء وعظم الفتح وجلس السلطان للتهنئة وأنشد الشعراء بين يديه وكان ذلك يوم السبت سادس شوال سنة أربعين وسبعمائة فكان من أعز أيام الاسلام ثم شرع السلطان أبو الحسن في اجازة العساكر من المتطوعة والمرتزقة وانتظمت الاساطيل سلسلة واحدة من العدوة الى العدوة ولما تكاملت العساكر بالعبور وكانت نحو ستين ألفا أجاز هو في أسطوله مع خاصته وحشمه آخر سنة أربعين وسبعمائة ونزل بساحة طريف وأناخ عليها ثالث محرم من السنة بعدها وشرع في منازلتها ووافاه سلطان الاندلس أبو الحجاج يوسف بن اسمعيل ابن الاحمر في عسكر الاندلس من غزاة بني مرين وحامية الثغور ورجالة البدو فعسكر واحذاء معسكره وأحاطوا بطريف نطاقا واحدا وأنزلوا بها أنواع القتال ونصبوا عليها الآلات وجهز الطاغية أسطولا آخر اعترض به الزقاق لقطع المرافق عن المعسكر وطال مقام المسلمين بمكانهم حول طريف ففنيت أزوادهم وقلت العلوفات فوهن الظهر واختلت أحوالهم ثم احتشد الطاغية أمم النصرانية وظاهره البرتقال صاحب اشبونة وغرب الاندلس وزحفوا الى المسلمين لستة أشهر من نزولهم على طريف ولما قرب الطاغية من معسكر المسلمين سرب الى طريف جيشا من النصارى أكمنه بها الى وقت الحاجة اليه فدخلوها ليلا على حين غفلة من العسس الذين أرصدوا لهم وأحسوا بهم آخر الليل فثاروا بهم من مراصدهم وأدركوا أعقابهم قبل دخول البلد فقتلوا منهم عددا وقد نجا أكثرهم فلبسوا على السلطان بانه لم يدخل البلد سواهم حذرا من سطوته ثم زحف الطاغية من الغد في جموعه الى المسلمين وعبي السلطان مواكبه صفوفا وتزاحفوا ولما نشبت الحرب برز الجيش الكمين من البلد وهو الذى دخل ليلا وخالفوا المسلمين الى معسكرهم وعمدوا الى فسطاط السلطان فدافعهم عنه الناشبة الذين كانوا على حراسته فاستلحموهم لقلتهم ثم دافعهم النساء عن أنفسهن فقتلوهن كذلك وخلصوا الى حظايا السلطان منهن عائشة بنت عمه أبي بكر بن يعقوب بن عبد الحق وفاطمة بنت السلطان أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي وغيرهما من حظاياه فقتلوهن واستلبوهن ومثلوا بهن وانتهبوا سائر الفسطاط وأضرموا المعسكر نارا ثم أحس المسلمون بما وراءهم في معسكرهم فاختل مصافهم وارتدوا على أعقابهم بعد أن كان تاشفين ابن السلطان أبي الحسن صمم في طائفة من قومه وحاشيته حتى خالطهم في صفوفهم فأحاطوا به وتقبضوا عليه وعظم المصاب باسره وكان الخطب على الاسلام فلما فجع بمثله وذلك ضحوة يوم الاثنين سابع جمادى الآخرة من سنة احدى وأربعين وسبعمائة وولى السلطان أبو الحسن متحيزا الى فئة المسلمين واستشهد كثير من الغزاة وتقدم الطاغية حتى انتهى الى فسطاط السلطان من المحلة فانكر قتل النساء والولدان وكان ذلك منتهى أثره ثم انكفأ راجعا الى بلاده ولحق

ابن الاحمر بغرناطة وخاص السلطان أبو الحسن الى الجزيرة الخضراء ثم منها الى جبل الفتح ثم ركب الاسطول الى سبتة فى ليلة غده ومحص الله المسلمين وأجزل ثوابهم

﴿استيلاء العدو على الجزيرة الخضراء﴾

لما رجع الطاغية من طريف استأسد على المسلمين بالاندلس وطمع فى التهامهم وجمع عساكر النصرانية ونازل أولا قلعة بنى سعيد ثغر غرناطة وعلى مرحلة منها وجمع الآلات والايدى على حصارها وأخذ بمخنقها فاصابهم الجهد من العطش فنزلوا على حكمه سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة وأدال الله الطيب منها بالخبيث وانصرف الطاغية الى بلاده وكان السلطان أبو الحسن لما أجاز الى سبتة أخذ نفسه بالعود الى الجهاد لرجع الكرة فارسل فى المدائن حاشرين وأخرج قواده الى سواحل المغرب لتجهيز الاساطيل فتكامل له منها عدد معتبر ثم ارتحل الى سبتة لمشارفة ثغور الاندلس وقدم عساكره اليهامع وزيره عسكر بن تاحضريت وعقد على الجزيرة الخضراء لمحمد بن العباس بن تاحضريت من قرابة الوزير وبعث اليها مددا من العسكر مع موسى بن ابراهيم اليربنانى من المرشحين للوزارة نيابة وبلغ الطاغية خبره فجهز أسطوله وأجراه الى بحر الزقاق لمدافعته وتلاقت الاساطيل ومحص الله المسلمين واستشهد منهم أعداد وتغلب أسطول الطاغية على بحر الزقاق فلكه دون المسلمين وأقبل الطاغية من اشبيلية فى عساكر النصرانية حتى أناخ بها على الجزيرة الخضراء مرفأ أساطيل المسلمين وفرضة المجاز ورجى ان ينظمها فى مملكته مع جارتها طريف وحشر الفعلة والصناع للآلات وجمع الايدى عليها وطالها الحصار واتخذ أهل المعسكر بيوتا من الخشب للمطاولة وجاء السلطان أبو الحجاج ابن الاحمر بعساكر الاندلس فنزل قبالة الطاغية بظاهر جبل الفتح فى سبيل الممانعة وأقام السلطان أبو الحسن بمكانه من سبتة يسرب الى أهل الجزيرة المدد من الفرسان والمال والقوت فى أوقات الغفلة من أساطيل العدو وتحت جناح الليل وأصيب كثير من المسلمين فى ذلك ولم يغن عن أهل الجزيرة ذلك المدد شيأ واشتد عليهم الحصار وأصابهم الجهد وأجاز السلطان أبو الحجاج الى السلطان أبى الحسن يفاوضه فى شأن السلم مع الطاغية بعد ان أذن الطاغية له فى الاجازة مكرا به وأرصد له بعض الاساطيل فى طريقه فصدقهم المسلمون القتال وخلصوا الى الساحل بعد غص الريق وضاقت أحوال أهل الجزيرة ومن كان بها من عسكر السلطان فسألوا الطاغية الامان على ان ينزلوا له عن البلد فبذله لهم وخرجوا فوفى لهم وأجازوا الى المغرب سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة فاتزلهم السلطان ببلاده على خير نزل ولقاهم من المبرة والكرامة ماعوضهم بما فاتهم وخلع عليهم وحملهم ووصلهم بما تحدث الناس به وتقبض على وزيره عسكر بن تاحضريت عقوبة له على تقصيره فى المدافعة مع تمكنه منها وانكفأ السلطان أبو الحسن راجعا الى حضرته موقنا بظهور أمر الله وانجاز وعده والله متم نوره ولو كره الكافرون

﴿بقية أخبار بنى أبى العلاء﴾

قد تقدم لنا ان عثمان بن أبى العلاء كان يلى مشيخة الغزاة بالاندلس وانه استشهد سنة ثلاثين وسبعمائة وقام بامره ابنه أبو ثابت فاستحوذ بعصبيته وقومه على بنى الاحمر فقتلوا محمد بن اسمعيل منهم مرجعه من فتح جبل الفتح ونصبوا للامر أخاه يوسف بن اسمعيل حسبما تقدم الالماع بذلك ثم ان السلطان أبا الحجاج هذا بقى بين جنبيه داء دخيل من بنى أبى العلاء الذين فتكوا باخيه فلم يزل يسعى فى أمرهم حتى قبض عليهم وأودعهم المطبق ثم غربهم الى تونس فنزلوا على السلطان أبى بكر بن أبى زكرياء الحفصى واتصل الخبر بالسلطان أبى الحسن فكتب اليه باعتقالهم ففعل ثم بداله فبعث اليه مع عريف الوزعة ببابه ميمون بن بكرون فى أشخاصهم الى حضرته فتوقف الحفصى عن ذلك وأبى من اخفار ذمتهم فاشار

عليه وزيره أبو محمد بن تافراجين يبعثهم اليه وانه لا يريد بهم الا الخير فبعثهم وبعث كتابه بالشفاعة فيهم فقدموا على السلطان أبي الحسن مرجعه من الجهاد سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة فتلقاهم بالبر والكرامة اكراما لشفيعهم وأنزلهم بعسكره وحملهم على الخيول المسومة بالمراكب الثقيلة وضرب لهم الفساطيط وأسنى لهم الخلع والجوائز وفرض لهم في أعلى رتب العطاء وصار وافي جملته ولما احتل بسبتة لمشارفة أحوال الجزيرة الخضراء سعي عنده فيهم بان كثيرا من المفسدين يداخلونهم في الخروج والتوثب على الامر فقبض عليهم وأودعهم السجن بمكناسة الزيتون واستمروا هنالك الى ان قام أبو عنان فأطلقهم واستعان بهم على أمره حسبما نذكره ان شاء الله

﴿مراسلة السلطان أبي الحسن لصاحب مصر أبي الفداء اسمعيل بن محمد بن قلاوون﴾

قد تقدم لنا ان السلطان أبا الحسن واصل الملك الناصر صاحب مصر وهاداه بما اعظم وقعه عند الخاصة والعامة واتصلت الولاية بينه وبين الملك الناصر الى ان توفي سنة احدى وأربعين وسبعمائة وولي الامر من بعده ابنه أبو الفداء اسمعيل فخاطبه السلطان أبو الحسن أيضا وأتحفه وعزاه عن أبيه وأوفد عليه كاتبه وصاحب ديوان الخراج أبا الفضل ابن أبي عبد الله بن أبي مدين وفي صحبته الحرة أخت السلطان أبي الحسن فقضى من وفادته ما حمل وأصحبه السلطان أبو الحسن كتابا الى الملك الصالح أبي الفداء وكان وصوله الى مصر منتصف شعبان سنة خمس وأربعين وسبعمائة ونص الكتاب بعد البسملة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من عند أمير المسلمين المجاهد في سبيل الله رب العالمين المنصور بفضل الله المتوكل عليه المعتمد في جميع أموره لديه سلطان البرين حامي العدوتين موثر المرابطة والمثاغرة موازر حزب الاسلام حق الموازرة ناصر الاسلام مظاهر دين الملك العلام ابن أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين فخر السلاطين حامي حوزة الدين ملك البرين امام العدوتين ممهد البلاد مبدد شمل الاعاد مجند الجنود المنصور الرايات والبنود محط الرحال مبلغ الآمال أبي سعيد ابن أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين حسنة الايام حسام الاسلام أبي الاملاك مشجي أهل العناد والاشراك مانع البلاد رافع علم الجهاد مدوخ أقطار الكفار مصرخ من ناداه للانتصار القائم لله بأعلاء دين الحق أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أخلص الله لوجهه جهاده ويسر في قهر عداة الدين مراده الى محل ولدنا الذي طلع في أفق العلا بدرا تماما وصدع بأنواع الفخار فجلى ظلاما وظلما وجمع شمل المملكة الناصرية فاعلى منها علما وأحيى رسما حائط الحرمين القائم بحفظ القبلتين باسط الامان قابض كف العدوان الجزيل النوال الكفيل تامينه بحياطة النفوس والاموال قطب المجد وسماكه حسب الحمد وملاكه السلطان الجليل الرفيع الاصيل الحافل العادل الفاضل الكامل الشهير الخطير الاضخم الافخم المعان المؤزر المؤيد المظفر الملك الصالح أبي الوليد اسمعيل ابن محل أخينا الشهير علاؤه المستطير في الآفاق ثناؤه زين الايام والليال كمال عين انسان المجد وانسان عين الكمال وارث الدول الناقد بصحيح رأيه في عقود أهل الملل والنحل حامي القبلتين بعدله وحسامه النامي في حفظ الحرمين أجر اضطلاعه بذلك وقيامه هازم أحزاب المعاندين وجيوشها هادم الكنائس والبيع فهي خاوية على عروشها السلطان الاجل الهمام الاحفل الافخم الاضخم الفاضل العادل الشهير الكبير الرفيع الخطير المجاهد المرابط المقسط عدله في الجائر والقاسط المؤيد المظفر المنعم المقدس المطهر زين السلاطين ناصر الدنيا والدين أبي المعالي محمد ابن الملك الارضى الهمام الامضى والد السلاطين الاخيار عاقد لواء النصر في قهر الارمن والفرنج والتتار محيي رسوم الجهاد معلي كلمة الاسلام في البلاد جمال الايام ثمال الاعلام فاتح الاقالم صالح ملوك عصره المتقادم الامام المؤيد المنصور المسدد قسيم أمير المؤمنين

فيها

فيما تقلد الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون مكن الله له تمكين أوليائه وغى دولته التى أطلعها له السعد شمسا فى سمائه وأحسن ايزاعه الشكر أن جعله وارث آبائه سلام كريم يفاوح زهر الربى مسراه وينافح نسيم الصبا مجراه يصحبه رضوان يدوم مادامت تتقبل الفلك حركاته ويتولاه روح وريحان تحييه به رحمة الله وبركاته أما بعد حمد الله مالك الملك جاعل العاقبة للتقوى صدعا باليقين ودفعا للشك وخاذل من أسر النفاق فى النجوى فاصر على الدخن والافك والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الذى محى بانوار الهدى ظلم الشرك ونبيه الذى ختم به الانبياء وهو واسطة ذلك السلك ودعابه حجة الحق فبادت بالكفرة محمولة الافلاك وما نجت بهم حاملة الفلك والرضا عن آله وصحبه الذين سلكوا سبيل هداه فسلك فى قلوبهم أجمل السلك وملكوا أعنة هواهم فلزموا من محجة الصواب أنجح السلك وصابروا فى جهاد الاعداء فزاد خلوصهم مع الابتلاء والذهب يزيد خلوصا على السبك والدعاء لاولياء الاسلام وحماته الاعلام بنصر لضائه فى العدى أعظم الفتك ويسر بقضائه درك آمال الظهور وأحفل بذلك الدرك فكتبناه اليكم كتب الله لكم رسوخ القدم وسبوغ النعم من حضرتنا مدينة فاس المحروسة وصنع الله سبحانه يعرف مذاهب الالطاف ويكيف مواهب تلهج الالسنة فى القصور عن شكرها بالاعتراف ويصرف من أمره العظيم وقضائه الملتقى بالتسليم ما يتكون بين النون والكاف ومكانكم العتيد سلطانه وسلطانكم المجيد مكانه وولاؤكم الصحيح برهانه وعلاؤكم الفسيح فى مجال الجلال ميدانه والى هذا زاد الله سلطانكم تمكينا وأفاده قامكم تحصينا وتحسينا وسلك بكم من سنن من خلفتموه سبيلا مبينا فلا خفاء بما كانت عقدته أيدى التقوى ومهدته الرسائل التى على الصفاء تطوى بيننا وبين والدكم نعم الله روحه وقدسه وبقربه مع الابرار فى عليين أنسه من مؤاخاة أحكمت منها العهود تالية الكتب والفاتحة وحفظ عليها محكم الاخلاص معوذتاها المحبة والنية الصالحة فانعقدت على التقوى والرضوان واعتضدت بتعارف الارواح عند تنازح الابدان حتى استحكمت وصلة الولاء والتأمت كلحمة النسب لحمة الاخاء فما كان الاوشيكا من الزمان ولا عجب قصر زمن الوصلة أن يشكوه الخلان ورد وارداً ورد رنق المشارب وحقق قول ومن يسأل الركبان عن كل غائب أنبأ باستئثار الله تعالى بنفسه الزكية واكتنان درته السنية وانقلابه الى ما أعد له من المنازل الرضوانية بجليل ما وقر لفقده فى الصدور وعظيم ما تأثرت له النفوس لوقوع ذلك المقدور حنانا للاسلام بتلك الاقطار واشفاقا من ان يعتور قاصدى بيت الله الحرام من جراء الفتن عارض الاضرار ومساهمة فى مصاب الملك الكريم والوصى الحميم ثم عميت الاخبار وطويت طى السجل الآثار فلم نر مخبرا صدقا ولا معلنا بمن استقر له ذلكم الملك حقا وفى أثناء ذلك حفزنا الحركة عن حضرتنا استصراخ أهل الاندلس وسلطانها وتواتر الاخبار بان النصارى أجمعوا على خراب أوطانها ونحن أثناء ذلكم الشأن نستخبر الوراد من تلكم البلدان عما أجلى عنه ليل الفتن بتلكم الاوطان فبعد لأى وقعنا منها على الخبير وجاءنا بوقاية حرم الله بكم البشير وتعرفنا ان الملك استقر منكم فى نصابه وتداركه الله تعالى منكم بفاتح الخير من أبوابه فاطفأ بكم نار الفتنة وأخمدها وأبرأ من أدواء النفاق ما أعل البلاد وأفسدها فقام سبيل الحج سابلا وعبر طريقه لمن جاء قاصدا أو قافلا ولما احتفت بهذا الخبر القرائن وتواتر بنقل الحاضر المعاين أثار حفظ الاعتقاد البواعث والود الصحيح تجره حقا الموارث فأصدرنا لكم هذه المخاطبة المتفننة الاطوار الجامعة بين الخبر والاستخبار الملبسة من العزاء والهناء ثوبى الشعار والدثار ومثل ذلكم الملك رضوان الله عليه من تجل المصائب لفقدانه وتحل عرى الاصطبار بموته ولات حين أوانه لكن الصبر أجمل ما ارتداه ذو عقل حصين والاجر أولى ما اقتناه ذو دين متين ومثلكم من لا يخف وقاره ولا يشف عن ظهور الجزع الحادث

اصطباره ومن خلفتموه فأمات ذكره ومن قتم بأمره فازال بل زاد فخره وقد طالت والحمد لله العيشة الراضية بالعقب وطاب بين مبداه ومختضره هنيئا بما من الاجر اكتسب وصار جده الى خير منقلب ووفد من كرم الله على أفضل ما منح موفقا ووهب فقد ارتضا كم الله بعده لحياطة أرضه المقدسة وحماية زوار بيته مقبلة أو معرسة ونحن بعد بسط هذه التعزية نهنيكم بما خولكم الله أجل التهنية وفى ذات الله الايراد والاصدار وفى مرضاته سبحانه الاضمار والاظهار فاستقبلوا دولة ألقى العز عليها رواقه وعقد الظهور عليها نطاقه وأعطاها أمان الزمان عقده وميثاقه ونحن على ما عاهدنا عليه الملك الناصر رضوان الله عليه من عهود موثقه وموالاة محققه وثناء كائمه عن أذكى من الزهر غب القطر مفتقه ولم يغب عنكم ما كان من بعثنا المصحفين الاكرمين اللذين خطتهما منا اليمين وآوت بهما الرغبة من الحرمين الشريفين الى قرار مكين وانه كان لوالدكم الملك الناصر تولاه الله برضوانه وأورده موارد احسانه فى ذلكم من الفعل الجميل والصنع الجليل ما ناسب مكانه الرفيع وشاكل فضله من البر الذى لا يضيع حتى طبق فعله الآفاق ذكرا وطوق أعناق الورّاد والقصاد برا وكان من أجل ما به تحفى وأتحف وأعظم ما يعرفه الملك العلام فى ذلك تعرف اذنه للمتوجهين اذ ذاك فى شراء رباع توقف على المصحفين ورسم المراسم المباركة بتحرير ذلك الوقف مع اختلاف الجديدين فجرت أحوال القراء فيهما بذلك الخراج المستفاد ويتمادى ايصالهم من خراج ما وقفنه عليهم بهذه البلاد على ما رسمه رحمة الله عليه من عناية بهم متصلة واحترام فى تلك الاوقاف فوائدها به متوفرة متحصلة وقد أمرنا مؤدى هذا لكتابكم وموفده على جلالكم كاتبنا الاسنى الفقيه الاجل الاحظى الاكمل أبا المجد ابن كاتبنا الشيخ الفقيه الاجل الحاج الاتقى الارضى الافضل الاحظى الاكمل المرحوم أبى عبد الله ابن أبى مدين حفظ الله عليه رتبته ويسر فى قصد البيت الحرام بغيته بان يتفقد أحوال تلك الاوقاف ويتعرف تصرف الناظر عليها وما فعله من سداد واسراف وان يتخير لها من يرتضى لذلك ويحمد تصرفه فيما هنالك وخاطبنا سلطانكم فى هذا الشان جريا على الود الثابت الاركان واعلاما بما لوالدكم رحمه الله تعالى فى ذلك من الافعال الحسان وكمالكم يقتضى تخليد ذلكم البر الجميل وتجديد عمل ذلكم الملك الجليل وتشييد ما اشتمل عليه من الثمراء الاصيل والاجر الجزيل والتقدم بالاذن السلطانى فى اعانة هذا الوافد بهذا الكتاب على ما يتوخاه فى ذلك الشأن من طرق الصواب وثناؤنا عليكم الثناء الذى يفاوح زهر الربا ويطارح نغم حمام الايك مطربا وبحسب المصافاة ومقتضى الموالاة نشرح لكم المتزايدات بهذه الجهات ونبثكم موجب ابطاء انفاذ هذا الخطاب على ذلكم الجناب وذلك انه لما وصلنا من الاندلس الصريخ ونادى منادى الجهاد عزما المشنل نداءه يصيخ أنبأنا ان الكفار قد جمعوا أحزابهم من كل صوب وفرض عليهم باباهم اللعين التناصر من كل أوب وان تقصدوا تنقيص البلاد الاندلسية بإجحافها وتنقص بالمنازلة أرضها من أطرافها ليمحو كلمة الاسلام منها ويقلصوا ظل الايمان عنها فقدمنا من يشتغل بالاساطيل من القواد وسرنا على أثرهم الى سبتة منتهى الغرب الاقصى وباب الجهاد فما وصلناها الا وقد أخذ أخذه العدو الكفور وسدت أجفان الطواغيت على التعاون مجاز العبور وأتوا من أجفانهم بما لا يحصى عددا وأرصدوها بمجمع البحرين حيث المجاز الى دفع العدا وتقلصوا عن الانبساط فى البلاد واجتمعوا الى الجزيرة الخضراء أعادها الله بكل من جمعوه من الاعاد لكم مع انسداد تلك السبيل وعدم أمور نستعين بها فى ذلكم العمل الجليل حاولنا امداد تلكم البلاد بحسب الجهد وأصرخناهم بما أمكن من الجند وجهزنا أجفانا مختلسين فرصة الاجازه تتردد على خطر عن جهز للجهاد جهازه وأمرنا لصاحب الاندلس من المال بما يجهز به حركته لمداناة محلة حزب الضلال وأجرينا له ولجيشه العطاء الجزل مشاهرة وأرضخنا لهم من

النوال ماترجو به ثواب الآخرة وجعلت أجفاننا تتردد فى مينا السواحل وتلج أبواب الخوف العاجل لاحراز الأمن الآجل مشحونة بالعدد الموفورة والابطال المشهورة والخيل المسوّمة والاقوات المقوّمة فمن ناج طارب دونه الاجل وشهيد مضى لما عند الله عزوجل ومازالت الاجفان تتردد على ذلك الخطر حتى تلف منها سبع وستون قطعة غزوية أجرها عند الله يدّخر ثم لم نقتنع بهذا العمل فى الامداد فبعثنا أحد أولادنا أسعدهم الله مساهمة به لاهل تلك البلاد فلقى من هول البحر وارتجاجه والحاح العدوّ ولجاجه مابه الامثال تضرب وبمثله يتحدث ويستغرب ولما خاص لتلك العدوة عن أبقته الشدائد نزل بازاء الكافر الجاحد حتى كان منه بفرسخين أوأدنى وقد ضرب بعطن بصائح العدوّ وعاسيه بحرب بها يعنى وقد كان من مددنا بالجزيرة جيش شربت شراونه وقويت فى الحرب ادارته يبلون البلاء الاصدق ولا يبالون بالعدوّ وهم منه كالشامة البيضاء فى البعير الاورق الاان المطاولة بحصارها فى البحر مدة ثلاثة أعوام ونصف ومنازلتها فى البر نحو عامين معقودا عليها الصف بالصف أدى الى فناء الاقوات فى البلد حتى لم يبق لاهليه قوت شهر مع انقطاع المدد وبه من الخلق مايربى على عشرة آلاف دون الحرم والولد فكتب الينا سلطان الاندلس يرغب فى الاذن له فى عقد الصلح ووقع الاتفاق على انه لاستخلاص المسلمين من وجوه النجح فأذناله فيه الاذن العام اذفى اصراخه واصراخ من بقطره من المسلمين توخينا ذلك المرام هنالك دعى النصارى الى السلم فاستجابوا وقد كانوا علموا فناء القوت وما استرابوا فتم الصلح الى عشر سنين وخرج من بها من فرسان ورجال وأهل وبنين ولارزئوا مالاولاعدّة ولالقوا فى خروجهم غير التزوح عن أوّل أرض مس الجلد ترابها شدة ووصلوا الينا فأجزلنا لهم العطاء وأسليناهم عما جرى بالحباء فمن خيل تزيد على الالف عتاقها وخلع تربى على عشرة آلاف أطواقها وأموال عمت الغنى والفقير ورعاية شملت الجميع بالعيش النضير وكف الله ضر الطواغيت عما عداها وماانقلبوا بغير مدرة عفار سمها وصم صداها وقد كان من لطف الله حين قضى بأخذ هذا الثغر ان قدرلنا فتح جبل طارق من أيدى الكفر وهو المطل على هذه المدرة والفرصة منه ان شاء الله تعالى متيسرة حتى يفرق عقد الكفار ويفرج بهذه الجهة منهم مجاوروا هذه الاقطار فلولا اجلابهم من كل جانب وكونهم سدّوا مسالك العبور بما جمعهم من الاجفان والمراكب لما ابنا باصفاقهم ولحلنا بعون الله عقد اتفاقهم ولكن للموانع أحكام ولارادلما جرت به الاقلام وقد أمرنا لذلك الثغر بمزيد المدد وتخيرنا له ولسائر تلك البلاد العدد والعدد وعدنا لحضرتنا فاس لنستريح الجيوش من وعثاء السفر ونرتبط الجياد وننتخب العدد لوقت الظهور المنتظر ونكون على أهبة الجهاد وعلى مرقبة الفرصة عند تمكنها فى الاعاد وعند عودنا من تلك المحاولة تيسر الركب الحجازى موجها الى هنالكم رواحله فأصدرنا اليكم هذا الخطاب اصدار الود الخالص والحب اللباب وعندنا لكم ما عند أحنى الآباء واعتقادنا فيكم فى ذات الله لايخشى جديده من البلاء ومالكم من غرض بهذه الانحاء فوفى قصده على أكمل الاهواء موالى تتميمه على أجمل الآراء والبلاد باتحاد الود متحدة والقلوب والايدى على مافيه مرضات الله عزوجل منعقدة جعل الله ذلكم خالصا لرب العباد مدخورا ليوم التناد مسطورا فى الاعمال الصالحة يوم المعاد بمنه وفضله هو سبحانه يصل اليكم سعدا تتفاخر به سعود الكواكب وتتضافر على الانقياد له صدور المواكب وتتقاصر عن نيل مجده متطاولات المناكب والسلام الاتم يخصكم كثيرا أثيرا ورحمة الله وبركاته وكتب فى يوم الخميس السادس والعشرين لشهر صفر المبارك من عام خمسة وأربعين وسبعمائة وصورة العلامة وكتب فى التاريخ المؤرخ ﴿قال ابن خلدون﴾ فقضى أبو الفضل ابن أبى عبد الله بن أبى مدين من وفادته ماحمل وكان شأنه عجبا فى اظهار أبهة سلطانه والانفاق على المستضعفين من الحاج فى طريقه واتحاف رجال

الدولة التركية بذات يده والتعفف عما فى أيديهم رحمه الله ﴿وقال العلامة المقريزى﴾ وفى منتصف شعبان من سنة خمس وأربعين وسبعمائة قدمت الحرة أخت صاحب المغرب فى جماعة كثيرة وعلى يدها كتاب السلطان أبى الحسن يتضمن السلام وأن يدعو له الخطباء فى يوم الجمعة ومشايخ الصلاح وأهل الخير بالنصر على عدوهم ويكتب الى أهل الحرمين بذلك اهـ ولعل هذا كتاب آخر غير الذى سردناه يتضمن ما ذكره والله أعلم ونسخة الجواب عن الكتاب الذى سردناه من انشاء خليل الصفدى شارح لامية العجم بعد البسملة فى قطع النصف بقلم الثلث عبد الله وليه صورة العلامة ولده اسمعيل بن محمد السلطان الملك الصالح السيد العالم العادل المؤيد المجاهد المرابط المظفر المنصور عماد الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين محيى العدل فى العالمين منصف المظلومين من الظالمين وارث الملك ملك العرب والعجم والترك فاتح الأقطار واهب الممالك والامصار اسكندر الزمان مملك أصحاب المنابر والاسرة والتخوت والتيجان ظل الله فى أرضه القائم بسنته وفرضه مالك البحرين خادم الحرمين الشريفين سيد الملوك والسلاطين جامع كلمة الموحدين ولى أمير المؤمنين أبو الفداء اسمعيل ابن السلطان الشهيد السعيد الملك الناصر ناصر الدنيا والدين أبى الفتح محمد ابن السلطان الشهيد السعيد الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون خلد الله تعالى سلطانه وجعل الملائكة أنصاره وأعوانه يخص المقام العالى الملك الاجل الكبير المجاهد المؤيد المرابط المثاغر المعظم المكرم المظفر المعمر الاسعد الاصعد الاوحد الامجد السنى السرى المنصور أبا الحسن على ابن أمير المسلمين أبى سعيد عثمان ابن أمير المسلمين أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق أمده الله بالظفر وقرن عزمه بالتأييد فى الآصال والبكر سلام وشت البروق وشائعه وادخرت الكواكب ودائعه واستوعب الزمان ماضيه ومستقبله ومضارعه وثناء اتخذ النفحات المسكية طلائعه ونبه للتغريد فى الروض سواجعه وجلى فى كأسه من الشفق المحمر مدامه ومن النجوم فواقعه ﴿أما بعد﴾ حمد الله على نعم أدت لنا الامانة فى عود سلطنة والدنا الموروثة وأجلستنا على سرير مملكة زرابيها بين النجوم مبثوثة وأحسنت بنا الخلف عن سلف عهوده فى الاعناق غير منكورة ولا منكوثة وصلاته على سيدنا محمد عبده ورسوله وعلى آله وصحبه الذين بلغ بجهادهم فى الكفرة غاية أمله وسؤله صلاة تحط بالرضوان شيولها وتجر بالغفران ذيولها ما تراسل أصحاب وتواصل أحباب فيوضح للعلم الكريم ورود كتابكم العظيم وخطابكم الفائق على الدر النظيم تفاخر الخمائل سطوره ويصبغ خد الورد بالخجل منثوره ويحكى الرياض اليانعة فالالفات غصونه والهمزات عليها طيوره ويخلع على الآفاق حلل الايام والليالى فالطرس صباحه والنقس ديجوره لفظه يطرب ومعناه يعرب فيغرب وبلاغته تدل على انه آية لان شمس بيانها طلعت من المغرب فاتخذنا سطوره ريحانا ورجعنا ألفاظه ألحانا ورجعنا الى الجد فشبهنا ألفاته بظلال الرماح وورقه بصقال الصفاح وحروفه المفرقة بأفواه الجراح وسطوره المنتظمة بالفرسان المزدحمة يوم الكفاح وانتهينا الى ما أودعتموه من اللفظ المصنوع والمعنى الذى يطرب طائره المسموع والبلاغة التى فضح التطبع بيانها المطبوع فاما العزاء بأخيكم الوالد قدس الله روحه وسقى عهده وأحسن لسلفه خلفا بعده فلنا برسول الله اسوة حسنه ولولا الوثوق بأنه فى عدة الشهداء ما رام القلب قراره ولا الطرف وسنه عاش سعيدا ملك الارض ومات شهيدا يفوز بالجنة يوم العرض قد خلد الله ذكره يسير مسير الشمس فى الآفاق ويوقف عند نضارة حدائقه نظرات الاحداق وورثنا منه حسن الاخاء لكم والوفاء بعهود مودة تشبه فى اللطف شمائلكم ﴿وأما﴾ الهناء بوراثة ملكه والانخراط مع الملوك فى سلكه فقد شكرنا لكم مضى هذه المنحه وقابلناها بثناء يعطر النسيم فى كل نفحه ووقفنا عليها حمد اجعل الود علينا ابراده وعلى انفاس سرحة الروض شرحه وتحققنا به حسن ودكم الجميل

وكريم

وكريم اناثكم الذى لايعيد طود رسوخه ولايميل ﴿وأما﴾ ماذكرتموه من أمر المصحفين الكريمين الشريفين اللذين وقفتموهما على الحرمين المنيفين وانكم جهزتم كاتبكم الفقيه الاجل الاسنى الاسمى أبا المجد ابن كاتبكم أبى عبد الله بن أبى مدين أعزه الله لتفقد أحوالهما والنظر فى أمر أوقافهما فقد وصل المذكور بمن معه فى حرز السلامة وأكرمنا نزلهم وسهلنا بالترحيب سبلهم وجمعنا على بذل الاحسان اليهم شملهم وحضر المذكور بين أيدينا وقربناه وسمعنا كلامه وخاطبناه وأمرنا فى أمر المصحفين الشريفين بما أشرتم ورسمنا النواب بنا فى توخى أوقافهما بما ذكرتم وهذا الوقف المبرور جار على أحسن عادة ألفها وأثبت قاعدة عرفها مرعى الجوانب محمى المنازل والمضارب آمن من ازالة رسمه أواذالة حكمه بدره أبدا فى مطالع تمه وزهره دائما يرقص فى كمه لايزداد الاتخليدا ولا اطلاق ثبوته الاتقييدا ولاعنق اجتهاده الاتقليدا جريا على قاعدة أوقاف ممالكنا وعادة تصرفاتنا فى مسالكنا وله مزيد الرعاية وافادة الحماية ووفادة العناية ﴿وأما﴾ ماوصفتموه من أمر الجزيرة الخضراء ومالاقاه أهلها ومنى به من الكفار حزنها وسهلها فانه شق علينا سماعه الذى أنكى أهل الايمان وعذبه نوب الزمان كل قلب بانامل الخفقان وطالما فزتم بالظفر ورزقتم النصر على عدوكم بجرذيل الهزيمة وفر ولكن الحرب سجال وكل زمان لدوائره دولة ولرجاته رجال ولوأمكنت المساعده لطارت بنا اليكم عقبان الجياد المسومة وسالت على عدوكم أباطحهم بقسينا المعوجة وسهامنا المقومة وكحلنا عين النجوم بمراود الرماح وجعلنا الليل العجاج مخرقا ببروق الصفاح واتخذنا رؤسهم لصوالح القوائم كرات وفرجنا مضايق الحرب بتوالى الكرات وعطفنا عليهم الاعنة وخضنا جداول السيوف ودسنا شوك الاسنة وفلقنا الصخرات بالصرخات وأسلنا العبرات بالرعبات ولكن أين الغاية من هذا المدى المتطاول وأين الثريا من يد المتناول ومالنا غير امدادكم بجنود الدعاء الذى نرفعه نحن ورعايانا والتوجه الصادق الذى تعرفه ملائكة القبول من سجايانا ﴿وأما﴾ مافقدتموه من الاجفان التى طرقها طيف الاتلاف وأتم حوم فنائها الفناء وطاف به بعد الالطاف فقد روع هذا الخبر قلب الاسلام ونوع له الحزن على اختلاف الاصباح والاظلام وهذه الدار ما يخلو صفوها من كدر القدر وطالما أنامت بالامن أول الليل وخاطبت بالخطب فى السحر ولكن فى بقائكم مايسلى عن خطب العطب ومع سلامة نفسكم الكريمة فالامر هين لان الدر يفدى بالذهب ﴿وأما﴾ مارأيتموه من الصلح فرأى عقده مبارك وأمر مافيه فارط عزم وان كان فيتدارك والامر يجىء كما يحب لا كما نحب والحروب يزورها نصرها تارة ويغب مع اليوم غدا وقد يرد الله الردا ويعيد الظفر بالعدا ﴿وأما﴾ عودكم الى فاس المحروسة طلبا الاراحة من عندكم من الجنود وتجهيز المن يصل من عندكم الى الحجاز الشريف من الوفود فهذا أمر ضرورى التدبير سرورى التثمير لان النفوس تمل وثير المهاد فكيف ملازمة صهوات الجياد وتسأم من مجالسة الشرب فكيف بممارسة الحرب وتعرض عن دوام اللذة فكيف بمباشرة المنايا الفذة وهذا جبل طارق الذى فتح الله به عليكم وساق هدى هديته اليكم لعله يكون سببا الى ارتجاع ماشرد وحسما لهذا الطاغية الذى مرد وردا لهذا النازل الذى كدر ورد الصبر لما ورد فعادة الالطاف بكم معروفه وعزماتكم الى جهات الجهاد مصروفه وقد تفاءلنا لكم من هذا الجبل بأنه طارق خير من الرحمن يطرق وجبل يعصم من سهم يمرق من قسى الكفار ويمرق ﴿وأما﴾ ماجهزتموه من الخيل العتاق والملابس التى تطلع بدور الوجوه من مشارق الاطواق والاموال التى زكت عند الله تعالى ونمت على الانفاق فعلى الله عز وجل خلفها ولكم فى منازل الدنيا والآخرة سرفها وشرفها واليكم تساق هدايا أثنيها وتحفكم تحفها واذا وصل وفدكم الحاج وأناره بوجه اقبالنا عليهم ليلهم الداج كانوا مقيمين تحت ظل اكرامنا وشمول اسعافنا لهم وانعامنا

يتحولون تحفا أنتم سببها ويتداولون طرفا فى كؤس الاعتناء بهم ينضد حببها واذا كان أوان الرحيل الى الحج فسحنا لهم الطريق وسهلنا لهم الرفيق وبلغناهم بحول الله تعالى مناهم من منى ،وسؤلهم ممن اذا زاروا حجراته الشريفة حازوا الراحة من العناء وفازوا بالغنى واذا عادوا عاملناهم بكل جميل ينسيهم مشقة ذلك الدرب ويخيل اليهم أن لا مسافة لمسافر بين الشرق والغرب وغمرناهم بالاحسان فى العود اليكم وأمرناهم بما ينهونه شفاها لديكم وعناية الله تعالى تحوط ذاتكم وتوفر لاخذ الثار حماتكم وتخصكم بتأييد تنزلون روضه الانضر وتجنون به ثمر النصر اليانع من ورق الحديد الاخضر وتحفكم بسعد لا يبلى قشيبه وعز لا يمحو شبابه مشيبه وتحيته المباركة تغاديكم وتراوحكم وتفاوحكم أنفاسها المعتبرة وتنافحكم عنه وكرمه فى سادس شهر رمضان سنة خمس وأربعين وسبعمائة ﴿قال ابن خلدون﴾ ثم شرع السلطان أبو الحسن بعد استيلائه على افريقية كما نذكره فى كتب نسخة أخرى من المصحف الكريم ليوقفها ببيت المقدس فلم يقدر اتمامها وهلك قبل فراغه من نسخها اهـ وهو يقتضى ان السلطان المذكور ما كتب سوى مصحفين اثنين ويؤيده ظاهر الكتابين المسرودين آنفا مع انه تقدم النقل عن الشيخ أبى العباس المقرى أنه وقف على النسخة الموقوفة ببيت المقدس والله تعالى أعلم بحقيقة الامر

﴿هدية السلطان أبى الحسن الى ملك مالى من السودان المجاورين للمغرب﴾

اعلم ان أرض السودان المجاورة للمغرب تشتمل على ممالك منها مملكة غانة ومنها مملكة مالى ومنها مملكة كاغوا ومنها مملكة برنو وغير ذلك وكان ملك مالى وهو السلطان منسا موسى بن أبى بكر من أعظم ملوك السودان فى عصره ولما استولى السلطان أبو الحسن على المغرب الاوسط وغلب بنى زيان على ملكهم عظم قدره وطال ذكره وشاعت أخباره فى الآفاق فسما هذا السلطان وهو منسى موسى الى مخاطبة السلطان أبى الحسن وكان مجاور المملكة المغرب على نحو مائة مرحلة فى القفر فاوفد عليه جماعة من أهل مملكته مع ترجمان من الملثمين المجاورين لبلادهم من صنهاجة فوفدوا على السلطان أبى الحسن فى سبيل التهنئة بالظفر فأكرم وفادتهم وأحسن مثواهم ومنقلبهم ونزع الى مذهبه فى الفخر فانتخب طرفا من متاع المغرب وماعونه وشيأ من ذخيرة داره وأسنى الهدية وعين رجالا من أهل دولته كان فيهم كاتب الديوان أبو طالب بن محمد بن أبى مدين ومولاه عنبر الخصى فاوفدهم بها على ملك مالى منسا سليمان لهلاك أخيه موسى قبل مرجع وفده وأوعز الى اعراب الفلاة من بنى معقل بالسير معهم ذاهبين وجائين فشمر لذلك على بن غانم أمير أولاد جرار من معقل وصحبهم فى طريقهم امتثالا لامر السلطان وتوغل ذلك الركب فى القفر الى بلد مالى بعد الجهد وطول الشقة فأحسن منسا سليمان مبرتهم وأعظم موصلهم وأكرم وفادتهم ومنقلبهم وعادوا الى مرسلهم فى وفد من كبار مالى يعظمون السلطان أبا الحسن ويوجبون حقه ويؤدون طاعته ويذكرون من خضوع مرسلهم وقيامه بحق السلطان أبى الحسن واعتماله فى مرضاته ما استوصاهم به ﴿واعلم﴾ ان منسا موسى الذى ذكرناه كان من كبار الملوك كما قلنا وهو الذى صحبه أبو اسحق الساحلى المعروف بالطويجن من شعراء الاندلس كان قد لقيه فى الموسم بعرفة فحلى بعينه وحظيت منزلته عنده فصحبه الى بلاده وأقام عنده مصحوبا بالبر والكرامة وبنى للسلطان المذكور قبة رائعة فازدادت حظوته عنده ﴿قال ابن خلدون﴾ أطرف أبو اسحق الطويجن السلطان منسا موسى ببناء قبة مربعة الشكل استفرغ فيها اجادته وكان صناع اليدين وأضفى عليها من الكلس ووالى عليها بالاصباغ المشبعة فجاءت من أتقن المبانى ووقعت من السلطان منسا موسى موقع الاستغراب لفقدان صنعة البناء بأرضهم ووصله باثنى عشر ألفا من مثاقيل التبر مثوبة عليها اهـ وكانت وفاة أبى اسحق بتنبكتو يوم الاثنين السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة

سبع وأربعين وسبعمائة

﴿مصاهرة السلطان أبي الحسن ثانيا مع السلطان أبي بكر الحفصي رحمهما الله﴾

قد تقدم لنا ما كان من وقعة طريف وانه هلك فيها حرم السلطان أبي الحسن من جلتهن فاطمة بنت السلطان أبي بكر الحفصي فلما افتقدها أبو الحسن بقي في نفسه منها حنين الى ماشغفته به من خلالها ولذاذة العيش في عشرتها فسما أمله الى الاعتياض عنها ببعض أخواتها فأوفد في خطبتها وليه عريف بن يحيي أمير عرب سويد من بني زغبة الهلاليين وكاتب الجباية والعسكر بدولته أبا الفضل بن محمد بن أبي مدين وفقيه الفتوى بمجلسه أبا عبد الله محمد بن سليمان السطي ومولاه عنبر الخصي فوفدوا على السلطان أبي بكر سنة ست وأربعين وسبعمائة فأنزلهم منزل البر والكرامة ثم دس اليه حاجبه أبو محمد عبد الله بن تافراجين عرض وفادتهم وانهم قدموا خاطبين بعض كرائم السلطان فأبى من ذلك صونا لحرمه عن جولة الاقطار وتحكم الرجال مثل ما وقع في ابنته الاولى فلم يزل حاجبه المذكور يخفض عليه الشان و يعظم عليه حق السلطان أبي الحسن في رد خطبته مع ما بينهما من الصهر السابق والمخالصة القديمة والعهود المتأكدة الى ان أجاب وأسعف وجعل ذلك للحاجب المذكور فانعقد الصهر بين السلطانين على ابنته عزونة شقيقة ابنه أبي العباس الفضل بن أبي بكر صاحب بونة وأخذ الحاجب في شوار العروس وتأنق فيه واحتفل واستكثر وطال مقام الرسل بتونس الى ان استكمل الجهاز فارتحلوا منها في ربيع سنة سبع وأربعين وسبعمائة وأوعز السلطان أبو بكر الى ابنه الفضل شقيق العروس المذكورة أن يزفها على السلطان أبي الحسن قياما بحقه وبعث من بابه جماعة من مشيخة الموحدين فوفدوا جميعا على السلطان أبي الحسن واتصل بهم الخبر في طريقهم بوفاة السلطان أبي بكر فجأة ليلة الاربعاء ثاني رجب من السنة المذكورة فعزاهم السلطان أبو الحسن عنه عندما وصلوا اليه واستبلغ في اكرامهم وأجمل موعد أخيها الفضل بسلطانه ومظاهرته على تراث أبيه فاطمأنت به الدار عند السلطان أبي الحسن الى ان سار في جملته وتحت لوائه الى افريقية كما نذكره ان شاء الله

﴿غزو السلطان أبي الحسن افريقية واستيلاؤه على تونس وأعمالها﴾

كان السلطان أبو بكر الحفصي رحمه الله قد عهد بالامر بعده لابنه أبي العباس أحمد وكان أوفد على السلطان أبي الحسن حاجبه أبا القاسم بن عتو في غرض له وأصحبه كتاب العهد الى السلطان المذكور ليوافق عليه فوقف عليه السلطان أبو الحسن وكتب على حاشيته بخطه ووافق عليه رحمه الله وأحكم العقد في ذلك ولما مات السلطان أبو بكر كان ولي العهد غائبا عن الحضرة فبايع أبو محمد بن تافراجين لابنه عمر ﴿ذكر الشيخ أبو العباس الونشريسي في أقضية المعيار﴾ عن الشيخ ابن عرفة ان سلطان افريقية أبا بكر الحفصي كتب العهد لولده أحمد فلما توفي السلطان المذكور أحضر أبو محمد بن تافراجين قاضي تونس قاضي الجماعة أبا عبد الله محمد بن عبد السلام وقاضي الانكحة أبا عبد الله الاجي وأمرهما أن يبايعا ولد الخليفة عمر فقالا كيف نبايعه ونحن شاهدنا بيعة أخيه أحمد والتزمناها وكان الحاجب ابن تافراجين نبيلا فلما رأى امتناعهما قال ادخلا دار السلطان واشتغلا بغسله وتكفينه فلما دخلا أحضر الحاجب المذكور أهل العقد والحل وأمرهم ان يبايعوا عمر فبايعوه فلما خرج القاضيان وجدا البيعة قد حصلت وكان في انتظار أحمد المشهود له بالعهد وهو غائب بقفصة خوف الفتنة فبايع القاضيان وكان ابن عرفة يستصوب فعل الحاجب وامتناع القاضيين أولا وبيعتهما ثانيا ثم قدم ولي العهد ووقع بينه و بين أخيه قتال وجرت خطوب كان في آخرها قتل ولي العهد وقتل وليه أبي الهول بن حمزة أمير الكعوب من عرب سليم في آخرين منهم وقطع عمر أيضا أخويه عبد العزيز وخالدا من خلاف فهلكا وكان الحاجب أبو محمد

ابن تافراجين قد أحس بالشر من جهة عمر المتغلب وتوقع النكبة من جانبه فتسلل الى قصره وأخذ
ماخف من ذخيرته ولحق بالسلطان أبي الحسن وقص عليه الخبر وأغراه بتملك افريقية وأوجب عليه
النظر للمسلمين فيها وكان السلطان أبو الحسن يتمنى ذلك لولا مكان صهره أبي بكر فاقام يتحين لها الاوقات
ويترقب لها الفرص حتى كانت هذه وانما تنجح المقالة في المرء اذا صادفت هوى في الفؤاد فأظهر أبو
الحسن الامتعاض لما فعله عمر باخيه ولي العهد من منعه من حقه أولا ثم اراقة دمه ثانيا لاسيما وقد كان
أعطى خط يده بالموافقة على العهد المذكور فاجمع الحركة الى افريقية ولحق به خالد بن حمزة بن عمر أخو
أبي الهول المقتول مع ولي العهد فاستعداه على عدوه ففتح السلطان أبو الحسن ديوان العطاء ونادى في
الناس بالمسير الى افريقية وأزاح عللهم وعسكر بظاهر تلمسان ثم نهض في صفر من سنة ثمان وأربعين
وسبعمائة يجر الدنيا بما حملت بعد ان عقد لابنه الامير أبي عنان على المغرب الاوسط وعهد اليه بالنظر
في أموره كافة وجعل اليه جبايته وقدمت عليه في طريقه اعراب افريقية وولاة قابس وبلاد الجريد
وأطاعته طرابلس والزاب وبجاية وصاحبها يومئذ أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء ابن أبي بكر ولما وصل الى
قسنطينة خرج اليه أبناء الامير أبي عبد الله بن أبي بكر فبايعوه فاقبل عليهم وصرفهم الى المغرب وأنزلهم
بوجدة وأقطعهم جبايتها وأنزل بقسنطينة خلفاءه وعماله وقد كان صرف أبا عبد الله صاحب بجاية
الى ندرومة فانزله بها وأقطعه الكفاية من جبايتها ثم وفد عليه بنو حمزة بن عمر أمراء الكعوب من سليم
فاخبروه باجفال عمر المتغلب بتونس مع ظاعنة أولاد مهلهل واستحثوه في اعتراضهم قبل لحاقهم بالقفر
فسرح معهم العساكر في طلبه لنظر جو ابن يحيى العسكري وتلوم السلطان أبو الحسن بقسنطينة
وعرض جيوشه بسطح الجعاب منها ثم ارتحل على أثرهم وأغذ جو ابن يحيى السير مع ناجعة أولاد أبي
الليل فلحقوا بعمر صاحب تونس بارض الحامة من ناحية قابس فدافعوا عن أنفسهم بعض الشئ
ثم انهزموا وكبا بعمر جواده في نافقاء بعض اليرابيع وانجلى الغبار عنه وعن مولاه ظافر راجلين فتقبض
عليهما وأوثقهما قائد العسكر بيده حتى اذا جن الليل ذبحهما تخوفا من ان تفتكهما العرب من يده
وبعث برؤسهما الى السلطان أبي الحسن فوصلا اليه بباجة وخلص الفل من تلك الوقعة الى قابس
فتقبض عبد الملك بن مكي صاحبها على رجالات من أهل الدولة كان فيهم أبو القاسم بن عتو من مشيخة
الموحدين وصخر بن موسى من رجالات سدويكش وغيرهما من أعيان الدولة فبعثهم ابن مكي الى
السلطان أبي الحسن مقرنين في الاصفاد فأما ابن عتو وصخر بن موسى وعلي بن منصور فقطعهم
من خلاف لفتيا الفقهاء بحرابتهم واعتقل الباقي وسرح السلطان عساكره الى تونس وعقد عليهم
لصهره على ابنته يحيى بن سليمان من بني عسكر فاحتلوا بتونس ثم جاء السلطان على أثرهم فنزل بظاهرها
يوم الاربعاء الثامن من جمادى الآخرة من سنة ثمان وأربعين وسبعمائة وتلقاه وفد تونس وشيوخها
من أهل الفتيا وأرباب الشورى فآتوه طاعتهم وانقلبوا مسرورين بولايته مغتبطين بملكته وكانت
تونس يومئذ مشحونة بالاعلام الاكابر منهم ابن عبد السلام وابن عرفة وابن عبد الرفيع وابن راشد
القفصي وابن هرون وأعلام آخرون ثم عبا السلطان أبو الحسن يوم السبت مواكبه لدخول الحضرة
فصف جنوده سماطين من معسكره بسيجوم الى باب البلد نحو أربعة أميال وركبت بنو مرين في
مراكزهم من جموعهم وتحت راياتهم وركب السلطان من فسطاطه وعن يمينه وليه عريف بن يحيى
كبير سويد ويليه أبو محمد عبد الله بن تافراجين وعن يساره الامير أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء وهو
أخو السلطان أبي بكر ويليه الامير أبو عبد الله ابن أخيه خالد كانا معتقلين بقسنطينة فاطلقهما السلطان
أبو الحسن وصحبوه الى تونس فكانوا طراز ذلك الموكب فيمن لا يحصى من أعياص بني مرين وكبرائهم
وهدرت طبوله وخفقت راياته وكانت يومئذ نحو المائة وجاء السلطان والمواكب تجتمع عليه صفا صفا

الى ان وصل الى البلد وقد ماجت الارض بالجيوش ﴿قال ابن خلدون﴾ وكان يومالم ير مثله فيما عقلناه ﴿قلت﴾ كان سن ابن خلدون يومئذ ست عشرة سنة لانه ولد غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة وكان قدم في جملة السلطان أبي الحسن جماعة كبيرة من أعلام المغرب كان يلزمهم شهود مجلسه ويتجمل بمكانهم فيه ثم دخل القصر الخلافي وخلع على أبي محمد بن تافراجين وقرب اليه فرسا بسرجه ولجامه وطعم الناس بين يديه وانتشروا الى منازلهم ثم دخل السلطان أبو الحسن مع ابن تافراجين الى حجر القصر ومساكن الخلفاء فطاف عليها ودخل منها الى الرياض المتصلة بها المدعوة برأس الطابية فطاف على تلك البساتين وسرح نظره فيها واعتبر بحالها ثم أفضى منها الى معسكره وأنزل يحيى بن سليمان بقصبة تونس في عسكر لحمايتها ثم ارتحل من الغد الى القيروان فجال في نواحيها ووقف على آثار الاولين ومصانع الاقدمين والطلول الماثلة لصنهاجة والعبيديين والتمس البركة في زيارة القبور التي تذكر للصحابة والسلف من التابعين والاولياء في ساحتها ثم سار الى سوسة ثم الى المهدية ووقف على ساحل البحر منها وتطوف في معالمها ونظر في عاقبة الذين كانوا من قبله أشد قوة وآثارا في الارض واعتبر باحوالهم ومر في طريقه بقصر الاجم ورباط المنستير وانكفأ راجعا الى تونس فاحتل بها غرة رمضان من السنة وأنزل المسالح على ثغور افريقية وأقطع بني مرين البلاد والضواحي وأمضى اقطاعات العرب التي كانت لهم من قبل الحفصيين واستعمل على الجهات وخفتت الاصوات وسكنت الدهماء وانقبضت أيدي أهل الفساد وانقرض أمر الحفصيين في هذه المدة الا انه عقد على بونة لصهره الفضل ابن السلطان أبي بكر اكراما لصهره ووفادته عليه واتصلت ممالك السلطان أبي الحسن ما بين مسراتة الى السوس الاقصى من هذه العدوة والى رندة من عدوة الاندلس ودخل المغرب بأسره في طاعته وحذر ملوك مصر والشام ما شاع من بسطته وانفساح دولته ونفوذ كلمته والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وقد كان الشعراء رفعوا اليه قصائد في سبيل التهنئة بالفتح وكان سابق الحلبة يومئذ أبو القاسم الرحوي في قصيدة يقول في مطلعها

أجابك شرق اذ دعوت ومغرب * فمكة هشت للقاء ويثرب

وهي طويلة تخطيناها اختصارا والله تعالى ولي التوفيق بمنه

﴿انتقاض عرب سليم بافريقية على السلطان أبي الحسن وما نشأ عن ذلك﴾

قد تقدم لنا عند الكلام على العرب الداخلين الى المغرب ان جمهورهم كان من بني جشم بن معاوية ابن بكر وبني هلال بن عامر بن صعصعة وبني سليم بن منصور وان الذين بقوا منهم بافريقية هم بنو سليم وبعض هلال وكان لهم استطالة على الدول واعتزاز عليها فكان ملوك الحفصيين يتألفونهم بالولايات والاقطاعات ونحو ذلك وكان السلطان أبو الحسن المريني حاله مع عرب المغرب الاقصى غير حال الحفصيين مع عرب افريقية وملكته لاهل باديته غير ملكتهم لاهل باديتهم فلما ورد افريقية واستولى عليها رأى من اعتزاز العرب بها على الدولة وكثرة اقطاعاتهم من الضواحي والامصار ما تجاوز الحد المعتاد عنده فانكر ذلك وضرب على أيديهم وعوضهم عنه باعطيات فرضها لهم في الديوان من جملة الجند واستكثر جبايتهم فنقصهم الكثير منها ثم شكا اليه الرعية من أولئك العرب وما ينالونهم به من الظلامات وضرب الاتاوة التي يسمونها الخفارة فقبض أيديهم عن ذلك كله وتقدم الى الرعايا بعنهم منها فارتابت العرب لذلك وفسدت ضمائرهم وثقلت وطأة الدولة المرينية عليهم فتربصوا بها وتحزبوا لها وتعاوت ذئابهم في بواديهم فاجتمعوا وأغاروا على قياطين بني مرين ومسالحهم في ثغور افريقية حتى انهم أغاروا على ضواحي تونس فاستاقوا الظهر الذي كان في مرعاها والسلطان يومئذ بها فعظم عليه ذلك وحقد على كبرائهم وأظلم الجو بينه وبينهم ثم وفد عليه أيام الفطر من رجالاتهم خالد بن حمزة أمير بني كعب

وأخوه أحمد وخليفة بن عبد الله من بني مسكين وابن عمه خليفة بن أبي زيد من أولاد القوس فأنزلهم السلطان أبو الحسن وأجمل لقاءهم مغضيا عما اصدر من غوغائهم ثم رفع اليه عبد الواحد بن اللحياني من أولاد الملوك الحفصيين انهم بعثوا اليه مع بعض حاشيته يطلبون منه الخروج معهم لينصبوه للامر بافريقية وانه خشي على نفسه بادرة السلطان فتبرأ اليه من ذلك فقامت قيامة السلطان أبي الحسن عند سماعه ذلك فاحضرهم وأحضر الحفصي معهم وقرره بما دار بينه وبينهم فبهتوا وانكروا فوبخهم وأمر بهم فسحبوا الى السجن ثم فتح ديوان العطاء وعرض الجند لغزوهم وعسكر بسيجوم من ظاهر تونس وذلك بعد قضاء نسك الفطر من سنة ثمان وأربعين وسبعمائة واتصل الخبر باولاد أبي الليل وأولاد القوس باعتقال وفدهم وجمع السلطان لغزوهم فضاقت عليهم الارض بما رحبت وانطلقوا في احيائهم يحزبون الاحزاب ويستثيرون الثوار وعطفوا على أعدائهم من أولاد مهلهل فوصلوهم بعد القطيعة وكانوا بعد مقتل سلطانهم عمر بن أبي بكر قد لحقوا بالقفر خوفا من أبي الحسن لانهم كانوا شيعة لعمر المذكور فلما وقع بين أبي الحسن وبين أولاد أبي الليل ما وقع ركب قتيبة بن حمزة اليهم ومعه أمه ونساء أولاده فقطار حوا عليهم ورغبوا اليهم في الاجتماع معهم على الخروج على السلطان ومنابذته فكان أولاد مهلهل اليها مسرعين فارتحلوا معهم وتوافت أحياء سليم من بني كعب وبني حكيم بتوزر من بلاد الجريد فتذامروا وتصافوا وأهدروا الدماء بينهم وتبايعوا على الموت وصاروا نفسا واحدة على تباين أغراضهم وفساد ذات بينهم والتمسوا من أعياص الملك من ينصبونه للامر فدلهم بعض سماسرة الفتن على رجل من بني عبد المؤمن وهو أحمد بن عثمان بن أبي دبوس آخر ملوك بني عبد المؤمن وكان يحترف بالخياطة في توزر بعد ما طوحت به الطوائح فانطلقوا اليه وجاؤا به ونصبوه للامر وجمعوا له شيأ من الفساطيط والخيل والآلات والكسوة وأقاموا له رسم السلطان وعسكروا عليه بقياطينهم وحللهم وتحالفوا على نصره ولما قضى السلطان أبو الحسن نسك عيد الاضحى من السنة المذكورة ارتحل من ساحة تونس يريد العرب فوافاهم بالموضع المعروف بالثنية بين بسيط تونس وبسيط القيروان فاجفلوا أمامه فاتبعهم وألح عليهم الى ان وصلوا الى القيروان فلما رأوا ان لا ملجأ لهم منه عزموا على الثبات له وتحالفوا على الاستماتة وكان عسكر السلطان أبي الحسن يومئذ مشحونا باعدائه من بني عبد الواد المغلوبين على ملكهم ومغراوة وبني توجين وغيرهم فدسوا الى العرب أثناء هذه المناوشة بان يناجزوا السلطان غدا حتى يتحيزوا اليهم ويجروا عليه الهزيمة فاجابوهم الى ذلك وصبحوا معسكر السلطان من الغد فركب اليهم في التعبية ولما تقابلوا تحيز اليهم الكثير ممن كان معه واختل مصافه فانهزم هزيمة شنعاء وبادر الى القيروان فدخلها فيمن معه من الفل مستجيرا بها ودافع عنه أهلها وتسابقت العرب الى معسكره فانتهبوه بما فيه من المضارب والعدد والآلات ودخلوا فسطاط السلطان فاستولوا على ذخيرته والكثير من حرمه وأحاطوا بالقيروان وزحفت اليها حللهم فدارت بها سياجا واحدا وتعاوت ذئابهم باطراف البقاع وأجلب ناعق الفتنة منهم بكل قاع واضطرمت افريقية نارا وكانت الهزيمة يوم الاثنين سابع محرم من سنة تسع وأربعين وسبعمائة وبلغ الخبر الى تونس وكان السلطان قد خلف بها عند رحيله الكثير من أبنائه وحرمه ووجوه قومه وأمناء بيت ماله وبعض الحاشية من جنده فتحصنوا بالقصبة وأحاط بهم الغوغاء كي يستنزلوهم عنها فامتنعوا عليهم وكانوا بها أملك منهم وكان الامير أبو سالم ابراهيم ابن السلطان أبي الحسن قد جاء من المغرب في هذا التاريخ فوافاه الخبر قرب القيروان فانفض معسكره ورجع الى تونس فكان معهم في القصبة ثم نزع أبو محمد بن تافراجين عن السلطان أبي الحسن وكان محصورا معه بالقيروان وكان قد سئم صحبته وملّ خدمته لانه كان أيام حجابته للسلطان الحفصي مستبدا عليه مفوضا اليه في جميع أموره فلما استوزره

السلطان أبو الحسن لم يجره على تلك العادة لانه كان قائما على أموره بنفسه وليس التفويض للوزراء من شأنه وكان ابن تافراجين يظن انه سيكل اليه أمر افريقية وينصب معه لملكها الفضل ابن السلطان أبي بكر شقيق زوجته وربما زعموا انه عاهده على ذلك فكان في قلبه من الدولة المرينية مرض وكان العرب أيام عزمهم على الخروج يفاوضونه بذات صدورهم فلما حصلوا على البغية من الظهور على السلطان وحصاره بالقيروان احتالوا في أمر ابن تافراجين فبعثوا الى السلطان يطلبون منه بعثه اليهم ليفاوضوه في الرجوع الى الطاعة والانخراط في سلك الجماعة فاذن له فخرج اليهم ووصل يده بيدهم ولم يرجع الى السلطان أبي الحسن فقلدوه حجابة سلطانهم ابن أبي دبوس ثم سرحوه الى حصار من بالقصبة من بني مرين وطمعوا في الاستيلاء عليها وفض ختامها فساروا بن تافراجين اليها وانضم اليه أشياخ الموحدين في زعانف من الغوغاء وأحاطوا بالقصبة ثم لحق به ابن أبي دبوس فعاودوها القتال ونصبوا عليها المجانيق فامتنعت عليهم ولم يغنوا شيأ وابن تافراجين في أثناء ذلك يحاول الفرار بنفسه لاضطراب الامور واختلال الرسوم الى ان بلغه خلوص السلطان أبي الحسن من القيروان الى سوسة وكان من خبره ان العرب بعد حصارهم اياه بالقيروان اختلفت كلمتهم لديه وكان قد داخل أولاد مهلهل في الافراج عنه واشترط لهم على ذلك أموالا ونذر بنو أبي الليل بذلك فاضطربت كلمتهم ودخل عليه قتيبة بن حمزة منهم بمكانه من القيروان زعيما بالطاعة فتقبله وأطلق أخويه خالدا وأحمد ومع ذلك فلم يطمئن اليهم ثم جاء اليه محمد بن طالب من أولاد مهلهل وخليفة بن أبي زيد وأبو الهول بن يعقوب من أولاد القوس وعاهدوه على الافراج عنه والقيام معه حتى يصل الى مأمنه فخرج معهم ليلا على التعبية وذؤبان العرب تطأ أذياله وضباعها تنوشه الى ان استقر بسوسة وأمن على نفسه وقد أتى النهب على جل ما كان معه ولما سمع ابن تافراجين وهو محاصر للقصبة بوصول السلطان الى سوسة تسلل من أصحابه وركب البحر الى الاسكندرية فاصبحوا وقد فقدوه فاضطرب أمرهم وارتاب سلطانهم ابن أبي دبوس لما علم بخبره فانفض جمعهم عن القصبة وأفرجوا عنها وخرج بنو مرين فاكتسحوا البلد وخربوا منازل الحاشية بها ثم ركب السلطان أبو الحسن من سوسة البحر فاحتل بتونس في ربيع الآخر سنة تسع وأربعين وسبعمائة فاجتمع شمله واستتب أمره وكتب الى صاحب مصر في التقبض على ابن تافراجين فأجاره بعض الامراء وانصرف لقضاء فريضة الحج واعتمل السلطان أبو الحسن في اصلاح أسوار تونس وادارة الخندق عليها وأقام لها من الصيانة والحصانة رسما دفع به في نحر عدوه وبقي له ذكره من بعده ثم أجلب العرب وسلطانهم ابن أبي دبوس على تونس ونازلوا أبا الحسن بها واستبلغوا في حصاره وخلصت ولاية أولاد مهلهل للسلطان فعول عليهم ثم راجع بنو حمزة بصائرهم وصاروا الى مهادنته فعقد لهم السلم ودخل عليه عمر بن حمزة وافدا فحبسه حتى قبض اخوانه على أميرهم ابن أبي دبوس وقادوه اليه استبلاغا في الطاعة وامحاضا للولاية فتقبل فيئتهم وأودع ابن أبي دبوس السجن وعقد الصهر بينه وبين عمر بن حمزة فزوج ابنة عمر بابنه أبي الفضل واختلفت أحوال هؤلاء العرب على السلطان أبي الحسن في الطاعة تارة والانحراف أخرى مدة اقامته بتونس الى ان كان ما نذكره والله غالب على أمره

﴿انتقاض الاطراف وثورة أبي عنان ابن السلطان أبي الحسن واستيلاؤه على المغرب﴾

قد تقدم لنا ان السلطان أبا بكر الحفصي رحمه الله لما زوج ابنته من السلطان أبي الحسن بعث معها في زفافها شقيقها أبا العباس الفضل بن أبي بكر وان خبر وفاة والده أدركه وهو بالطريق ولما وصل الى السلطان أبي الحسن عزاه عن مصاب أبيه ووعده بالمظاهرة على ملكه فبقي عنده بتلمسان الى ان نهض في صحبته الى افريقية فلما غلب السلطان أبو الحسن على بجاية وقسنطينة وارتحل الى تونس عقد له على بونة التي كان يلي عملها أيام أبيه فانقطع أمله وفسد ضميره وطوى على البث حتى اذا كانت نكبة القيروان

سما الى التوثب على ملك سلفه وكان أهل قسنطينة وبجاية قد سئموا ملكة بنى مرين و برموا بولايتهم لمخالفتهم بعض العوائد التى كانت لهم مع الملوك الحفصيين ولان الصبغة الحفصية كانت قد رسخت فى نفوسهم جيلا بعد جيل فصعب عليهم نزعها

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى * ما الحب الا للحبيب الاول

كم منزل فى الارض يألفه الفتى * وحنينه أبدا لاول منزل

فاشرأبوا الى الثورة على المرينيين لما سمعوا بنكبة القيروان واتفق أن قدم قسنطينة ركب من أهل المغرب قاصدين الى السلطان أبى الحسن وكان فيهم عمال الجباية قدموا بجباياتهم عند رأس الحول كما جرت به عادتهم فى ذلك ومعهم ابن صغير للسلطان اسمه عبد الله وفيهم وفد من رؤساء الفرنج بعثهم طاغيتهم بقصد التهنئة بفتح افريقية ومعهم تاشفين ابن السلطان الذى أسر يوم طريف أطلقه الطاغية بعد ان أصابه خبال فى عقله وأرسل معه بهدية نفيسة وفيهم أيضا وفد من أهل مالى بعثهم السلطان منسا سليمان بقصد التهنئة أيضا فتوافت هؤلاء الوفود بقسنطينة وقد طم عباب الفتنة على افريقية فأراد غوغاؤها انتهاب ما معهم ثم تخلصوا منهم فى خبر طويل وفى أثناء ذلك ثار الفضل ابن السلطان أبى بكر صاحب بونة فراسله أهل قسنطينة فى القدوم عليهم والقيام بأمرهم فقدمها وجرت خطوب واتصل باهل بجاية ما فعله أهل قسنطينة فتبعوهم على رأيهم من الانتقاض وثبوا على من كان عندهم من حامية بنى مرين فاستلبوهم وأخرجوهم عراة واستدعوا الفضل بن أبى بكر من قسنطينة فبادر اليهم واستولى على بجاية واستتب أمره بها وأعاد ألقاب الخلافة وبينما هو يحدث نفسه بغزو تونس ثار عليه أبناء أخيه أبى عبد الله بن أبى بكر فانتزعوا منه بجاية وردوه الى عمله الاول وانتقض على السلطان أبى الحسن أيضا سائر زناتة من بنى عبد الواد ومغراوة وبنى توجين وبايع بنو عبد الواد لعثمان بن عبد الرحمن ابن يحيى بن يغمراسن بن زيان وساروا الى تلمسان فاستحدثوا بها ملك سلفهم فى أخبار طويلة وجرت هذه الخطوب والسلطان أبو الحسن مقيم بتونس تغاديه العرب بالقتال وتراوحه وتعوج عليه تارة وتستقيم أخرى وطال مقامه بها وعميت أنباؤه على أهل المغرب وحدث فى الخلق الوباء العظيم الذى عم المشرق والمغرب فارجف بموته واضطربت الاحوال بالمغارب الثلاثة الادنى والاوسط والاقصى واتصل ذلك بالامير أبى عنان وهو يومئذ بتلمسان كان أبوه قد ولاه عليها عند ذهابه الى افريقية حسبما مر فلما أرجف بهلك أبيه وتساقط اليه الفل من عسكره عراة زرافات ووحدانا تطاول الى الاستئثار بملك أبيه دون سائر اخوته وكان مرشحا عنده لذلك لمزيد فضله عليهم فى غير وصف واتفق ان كان عنده رجل من بنى عبد الواد اسمه عثمان بن يحيى بن محمد بن جرار وكان ينتسب الى علم الحدثان ولما سافر السلطان الى افريقية كان هذا الرجل أول المرجفين به وانه لا يرجع من سفرته وان الامر صائر الى أبى عنان ونجع ذلك فى أبى عنان لموافقته هواه فاشتمل على ابن جرار وخلطه بنفسه فلما ورد الخبر بنكبة السلطان وانحصاره أولا بالقيروان ثم بتونس لم يسترب أبو عنان فى صدق ابن جرار وانه على بصيرة من أمره فتحفز للوثبة وصمم على الثورة ثم أكد عزمه على ذلك ما اتصل به من خبر ابن أخيه منصور بن أبى مالك عبد الواحد بن أبى الحسن بفاس الجديد وانه ثار بها وفتح ديوان العطاء واستلحق واستركب ورام التغلب على المغرب واحتياز الامر لنفسه دون غيره وورى فى ذلك بأنه انما عزم على الذهاب الى افريقية لاستنقاذ السلطان من هوة الحصار فسر من ذلك حسوا فى ارتغاء وتفطن لشأنه الحسن بن سليمان بن يرزيكن عامل القصبة بفاس وصاحب الشرطة بالضواحى فاستأذنه فى اللحاق بالسلطان فأذن له راحة منه فلحق بأبى عنان على حين أمضى عزيمته على التوثب فأخرج ما كان بقصر السلطان بالمنصورة من المال والذخيرة وجاهر بالدعاء لنفسه وجلس للبيعة بمجلس السلطان من قصره فى ربيع الثانى من سنة تسع

وأربعين وسبعمائة فبايعه الملأ وقرأ كتاب بيعتهم على الاشهاد ثم بايعه العامة وانفض المجلس وقد
استتب سلطانه ورست قواعد ملكه وركب في التعبية والآلة حتى نزل بقبة الملعب وطعم الناس وانتشروا
وعقد على وزارته للحسن بن سليمان بن يرزيكن القادم عليه ثم لفارس بن ميمون بن وردار وجعله رديفا له
ورفع مكان ابن جرار عليهم كلهم واختص لمناجاته كاتبه أبا عبد الله محمد بن محمد بن أبي عمرو ثم فتح الديوان
وجعل يستركب كل من تساقط اليه من فل أبيه ويخلع عليهم وارتحل الى المغرب وعقد على تلمسان لابن
جرار وأنزله بالقصر القديم منها فاستمر بها واستبد الى أن قدم عليه بنو عبد الواد مجتمعين على سلطانهم عثمان
ابن عبد الرحمن فقتلوه غرقا في خبر طويل ولما انتهى الامير أبو عنان الى وادي الزيتون وشى اليه بالوزير
الحسن بن سليمان وانه عازم على الفتك به بتازا تقربا الى السلطان أبي الحسن ووفاء بطاعته وانه قد داخل
في ذلك حافده منصور بن أبي مالك الثائر بفاس وأطلعه هذا الواشي على كتاب الوزير في ذلك فلما قرأه
تقبض عليه ثم قتله خنقا في مساء ذلك اليوم وأغذ السير الى المغرب وانتهى الخبر الى منصور صاحب
فاس فزحف لقائه والتقى الجمعان بوادي أبي الاجراف من ناحية تازا فاختل مصاف منصور وانهزمت
جموعه ولحق بفاس الجديد فتحصن بها وتبعه أبو عنان فأناخ عليه خارجها وقد تسايل الناس على طبقاتهم
اليه وآتوه طاعتهم وكان قد سلك مع الرعية والجند من البذل والاستئلاف طريقا لم يسبق اليه وكانت
منازلته لفاس الجديد في ربيع الآخر من السنة المذكورة فأخذ بمخنقها وجمع الايدي والفعلة على
الآلات لحصارها ثم أرسل الى مكاسة باطلاق أولاد أبي العلاء المعتقلين بالقصبة منها فأطلقوا ولحقوا
به وحاصروا معه فاس الجديد وضيقوا عليها الى أن ضاقت أحوال أهلها واختلفت أهواؤهم ونزع الى
أبي عنان أهل الشوكة منهم ثم ان ادريس بن عثمان بن أبي العلاء احتال في فتح البلد بأن أظهر النزوع
عن أبي عنان الى منصور المحصور فدخل البلد وتمكن منه وثار به فيمن معه من حاشيته واقتحمه الامير
أبو عنان عليهم ونزل منصور على حكمه فاعتقله الى أن قتله بمحبسه واستولى على دار الملك وتسابقت اليه
وفود الامصار للتهنئة بالبيعة وتمسك أهل سبتة بطاعة السلطان أبي الحسن ثم رجعوا عن ذلك وثاروا على
عاملهم عبد الله بن علي بن سعيد من طبقة الوزراء فقبضوا عليه وقادوه الى أبي عنان مبايعين له متقربين
به اليه وتولى كبر ذلك فيهم زعيمهم الشريف أبو العباس أحمد بن محمد بن رافع الصقلي من آل الحسين

أصل الأشراف الصقليين

السبط رضي الله عنه كان سلفه قد انتقلوا من صقلية الى سبتة فاستوطنوها ثم استوطنوا بعدها حضرة
فاس واستوسق للامير أبي عنان ملك المغرب واجتمع اليه قومه من بني مرين الا من أقام مع أبيه بتونس
وفاء بحقه وحص جناح أبيه عن الكرة على بني كعب الناكثين لعهده الناكبين عن طاعته فأقام
السلطان أبو الحسن رحمه الله بتونس يرجو الايام ويأمل الكرة والاطراف تنتقص والخوارج تتجدد
وقنط من كان معه من حاشيته وسئموا المقام بأرض ليست لهم بدار مقام فحسنوا له النهوض الى المغرب
فأسعفهم وعزم على الرحلة كما نذكره ان شاء الله وفي هذه المدة كتب اليه السلطان أبو الحجاج يوسف بن
الاحمر كتابا من انشاء وزيره لسان الدين ابن الخطيب يسائله عن أحواله ويعزيه عن مصابه ويتأسف
له ونص الكتاب المقام الذي أقمار سعده في انتظام واتساق وجياد عزه الى الغاية القصوى ذات استباق
والقلوب على حبه ذات اتفاق وعناية الله تعالى عليه مديدة الرواق وأياديه الجمة في الاعناق ألزم من
الاطواق وأحاديث مجده سمر النوادي وحديث الرفاق مقام محل أبينا الذي شأن قلوبنا الاهتمام
بشأنه وأعظم مطلوبنا من الله تعالى سعادة سلطانه السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان
الكذا أبقاه الله تعالى والصنائع الالهية تحط ببابه والالطاف الخفية تعرس في جنابه والنصر العزيز
يحف بركابه وأسباب التوفيق متصلة بأسبابه والقلوب النجيبة لفراقه مسرورة باقترابه معظم
سلطانه الذي له الحقوق المحتومه والفواضل المشهورة المعلومه والمكارم المسطورة الموسومه

والمفاخر المنسوقة المنظومه الداعى الى الله تعالى فى وقاية ذاته المعصومه وحفظها على هذه الامة المرحومه الامير عبدالله يوسف ابن أمير المسلمين أبى الوليد اسمعيل بن فرج بن نصر سلام كريم طيب عميم كما سطعت فى غيهب الشدة أنوار الفرج وهبت نواسم ألطاف الله عاطرة الأرج يخص مقامكم الاعلى ورحمة الله وبركاته (أما بعد) حمد الله جالى الظلم بعد اعتكارها ومقيل الايام من عثارها ومزين سماء الملك بشموسها المحتجبة وأقمارها ومريح القلوب من وحشة أفكارها ومنشى سحاب الرحمة على هذه الامة بعد افتقارها وشدة اضطرابها واضطرارها ومتداركها باللطف الكفيل بتمهيد أوطانها وتيسير أوطارها والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله صفوة النبوة ومختارها ولباب مجدها السامى ونجارها نبى الملاحم وخائض تيارها ومذهب رسوم الفتن ومطفئ نارها الذى لم ترعه الشدائد باضطراب بحارها حتى بلغت كلمة الله ما شاءت من سطوع أنوارها ووضوح آثارها والرضا عن آله وأصحابه الذين تمسكوا بعهده على احلاء الحوادث وامرارها وباعوا نفوسهم فى اعلاء دعوته الحنيفية واظهارها والدعاء لمقامكم الاعلى باتصال السعادة واستمرارها وانسحاب العناية الالهية واسدال أستارها حتى تقف الايام ببابكم موقف اعتذارها وتعرض على مثابتكم ذنوبها راغبة فى اغتفارها فانا كتبناه اليكم كتب الله تعالى لكم أوفى ما كتب لصالحى الملوك من مواهب اسعاده وعرفكم عوارف الآلاء فى اصدار أمركم الرفيع وايراده وأجرى الفلك الدوار بحكم مراده وجعل لكم العاقبة الحسنى كما وعد به فى محكم كتابه المبين الصالحين من عباده من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى وليس بفضل الله الذى عليه فى الشدائد الاعتماد والى كنف فضله الاستناد ثم ببركة جاه نبينا الذى وضح بهدايته سبيل الرشاد الا الصنائع التى تشام بوارق اللطف من خلالها وتخبر سيماها بطلوع السعود واستقبالها وتدل مخايل عنها على حسن مآلها لله الحمد على نعمه التى نرغب فى كمالها ونستدر عذب زلالها وعندنا من الاستبشار باتساق أمركم وانتظامه والسرور بسعادة أيامه والدعاء الى الله تعالى فى اظهاره واتمامه ما لا تفى العبارة باحكامه ولا تتعاطى حصر أحكامه والى هذا أيد الله تعالى أمركم وعلاه وصان سلطانكم وتولاه فقد علم الحاضر والغائب وخلص الخلوص الذى لا تغيره الشوائب ما عندنا من الحب الذى وضحت منه المذاهب وانه لما اتصل بنا ما جرت به الاحكام من الامور التى صحبت مقامكم فيها العناية من الله والعصمه وجعل على العباد والبلاد الوقاية والنعمه لا يستقر بقلوبنا القرار ولا تتأتى باوطاننا الاوطار تشوفا لما تتيحه لكم الاقدار ويبرزه من سعادتكم الليل والنهار ورجاؤنا فى استئناف سعادتكم يشتد على الاوقات ويقوى علما بان العاقبة للتقوى وفى هذه الايام عميت الانباء وتكالبت فى البر والبحر الاعداء واختلفت الفصول والاهواء وعاقت الوارد الانواء وعلى ذلك من فضل الله الرجاء ولو كنا نجد للاتصال بكم سببا أو نلقى لاعانتكم مذهبا لما شغلنا البعد الذى بيننا اعترض والعدو بساحتنا فى هذه الايام ربض وكان خديمكم الذى رفع من الوفاء راية خافقه واقتنى منه فى سوق الكساد بضاعة نافقه الشيخ الاجل الاوفى الاود الاخلص الاصفى أبو محمد بن آجانا سنى الله مأموله وبلغه من سعادة أمركم سوله وقد ورد على بابنا وتحيز الى اللحاق بجنابنا ليتيسر له من جهتنا القدوم ويتأتى له باعانتنا الغرض المروم فبينما نحن ننظر فى تتميم غرضه واعانته على الوفاء الذى قام بمفترضه اذا اتصل بنا خبر قرقورتين من الاجفان التى استعنتم بها على الحركه والعزمة المقترنة بالبركه حطت احداهما بمرسى المنكب والاخرى بمرسى المريه فى كنف العناية الالهيه فتلقينا من الواصلين فيها الانباء المحققة بعد التباسها والاخبار التى يغنى نصها عن قياسها وتعرفنا ما كان من عزمكم على السفر وحركتكم المقرونة باليمن والظفر وانكم استخرتم الله تعالى فى اللحاق بالاوطان التى يؤمن قدومكم خائفها ويؤلف طوائفها ويسكن راجفها ويصلح أحوالها

ويذهب

ويذهب أهوالهبا وانكم سبقتم حركتها بعشرة أيام مستظهرين بالعزم المبرور والسعد الموفور واليمن الرائق السفور والاسطول المنصور فلا تسألوا عن انبعاث الآمال بعد سكونها ونهوض طيور الرجاء من وكونها واستبشار الامة المحمدية منكم بقرة عيونها وتحقق ظنونها وارتياح البلاد الى دعوتكم التى ألبستها ملابس العدل والاحسان وقلدتها قلائد السير الحسان ومامنها الامن باح بما يخفيه من وجده وجهر بشكر الله تعالى وحمده وابتهل اليه فى تيسير غرض مقامكم الشهير وتتميم قصده واستئناس نور سعده وكم مطل الانتظار بدون آمالها والمطاولة من اعتلالها وأما نحن فلا تسألوا عمن استشعر دنو حبيبه بعد طول مغيبه انما هو صدر راجعه فؤاده وطرف ألفه رقاده وفكر ساعده مراده فلما بلغنا هذا الخبر بادرنا الى انجاز ما بذلنا لخديكم المذكور من الوعد واغتنمنا ميقات هذا السعد ليصل سببه بأسبابكم ويسرع لحاقه بجنابكم فعنده خدم نرجو أن ييسر الله تعالى بحوله أسبابها ويفتح بنيتكم الصالحة أبوابها وقد شاهد من امتعاضنا لذلك المقام الذى ندين له بالتشيع الكريم الوداد ونصل له على بعد المزار وتزوح الاقطار سبب الاعتداد ما يغنى عن القلم والمداد وقد ألقينا اليه من ذلك كله ما يلقيه الى مقامكم الرفيع العماد وكتبنا الى من بالسواحل من ولاتنا نحذلهم ما يكون عليه عملهم فى بر من يرد عليهم من جهة أبوتكم الكريمه ذات الحقوق العظيمه والايادى الحديثة والقديمه وهم يعملون فى ذلك بحسب المراد وعلى شاكلة جميل الاعتقاد ويعلم الله تعالى انا لولم تعق العوائق الكبيره والموانع الكثيره والاعداء الذين غصتبهم فى الوقت هذه الجزيره ما قدمنا عملا على اللحاق بكم والاتصال بسببكم حتى نوفى لابوتكم الكريمة حقها ونوضح من المسرة طرقها لكن الاعذار واضحة وضوح المثل السائر والى الله تعالى نبتهل فى أن يوضح لكم من التيسير طريقا ويجعل لكم السعد مصباحا ورفيقا ولا يعدمكم عناية منه وتوفيقا ويتم سرورنا عن قريب بتعريف أنبائكم السارة وسعودكم الدارة فذلك منه سبحانه غاية آمالنا وفيه أعمال ضراعتنا وابتهالنا هذا ما عندنا بادرنا الاعلامكم به أسرع البدار والله تعالى يوفد علينا أكرم الاخبار بسعادة ملككم السامى المقدار وييسر ماله من الاوطار ويصل سعدكم ويحرس مجدكم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته اه

﴿ركوب السلطان أبى الحسن البحر من تونس الى المغرب وما جرى عليه من المحن﴾

فى ذلك كان الامير أبو العباس الفضل ابن السلطان أبى بكر الحفصى بعد أن لحق بعمله القديم من بونة قد وفد عليه مشيخة العرب من أولاد أبى الليل وأغروه بملك افريقية والنهوض الى تونس ومحاصرة السلطان أبى الحسن بها فأجابهم الى ذلك ونهض اليها بعد عيد الفطر من سنة تسع وأربعين وسبعمائة فحاصرها مدة ثم انفض عنها ثم عاود حصارها ثم انفض عنها ودخل القفر مع أولاد أبى الليل الى ان بايعه أهل بلاد الجريد باشارة أبى القاسم بن عتو المقطوع ودخل فى طاعته توزر وقفصة ونفطة والحامة وقابس وجربة وانتهى الخبر الى السلطان أبى الحسن باستيلاء الفضل على هذه الامصار واستفحال أمره بها وأنه ناهض الى تونس فأهمه شأنه وخشى على الامر وكانت بطانته توسوس اليه بالرحلة الى المغرب لاسترجاع نعمتهم باسترجاع ملكه مع ما أصابهم بتونس من الغلاء والموت الذريع فأجابهم الى ذلك وشحن أساطيله بالاقوات وأزاح علل المسافرين ولما قضى نسك عيد الفطر من سنة خمسين وسبعمائة ركب البحر فى فصل الشتاء وهيجان البحر وكلب البرد بعد ان عقد لابنه أبى الفضل على تونس ثقة بما بينه وبين عمر بن حمزة من المصاهرة وتفاديا بمكانه من معرة الغوغاء وثورتهم به وكانت مدة محاصرة السلطان أبى الحسن بتونس سنة ونصفا واتصل خبر رحيله بالفضل بن أبى بكر وهو ببلاد الجريد فأغذ السير الى تونس ونزل بها على أبى الفضل المرينى ومن كان معه من حاشيته وأهل دولته

ثم اقتحمها واتصلت يده بيد أهل البلاد ثم أحاطوا بالقصبة يوم منى حتى استنزلوا أبا الفضل على الامان
فخرج الى دار أصهاره من بنى حمزة فبقى عندهم حتى أنفذوا معه من أوصله الى أبيه فلحق به بثغر الجزائر
وأما السلطان أبو الحسن وجيشه الراكب البحر معه فانهم لما لججوا احتاجوا الى الماء فدخلوا مرسى
بجاية لخمس ليال من اقلاعهم عن تونس فمنعهم صاحب بجاية الحفصى من الورود وأوعز الى سائر
سواحله بمنعهم فرجعوا الى الساحل وقاتلوا من صدهم عن الماء الى ان غلبوهم واستقوا وأقلعوا
ثم عصفت بهم الريح فى تلك الليلة وجاءهم الموج من كل مكان وتكسرت الاجفان وغرق الكثير
من بطانة السلطان وعامة الناس وقذف الموج بالسلطان فألقاه على حجر قرب الساحل من بلاد زواوة
عارى الجسد مباشر الموت وقد هلك من كان معه من الفقهاء والعلماء والكتاب والاشراف والخاصة
وهو يشاهد مصارعهم واختطاف الموج لهم من فوق الصخور التى تعلقوا بها اذ نكثوا اليلتهم على ذلك
وصبحهم جفن من بقية الاساطيل كان قد سلم من ذلك العاصف فبادر أهل الجفن اليه حين رأوه
فاحتملوه وقد تصايح به البربر من الجبال وتواثبوا اليه حين وضح النهار وأبصروه فتداركه الله بهذا الجفن
فاحتملوه وقذفوا به فى مدينة الجزائر ﴿وفى نفح الطيب﴾ ان أساطيل السلطان أبى الحسن كانت نحو
الستمائة فغرقت كلها ونجا هو على لوح وهلك من كان معه من أعلام المغرب وهم نحو أربعمائة عالم
منهم أبو عبد الله محمد بن سليمان السطى شارح الحوفى وأبو عبد الله محمد بن الصباغ المكناسى الذى أملى
فى مجلس درسه بمكناسة على حديث يا أبا عمير ما فعل النغير أربعمائة فائدة والاستاذ الزواوى أبو العباس
وغير واحد وكان غرق الاسطول على ساحل تدلس ﴿وذكر﴾ الشيخ أبو عبد الله الابى فى شرح مسلم
كلامه على أحاديث العين ما معناه أن رجلا كان بتلك الديار معروفا باصابة العين فسأل منه بعض
الموتورين للسلطان أبى الحسن أن يصيب أساطيله بالعين وكانت كثيرة نحو الستمائة فنظر اليها الرجل
العائن فكان غرقها بقدرة الله الذى يفعل ما يشاء ونجى السلطان بنفسه وجرت عليه محن اهـ ولما احتل
بالجزائر وقد تمسك أهلها بطاعته استنشق ريح الحياة ولاءم الصدع وأقام الرسم وخلع على من وصل اليه
من فل الاساطيل واستلحق واستركب ولحق به ابنه الناصر من بسكرة والتف عليه بعض العرب
من أحواز الجزائر ووفد عليه أولياؤه من عرب سويد فنهض الى جهة تلمسان وقد استولى عليها بنو زيان
وسلطانهم عثمان بن عبد الرحمن فبرز اليه أبو ثابت أخو عثمان المذكور ولما التقى الجمعان اختل مصاف
السلطان أبى الحسن واستبيح معسكره وانتهبت فساطيطه وقتل ابنه الناصر وظهر يومئذ من بسالته
وصدق دفاعه وشدة حملاته حتى انه أركب ظعائنه وخلص بحاميا عنها واحتمل ولده جريحا فتوفى
بالطريق فواراه فى التراب وأخفى قبره ثم خلص الى الصحراء مع وليه ونزمار بن عريف بن يحيى
السويدى ولحق بحلل قومه قبلة جبل وانشريس وأجمع أمره على قصد المغرب موطن قومه ومنبت
عزه ودار ملكه فارتحل معه وليه ونزمار بالناجعة من قومه وخرجوا الى جبل راشد ثم قطعوا المفاوز
الى سجلماسة فى القفر فلما أطلوا عليها وعاين أهلها السلطان تهافتوا عليه تهافت الفراش على ضوء
السراج حتى خرج اليه العذارى من ستورهن ميلا اليه ورغبة فى ولايته وفر العامل بسجلماسة الى
منجاته وكان الامير أبو عنان لما بلغه الخبر بقصد أبيه سجلماسة نهض اليه فى قومه وجموعه بعد ان أزاح
عللهم وأفاض عطاءه فيهم وكانت بنو مرين نافرة عن السلطان أبى الحسن حاذرة من عقوبته لجناياتهم
بالتخاذل فى المواقف والفرار عنه فى الشدائد ولما كان يعنتهم فى الاسفار ويجشمهم المهالك والاخطار
فكانوا لذلك مجمعين على منابذته ومخلصين فى طاعة ابنه ولما اتصل خبر قدومهم بالسلطان أبى الحسن
علم من حاله انه لا يطيق دفاعهم وكان ونزمار قد أجفل عنه فى قومه سويد لان أباه عريف بن يحيى كان
قد نزع الى أبى عنان قبل قدوم السلطان من تونس فأكرم محله ورفع منزلته فكتب الى ابنه ونزمار ينهاه

عن ولاية السلطان أبي الحسن ومظاهرته له وأقسم له لئن لم يفارق السلطان ليوقعن بابنه عنتر وكان معه في جملة الامير أبي عنان فاشتد ونزمار رضا أبيه وعلم ان غناءه عن السلطان في وطن المغرب قليل فأجفل عنه ولحق ببسكرة فكان بها الى ان رجع الى أبي عنان بعد هذا ولما قرب أبو عنان من سجلماسة أجفل السلطان عنها الى ناحية مراكش ودخل أبو عنان سجلماسة فثقف أطرافها وسد فروجها وعقد عليها ليحيى بن عمر بن عبد المؤمن كبير بني ونكاسن وبلغه ان أباه قد سار الى مراكش فاعتزم على اتباعه اليها فلم تطاوعه بنو مرين فرجع بهم الى فاس الى ان كان ما نذكره

﴿استيلاء السلطان أبي الحسن على مراكش ثم انهزامه عنها الى هنتاتة أهل جبل درن ووفاته هنالك﴾

لما أجفل السلطان أبو الحسن عن سجلماسة سنة احدى وخمسين وسبعمائة قصد مراكش وركب اليها الاوعار من جبال المصامدة ولما اشرف فيها تسارع اليه أهل جهاتها بالطاعة من كل أوب ونسلوا اليه من كل حدب وفر عامل مراكش الى أبي عنان ونزع الى السلطان أبي الحسن صاحب ديوان الجباية أبو المجد بن محمد بن أبي مدين بما كان في الخزانة من مال الجباية فاختصه واستكتبه وجعل اليه علامته واستركب واستلحق وجبى الاموال وبث العطاء ودخل في طاعته قبائل العرب من جشم وسائر المصامدة وثاب له بمراكش ملك رجى معه أن يستولي على سلطانه ويرتجع فارط أمره وكان أبو عنان لما رجع الى فاس عسكر بساحتها وشرع في العطاء وازاحة العلل ثم ارتحل في جموع بني مرين الى مراكش وبرز السلطان أبو الحسن للقائه وانتهى كل واحد من الفريقين الى وادي أم الربيع وتربص كل واحد بصاحبه عبور الوادي فعبره أبو الحسن وكان اللقاء بتامدغوست في آخر صفر من سنة احدى وخمسين وسبعمائة فاختل مصاف السلطان وانهزم عسكره ولحق به أبطال بني مرين ثم رجعوا عنه حياء وهيبة وكبى به فرسه يومئذ في مفره فسقط الى الارض والفرسان تحوم حوله فاعترضهم دونه أبو دينار سليمان بن علي بن أحمد أمير الذواودة من عرب رياح وهو رديف أخيه يعقوب كان هاجر مع السلطان من الجزائر ولم يزل في جملته الى هذا اليوم فدافع عنه حتى ركب وسار من ورائه ردأ له وأسر حاجبه علال ابن محمد فأودعه أبو عنان السجن ثم امتن عليه بعد وفاة أبيه وخلص السلطان أبو الحسن رحمه الله الى جبل هنتاتة من جبال درن ومعه كبيرهم عبد العزيز بن محمد بن علي الهنتاتي فنزل عليه وأجاره واجتمع اليه الملأ من قومه هنتاتة ومن انضاف اليهم من المصامدة وتآمروا وتعاهدوا على المدافعة عنه وبايعوه على الموت وجاء أبو عنان على أثره حتى احتل بمراكش وأنزل عساكره على جبل هنتاتة ورتب المسالح لحصاره وحربه وطال عليه ثواؤه حتى طلب السلطان من ابنه الابقاء عليه وان يبعث اليه حاجبه أبا عبد الله محمد بن محمد بن أبي عمر فحضر عنده وأحسن العذر عن الامير أبي عنان والتمس له الرضا منه فرضي عنه وكتب له ولاية عهده وأوعز اليه بان يبعث له مالا وكسى فسرح الحاجب ابن أبي عمر باخراجها من المودع بدار ملكهم واعتل السلطان خلال ذلك فمرضه أولياؤه وخاصته واقتصد لاخراج الدم ثم باشر الماء للطهارة فورم محل الفصادة ومات رحمه الله في الثالث والعشرين من ربيع الثاني سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة هكذا عند ابن خلدون وابن الخطيب وغيرهما والذي رأيته مكتوبا بالنقش على رخامة قبره بشالة ان وفاته كانت ليلة الثلاثاء السابع والعشرين من ربيع الاول من السنة المذكورة وبعث أولياء السلطان بالخبر الى ابنه وهو بمعسكره من ساحة مراكش ورفعوه على أعواد نعشه اليه فتلقاه حافيا حاسرا وقبل أعواده وبكى واسترجع ورضي عن أوليائه وخاصته وأنزلهم بالمحل الذي رضوه من دولته ثم دفن أباه بمراكش قبلي جامع المنصور من القصبة بالموضع الذي به اليوم قبور الملوك الاشراف السعديين ثم لما نهض أبو عنان الى فاس احتمل شلو أبيه معه حتى دفنه بشالة مقبرة سلفهم ولا زال ضريحه قائم العين والاثر الى الآن رحمه الله تعالى

﴿بقية أخبار السلطان أبي الحسن وسيرته﴾

كان السلطان أبو الحسن رحمه الله أسمر طويل القامة عظيم الهيكل معتدل اللحية حسن الوجه وكان عفاماً ئلاً الى التقوى مولعاً بالطيب لم يشرب الخمر قط لا في صغره ولا في كبره محباً للصالحين عدلاً في رعيته يحب الفخر ويعنى به وقال بعض المشارقة في حقه ما صورته ملك أضاء المغرب بأنوار هلاله وجرت الى المشرق أنواء نواله وطابت نسماته واشتهرت عزماته كان حسن الكتابة كثير الانابة ذا بلاغة وبراعة وشهامة وشجاعة اه وبنى رحمه الله عدة مدارس ﴿منها﴾ المدرسة العظمى بمراكش قبلي جامع ابن يوسف ﴿قال العلامة اليفرني في النزهة﴾ ان الذي بناها هو السلطان أبو الحسن المذكور ﴿قلت﴾ ومن وقف على هذه المدرسة وتأمل تنجيدها وتنميقها اقدر قدر هذا السلطان وعلم عظم همته ومحبته للعلم وأهله ﴿ومنها﴾ المدرسة العظمى بطالعة سلا قبلي المسجد الاعظم منها بناها رحمه الله على هيئة بديعة وصنعة رفيعة وأودع جوانبها من أنواع النقش وضروب التخريم ما يحير البصر ويدهش الفكر ووقف عليها عدة أوقاف رصع أسمائها بالنقش والاصباغ على رخامة عظيمة ثم نصب الرخامة بالحائط الجوفي منها كل ذلك محافظة على تلك الاوقاف أن تغير وأما المسجد الاعظم ومدرسته الجوفية فهما من بناء يعقوب المنصور الموحدي حسبما تقدم ذلك في أخباره وعندي ان السور المحمول عليه الماء الداخل الى سلا المعروف عندهم بسور الاقواس من بناء السلطان أبي الحسن رحمه الله ولي في ذلك مستند غريب وهو اني كنت ذات يوم أفاوض بعض القناقنة بسلا ممن كان يباشر أمر المياه بها ويصلح ما احتاج الى الاصلاح منها فقلت كالمستفهم لنفسي من غير قصد توجيه الخطاب اليه يا ترى من الذي بنى سور الماء الداخل الى البلد فقال على البديهة الذي بنى المدرسة هو الذي بنى سور الماء فقلت له وكنت متشوفاً يومئذ لتحقيق ذلك وما علمك بهذا فقال ان بيلة المدرسة بنيت يوم بنيت المدرسة بدليل الزليج المرصوف حولها بالعمل الكبير الموجود نظيره في سائر حيطان المدرسة وسواريها وهذه البيلة لم تتغير عن حالها الى ان باشرت اصلاحها في هذه الايام فحفرت عن قنواتها وتتبعت مادة الماء الواصل اليها فاذا عمل تلك القوادس وصنعة بنائها حتى الكلس المفرغ عليها الجامع بينها مماثل لعمل قنوات مبنية بالسور المذكور داخلة فيه بحيث بني عليها يوم تأسيسه من غير فرق بين هذه وتلك في جميع عملهما قال وليس شيء من القنوات الحادثة بعدهما يشبههما فعلمت ان الذي بناهما واحد فأعجبني كلامه وباحثته في ذلك فصمم على معتقده وحاولت تشكيكه بكل وجه فلم يتشكك فظهر لي صدق دليله وغلب على ظني ما جزم به وعند الله علم حقيقة الامر ﴿واعلم﴾ ان هذا السور من المباني العادية والهياكل العظيمة التي تدل على فخامة الدولة وكمال قوتها مثل ما يقال عن حنايا قرطاجنة ونحوها وهذا السور مسوق من عيون البركة خارج مدينة سلا على أميال كثيرة ممتدا من القبلة الى الجوف على أضخم بناء وأحكمه موزون سطحه بالميزان الهندسي ليتأتى جريان الماء فوقه على استواء ولذلك ينخفض الى الارض متى ارتفعت ويعلو عليها اذا انخفضت ويجري على متنه من الماء مقدار النهر الصغير في ساقية قد اتخذت له ولما شارف البلد عظم ارتفاعه جدا لاجل انخفاض الارض عنه وكلما مر في سيره بطريق مسلوك فتحت له فيه أقواس فسمي لذلك سور الاقواس (وبالجملة) فهو شاهد لبانيه بضخامة الدولة وعظم الهمة وللسلطان أبي الحسن رحمه الله بفاس ومكناسة وغيرهما من بلاد المغرب آثار كثيرة فمن آثاره بفاس بيلة الرخام الابيض المجلوبة من المرية زنتها مائة قنطار وثلاثة وأربعون قنطارا سيقت من المرية الى مرسى العرايش ثم طلعت في وادي قصر كتامة ثم حملت منه على عجل الخشب تجرها القبائل الى منزل أولاد محبوب الدين على ضفة وادي سبو فوسقت فيه الى ان وصلت الى ملتقاه مع وادي فاس ثم حملت على عجل الخشب أيضا يجرها الناس الى ان وصلت الى مدرسة الصهريج التي بعدوة الاندلس ثم نقلت

منها

منها بعد ذلك بأعوام الى مدرسة الرخام التى أمر رحمه الله ببنائها جوف جامع القرويين المعروفة اليوم بمدرسة مصباح ومصباح هذا هو أبو الضياء مصباح بن عبد الله الياصوتى الفقيه المشهور وانما نسب اليه لان السلطان أبا الحسن لما بناها كان أبو الضياء أول من تصدى للدرس بها فنسبت اليه وقد تقدم لنا خبر المدرسة التى بناها غربى جامع الاندلس أيام أبيه وأنفق عليها أكثر من مائة ألف دينار ❊ومن آثاره بمكناسة الزيتون❊ الزاويتان القدمى والجديدة وكان بنى القدمى فى زمان أبيه والجديدة حين ولى الخلافة وله فى هذه المدينة عدة آثار سوى الزاويتين من القناطر والسقايات وغيرها ومن أجل ذلك المدرسة الجديدة بها وكان قدم للنظر على بنائها قاضيه على المدينة المذكورة ولما تم بناؤها جاء اليها من فاس ليقف عليها ويرى عملها وصنعتها فقعد على كرسى من كراسى الوضوء حول صهريجها وجىء بالرسوم المتضمنة للتنفيذات اللازمة فيها فغرقها فى الصهريج قبل أن يطالع ما فيها وأنشد

لا بأس بالغالى اذا قيل حسن ❊ ليس لما قرت به العين ثمن

وكان له معرفة بالشعر فمن شعره قوله

أرضى الله فى سر وجهر ❊ وأحمى العرض عن دنس ارتياب
وأعطى الوفر من مالى اختيارا ❊ وأضرب بالسيوف طلى الرقاب

وأخباره كثيرة ومن أراد الوقوف على تفاصيلها فعليه بكتاب الخطيب ابن مرزوق الذى ألفه فى دولته وسيرته وسماه المسند الصحيح الحسن من أحاديث السلطان أبى الحسن ولما ذكر الوزير ابن الخطيب فى كتابه رقم الحلل هذا السلطان وصفه بقوله

الملك المعدود من خير سلف ❊ ومجمع القول اذا القول اختلف
الدين والعفاف والجلاله ❊ والعز والقدرة والجزاله
والعلم والحلم وفضل الدين ❊ وصفوة الصفوة من مرين
ممهد الملك ومسدى المنن ❊ وواحد الدهر وفخر الزمن
بانى المبانى الفخمة الشريفه ❊ بمقتضى همته المنيفه
وتارك المدارس الظريفه ❊ شاهدة بأنه الخليفه
وقاطع الدهر بغير لهو ❊ فى مجلس معظم أو بهو
اما التدريس وعلم يدرس ❊ أولب لادمن عدو تحرس
أولا باد فى عباد تغرس ❊ أو لثواب ورضا يلتمس
أو نسخ قرآن وعرض حزب ❊ أو عدة معدة لحرب اهـ

❊ومن أعيان وزرائه❊ عامر بن فتح الله السدراتى وعبد الله بن ابراهيم الفودودى ❊ومن أعيان كتابه❊ أبو محمد عبد المهيمن الحضرمى وأبو المجد محمد بن أبى عبد الله بن أبى مدين العثمانى وأبو الحسن على بن على القبايلى التيملى رحم الله الجميع بمنه ❊ولنذكر❊ ما كان من الاحداث فى هذه المدة ❊ففى سنة سبعمائة❊ أسس السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق تلمسان الجديدة المسماة بالمنصورة حسبما تقدم الخبر عنها مستوفى ❊وفى سنة احدى عشرة وسبعمائة❊ كان القحط بالمغرب فاستسقى الناس وخرج السلطان أبو سعيد ماشيا على قدميه لاقامة سنة الاستسقاء وذلك يوم الاربعاء الرابع والعشرين من شعبان من السنة المذكورة وتقدمت أمامه الصلحاء والفقهاء والقراء يدعون الله تعالى وقدم بين يدى نجواه صدقات وفرق أموالا وفى يوم السبت بعده خرج فى جنده الى قبر الشيخ أبى يعقوب الاشقر بجبل الكندرتين فدعا هنالك ورحم الله تعالى عباده وغاث أرضه وبلاده ❊وفى سنة تسع عشرة وسبعمائة❊ توفى الشيخ أبو الحسن على بن محمد بن عبد الحق الزرويلى المعروف

بالصغير بضم الصاد وفتح الغين وكسر الياء المشددة قاله ابن الخطيب فى الاحاطة وكان ربعة آدم اللون خفيف العارضين يلبس أحسن زى ويدرس بجامع الاجدع من فاس يقعد على كرسى عال يسمع القريب والبعيد على انخفاض كان فى صوته وكان حسن الاقراء وقورا صبورا ثبتا وكان أحد الاقطاب الذين تدور عليهم الفتيا بالمغرب فيحسن التوقيع عليها على طريق الاختصار وترك فضول القول ولاه السلطان أبو الربيع القضاء بفاس وشد عضده فجرى فى العدل على صراط مستقيم ﴿وفى سنة احدى وعشرين وسبعمائة﴾ توفى الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الازدى المراكشى المعروف بابن البناء الامام المشهور فى علم التعاليم والهيئة والنجوم والازياج وغير ذلك وكان رحمه الله عز وجل معروفا باتباع السنة موسوما بطهارة الاعتقاد منعوتا بالصلاح وكان انتفاعه بصحبة الشيخ أبى زيد الهزميرى رضى الله عنه ﴿وفى سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة﴾ فى ذى القعدة منها هبت ريح شديدة بفاس ومكناسة وأحوازهما واستمر هبوبها يومين وليلتين فعاقت عن الاسفار وهدمت الدور وقلعت الاشجار ﴿وفى سنة ثلاث وعشرين بعدها﴾ فى المحرم منها جرت العين الموالية للشرق من عيون صنهاجة باحواز فاس بدم عبيط من وقت العصر الى نصف الليل ثم عادت الى حالها وفيها كان المطر العظيم والثلج الكثير بالمغرب وعدم الفحم والحطب حتى بيع الفحم بفاس بدرهمين للرطل وفى جمادى الاولى منها احترق سوق العطارين الكبرى بفاس فجدده السلطان أبو سعيد من باب مدرسة العطارين الى رأس عقبة الجزارين وعقد عليه هنالك بابا ضخما وأفرده للعطارين دون غيرهم ﴿وفى سنة أربع وعشرين وسبعمائة﴾ كانت المجاعة بالمغرب وارتفعت الاسعار فى جميع البلاد فبلغ المد من القمح بفاس خمسة عشر درهما والصحفة منه تسعين دينارا وغلا الادام وعدمت الخضر بأسرها وكسى السلطان أبو سعيد وأطعم فى هذه المسغبة شيأ كثيرا ودام ذلك الى قرب منتصف السنة بعدها وفيها فى يوم الثلاثاء ثالث عشر رمضان منها نشأ خارج فاس من جهة جوفيها سحاب عظيم وظلمة شديدة ورياح عاصفة أعقب ذلك بردا كثيرا عظيم الجرم تزن الواحدة منه ربع رطل وأقل وأكثر ونزل فى خلاله مطر وابل جاءت منه السيول طامية حملت الناس والدواب وأهلكت جميع ما بجبل زالغ من الكروم والزيتون وسائر الشجر ﴿وفى سنة خمس وعشرين بعدها﴾ ليلة الجمعة السادس والعشرين من جمادى منها دخل السيل العظيم مدينة فاس وكاد يأتى عليها بحيث هدم الدور والمساجد والاسواق وأهلك آلافا من الخلق حتى خيف على البلد التلف ﴿وفى سنة ست وعشرين وسبعمائة﴾ انتهى تاريخ ابن أبى زرع المسمى بالانيس المغرب القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ومما هو الغاية فى باب الاغراب ما ذكره ابن خلدون قال حضر أشياخنا بمجلس السلطان أبى الحسن وقد رفع اليه امرأتان من أهل الجزيرة الخضراء ورندة حبستا أنفسهما عن الاكل جملة منذ سنين وشاع أمرهما ووقع اختبارهما فصح شأنهما واتصل على ذلك حالهما الى ان ماتتا وذكرهما أيضا الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقرى فى كتابه المسمى بالمحاضرات قال وردت على تلمسان فى العشرة الخامسة من المائة الثامنة امرأة من رندة لا تأكل ولا تشرب ولا تبول ولا تتغوط وتحيض فلما اشتهر هذا من أمرها أنكره الفقيه أبو موسى ابن الامام وتلى كانا يأكلان الطعام فأخذ الناس يبثون ثقات نسائهم ودهاتهن اليها فكشفوا عنها بكل وجه يمكنهن فلم يقفن على غير ما ذكر وسئلت هل تشتهين الطعام فقالت هل تشتهون التبن بين يدى الدواب وسئلت هل يأتيها شئ فأخبرت انها صامت ذات يوم فأدركها الجوع والعطش فنامت فأتاها آت فى النوم بطعام وشراب فأكلت وشربت فلما أفاقت وجدت نفسها قد استغنت فهى على تلك الحال تؤتى فى المنام بالطعام والشراب الى الآن ولقد جعلها السلطان فى موضع بقصره وحفظها بالعدول ومن يكشف عما عسى تجىء أمهاته اذا أتت اليها أربعين يوما فلم يوقف لها

على أمر قال بيد أني أردت أن يزاد في عدد العدول ويضم اليهم الاطباء ومن يخوض في المعقولات من علماء الملل المسلمين وغيرهم ويوكل من نساء الفرق من يبالغ في كشف من يدخل اليها ولا يترك أحدا يخلو بها (وبالجملة) يبالغ في ذلك ويستدام رعيها عليه سنة لاحتمال أن يغلب عليها الطبع فتستغني في فصل دون فصل ثم يكتب هذا في العقود ويشاع أمره في العالم وذلك لانه يهدم حكم الطبيعة الذي هو أضر الاحكام على الشريعة ويبين كيفية غذاء أهل الجنة وأن الحيض ليس من فضلات الغذاء ويبطل التأثير والتولد ويوجب ان الاقترانات بالعادات لا باللزوم وعند الاسباب لا بها الى غير ذلك الا اني لما أشرت بهذا انقسم من أشرت عليه بتبليغه الى من لم يفهم ما قلت ومن لم يرفع به رأسا لايثار الدنيا على الدين فانا لله وانا اليه راجعون ﴿قال المقري﴾ وقد ذكر ان امرأة أخرى كانت معها على تلك الحالة وحدثني غير واحد من الثقات ممن أدرك عائشة الجزيرية أنها كانت كذلك وان عائشة بنت أبي بكر يعني زوجة السلطان أبي الحسن التي استشهدت في طريف اختبرتها أربعين يوما أيضا وكم من آية أضيعت وحجة نسيت مما لم يعرف مثله قبل المائة الثامنة وكذلك الوباء العام القريب فروطه يوشك أن يطول أمره فينسى ذكره ويكذب المحدث به اذا انقضى عصره وكم فيه من أدلة على أصول الملة اهـ كلام الشيخ أبي عبد الله المقري رحمه الله ويعني بالوباء القريب فروطه وباء منتصف المائة الثامنة أيام كان السلطان أبو الحسن بتونس فانه كان وباء عظيما لم يعهد مثله قد عم أقطار الارض وتحيف العمران جملة حتى كاد يأتي على الخليقة أجمع والامور كلها بيد الله لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون

﴿الخبر عن دولة السلطان المتوكل على الله أبي عنان فارس بن أبي الحسن رحمه الله﴾

كان هذا السلطان محبوبا في قومه وعشيرته أثيرا عند والده متميزا بذلك عن سائر اخوته لفضله وعلمه وصيانته وعفافه واستظهاره القرآن الكريم وغير ذلك من الاوصاف الحسنة أمه أم ولد رومية اسمها شمس الضحى وقبرها بشالة معروف الى الآن رأيت مكتوبا عليه بالنقش انها توفيت ليلة السبت رابع رجب الفرد سنة خمسين وسبعمائة ودفنت اثر صلاة الجمعة في الخامس والعشرين من الشهر المذكور وحضر لدفنها أعيان المشرق والمغرب اهـ وكان مولد السلطان أبي عنان بفاس الجديد في الثاني عشر من شهر ربيع الاول سنة تسع وعشرين وسبعمائة وبويع في حياة والده يوم ثار عليه بتلمسان حسبما قدمنا الخبر عنه وذلك يوم الثلاثاء منسلخ ربيع الاول سنة تسع وأربعين وسبعمائة ولما هلك والده أبو الحسن بجبل هنتاتة وانقضى شأن الحصار ارتحل السلطان أبو عنان الى فاس ونقل شلو أبيه الى شالة فدفنه بها وأغذ السير الى فاس وقد استتب أمره وخلا له الجو فاحتل بدار ملكه وأجمع أمره على غزو بني عبد الواد لارتجاع ما بايديهم من الملك الذي تطاولوا اليه ولما دخلت سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة نادى بالعطاء وأزاح العلل وعسكر بساحة البلد الجديد وعرض جيشه ثم نهض يريد تلمسان واتصل خبره بسلطانها أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن الزياني فجمع له قومه ومن شايعهم من زناتة والعرب ثم نهض اليه ومعه أخوه ووزيره أبو ثابت فكان اللقاء بسيط انكاد آخر ربيع الثاني من السنة المذكورة وأجمع بنو عبد الواد على صدمة المرينيين وقت القائلة وعند ضرب الابنية وسقاء الركاب وافتراق أهل المعسكر في حاجاتهم فحملوا عليهم وأعجلوهم عن ترتيب المصاف وركب السلطان أبو عنان لتلافي الامر وخاض بحر القتال وقد أظلم الجو بالغبار حتى اذا خاص اليهم وخالطهم في صفوفهم ولوا الادبار واتبع بنو مرين آثارهم فاستولوا على معسكرهم واستباحوهم قتلا وسبيا وصفدوهم أسرى ولم يزالوا في اتباعهم الى الليل وتقبضوا على سلطانهم أبي سعيد فساقوه الى السلطان أبي عنان فاعتقله وتقدم على التعبية الى تلمسان فدخلها في ربيع المذكور واستوت في ملكها قدمه وأحضر أبا سعيد فوبخه وأراه أعماله حسرات عليه ثم أحضر الفقهاء وأرباب الفتيا فأفتوا بحرابته وقتله فامضى حكم الله

فيه فذبح في محبسه لتاسعة من اعتقاله وفر أخوه الزعيم أبو ثابت الى قاصية الشرق بعـد ان احتمل معسه حومه وحوم أخيه ومتخلفهم واحتل بوادي شلف من بلاد مغراوة فعسكر هنالك واجتمع عليه أوشاب من زناتة وحدث نفسه باللقاء ووعدها بالصبر والثبات واتصل خبره بالسلطان أبي عنان فسرح اليه وزيره فارس بن ميمون في عساكر بني مرين والجند فاغذ السير اليهم ثم ارتحل السلطان أبو عنان من تلمسان على أثره ولما تراآ الجمعان تصادقا الحملة وخاض النهر بعضهم الى بعض ثم صدق بنو مرين الحملة فاجتازوا النهر وانكشفت بنو عبد الواد واتبع بنو مرين آثارهم فاستلحموهم ثانية واستباحوا معسكرهم واستاقوا نساءهم وأموالهم ودوابهم وكتب الوزير بالفتح الى السلطان أبي عنان وفر أبو ثابت الى قاصية الشرق في نفر من عشيرتهم وبني أبيه فاعترضتهم قبائل زواوة فانتهبوا أسلابهم وأرجلوهم عن خيولهم ومروا على وجوههم حفاة عراة لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا وكتب الوزير الى أمراء الثغور في شأن أبي ثابت وأصحابه فأذكوا العيون عليهم وقعدوا لهم بالمراصد حتى عثر عليهم بعض الحشم فقبضوا على أبي ثابت وابن أخيه أبي زيان بن أبي سعيد المقتول ووزيرهم يحيى بن داود فرفعوهم الى أمير بجاية أبي عبد الله محمد بن أبي زكرياء بن أبي بكر الحفصي وكان خالصة السلطان أبي عنان منذ أيام والده فاعتقلهم عنده حتى وفدبهم عليه بالمدية فأكرم السلطان أبو عنان وفادته وركب للقائه ولما ترا،ى نزل الحفصي عن فرسه اعظاما للسلطان فنزل السلطان مكافأة له ولقاه مبرة وكرامة وأودع أبا ثابت السجن وتوافت اليه وفود الذواودة بمكانه من المدية فأكرم وفادتهم وأسنى عطاياهم من الخلع والحملان والذهب والفضة وانقلبوا خير منقلب ووافته بمكانه ذلك بيعة ابن مزني عامل بسكرة والزاب مع وفدهم فأكرمهم ووصلهم وفرغ السلطان أبو عنان من شأن المغرب الاوسط وبث عماله في نواحيه وثقف أطرافه وسمى الى تملك افريقية على مانذكره ان شاء الله

﴿ تملك السلطان أبي عنان بجاية وتولية عمر بن علي الوطاسي عليها ﴾

لما وفد أبو عبد الله الحفصي على السلطان أبي عنان بالمدية في شعبان من سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وبالغ في اكرامه ناجاه بذات صدره وشكا اليه ما يلقاه من رعيته من الامتناع من الجباية والسعي في الفساد وما يتبع ذلك من شقاق الحامية واستبداد البطانة وكان السلطان أبو عنان متشوفا لمثلها فاشار عليه بالنزول عنها وان يعوضه عنها ما شاء من بلاده فسارع الى قبول ذلك ودس اليه السلطان مع حاجبه محمد بن أبي عمرو أن يشهد بذلك على رؤس الملا ففعل وعوضه عنها مكناسة الزيتون ونقم بطانة الحفصي عليه ونزع بعضهم عنه الى افريقية وأمره السلطان أبو عنان أن يكتب بخطه الى عامله على بجاية بالنزول عنها وتمكين عمال السلطان منها ففعل وعقد أبو عنان عليها لعمر بن علي الوطاسي من بني الوزير الذين قدمنا خبر ثورتهم بحصن تازوطا أيام يوسف بن يعقوب ولما قضى السلطان أبو عنان حاجته من المغرب الاوسط واستولى على بجاية ثغر افريقية انكفأ راجعا الى تلمسان لشهود عيد الفطر بها ودخلها في يوم مشهود وحمل أبا ثابت الزياني ووزيره يحيى بن داود على جملين ودخل بهما تلمسان يخطوان بهما في ذلك المحفل بين السماطين فكانا عبرة لمن حضر ثم جنبا من الغد الى مصارعهما فقتلا قعصا بالرماح والى الله عاقبة الامور

﴿ ثورة أهل بجاية ومقتل عمر بن علي الوطاسي بها ﴾

لما قدم عمر بن علي الوطاسي بجاية واستقر بها ثقل أمره على نفوس أهلها لالفهم ملكة الحفصيين وانصباغهم بالميل اليهم فتربصوا بالوطاسي الدوائر وكان أبو عبد الله الحفصي قد استصحب معه في وفادته على السلطان أبي عنان حاجبه فارحا مولى ابن سيد الناس فلما نزل للسلطان عن بجاية نقم فارح عليه ذلك

وأسرّها في نفسه الى أن بعثه الحفصي المذكور مع الوطاسي لينقل حرمه ومتاعه وماعون داره الى المغرب فانتهى الى بجاية وبينما هو يحاول ما أرسل في شأنه شكا اليه الصنهاجيون سوء ملكة بني مرين فنجع كلامهم فيه ونفث لهم بما عنده من الضغن ودعاهم الى الثورة بالمرينيين والقيام بدعوة الحفصيين فاجابوه الى ذلك وتواعدوا والفتك بعلي بن عمر الوطاسي بمجلسه من القصبة وتولى كبرها منصور بن ابراهيم ابن الحاج من مشيختهم وباكره في داره على عادة الامراء ولما أكب عليه ليلثم أطرافه طعنه بخنجره ثم ولج عليه الباقون فاستلحموه وذلك في ذي الحجة من سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وثارت الغوغاء بالبلد وهتف الهاتف بدعوة أبي زيد بن محمد بن أبي بكر الحفصي صاحب قسنطينة وطيروا اليه بالخبر واستدعوه فتثاقل عنهم وبلغ الخبر الى السلطان أبي عنان فاتهم أبا عبد الله الحفصي بمداخلة حاجبه فارح في ذلك فاعتقله بداره واعتقل وفدا من أشراف بجاية كانوا ببابه ثم راجع شيوخ بجاية بصائرهم وتداركوا أمرهم في الرجوع الى طاعة السلطان أبي عنان واتفق رأيهم على أن يرقعوا هذا الخرق ويسدوا هذه الثلمة برأس الحاجب فارح وصنهاجة الثائرين معه وداخلهم في ذلك القائد هلال مولى ابن سيد الناس ولما عزموا على أمرهم دعوا الحاجب فارحا الى المسجد ليفاوضوه فيما نزل بهم فأحس بالشر ولجأ الى دار الشيخ أبي العباس أحمد بن ادريس البجائي امام بجاية ومفتيها فاقتحموا عليه الدار وباشره مولاه محمد ابن سيد الناس بطعنة فانفذه ورمى بشلوه من أعلا الدار فاحتروا رأسه وبعثوا به الى السلطان أبي عنان وفر منصور بن ابراهيم بن الحاج وقومه صنهاجة عن البلد وسرح السلطان أبو عنان اليها حاجبه أبا عبد الله محمد بن أبي عمرو في الكتائب فدخلها فاتح سنة أربع وخمسين وسبعمائة وذهبت صنهاجة في كل وجه ولحق أصحاب الفعلة منهم بتونس وتقبض الحاجب ابن أبي عمرو على جماعة من غوغاء بجاية المتهمين بالخوض في الفتنة يناهزون المائتين فاعتقلهم وأركبهم الاسطول الى المغرب فاطمأن الناس وسكنوا وتوافت لديه وفود الذواودة من كل جهة فاجزل صلاتهم ووفد عليه عامل الزاب يوسف بن مزني فاكرم وفادته ثم ارتحل الى تلمسان غرة جمادى الاولى من السنة ومعه شيوخ الذواودة ووجوه بجاية ﴿قال ابن خلدون﴾ وكنت يومئذ في جملتهم بمجلس السلطان للوفد وعرض ما جنب اليه من الجياد والهدايا وكان يوما مشهودا وانصرفوا الى مواطنهم فاتح شعبان من السنة المذكورة قال وانقلبت مع الحاجب بعد اسناء الجائزة والخلع والحملان من السلطان والوعد الجميل بتجديد ما الى قومي ببلدي من الاقطاعات ولما احتل الحاجب ابن أبي عمرو ببجاية ضبط أمرها وأقام أودها وألح على قسنطينة بترديد البعوث وتجهيز الكتائب الى ان أذعنوا للطاعة ومكنوه من تاشفين ابن السلطان أبي الحسن المنصوب هنالك للفتنة وأوفد أبو زيد الحفصي صاحب قسنطينة ابنه على السلطان أبي عنان فقبل وفادته وشكر سعيه وانكفأ الحاجب ابن أبي عمرو الى بجاية وأقام بها الى ان هلك في المحرم سنة ست وخمسين وسبعمائة فذهب حميد السيرة عند أهل البلد وعقد السلطان أبو عنان على بجاية لعبد الله بن علي بن سعيد أحد وزرائه فنهض اليها في ربيع من سنة ست وخمسين المذكورة فاستقر بها وسلك سنن الحاجب قبله وسيرته وجهز العساكر الى حصار قسنطينة الى ان كان من فتحها ما نذكره بعد ان شاء الله

﴿خروج أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن ببلاد السوس ثم مقتله عقب ذلك﴾

قد تقدم لنا أن السلطان أبا الحسن لما ركب البحر من تونس الى المغرب عقد على تونس لابنه أبي الفضل هذا وانه لما أقلع عنها ثار أهل البلد وشيعة الحفصيين عليه فأخرجوه عنها ولحق بأبيه فكان معه الى ان هلك وخلص الامر الى السلطان أبي عنان فلحق به هو وأخوه أبو سالم ففكر أبو عنان في أمرهما وخشي عقبة ترشيحهما فأشخصهما الى الاندلس ليكونا مع الغزاة والقرابة في ايالة السلطان أبي الحجاج يوسف ابن الاحمر ثم ندم على ذلك ولما استولى على تلمسان والمغرب الاوسط ورأى ان قد استفحل أمره واعتز

سلطانه أنفذ الرسل الى أبى الحجاج فى أن يشخصهما اليه لان مقامهما عنده أحوط لجمع الكلمة بخلاف ما اذا غابا عن حضرته وخشى أبو الحجاج غائلته عليهما فأبى من اسلامهما اليه وأجاب الرسل بانه لا يخفر ذمته ولا يسىء جوار المسلمين المجاهدين لديه فغضب السلطان أبو عنان لذلك وقام وقعد وأمر حاجبه ابن أبى عمرو أن يكتب اليه ويبالغ فى التوبيخ واللوم ففعل الحاجب المذكور ﴿قال ابن خلدون﴾ وقد أوقفنى الحاجب على ذلك الكتاب ببجاية فقضيت عجبا من فصوله واغراضه ولما قرأه أبو الحجاج ابن الاحمر دس الى أبى الفضل وكان أكبر الاخوين باللحاق بالطاغية وكانت بينهما ولاية ومخالصة فنزع اليه أبو الفضل وجهز الطاغية له أسطولا أركبه فيه وأنزله بساحل السوس من أرض المغرب ونذر السلطان أبو عنان بذلك فأوعز الى قائد اسطوله باعتراض اسطول الطاغية فاعترضه وأوقع به وكتب ابن الاحمر أثناء ذلك كتابا الى السلطان أبى عنان يعتذر عن أمر أبى الفضل من انشاء وزيره لسان الدين ابن الخطيب ونصه المقام الذى شهد الليل والنهار بأصالة سعادته وجرى الفلك الدوار بحكم ارادته وتعود الظفر بمن يناويه فاطرد والحمد لله جريان عادته فوليه متحقق لافادته وعدوه مرتقب لابادته وحلل الصنائع الالهية تضفو على اعطاف مجادته مقام محل أخينا الذى سهم سعده صائب وأمل من كاده خاسر خائب وسير الفلك المدار فى مرضاته دائب وصنائع الله تعالى له تصحبها الالطاف العجائب فسيان شاهد منه فى عصمة وغائب السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله تعالى مسدد السهم ماضى العزم تجل سعوده عن تصور الوهم ولا زال مرهوب الحد ممتثل الرسم موفور الحظ من نعمة الله تعالى عند تعدد القسم فاترا بفلج الخصام عند لدد الخصم معظم قدره وملتزم بره مبتهج بما يسببه الله تعالى له من اعزاز نصره واظهار أمره فلان سلام كريم طيب برعميم يخص مقامكم الاعلى ومثابتكم الفضلى التى حازت فى الفخر الامد البعيد وفازت من التأييد والنصر بالحظ السعيد ورحمة الله تعالى وبركاته أما بعد حمد الله الذى فسح لملككم الرفيع فى العز مدى وعرفه عوارف آلائه وعوائد النصر على أعدائه يوما وغدا وحرس سماء علائه بشهب من قدره وقضائه فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا وجعل نجح آماله وحسن مآله قياسا مطردا فرب من يضره ضر نفسه وهاد اليه الجيش أهدى وما هدى والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد نبيه ورسوله الذى ملأ الكون نورا وهدى وأحيا مراسم الحق وقد صارت طرائق قددا أعلى الانام يدا وأشرفهم محتدا الذى بجاهه نلبس أثواب السعادة جددا ونظفر بالنعيم الذى لا ينقطع أبدا والرضا عن آله وأصحابه الذين رفعوا السماء سنته عمدا وأوضحوا السبيل اتباعه مقصدا وتقبلوا شيمه الطاهرة ركعا وسجدا سيوفا على من اعتدى ونجوما لمن اهتدى حتى علت فروع ملته صعدا وأصبح بناؤها مديدا مخلدا والدعاء لمقامكم الاسمى بالنصر الذى يتوالى مثنى وموحدا كما جمع لملككم ما تفرق من الالقاب على توالى الاحقاب فجعل سيفكم سفاحا وعلمكم منصورا وأمركم رشيدا وعزمكم مؤيدا فانا كتبناه اليكم كتب الله تعالى لكم صنعا يشرح للاسلام خلدا ونصرا يقيم للدين الحنيفى أودا وعزما يملأ أفئدة الكفر كمدا وجعلكم ممن هيأ له من أمره رشدا ويسر لكم العاقبة الحسنى كما وعد به فى كتابه العزيز والله أصدق موعدا من حمراء غرناطة حرسها الله ولا زائد بفضل الله سبحانه الا استطلاع سعودكم فى آفاق العنايه واعتقاد جميل صنع الله فى البداية والنهايه والعلم بان ملككم تحدى من الظهور على أعدائه بآيه وأجرى جياد السعد فى ميدان لا يحد بغايه وخرق حجاب المعتاد بما لم يظهر الا لاصحاب الكرامة والولايه ونحن على ما علمتم من السرور بما يهز لملككم المنصور عطفا ويسدل عليه من العصمة سجفا فقاسمه الارتياح لمواقع نعم الله تعالى نصفا ونصفا ونعقد بين أنباء مسرته وبين الشكر لله حلفا ونعد التشيع له مما يقربنا الى الله زلفى ونؤمل من امداده ونرتقب من جهاده وقتا يكفل به الدين ويكفى وتروى غلل

النفوس وتشفى والى هذا وصل الله سعدكم والى نصركم وعضدكم فانا من لدن صدر عن أخيكم أبي الفضل ماصدر من الانقياد لخدع الآمال والاغترار ببوارد الآل وفال رأيه في اقتحام الاهوال وتورط في هفوة حار فيها حيرة أهل الكلام في الاحوال وناصب من أمركم السعيد جبلا قضى الله له بالاستقرار والاستقلال ومن ذا يزاحم الاطواد ويزحزح الجبال وأخلف الظن منافي وفائه وأضمر عملا استأثر عنا باخفائه واستعان من عدو الدين بعين فلما ورى ان استنصر به زند ولا خفى ان تولاه بالنصر بند وان الطاغية أعانه وأنجده ورأى أنه سهم على المسلمين سدده وعضب للفتنة جرده فسخر له الفلك وأمل أن يستخدمه بسبب ذلك الملك فأورده المهالك والظلم الحالك علمنا ان طرف سعادته كاب وسحائب آماله غير ذات انسكاب وقدم عزته لم يستقر من السداد في غرز ركاب فان نجاح أعمال النفوس مرتبط بنياتها وغايات الامور تظهر في بداياتها وعوائد الله تعالى فيمن نازع قدرته لا تجهل ومن غالب أمر الله خاب منه المعول فبينما نحن نرتقب خسار تلك الصفقة المعقوده وخمود تلك الشعلة الموقوده وصلنا كتابكم يشرح الصدور ويشرح الاخبار ويهدى طرف المسرات على أكف الاستبشار ويعرب بلسان حال المسارعة والابتدار عن الود الواضح وضوح النهار والتحقق بخلوصنا الذى يعلمه عالم الاسرار فأعاد في الافادة وأبدا وأسدى من الفضائل الجلائل ما أسدى فعلم منه مآل من رام يقدح زند الشتات من بعد الالتئام ويثير عجاجة المنازعة من بعد ركود القتام هيهات تلك قلادة الله تعالى التى ما كان ليتركها بغير نظام ولم يدر أنكم نصبتم له من الحزم حبالة لا يفلتها قنيص وسددتم له من السعد سهما ماله عنه من محيص بما كان من ارسال جوارح الاسطول السعيد فى مطاره حائلا بينه وبين أوطاره فما كان الا التسمية والارسال ثم الامساك والقتال ثم الاقتيات والاستعمال فياله من زجر استنطق لسان الوجود بجدله واستنصر البحر بخذله وصارع القدر بجدله لما جدله وان خدامكم استولوا على ما كان فيه من مؤمل غاية بعيده ومنتسب الى نسبة غير سعيده وشانئ غمرته من الكفار خدام الماء وأولياء النار تحكمت فيهم أطراف العوالي وصدور الشفار وتحصل منهم من تخطاه الحمام في قبضة الاسار فعجبنا من تيسير هذا المرام واخاد الله لهذا الضرام وقلنا تكييف لا يحصل فى الاوهام وتسديد لا تستطيع اصابته السهام كلما قدح الخلاف زندا أطفأ سعدكم شعلته أو أظهر الشتات ألما أبرأ يمن طائركم علته ماذاك الا النية صدقت معاملتها فى جنب الله تعالى وصحت واسترسلت بركتها وسحت وجهاد تدرعوه اذا فرغت شواغلكم وتمت واهتمام بالاسلام يكفيه الخطوب التى أهمت فنحن نهنيكم بنعم الله ومننه ونسأله أن يلبسكم من اعانته أوقى جننه فأملنا ان تطرد آمالكم وتنجح فى مرضات الله أعمالكم فمقامكم هو العمدة التى يدافع العدو بسلاحها وتنبلج ظلماته بصفاحها وكيف لا نهنئكم بصنع على جهتنا يعود ويشابا قفنا تطلع منه السعود فتيقنوا ما عندنا من الاعتقاد الذى رسومه قد استقلت واكتفت وديمه بساحة الود قد وكفت والله عز وجل يجعل لكم الفتوح عاده ولا يعدمكم عناية وسعاده وهو سبحانه يعلى مقامكم وينصر أعلامكم ويهنى الاسلام أيامكم والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته اهـ ولما نزل أبو الفضل بساحل السوس لحق بعبد الله السكسيوى صاحب الجبل المنسوب اليه ودعا لنفسه وكان ذلك اثر مقدم الحاجب ابن أبي عمرو من فتح بجاية سنة أربع وخمسين وسبعمائة فجهز السلطان أبو عنان اليه عسكره من تلمسان وعقد على حرب السكسيوى وأبي الفضل لوزيره فارس بن ميمون بن ودرار فسار حتى نزل على جبل السكسيوى وأحاط به وأخذ بمخنقه واختط مدينة لمعسكره وتجهير كتائبه بسفح ذلك الجبل سماها القاهرة ولما اشتد الحصار على السكسيوى بعث الى الوزير يسأله الرجوع الى طاعته المعروفة وأن ينبذ العهد الى أبي الفضل ففارقه وانتقل الى جبال المصامدة ودخل الوزير فارس أرض السوس

فدوّخ أقطارها ومهد أكنافها وسارت الالوية والجيوش فى جهاتها ورتب المسالح فى ثغورها وأمصارها وسار أبو الفضل يتنقل فى جبال المصامدة الى ان انتهى الى صناكة وألقى بنفسه على ابن الجيدى منهم عمايلى بلاد درعة فأجاره وقام بامره ونازله عامل درعة يومئذ عبد الله بن مسلم الزردالى من مشيخة بنى عبد الواد كان السلطان أبو الحسن رحمه الله قد اصطنعه أيام فتحه لتلمسان فاستقر فى دولتهم واندرج فى صنائعهم فأخذ بخنق ابن الجيدى وأرهبه بوصول العساكر والوزراء اليه وداخله فى التقبض على أبى الفضل وأن يبذل له من المال فى ذلك ما أحب فأجاب ولاطف عبد الله بن مسلم الامير أبا الفضل ووعده من نفسه الدخول فى الامر وطلب لقاءه فركب اليه أبو الفضل ولما استمكن منه ابن مسلم تقبض عليه ودفع لابن الجيدى ما اشترط له من المال وأشخصه معتقلا الى أخيه السلطان أبى عنان سنة خمس وخمسين وسبعمائة فأودعه السجن وكتب بالفتح الى القاصية ثم قتله ليالى يسيرة من اعتقاله خنقا بمحبسه وانقضى أمر الخوارج وتمهدت الدولة الى ان كان ما نذكره ان شاء الله

﴿وفادة الوزير ابن الخطيب من قبل سلطانه الغنى بالله السلطان أبى عنان رحمهم الله﴾

كان السلطان أبو الحجاج يوسف ابن الاحمر قد أوفد وزيره لسان الدين ابن الخطيب على السلطان أبى عنان اثر مهلك السلطان أبى الحسن معزيا له بمصابه فقدم ابن الخطيب وأدى الرسالة وجلى فى أغراض تلك السفارة وعاد الى غرناطة ثم هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمائة بمصلى عيد الفطر وهو ساجد طعنه بعض الزعانف فاصماه لوقته وبايع الناس ابنه محمد بن يوسف الغنى بالله وقام بأمر دولته مولاه رضوان الراسخ القدم فى قيادة عساكرهم وكفالة الاصاغر من ملوكهم واستبد بالامر وانفرد ابن الخطيب بوزارته كما كان لابيه من قبل واتخذ لكتابته غيره وجعل ابن الخطيب رديفا لرضوان فى أمره وتشاركا فى الاستبداد معا فجرت الدولة على أحسن حال ثم ان السلطان الغنى بالله بعث وزيره ابن الخطيب سفيرا عنه الى السلطان أبى عنان مستمدا له على عدوه الطاغية على عادة سلفه فى ذلك ﴿قال ابن الخطيب﴾ لما أشرفت على مدينة فاس فى غرض هذه الرسالة خاطبنى الخطيب الرئيس أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمسانى بمنزل الشاطبى على مرحلة منها بما نصه

يا قادما وافى بكل نجاح * ابشر بما تلقاه من أفراح
هذى ذرى ملك الملوك فلذ بها * تنل المنى وتفز بكل سماح
مغنى الامام أبى عنان يمن * تظفر ببحر بالندا طفاح
من قاس جود أبى عنان فى الندا * بسواه قاس البحر بالضحضاح
ملك يفيض على العفاة نواله * قبل السؤال وقبل بسطة راح
فلجود كعب وابن سعدى فى الندا * ذكر محاه عن نداه ماح
ما ان سمعت ولا رأيت بمثله * من أريحى للندا مرتاح
بسط الامان على الانام فأصبحوا * قد ألحفوا منه بظل جناح
وهمى على العافين سيب نواله * حتى حكى سح الغمام الساح
فنواله وجلاله وفعاله * فاقت وأعيت ألسن المداح
وبه الدنا أضحت تروق وأصبحت * كل المنى تنقاد بعد جماح
من كان ذا ترح فرؤية وجهه * متلافة الاحزان والاتراح
فانهض أبا عبد الاله تفز بما * تبغيه من أمل ونيل نجاح
لازلت ترتشف الامانى راحة * من راحة المولى بكل صباح

فالحمد لله يا سيدى وأخى على نعمه التى لا تحصى حمدا يؤم به جميعنا المقصد الاسنى فيبلغ الامد الاقصى

فطالما كان معظم سيدى الاسى فى خبال والاسف بين اشتغال بال واشتغال بلبال ولقدومكم على هذا المحل المولوى فى ارتقاب ولمواعيدكم بذلك فى تحقق وقوعه من غير شك ولا ارتياب فها أنت تجتنى من هذا المقام العلى بتشيعك وجوه المسرة صباحا وتتلقى أحاديث مكارمه ومواهبه مسندة صحاحا بحول الله تعالى ولسيدى الفضل فى قبول مركوبه الواصل اليه بسرجه ولجامه فهو من بعض مالدى المعظم من احسان مولاه وانعامه ولعمرى لقد كان وافدا على سيدى فى مستقره مع غيره فالحمد لله الذى يسر فى ايصاله على أفضل أحواله قال ابن الخطيب فراجعته بما نصه

راحت تذكرنى كؤس الراح * والقرب يخفض للجنوح جناح
وسرت تدل على القبول كأنما * دل النسيم على انبلاج صباح
حسناء قد غنيت بحسن صفاتها * عن دملج وقلادة ووشاح
أمست تحض على اللياذ بمن جرت * بسعوده الاقلام فى الالواح
بخليفة الله المؤيد فارس * شمس المعالى الازهر الوضاح
ماشئت من شيم ومن همم غدت * كالزهر أو كالزهر فى الادواح
فضل الملوك فليس يدرك شأوه * أنى يقاس الغمر بالضحضاح
أسنى بنى عباسهم بلوائه الـ * ـمنصور أو بحسامه السفاح
وغدت مغانى الملك لما حلها * تزرى ببدر هدى وبحر سماح
وحياة من أهداك تحفة قادم * فى العرف منها راحة الارواح
مازلت أجعل ذكره وثناءه * روحى وريحانى الاريج وراحى
ولقد تمازج حبه بجوارحى * كتمازج الاجسام بالارواح
ولوانني أبصرت رمافى يدى * أمرى لطرت اليه دون جناح
فالآن ساعدنى الزمان وأيقنت * من قربه نفسى بفوز قداح
ايه أبا عبد الاله وانه * لنداء ود فى علاك صراح
اما اذا استجدتنى من بعدما * ركدت لما جنت الخطوب رياح
فاليكها مهزولة وأنا امرؤ * قررت عجزى واطرحت سلاح

سيدى أبقاك الله لعهد تحفظه وولاء بعين الوفاء تلحظه وصلتنى رقعتك التى ابتدعت وبالحق من مولى الخليقة صدعت وألفتنى وقد سطت بى الاوحال حتى كادت تتلف الرحال والحاجة الى الغداء قد شمرت عن كشح البطين وثانية الجماوين قد توقع فوات وقتها وان كانت صلاتها صلاة الطين والفكر قد غاض معينه وضعف على الله جزاء المولى الذى يعينه فغزتنى بكتيبة بيان أسدها هصور وعلمها منصور وألفاظها ليس فيها قصور ومعانيها عليها الحسن مقصور واعتراف مثلى بالعجز فى المضائق حول ومنه وقول لا أدرى للعالم فكيف بغيره جنه لكنها بشرتنى بما يقل لمؤديه بذل النفوس وان جلت وأطلعتنى من السراء على وجه تحسده الشمس اذا تجلت بما أعلمتنى به من جميل اعتقاد مولانا أمير المؤمنين أيده الله فى عبده وصدق المخيلة فى كرم مجده وهذا هو الجود المحض والفضل الذى شكره هو الفرض وتلك الخلافة المولوية تتصف بصفات من يبدء بالنوال من قبل الضراعة والسؤال من غير اعتبار للاسباب ولا مجازات للاعمال نسأل الله تعالى ان يبقى منها على الاسلام أوفى الظلال ويبلغها من فضله أقصى الآمال ووصل مابعثه سيدى صحبتها من الهديه والتحفة الوديه وقبلتها امتثالا واستجليت منها عتقا وجمالا وسيدى فى الوقت انسب باتخاذ ذلك الجنس وأقدر على الاستكثار من اناث البهم والانس وأنا ضعيف القدرة غير مستطيع لذلك الافى الندره فلورأى

سيدي ورأيه سداد وقصده فضل ووداد أن ينقل القضية الى باب العارية من باب الهبة مع وجود الحقوق المترتبة لبسط خاطري وجبره وعمل في رفع المؤنة على شاكلة حالي معه وقد استصحب مركوبا يشق على هجره ويناسب مقامي شكله ونجره وسيدي في الاسعاف على الله أجره وهذا أمر عرض وفرض فرض وعلى نظره المعوّل واعتماد اغضائه هو المعقول الاوّل والسلام على سيدي من معظم قدره وملتزم بره ابن الخطيب في ليلة الاحد السابع والعشرين لذي القعدة سنة خمس وخمسين وسبعمائة والسماء قد جادت بمطر سهرت منه الاجفان وظن أنه طوفان واللحاق في غدها بالباب المولوي مؤمل بحول الله اهـ ولما قدم الوزير المذكور على السلطان المذكور تقدم الوفد الذين من وزراء الاندلس وفقهائها ومثل بين يديه واستأذنه في انشاد شيء من الشعر يقدمه بين يدي نجواه فاذن له وأنشد وهو قائم

خليفة الله ساعد القدر * علاك مالاح في الدجا قمر
ودافعت عنك كف قدرته * ماليس يستطيع دفعه البشر
وجهك في النائبات بدر دجا * لنا وفي المحل كفك المطر
والناس طرا بارض اندلس * لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
ومن به مذ وصلت حبلهم * ما جحدوا نعمة ولا كفروا
وجملة الامر انه وطن * في غير عليائك ماله وطر
وقد أهمتهم نفوسهم * فوجهوني اليك وانتظروا

فاهتز السلطان أبو عنان لهذه الابيات وأذن له في الجلوس وقال له قبل ان يجلس ما ترجع اليهم الا بجميع طلباتهم ثم أدى الرسالة ودفع الكتاب ولما عزموا على الانصراف أثقل كاهلهم بالاحسان وردهم بجميع ما طلبوه *قال ابن خلدون* قال شيخنا القاضي أبو القاسم الشريف وكان معه في ذلك الوفد لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان الا هذا ونص الكتاب الذي قدم به ابن الخطيب المقام الذي يغني عن كل مفقود بوجوده ويهز الى جميل العوائد أعطاف بأسه وجوده ونستضيء عند اظلام الخطوب بنور سعوده ونرث من الاعتماد عليه أسنى ذخر يرثه الولد عن آبائه وجدوده مقام محل أبينا الذي يرعى الاذمة شأنه وصلة الراعي سجية انفرد بها سلطانه ومواعد النصر ينجزها زمانه والقول والفعل في ذات الله تعالى تكفلت بهما يده الكريمة ولسانه وتطابق فيهما اسراره واعلانه السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله تعالى محروسا من غير الايام جنابه موصولة بالوقاية الالهية أسبابه مسدولا على ذاته الكريمة ستر الله تعالى وحجابه مصروفا عنه من صروف القدر ما يعجز عن رده بوابه ولا زال ملجأ تنفق لديه الوسائل التي تدخرها لاولادها أولياؤه وأحبابه ويسطر في صحف الفخر ثوابه وتشتمل على مكارم الدين والدنيا أثوابه وتتكفل بنصر الاسلام وجبر القلوب عند طوارق الايام كتائبه وكتابه معظم ما عظم من حقه السائر من اجلاله وشكر خلاله على لاحب طرقه المستضيء في ظلمة الخطب بنور أفقه الامير عبد الله محمد ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد بن فرج بن نصر سلام كريم طيب عميم يخص مقامكم الاعلى ورحمة الله تعالى وبركاته أما بعد حمد الله الذي لا راد لامره ولا معارض لفعله مصرف الامر بقدرته وحكمته وعدله الملك الحق الذي بيده ملاك الامر كله مقدر الآجال والاعمار فلا يتأخر شيء عن ميقاته ولا يبرح عن محله جاعل الدنيا مناخ نقلة لا يغتبط العاقل بعائه ولا بظله وسبيل رحلة فما أكثب ظعنه من حله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد صفوة خلقه وخيرة أنبيائه وسيد رسله الذي نعتصم بسببه الاقوى ونتمسك بحبله ونغذ بالافتقار الى فضله

ونجاهد

ونجاهد فى سبيله من كذب به أو حاد عن سبيله ونصل اليه ابتغاء مرضاته ومن أجله والرضا عن آله وأحزابه وأنصاره وأهله المستولين من ميدان الكمال على خصله والدعاء لمقامكم الاعلى بعز نصره ومضاء فضله فانا كتبناه اليكم كتب الله تعالى لكم وقاية لا تطرق الخطوب حماها وعصمة ترجع عنها سهام النوائب كلما فوقها الدهر ورماها وعناية لا تغير الحوادث اسمها ولا مسماها وعزا يزاحم أجرام الكواكب منتماها من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ونعم الله سبحانه تتواتر لدينا دفعا ونفعا والطافه تتعرفها وترا وشفعا ومقامكم الابوى هو المستند الاقوى والمورد الذى ترده آمال الاسلام فتروى وتهوى اليه أفئدتهم فتجد ما تهوى ومثابتكم العدة التى تأسست مبانيها على البر والتقوى والى هذا وصل الله تعالى سعدكم وأبقى مجدكم فانا لما نعلم من مساهمة مجدكم التى يقتضيها كرم الطباع وطباع الكرم وتدعو اليها ذمم الرعى ورعى الذمم نعرفكم بعد الدعاء لملككم بدفاع الله تعالى عن ارتقائه وامتاع المسلمين ببقائه بما كان من وفاة مولانا الوالد نفعه الله تعالى بالسعادة التى ألبسه حلتها والشهادة التى فى أعماله الزكية كتبها والدرجة العالية التى حتمها له وأوجبها وعما تصير لنا من أمره وضم بنا من نشره وسدل على من خلفه من ستره وانه العبرة لمن ألقى السمع وموعظة تهز الجمع وترسل الدمع وحادثة أجل الله تعالى فيها الدفع وشرح مجملها وان أخرس اللسان هولها وأسلم العبارة قوتها وحولها انه رضى الله تعالى عنه لما برز لاقامة سنة هذا العيد مستشعرا شعار كلمة التوحيد مظهرا سمة الخضوع للولى الذى تضرع بين يديه رقاب العبيد آمنا بين قومه وأهله متسربلا فى حلل نعم الله تعالى وفضله قرير العين باكتمال عزه واجتماع شمله قد احترس باقصى استطاعته واستظهر بخلصان طاعته والاجل المكتوب قد حضر والارادة الالاهية قد أنفذت القضاء والقدر وسجد بعد الركعة الثانية من صلاته أتاه أمر الله لميقاته على حين الشباب غض جلبابه والسلاح زاخر عبابه والدين بهذا القطر قد أينع بالامن جنابه وأمر من يقول للشئ كن فيكون قد بلغ كتابه ولم يرعه وقد اطمأنت بذكر الله تعالى القلوب وخلصت الرغبات الى فضله المطلوب الاشقى قيضه الله تعالى لسعادته غير معروف ولا منسوب وخبيث لم يكن معتبرا ولا محسوب تخلل الصفوف المعقوده وتجاوز الابواب المسدوده وخاض الجموع المشهوده والامم المحشورة الى طاعة الله المحشوده لا تدل العين عليه شارة ولا بزه ولا تحمل على الحذر من مثله أنفة ولا عزه وانما هو خبيث ممرور وكلب عقور وحية سمها وحى محذور وآلة مصرفة لينفذ بها قدر مقدور فلما طعنه وأثبته وأعلق به شرك الحين فما أفلته قبض عليه من الخلصان الاولياء من خبر ضميره وأحكم تقريره فلم يجب عند الاستفهام جوابا يعقل ولا عثر على شئ عنه ينقل لطفا من الله أفاد براءة الذمم وتعاورته للحين أيدى التمزيق وأتبع شلوه بالتحريق واحتمل مولانا الوالد رحمه الله الى القصر وبه ذماء لم يلبث بعد الفتكة العمرية الا يسير من اليسير وتخلف الملك ينظر من الطرف الحسير وينهض بالجناح الكسير وقد عاد جمع السلامة الى جمع التكسير الا ان الله تعالى تدارك هذا القطر الغريب بان أقامنا مقامه لوقته وحينه ورفع عماد بناء ملكه ولم تشعث دينه وكان جميع من حضر المشهد من شريف الناس ومشروفهم وأعلامهم ولفيفهم قد جمعه ذلك الميقات وحضر الاولياء الثقات فلم تختلف علينا كلمه ولا شذت منهم عن بيعتنا نفس مسلمه ولا أخيف برى ولا حذر جرى ولا فرى فرى ولا وقع لبس ولا استوحشت نفس ولا نبض للفتنة عرق ولا أغفل للدين حق فاستند النقل الى نصه ولم يعدم من فقيدنا غير شخصه وبادرنا الى مخاطبة البلاد نمهدها ونسكنها ونقرر الطاعة فى النفوس ونمكنها وأمرنا الناس بها بكف الايدى ورفع التعدى والعمل من حفظ شروط المسالمة المعقودة بما يجدى ومن شره منهم للغرار عاجلناه بالانكار وصرفنا على النصارى ما أوصاه مصحبا بالاعتذار وخاطبنا صاحب قشتالة نرى ما عنده فى صلة

السلم الى أمدهامن الاخبار واتصلت بنا البيعات من جميع الاقطار وعفى على حزن المسلمين والدنا ما ظهر عليهم ولا يتنا من الاستبشار واستبقوا تطيرهم أجنحة الابتدار جعلنا الله تعالى ممن قابل الحوادث بالاعتبار وكان على حذر من تصاريف الاقدار واختلاف الليل والنهار وأعاننا على اقامة دينه فى هذا الوطن الغريب المنقطع بين العدوّ الطاغى والبحر الزخار وألهمنا من شكره ما يتكفل بالمزيد من نعمه ولا قطع عنا عوائد كرمه وان فقدنا والدنا فانتم لنا من بعده الوالد والذخر الذى تكرم منه العوائد والحب يتوارث كما ورد فى الاخبار التى صحت منها الشواهد ومن أعدّ مثلكم لابنيه فقد تيسرت من بعد الممات أمانيه وتأسست قواعد ملكه وتشيدت مبانيه فالاعتقاد الجميل موصول والفروع لها فى التشيع اليكم أصول وفى تقرير فخركم محصول وأنتم ردء المسلمين بهذه البلاد المسلمة الذى يعينهم بارفاده وينصرهم بانجاده ويعامل الله تعالى فيها بصدق جهاده وعندما استقر هذا الامر الذى تبعث المحنة فيه المنحه وراقت من فضل الله تعالى ولطفه فيه الصفحه وأخذنا البيعة من أهل حضرتنا بعد استدعاء خواصهم وأعيانهم وتزاحمت على رقها المنشور خطوط أيمانهم وتأصلت قواعد ألفاظها ومعانيها فى قلوبهم وآذانهم وضمنوا الوفاء بما عاهدوا الله عليه وقد خبر سلفنا والحمد لله وفاء ضمانهم بادرنا تعريف مقامكم الذى نعلم مساهمته فيما ساء وسر وأحلى وأمر عملا بمقتضى الخلوص الذى ثبت واستقر والحب الذى ما مال يوما ولا ازور وما أحق تعريف مقامكم بوقوع هذا الامر المحذور والانجلاء ليله عن صبح الصنع البادى السفور وان كنا قد خاطبنا من خدامكم من يبادر اعلامكم بالامور الا أنه أمر له ما بعده وحادث يأخذ حده ونبعث الى بابكم من شاهد الحال ما بين وقوعها الى استقرارها رأى العيان وتولى تسديد الامور باعماله الكريمة ومقاصده الحسان ليكون أبلغ فى البر وأشرح للصدر وأوعب للبيان فوجهنا اليكم وزير أمرنا وكاتب سرنا الفقيه الاجل أبا عبد الله محمد بن الخطيب وألقينا اليه من تقرير تعويلنا على ذلك المقام الاسنى واستنادنا من التشيع اليه الى الركن الوثيق المبنى ما نرجو أن يكون له فيه المقام الاغنى والثمرة العذبة المجنى فلاهتمامه بهذا الغرض الاكيد الذى هو أساس بنائنا وقامع أعدائنا وآثرنا توجيهه على توفر الاحتياج اليه ومدار الحال عليه والمرغوب من أبوتكم المؤملة أن يتلقاه قبولها بما يليق بالملك العالى والخلافة السامية المعالى والله عز وجل يديم أيامكم لصلة الفضل المتوالى ويحفظ مجدكم من غير الايام والليالى وهو سبحانه يصل سعدكم ويحرس مجدكم ويوالى نصركم وعضدكم والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته اه وللسلطان الغنى بالله هذا مع السلطان أبى عنان رحمهما الله مراسلات عديدة ومكاتبات مديدة قد ذكر صاحب نفح الطيب منها جملة وافرة مع التنبيه على أسبابها فانظرها فيه ان شئت وأكرم السلطان أبو عنان الوزير ابن الخطيب فى هذه الوفادة وغيرها اكراما بليغا ولما انصرف عنه مدحه بقصيدة طويلة طنانة يقول فى أولها

أبدى لداعى الفوز وجه منيب * وأفاق من عذل ومن تأنيب

ويقول فى أثنائها

يا ناصر الدين الحنيف وأهله * انضاء مسغبة وفل خطوب
حقق ظنون بنيه فيك فانهم * بتة للموت وعدك المرقوب
ضاقت مذاهب نصرهم فتعلقوا * بجناب عزمن علاك رحيب
ودجا ظلام الكفر فى آفاقهم * أوليس صبحك منهم بقريب
فانظر بعين العزمن ثغر غدا * حذر العدا يرنو بطرف مريب
نادتك أندلس ومجدك ضامن * ألا يخيب لديك ذو مطلوب

وهى طويلة

﴿وفى سنة ست وخمسين وسبعمائة﴾ انتقض على السلطان أبى عنان وزيره وصاحب شوراه عيسى بن

الحسن

الحسين بن علي بن أبي الطلاق من شيوخ بني مرين ووجوههاوكان السلطان أبو عنان قد استعمله على جبل طارق فتمكنت رياسته به وانتقض على السلطان لاسباب يطول شرحها ثم التاث حاله وضاقت مذاهبه فقبض عليه وأحضر بين يدي السلطان أبي عنان هو وابنه يوم منى من سنة ست وخمسين المذكورة فتنصلا واعتذرا فلم يقبل منهما وأودعهما السجن وضيق عليهما ولما كان آخر السنة أمر بهما فجنبا الى مصارعهما وقتل عيسى قعصا بالرماح وقطع ابنه أبو يحيى من خلاف وأبى من مداواة قطعه فلم يزل يتخبط في دمه الى ان هلك بعد ثلاثة أيام من قطعه وعقد السلطان على جبل طارق وسائر ثغور الاندلس لسليمان بن داوود ثم عقد بعده لولده أبي بكر السعيد وهو الذي تولى الملك بعده والله أعلم

﴿رحلة السلطان أبي عنان الى سلا وتطارحه على وليها الاكبر أبي العباس ابن عاشر رضي الله عنه﴾

كان لبني مرين عموما وللسلطان أبي عنان خصوصا جنوح الى الخير ومحبة في أهله وتعرض لمن يشار اليه بالصلاح واستمطار لطله ووبله وكان الشيخ الاشهر أبو العباس أحمد بن عاشر الاندلسي رضي الله عنه قد استوطن في هذا التاريخ مدينة سلا وكان من الافراد الجامعين بين العلم والعمل المتمسكين بالكتاب والسنة الناهجين سنن السلف الصالح في الزهد والورع والانقطاع عن الخلق جملة بحيث طار ذكره وعظم لدى الخاص والعام قدره فتحركت همة السلطان أبي عنان لزيارته والاقتباس مما يفتح الله به من وعظه واشارته فارتحل سنة سبع وخمسين وسبعمائة الى سلا فقدمها وحرص على الاجتماع بالشيخ المذكور ووقف ببابه مرارا فلم يأذن له وترصده يوم الجمعة بعد الصلاة ولما انفض الناس تبعه على قدميه والناس ينظرون اليه وهو لا يراه فقال السلطان عند ذلك لقد منعنا من هذا الولي ثم أرسل اليه ولده راغبا ومستعطفا فأجابه بما قطع رجاءه من لقائه غير أنه كتب اليه كتابا وعظه فيه وذكره فسر السلطان أبو عنان بذلك الكتاب وحزن لما فاته من الاجتماع بالشيخ وقد ذكر الفقيه العلامة البركة أبو العباس أحمد بن عاشر بن عبد الرحمن السلاوي المدعو بالحافي في كتابه تحفة الزائر في مناقب الشيخ ابن عاشر نص هذا الكتاب ولم يحضرني الآن فانظره فيه وبالله تعالى التوفيق

﴿غزوة السلطان أبي عنان افريقية وفتح قسنطينة ثم فتح تونس بعدها﴾

لما كانت أيام التشريق من سنة سبع وخمسين وسبعمائة اعتزم السلطان أبو عنان على النهوض الى افريقية واضطرب معسكره بساحة فاس الجديد وبعث في الحشد الى مراكش وأوعز الى بني مرين بأخذ الاهبة للسفر وجلس للعطاء وعرض الجنود من لدن عزمه على النهوض الى شهر ربيع الاول من سنة ثمان وخمسين بعدها ثم ارتحل من فاس وسرح في مقدمته وزيره فارس بن ميمون في العساكر وسار هو في ساقته على التعبية الى ان احتل بجاية وتلوم لازاحة العلل ثم نازل الوزير قسنطينة وجاء السلطان على أثره ولما أطلت راياته وماجت الارض بجنوده ذعر أهل البلد وألقوا بأيديهم الى الاذعان وانفضوا من حول سلطانهم أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر الحفصي وجاؤوا مهطعين الى السلطان أبي عنان وتحيز الحفصي في خاصته الى القصبة ثم طلبوا الامان من السلطان أبي عنان فبذله لهم وخرجوا وأنزلهم بمعسكره أياما ثم بعث بأبي العباس في الاسطول الى سبتة فاعتقله بها وعقد على قسنطينة لمنصور ابن الحاج خلوف اليابانى من شيوخ بني مرين وأهل الشورى منهم وأنزله بالقصبة في شعبان من السنة المذكورة ووصلت اليه بيعات أمراء الاطراف من توزر ونفطة وقابس وغيرها ووفد عليه أولاد مهلهل أمراء بني كعب من سليم وأقتال بني أبي الليل منهم يستحثونه لملك تونس فسرح معهم العساكر وعقد عليها ليحيى بن عبد الرحمن بن تاشفين وبعث اسطوله في البحر مددا لهم وعقد عليه للرئيس محمد بن يوسف المعروف بالابكم من أمراء بني الاحمر وكان سلطان تونس يومئذ أبا اسحق ابراهيم بن أبي بكر

الحفصى ولما اتصل به خبر بنى مرين أخرج حاجبه أبا محمد بن تافراجين لقتالهم فزحفت الجيوش الى تونس ووصل الاسطول الى مرساها فقاتلهم ابن تافراجين يوما أو بعض يوم ثم ركب الليل الى المهدية فتحصن بها ودخل أولياء السلطان الى تونس فى رمضان من سنة ثمان وخمسين وسبعمائة وأقاموا بها الدعوة المرينية واحتل يحيى بن عبد الرحمن بالقصبة وأنفذ الاوامر وكتب الى السلطان أبى عنان بالفتح فعظم سروره ونظر بعد ذلك فى أحوال ذلك القطر وقبض أيدى العرب من رياح عن الاتاوة التى يسمونها الخفارة فارتابوا وطالبهم بالرهن على الطاعة فأجمعوا الخلاف واتفقوا على أميرهم يعقوب بن على ولحقوا بالزاب وارتحل السلطان فى أثرهم فاجفلوا أمامه الى القفر فخرب حصونهم التى بالزاب ورجع عنهم وحمل له ابن مزنى عامل بسكرة الزاب وجبايته وأطلق المؤن للعسكر من الادام والحنطة والجملان والعلوفة ثلاثة أيام وكافأه السلطان على صنيعه فخلع عليه وعلى أهله وولده وأسنى جوائزهم ورجع الى قسنطينة واعتزم على الرحلة الى تونس وضاقت العساكر ذرعا بشأن النفقات والابعاد فى الرحلة وارتكاب الخطر فى دخول افريقية فتمشت رجالاتهم فى الانفضاض عن السلطان وداخلوا الوزير فارس بن ميمون فى ذلك فوافقهم ثم أذن شيوخ العسكر ونقباؤه لمن تحت أيديهم من القبائل فى اللحاق بالمغرب حتى يبقوا منفردين وأنمى الى السلطان أبى عنان أن شيوخ العسكر قد عزموا على قتله ونصب ادريس بن عثمان ابن أبى العلاء للامر فأسرّها فى نفسه ولم يبدها لهم ورأى قلة من معه من الجند فارتاب وكرّ راجعا الى المغرب بعد ان كان ارتحل عن قسنطينة الى جهة تونس مرحلتين فانكفأ وأغذ السير الى فاس فاحتل بها غرة ذى الحجة من سنة ثمان وخمسين المذكورة وتقبض يوم دخوله على وزيره فارس بن ميمون لانه اتهمه بمداخلة بنى مرين فى شأنه وقتله رابع أيام التشريق قعصا بالرماح وتقبض على مشيخة بنى مرين فاستلحمهم وأودع طائفة منهم السجن ولما رجع السلطان أبو عنان من افريقية بلغ خبره الى الجهات فارتحل أبو محمد بن تافراجين من المهدية الى تونس ولما أطل عليها ثارت شيعة الحفصيين على من كان بها من جيش بنى مرين فنجوا الى السفن وركبوا البحر الى المغرب وجاء على أثرهم يحيى بن عبد الرحمن فيمن كان معه من العساكر وأولاد مهلهل وكان يوم الهيعة بناحية الجريد لاقتضاء جبايته فصوّب الى المغرب واجتمعوا كلهم بباب السلطان أبى عنان فارجأ حركته الى العام القابل وكان مانذكره ان شاء الله

﴿وزارة سليمان بن داود ونهوضه بالعساكر الى افريقية﴾

لما رجع السلطان أبو عنان من افريقية ولم يستتم فتحها بقى فى نفسه منها شئ وخشى على ضواحى قسنطينة من يعقوب بن على ومن معه من الذواودة المخالفين فأهمه شأنهم واستدعى سليمان بن داود من مكانه بجبل طارق وعقد له على وزارته وسرّحه فى العساكر الى افريقية فنهض اليها فى ربيع من سنة تسع وخمسين وسبعمائة وكان السلطان أبو عنان لما خالف عليه يعقوب بن على وفرّ الى القفر أقام مكانه أخاه المنازع له فى رياسة رياح ميمون بن على وقدّمه على أولاد محمد من الذواودة وأحله بمكانه من رياسة البدو فنزع اليه عن أخيه يعقوب الكثير من قومه وتمسك بطاعة السلطان أيضا طوائف من أولاد سباع بن يحيى فانحاشوا جميعا للوزير ونزلوا بحللهم على معسكره ثم ارتحل السلطان أبو عنان من فاس حتى احتل بتلمسان فأقام بها المشارفة أحوال الوزير المذكور واحتل الوزير بوطن قسنطينة وبعث الى عامل بسكرة والزاب يوسف بن مزنى بان تكون يده معه وان يفاوضه فى أحوال الذواودة لرسوخه فى معرفتها فارتحل اليه من بسكرة ونازلوا جبل أوراس واقتضوا جبايته ومغارمه وشرّدوا المخالفين من الذواودة عن العيث فى الوطن فتم غرضهم من ذلك وانتهى الوزير وعساكر السلطان الى أوّل أوطان افريقية من آخر مجالات رياح وانكفأ راجعا الى المغرب فوافى السلطان أبا عنان بتلمسان ووصلت معه وفود العرب الذين أبلوا فى الخدمة فوصلهم السلطان وخلع عليهم وحملهم وفرض لهم فى العطاء بالزاب

وكتب لهم بذلك وانقلبوا الى أهليهم فرحين مغتبطين ووفد على أثرهم أحمد بن يوسف بن مزنى أوفده أبوه بهدية الى السلطان من الخيل والرقيق والدرق فتقبلها السلطان وأكرم وفادته ثم استصحبه الى فاس ليريه أحوال كرامته وليستبلغ فى الاحتفاء به واحتل بدار ملكه منتصف ذى القعدة من سنة تسع وخمسين وسبعمائة

﴿وفاة السلطان أبى عنان رحمه الله﴾

لما وصل السلطان أبو عنان الى دار ملكه بفاس احتل بها بين يدى العيد الاكبر حتى اذا قضى الصلاة من يوم الاضحى أدركه المرض بالمصلى وأعجله طائف الوجع عن الجلوس للناس يوم العيد على العادة فدخل قصره ولزم فراشه ﴿وذكر ابن خلدون﴾ ما حاصله انه كانت بين الوزير حسن بن عمر الفودودى وبين ولى العهد أبى زيان محمد ابن السلطان أبى عنان نفرة مستحكمة لسوء طويته وشره ملكته فاتفق الوزير المذكور ومع من كان على رأيه من أهل مجلس السلطان على تحويل الامر عنه الى غيره من أبناء السلطان فأجمعوا الفتك به والبيعة لاخيه أبى بكر السعيد طفلا خماسيا ثم أغرى الوزير مسعود بن عبد الرحمن بن ماساى بتطلب أبى زيان ولى العهد فى نواحى القصر والتقبض عليه فدخل اليه وتلطف فى اخراجه من بين الحرم وقاده الى أخيه السعيد فبايع وثل الى بعض حجر القصر فأتلفت فيها مهجته واستقل الحسن ابن عمر بالامر يوم الاربعاء الرابع والعشرين من ذى الحجة والسلطان أبو عنان أثناء ذلك يجود بنفسه وارتقب الناس دفنه يوم الاربعاء والخميس بعده فلم يدفن فارتابوا وفشى الكلام فدخل الوزير زعموا اليه بمكانه من قصره ثم غطه حتى أتلفه ودفن يوم السبت وحجب الحسن بن عمر الولد المنصوب للامر وأغلق عليه بابه وتفرد بالامر والنهى دونه انتهى وهذا أول مرض نزل بالدولة المرينية ﴿وقال فى الجذوة﴾ توفى السلطان أبو عنان قتيلا خنقه وزيره الحسن بن عمر الفودودى يوم السبت الثامن والعشرين من ذى الحجة متم سنة تسع وخمسين وسبعمائة وسنه يوم توفى ثلاثون سنة

﴿بقيـــة أخبار السلطان أبى عنان وسيرته﴾

كان السلطان أبو عنان رحمه الله أبيض اللون تعلوه صفرة طويل القامة يشرف على الناس بطوله نحيف البدن عالى الانف حسنه أعين أدعج جهورى الصوت فى كلامه عجلة حتى لا يكاد السامع يفهم ما يقول عظيم اللحية تملأ صدره أسودها واذا مرت بها الريح تفرقت نصفين حتى يستبين موضع الذقن وكان فارسا شجاعا يقوم فى الحرب مقام جنده وكان فقيها يناظر العلماء الجلة عارفا بالمنطق وأصول الدين وله حظ صالح من علمى العربية والحساب وكان حافظا للقرآن عارفا بناسخه ومنسوخه حافظا للحديث عارفا برجاله فصيح القلم كاتبا بليغا حسن التوقيع شاعرا أنشد له صاحب الجذوة أشعارا حسنة من ذلك فى الحكمة قوله

واذا تصدر للرياسة خامل * جرت الامور على الطريق الاعوج

﴿وقال ابن الاحمر﴾ كنت يوما جالسا معه بمقعد ملكه من المدينة البيضاء بفاس فدخل عليه رجل يتصلح فلما نظر اليه قال بديهة

تراهم فى ظواهرهم كراما * ويخفون المكيدة والخداعا

وللسلطان أبى عنان رحمه الله آثار دينية من بناء المدارس والزوايا وغير ذلك ومدرسته العنانية بفاس مشهورة الى الآن ومن مدارسه المدرسة العجيبة بحومة باب حسين من سلا وقد صارت اليوم فندقا يعرف بفندق اسكور * ومما قاله أبو بكر بن جزى فى بعض ما أنشأه السلطان المذكور من الزوايا قوله

هذا محل الفضل والايثار * والرفق بالسكان والزوار

دار على الاحسان شيدت والتقى * فجزاؤها الحسنى وعقبى الدار
هى ملجأ للواردين ومورد * لابن السبيل وكل ركب سارى
آثار مولانا الخليفة فارس * أكرم بها فى المجد من آثار
لازال منصور اللواء مظفرا * ماضى العزائم سامى المقدار
بنيت على يد عبدهم وخديمهم * بهم العلى محمد بن حدار
فى عام أربعة وخمسين انقضت * من بعد سبعمئين فى الاعصار

(وقال صاحب الجذوة) حدثنى شيخنا أبو راشد اليدرى أن السلطان أبا عنان هو الذى أحدث بفاس العلم الازرق فى الصومعة يوم الجمعة (وقال فى موضع آخر منها) حكى أن السلطان أبا عنان المرينى صعد الصومعة يعنى بالقرويين ليعتبر المدينة وترتيبها ووقف على المنجانة وما اتصل بها فاستحسن ذلك وأنعم على الناظر فيها بمرتب وسع عليه فيه ليستعين به على القيام بشعائر الاسلام وذلك فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة قال وأمر باثر ذلك بل ينصب بأعلى الصومعة صارى من خشب وينشر فيه علم فى الاوقات التى يصلى فيها وفنار فيه سراج مزهر فى أوقات صلاة الليل ليستدل بذلك من بعد ومن لم يسمع النداء وفى ذلك اعتناء بأمور الاوقات وما يتعلق بها من وجوب الصلوات ويترتب عليها من وجوه الحقوق فى العادات والعبادات ومما قيل فى ذلك

نور به علم الايمان مرتفع * للمهتدين به للحق ارشاد
يأتون من كل صوب نحوه فلهم * لديه للرشد اصدار وايراد

وقد لخص ابن الخطيب رحمه الله فى رقم الحلل سيرة السلطان أبى عنان فقال

وخلص الامر لكف فارس * بانى الزوايا الكثر والمدارس
الاسد المفترس المصنوع له * من نال من كل المساعى أمله
واحد آحاد الملوك العظما * ومطلع النصر اذا ما أقدما
ومخجل الغيث اذا الغيث هما * وعالم الملك وملك العلما
أوجب حق الشعر والكتابه * فأملت أعلامها جنابه
واستجلب الاماثل الكبارا * والنبهاء العلية الاخيارا
يجبرهم على حضور الدوله * فهم بدور وشموس حوله
وكان جبارا على خدامه * ينالهم بالقسر فى أحكامه
مذهبه ألا يقيل عثره * حتى لارباب التقى والاثره
فطرة السيف تناغى الدره * اذ غلبت على المزاج المره
ومات فيما قيل شر ميته * بغيلة لنفسه مفيته
لم يغن عنه الباس والبساله * وأصبحت مهجته مساله
وألقيت أزمة التدبير * من بعده فى راحة الوزير

(ومن أعيان كتابه) أبو القاسم بن رضوان وأبو القاسم البرجى (ومن أعيان قضاته) أبو عبد الله محمد ابن محمد بن أحمد المقرى وهو جد أبى العباس المقرى صاحب نفح الطيب وغيره من التآليف الحسان وأبو عبد الله محمد بن أحمد الفشتالى وغيرهما رحم الله الجميع

(الخبر عن دولة السلطان السعيد بالله أبى بكر بن أبى عنان بن أبى الحسن المرينى)

هذا السلطان أول من استبد عليه من ملوك بنى مرين أمه أم ولد اسمها الياسمين كنيته أبو يحيى وهى كنية كل من اسمه أبو بكر لقبه السعيد بالله صفته درى اللون مستدير الوجه حسن الانف ألعس

الشفتين برّاق الثنايا جعد الشعر بويع وأبوه مريض في التاريخ المتقدم وكان محجوبا بالوزير حسن ابن عمر الفودودي لا يملك معه ضرا ولا نفعا ولما بويع لحق أخوه عبد الرحمن بن أبي عنان بجبل الكاى وكان أسنّ منه وانما آثروه لمكان ابن عمه مسعود بن عبد الرحمن بن ماساى من وزارته فبعثوا اليه من لاطفه واستنزله على الامان وجاء به الى أخيه فاعتقله الحسن بن عمر بقصبته من فاس وبعث على أبناء السلطان الاصاغر الامراء بالثغور فجاء المعتصم من سجلماسة وامتنع المعتمد بمراكش وكان بها في كفالة عامر بن محمد الهنتاتي وكان عامر هذا من بيوتات هنتاتة وأهل الرياسة والشرف فيهم وكان السلطان أبو عنان قد أوصى اليه بولده المذكور وجعله هنالك لنظره فلما بعثوا عليه منعه من الوصول اليهم وخرج به من مراكش الى حصنه من جبل هنتاتة فجهز اليه الوزير حسن بن عمر الجيوش لنظر الوزير سليمان بن داود مشاركه في الاستبداد وسرّحه في المحرم سنة ستين وسبعمائة فسار الى مراكش فاستولى عليها ثم تخطى الى الجبل فأحاط به وضيق على عامر حتى أشرف على اقتحام الحصن الى ان بلغه خبر افتراق بني مرين بفاس وظهور منصور بن سليمان بها على ما نذكره فانفض العسكر من حوله وتسابقوا الى منصور فلحقوا به ولحق به سليمان بن داود أيضا وتنفس الحصار عن عامر ومكفوله والله غالب على أمره

﴿ظهور أبي حمو موسى بن يوسف الزياني واستيلاؤه على تلمسان ونهوض مسعود ابن عبد الرحمن اليه وطرده عنها﴾

كان بنو عامر بن زغبة من عرب هلال خارجين على السلطان أبي عنان منذ استيلائه على تلمسان وكانت رياستهم الى صغير بن عامر بن ابراهيم ولما رجع أبو عنان الى فاس اعتزم صغير على الرحلة بقومه الى وطنهم من صحراء المغرب لانهم كانوا متنبذين عنها بأطراف افريقية فدعوا أبا حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان الى الرحلة معهم لينصبوه للامر ويجلبوا به على تلمسان فأجابهم الى ذلك وأغذوا السير الى المغرب العيث في نواحيه فجمع لهم أعداؤهم من سويد وكانوا خالصة لبني مرين فالتقوا بقبلة تلمسان فانهزمت سويد وهلك كبيرهم عثمان بن ونزمار واتصل بهم في أثناء ذلك خبر وفاة السلطان أبي عنان بفاس فاغذوا السير الى تلمسان وقاتلوا عليها حامية بني مرين ثم اقتحموها عليهم لليال خلون من ربيع الاول سنة ستين وسبعمائة واستباحوا من كان بها منهم وامتلأت أيديهم من أسلابهم واستولى أبو حمو على ملك تلمسان واستأثر بما ألفاه بها من متاع بني مرين ومن جملته هدية كان السلطان أبو عنان أعدّها هنالك ليبعث بها الى طاغية برشلونة وفيها فرس أدهم من مقرباته بمركب ولجام مذهبين ثقيلين فاتخذ أبو حمو ذلك الفرس لركوبه وصرف باقي الهدية في وجوه مقاصده ولما انتهى الى الوزير حسن بن عمر خبر تلمسان واستيلاء أبي حمو عليها جمع شيوخ بني مرين وأخبرهم بالنهوض اليها فأبوا عليه من النهوض بنفسه وأشاروا بتجهيز العساكر ووعدوه من أنفسهم المسير كافة ففتح ديوان العطاء وفرّق الاموال وأسنى الصلات وأزاح العلل وعسكر بساحة البلد الجديد ثم عقد عليهم لمسعود بن عبد الرحمن بن ماساى وحمل معه المال وأعطاه الآلة وسار في العساكر والالوية ولما اتصل خبر مسيره بأبي حمو أفرج له عن تلمسان ودخلها مسعود في ربيع الثاني من السنة المذكورة فاستولى عليها وخرج أبو حمو الى الصحراء الى ان كان ما نذكره

﴿ظهور منصور بن سليمان وبيعة مسعود بن عبد الرحمن له وما نشأ عن ذلك﴾

منصور هذا هو منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق وكان الناس يرجفون بان ملك المغرب صائر اليه بعد وفاة أبي عنان وشاع ذلك على ألسنة الناس حتى تحدث به السمر

والندمان وخشى منصور على نفسه من ذلك فجاء الى الوزير حسن بن عمر وشكا اليه ذلك فنهاه أن يختلج بفكره هذا الوسواس وانتهره انتهارا خلاعن وجه السياسة فازدجر واستكان ﴿قال ابن خلدون﴾ ولقد شهدت هذا الموطن فرحمت ذلة انكساره وخضوعه فى موقفه ثم لما نهض مسعود بن عبد الرحمن الى تلمسان واستولى عليها كان منصور هذا فى جملته ولما فر أبو حمو الى الصحراء اجتمعت عليه جموع العرب من بنى زغبة وبنى معقل ثم خالفوا بنى مرين الى المغرب واحتلوا بانكاد بحللهم وظواعنهم فجهز اليهم مسعود بن عبد الرحمن عسكرا من جنوده انتقى فيه مشيخة بنى مرين وأمراءهم وعقد عليهم لابن عمه عامر بن عبد الله بن ماساى وسرحه فزحف الى العرب بساحة وجدة فصدقه العرب القتال فانكشفت بنو مرين واستبيح معسكرهم واستلبت مشيختهم وأرجلوا عن خيولهم ودخلوا الى وجدة عراة وبلغ الخبر الى بنى مرين الذين بتلمسان وكان فى قلوبهم مرض من استبداد حسن بن عمر عليهم وحجره لسلطانهم فكانوا يتربصون بالدولة الدوائر فلما بلغهم هذا الخبر حاصوا حيصة حمر الوحش وخلصوا نجيا بساحة البلد فاتفقوا على البيعة ليعيش بن على بن أبى زيان بن يوسف بن يعقوب فبايعوه وانتهى الخبر الى مسعود ابن عبد الرحمن وكان فى جملته منصور بن سليمان كما قلنا فاكرهه على البيعة وبايعه معه الرئيس الابكم من بنى الاحمر وقائد النصارى القهردور وتسايل اليه الناس من كل جانب وتسامع الملامن بنى مرين بالخبر فتهافتوا اليه وذهب يعيش بن على لوجهه فركب البحر الى الاندلس واستتب أمر منصور بن سليمان واجتمع بنو مرين على كلمته فارتحل بهم من تلمسان يريد المغرب واعترضتهم جموع العرب فى طريقهم فاوقعت بهم بنو مرين وامتلأت أيديهم من أسلابهم وظعنهم ثم أغذوا السير الى المغرب فاحتلوا بوادى سبو أفى منتصف جمادى الآخرة من سنة ستين وسبعمائة وبلغ الخبر الى الحسن بن عمر فبرز واضطرب معسكره بساحة البلد وأخرج السلطان السعيد فى الآلة والتعبية الى ان أنزله بفسطاطه ولما غشيهم الليل انفض عنه الملا الى منصور وفاوقد الوزير الشموع وأذكى النيران وجمع الموالى والجند حول الفسطاط حتى أركب السلطان وعاد به الى قصره وتحصن بالبلد الجديد وأصبح منصور بن سليمان فارتحل فى التعبية حتى نزل بكدية العرائس فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة وغدا على فاس الجديد بالقتال وجمع الايدى على اتخاذ الآلات للحصار وانثالت عليه وفود الامصار بالمغرب بالبيعة ولحقت به كتائب بنى مرين التى كانت مجمرة على حصن عامر بن محمد الهنتاتى ولحق به أيضا قائدها سليمان بن داود وكاد أمره يتم وأقام على فاس الجديد يغاديها القتال ويراوحها ثم بدا الخلل فى عسكره ونزع عنه الى الوزير حسن بن عمر طائفة من بنى مرين ولحق آخرون ببلادهم ووقفوا ينظرون ما آل أمره واستمر هذا الحال الى غرة شعبان فبينما الناس فى ذلك اذ ظهر السلطان أبو سالم بجبال غمارة فانصرفت اليه وجوه أهل المغرب وبطل أمر السلطانين أبى بكر السعيد ومنصور بن سليمان معا وذابا كما يذوب الملح فأما منصور بن سليمان فانه فر الى بادس فقبض عليه وجىء به الى السلطان أبى سالم فقتله وأما السعيد فان وزيره الحسن بن عمر لما سمع بظهور السلطان أبى سالم واستفحال أمره نبذ دعوة سلطانه المذكور وبعث بطاعته الى أبى سالم ووعده بالتمكين من دار الملك ان قدم عليه فكان الامر كذلك وخلع السعيد يوم الثلاثاء الثانى عشر من شعبان سنة ستين وسبعمائة ثم قتل بعد ذلك غرقا فى البحر فان السلطان أبا سالم بعثه فى جملة الابناء المرشحين من بنى أبى الحسن الى الاندلس ووكل بهم من يحرسهم ثم بعد ذلك بعث الى الموكل بهم فحملهم فى سفينة كأنه يريهم المشرق ثم غرقهم فى البحر والامر لله وحده

﴿الخبر عن دولة السلطان المستعين بالله أبى سالم ابراهيم بن أبى الحسن المرينى﴾

كان هذا السلطان جوادا جم العطاء معروفا بالوفاء كثير الحياء كنيته أبو سالم لقبه المستعين بالله أمه أم ولد رومية اسمها قمر صفته آدم اللون معتدل القامة رحب الوجه واسع الجبين بادن

الجسم

الجسم أعين أدعج معتدل اللحية أسودها وكان بعد مهلك والده السلطان أبى الحسن رحمه الله قد استقر بالاندلس بعثه اليها أخوه أبو عنان كما مر ولما مات أبو عنان المذكور وولى ابنه الصبى طمع أبو سالم هذا فى الملك فاستأذن الحاجب رضوان مدبر دولة ابن الاحمر بالاندلس فى اللحاق ببلاده فأبى عليه فغاظه ذلك ونزع عنه الى طاغية قشتالة وتطارح عليه فى أن يحمله الى بر العدوة يطلب ملك أبيه فأسعفه وأمر به فحمل فى مركب وألقى به ملاحه فى ساحل بلاد غمارة بعد ان تردد فى أى السواحل يلقيه ووافق ذلك اختلاف الكلمة بفاس ومحاصرة منصور بن سليمان للمدينة البيضاء فتسامع الناس بخروجه ببلاد غمارة أحوج ما كانوا اليه فتسايلوا اليه من كل وجه وانفض الناس من حول منصور ومشى أهل معسكره بأجمعهم على التعبية فلحقوا بالسلطان أبى سالم واستعدوه على دار ملكه فأغذ السير اليها وخلع الحسن بن عمر سلطانه السعيد من الامر لتسعة أشهر من خلافته وأسلمه الى عمه فخرج اليه وبايعه ودخل السلطان أبو سالم البلد الجديد يوم الجمعة منتصف شعبان من سنة ستين وسبعمائة واستولى على ملك المغرب وتوافت وفود النواحى بالبيعات وعقد للحسن بن عمر على مراكش وجهزه اليها بالعساكر تخففا منه وريبة بمكانه من الدولة واستوزر مسعود بن عبد الرحمن بن ماساى والحسن بن يوسف الورتاجنى واصطفى من خواصه خطيب أبيه الفقيه أبا عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق وجعل الى أبى زيد عبد الرحمن بن خلدون صاحب التاريخ توقيعه وكتابة سره قال وكنت نزعت اليه من معسكر منصور بن سليمان بكدية العرائس لما رأيت من اختلال أحواله ومصير الامر الى السلطان أبى سالم فاقبل على وأنزلنى بمحل التنويه واستخلصنى لكتابته اهـ

﴿قدوم الغنى بالله ابن الاحمر ووزيره ابن الخطيب مخاوعين على السلطان أبى سالم والسبب فى ذلك﴾

قد قدمنا أن السلطان أبا الحجاج قتل يوم عيد الفطر بالمصلى سنة خمس وخمسين وسبعمائة وولى الامر من بعده ابنه الغنى بالله محمد بن يوسف وكان له أخ اسمه اسمعيل فجعله الغنى بالله فى بعض القصور من حمراء غرناطة احتفاظا به الى ان كان رمضان من سنة ستين وسبعمائة فخرج الغنى بالله الى بعض منتزهاته خارج القصبة ولما كانت ليلة سبع وعشرين من رمضان المذكور أو ثمان وعشرين منه تسور جماعة من شيعة اسمعيل المحبوس عليه القصبة ليلا وأخرجوه من محبسه وأعلنوا بدعوته ثم اقتحموا على حاجبه رضوان داره فقتلوه على فراشه وبين نسائه وضبطوا القصبة وأعلنوا بالدعوة ولم يرع الغنى بالله الا قرع الطبول بالقصبة فى جوف الليل فاستكشف الخبر وسمع فعلم بما تم عليه من خلعه وتولية أخيه فركب فرسه وخاض الليل الى وادى آش فاستولى عليها وضبطها وبايعه أهلها على الموت ثم عمد شيعة اسمعيل الثائر الى الوزير ابن الخطيب فاودعوه السجن بعد ان أغروا به ثائرهم واكتسحوا داره واصطلموا نعمته وأتلفوا موجوده وكان شيئا يجل عن الحصر واتصل ذلك كله بالسلطان أبى سالم وكانت له مصافاة مع ابن الاحمر من لدن كان عنده بالاندلس فكتب الى اسمعيل الثائر وشيعته يأمرهم بتخلية طريق الغنى بالله للقدوم عليه ويشفع فى تسريح ابن الخطيب وتخلية سبيله فاجابوا الى ذلك وقدم الغنى بالله ابن الاحمر ووزيره ابن الخطيب على السلطان أبى سالم فى السادس من محرم فاتح سنة احدى وستين وسبعمائة فاجل السلطان أبو سالم قدومه وركب للقائه ودخل به الى مجلس ملكه وقد احتفل فى ترتيبه وقد غص بالمشيخة والعلية ووقف وزيره ابن الخطيب على قدميه فانشد السلطان أبا سالم قصيدته الرائية الرائقة يستصرخه لسلطانه ويستحثه لمظاهرته على أمره واستعطف واسترحم بما أبكى الناس شفقة له ورحمة ونص القصيدة

سلا هل لديها من مخبرة ذكر * وهل أعشب الوادى ونم به الزهر

وهل باكر الوسمى دارا على اللوا * عفت آيها الا التوهم والذكر

بلادى التى عاطيت مشمولة الهوى * باكنافها والعيش فينان مخضر
وجوّى الذى ربى جناحى وكره * فها أناذا مالى جناح ولاوكر
نبت بى لاعن جفوة وملالة * ولا نسخ الوصل الهنى بها هجر
ولكنها الدنيا قليل متاعها * ولذاتها دأبا تزور وتزورّ
فمن لى بقرب العهد منها ودوننا * مدى طال حتى يومه عندنا شهر
ولله عينا من رآنا وللاسى * ضرام له فى كل جانحة جمر
وقد بددت درّ الدموع يد النوى * وللشوق أشجان يضيق لها الصدر
بكينا على النهر الشروب عشية * فعاد أجاجا بعد نا ذلك النهر
أقول لاظعانى وقد غالها السرى * وآنسها الحادى وأوحشها الزجر
رويدك بعد العسر يسران ابشرى * بانجاز وعد الله قد ذهب العسر
ولله فينا علم غيب وربما * أتى النفع من حال أريد بها الضر
وان تحن الايام لم تحن النهى * وان يخذل الاقوام لم يخذل الصبر
وان عركت منى الخطوب مجربا * نقابا تساوى عنده الحلو والمر
فقد عجمت عودا صليبا على الردا * وعزما كما تمضى المهندة البتر
اذا أنت بالبيضاء قرّرت منزلى * فلا اللحم حل ما حييت ولا الظهر
زجرنا بابراهيم برء همومنا * فلما رأينا وجهه صدق الزجر
بمنتخب من آل يعقوب كلما * دجا الخطب لم يكذب لعزمته فجر
تناقلت الركبان طيب حديثه * فلما رأته صدّق الخبر الخبر
ندى لو حواه البحر لذ مذاقه * ولم يتعقب مده أبدا جزر
وبأس غدا يرتاع من خوفه الردى * وترفل فى أذياله الفتكة البكر
أطاعته حتى العصم فى قنن الربا * وهشت الى تأميله الانجم الزهر
قصدناك يا خير الملوك على النوى * لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
كففنا بك الايام عن غلوائها * وقد رابنا منها التعسف والكبر
وعذنا بذاك المجد فانصرم الردا * ولذنا بذاك العزم فانهزم الذعر
ولما أتينا البحر يرهب موجه * ذكرنا نداك الغمر فاحتقر البحر
خلافتك العظمى ومن لم يدن بها * فايمانه لغو وعرفانه نكر
ووصفك يهدى المدح قصد صوابه * اذا ضل فى أوصاف من دونك الشعر
دعتك قلوب المؤمنين وأخلصت * وقد طاب منها السرّ لله والجهر
ومدّت الى الله الاكف ضراعة * فقال لها الله قد قضى الامر
وألبسها النعمى ببيعتك التى * لها الطائر الميمون والمحتد الحر
فأصبح ثغر الثغر يبسم ضاحكا * وقد كان مما نابه ليس يفتر
وأمّنت بالسلم البلاد وأهلها * فلا ظبية تعرى ولا روعة تعرو
وقد كان مولانا أبوك مصرّحا * بأنك فى أولاده الولد البرّ
وكنت حقيقا بالخلافة بعده * على الفور لكن كل شئ له قدر
فأوحشت من دار الخلافة هالة * أقامت زمانا لا يلوح بها البدر
فردّ عليك الله حقك اذ قضى * بأن تشمل النعمى وينسدل الستر

وقاد اليسك الملك رفقا بخلقه * وقد عد موا ركن الامامة واضطروا
وزادك بالتمحيص عزا ورفعة * وأجرا ولولا السبك ماعرف التبر
وأنت الذى يدعى اذا دهم الردا * وأنت الذى يرجى اذا أخلف القطر
وأنت اذا جار الزمان محكم * لك النقض والابرام والنهى والامر
وهذا ابن نصر قد أتى وجناحه * مهيض ومن عليائك يلتمس الجبر
غريب يرجى منك ماأنت أهله * فان كنت تبغى الفخر قد جاءك الفخر
ففز ياأمير المؤمنين ببيعة * موثقة قد حل عروتها الغدر
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا * ببالمرين جاءه العز والنصر
وخذ ياامام الحق بالحق ثاره * ففى ضمن ماتأتى به العز والاجر
وأنت لها ياناصر الحق فلتقم * بحق فمازيد يرجى ولا عمرو
فان قيل مال مالك الدثر وافر * وان قيل جيش عندك العسكر المجر
يكف بك العادى ويحيا بك الهدى * ويبنى بك الاسلام ماهدم الكفر
أعده الى أوطانه عنك راضيا * وطوقه نعماك التى مالها حصر
وعاجل قلوب الناس فيه بجبرها * فقد صدهم عنه التغلب والقهر
وهم يرقبون الفعل منك وصفقة * تحاولها يمناك مابعدها خسر
مرامك سهل لايؤدك كلفة * سوى عرض ماان له فى العلى خطر
وما العمر الا زينة مستعارة * ترد ولكن الثناء هو العمر
ومن باع مايفنى بباق مخلد * فقد أنجح المسعى وقد ربح التجر
ومن دون ماتبغيه ياملك الهدى * جياد المذاكى والمحجلة الغر
ورادو شقر واضحات شياتها * فأجسامها تبر وأرجلها در
وشهب اذا ماضمرت يوم غارة * مصممة غارت بها الانجم الزهر
وأسد رجال من مرين أعزة * عمائمها بيض وأسالها سمر
عليها من المأذى كل مفاضة * تدافع فى أعطافها اللجج الخضر
هم القوم ان هبوا لكشف ملمة * فلا الملتقى صعب ولا المرتقى وعر
اذا سئلوا أعطوا وان نوزعوا سطوا * وان واعدوا وفوا وان عاهدوا بروا
وان مدحوا اهتزوا ارتياحا كأنهم * نشاوى تمشت فى معاطفهم خمر
وان سمعوا العوراء فروا بأنفس * حرام على هاماتها فى الوغى الفر
وتبسم مابين الوشيج ثغورهم * ومابين قضب الدوح يبتسم الزهر
أمولاى غاضت فكرتى وتبلدت * طباعى فلا طبع يعين ولا فكر
ولولا حنان منك داركتنى به * وأحييتنى لم يبق عين ولا أثر
فأوجدت منى فائتا أى فائت * وأنشرت ميتا ضم أشلاءه قبر
بدأت بفضل لم أكن لعظيمه * بأهل فجل اللطف وانشرح الصدر
وطوقتنى النعمى المضاعفة التى * يقل عليها منى الحمد والشكر
وأنت بتتميم الصنائع كافل * الى أن يعود الجاه والعز والوفر
جزاك الذى أسنى مقامك رحمة * يفك بها عان وينعش مضطر
اذا نحن أثنينا عليك بمدحة * فهيهات يحصى الرمل أو يحصر القطر

ولكننا نأتي بما نستطيعه * ومن بذل المجهود حق له العذر

ثم انفض المجلس وانصرف ابن الاحمر الى منزله المعد له وقد فرشت له القصور وقربت له الجياد بالمراكب المذهبة وبعث اليه بالكسا الفاخرة ورتبت الجرايات له ولمواليه من المعلوجي وبطانته من الصنائع واحفظ عليه رسم سلطانه في الراكب والراجل ولم يفقد من ألقاب ملكه الا الاداة أدبا مع السلطان واستقر في جملته الى ان لحق بعد بالاندلس وعاد له ملكه سنة ثلاث وستين وسبعمائة وأرغد السلطان أبو سالم عيش ابن الخطيب وأفاض عليه الجرايات ورتب له الاقطاعات غير أنه كان مضمر المفارقة السلطان والتخلي عن خدمته والانفراد بنفسه لاغتنام ما بقي من عمره في طاعة الله تعالى فكان من أمره في ذلك ما نذكره

(سفر ابن الخطيب الى مراكش وأعمالها وزيارته لاوليائها ورجالها والسبب في ذلك)

كان ابن الخطيب رحمه الله عندما حصلت له هذه النكبة وخلصه الله منها بانتقاله الى بلاد العدوة قد عن له رأي في الترهد والانقطاع الى الله تعالى واغتنام بقية العمر فيما يعود عليه نفعه في العاجل والآجل ورفض السلطان وأسبابه وترك ما يلجئه للوقوف ببابه فتلطف في استئذان السلطان أبي سالم رحمه الله وطلب منه الاذن في الذهاب الى جهات مراكش والوقوف على آثار الاقدمين بها والتطارح على أوليائها والمثول بأعتابها والتعلق بأذيالها والتمسك بأسبابها جاعلا ذلك مفتاح العزلة والتخلي عن الدولة فأذن له وكتب الى العمال باتحافه والاعتناء به فتبار وا في ذلك كما يفصح عنه بعض شعره الآتي وجعل طريقه على مدينة سلا فتأمل أحوالها ورآها أوفق لمراده في العزلة فأضمر الاستيطان بها عند عوده من وجهته ولما دخل مدينة آنفي وهي الدار البيضاء مر بها على دار عظيمة تنسب الى والي جبايتها عبو من بني الترجمان قارون قومه وغني صنفه وكان قد هلك قبل ذلك فقال ابن الخطيب

قد مررنا بدار عبو الوالي * وهي ثكلى تشكو صروف الليالي
أقصدت ربها الحوادث لما * رشقته بصائبات النبال
كان بالامس واليا مستطيلا * وهو اليوم ماله من والي

وأظنه في هذه الوجهة خاطب شيخ العرب مبارك بن ابراهيم بن عطية بن مهلهل الخلطي ونص ما خاطبه به

ساحات دارك للضياف مبارك * وبضوء نارقراك يهدى السالك
ونوالك المبذول قد شمل الورى * طرا وفضلك ليس فيه مشارك
قل للذي قال الوجود قد انطوى * والباس ليس له حسام فاتك
والجود ليس له غمام هاطل * والمجد ليس له همام باتك
جمع الشجاعة والرجاحة والندى * والباس والرأي الاصيل مبارك
للدين والدنيا والشيم العلي * والجود انشح الغمام السافك
عند الهياج ربيعة بن مكدم * والفضل والتقوى الفضيل ومالك
ورث الجلالة عن أبيه وجده * فكأنهم ما غاب منهم هالك
فجياده للآملين مراكب * وخيامه للقاصدين أرائك
فاذا المعالي أصبحت مملوكة * أعناقها بالحق فهو المالك
يا فارس العرب الذي من بيته * حرم لحاج به ومناسك
يا من يبشر باسمه قصاده * فلهم اليه مسارب ومسالك
أنت الذي استأثرت فيك بغبطتي * وسواك فيه مآخذ ومتارك
لازلت نورا يهتدى بضيائه * من جنة المروع ليل حالك

ويخص مجدك من سلامى عاطر * كالمسك صاك به الغوالى صائك

الحمد لله تعالى الذى جعل بيتك شهيرا وجعلك للعرب أميرا وجعل اسمك فالا ووجهك جمالا وقربك جاها ومالا وآل رسول الله صلى الله عليه وسلم لك آلا أسلم عليك يا أمير العرب وابن أمرائها وقطب سادتها وكبرائها وأهنيك بما منحك الله تعالى من شهرة تبقى ومكرمة لا يضل المتصف بها ولا يشقى اذ جعل خيمتك فى هذا المغرب على اتساعه واختلاف أشياعه مأمنا للخائف على كثرة المذاهب والطوائف وصرف الالسنة الى مدحك والخلود الى حبك وما ذلك الالسريرة لك عند ربك ولقد كنت أيام تجمعنى واياك المجالس السلطانية على معرفتك متهالكا وطوع الامل سالكا لما يلوح لى على وجهك من سيما المجد والحياء والشيم الدالة على العلياء وزكاء الاصول وكرم الآباء وكان والدى رحمه الله قد عين للقاء خال السلطان قريبكم لما توجه فى الرسالة الى الاندلس نائبا فى تانيسه عن مخدومه ومنوها حيث حل بقدومه واتصلت بعد ذلك بينهما المهاداة والمعرفه والوسائل المختلفه فعظم لاجل هذه الوسائل شوقى الى التشرف بزيارة ذلك الجناب الذى حلوله شرف وفخر ومعرفته كنز وذخر فلما ظهر الآن لحمل الاخ القائد ولان اللحاق بك والتعلق بسببك رأيت انه قد اتصل بهذا الغرض المؤمل بعضى والله تعالى ييسر فى البعض عند تقرير الامر وهدنة الارض وهذا الفاضل بركة حيث حل لكونه من بيت اصالة وجهاد وماجدا وابن أمجاد ومثلك لا يوصى بحسن جواره ولا ينبه على ايثاره وقبيلك من العرب فى الحديث والقديم وهو الذى أوجب لها مزية التقديم لم تفتخر قط بذهب يجمع ولا دخر يرفع ولا قصر يبنى ولا غرس يجنى انما فخرها عدو يغلب وثناء يجلب وجزر تنحر وحديث يذكر وجود على الفاقه وسماحة بحسب الطاقه فلقد ذهب الذهب وفنى النشب وتمزقت الاثواب وهلكت الخيل العراب وكل الذى فوق التراب تراب وبقيت المحاسن تروى وتنقل والاعراض تجلى وتصقل ولله در الشاعر اذ يقول

وانما المرء حديث بعده * فكن حديثا حسنا لمن وعى

هذه مقدمة ان يسر الله بعدها القاء الامير فيجلى اللسان عما فى الضمير

ومدحى على الاملاك وقف وانما * رأيتك منها فامتدحت على وسمى
وما كنت بالمهدى لغيرك مدحتى * ولو انه قد حل فى مفرق النجم

وقال فى الشيخ ابن بطان الصنهاجى صنهاجة آزمور

لله درك يا ابن بطان فما * لشهير جودك فى البسيطة جاحد
ان كان فى الدنيا كريم واحد * يزن الجميع فانت ذاك الواحد
أجريت فضلك جعفرا يحيى به * ما كان من مجد فذكرك خالد
فالقوم منك تجمعوا فى مفرد * ولدك ماشاء العلاء ووالد
وهى الليالى لا تزال صروفها * يشقى بموقعها الكريم الماجد
وبستعين الله يصلح منك ما * قد كان أفسده الزمان الفاسد

وقال رحمه الله عندما توسط بسيط تامسنا

كأنا بتامسنا نجوس خلالها * وممدودها فى سيرنا ليس يقصر
مراكب فى البحر المحيط تخبطت * ولا جهة تدرى ولا البر يبصر

وقال رحمه الله يخاطب أبا العباس أحمد بن يوسف حفيد المولى الصالح سيدى أبى محمد صالح النائم فى طل صيته رضى الله عنه

ياحفيد الولى ياوارث الفخر * الذى نال فى مقام وحال
لك يا أحمد بن يوسف جئنا * كل قطر يعيى أكف الرحال

وقال في نفاضة الجراب لما خرجت من آسفي سرت الى منزل ينسب الى أبي حدو وفيه رجل من بني المنسوب اليه اسمه يعقوب فألطف وأجزل وآنس في الليل وطلبني بتذكرة تثبت عندي معرفته فكتبت له

نزلنا على يعقوب نجل أبي حدو * فعرّفنا الفضل الذي ماله حد
وقابلنا بالبشر واحتفل القرا * فلم يبق لحم لم تنله ولا زبد
يحق علينا أن نقوم بحقه * ويلقاء منا البر والشكر والحمد

وقال رحمه الله وقد انتابه البرغوث

زحفت الى ركائب البرغوث * ثم الظلام بركبها المحثوث
بالجبة السوداء قابل مقدمي * لله أي قرى أعد خبيث
كسحت بهن ذباب سرح تجادى * ليل تخيل الصبر جنثرثيث
ان صابرت نفسي أذاه تعبدت * أو صحت منه أنفت من تحنيثي
جيشان من ليل وبرغوث فهل * جيش الصباح لصرختي بغيث

وقال رحمه الله وقد أشرف على الحضرة المراكشية حاطها الله تعالى

ماذا أحدث عن بحر سبحت به * من البحار فلا اثم ولا حرج
دعاه مبتدع الاشياء مستويا * ماان به درك كلا ولا درج
حتى اذا ما المنار الفرد لاح لنا * صحت ابشري يا مطايا جاءك الفرج
قربت من عامر دارا ومنزلة * والشاهد العدل هذا الطيب والارج

ولما وقف على مصانع مراكش وقصورها وقصبتها واعتبر ماصار اليه حالها بعد الموحدين قال

بلد قد غزاه صرف الليالي * وأباح المصون منه مبيح
فالذي خر من بناه قتيل * والذي خر منه بعض جريح
وكأن الذي يزور طبيب * قد تأتى له بها التشريح
أعجمت منه أربع ورسوم * كان قدما بها اللسان الفصيح
كم معان غابت بتلك المغاني * وجمال أخفاه ذاك الضريح
وملوك تعبدوا الدهر لما * أصبح الدهر وهو عبد صريح
دوخوا نازح البسيطة حتى * نال ماشاء ذابل وصفيح
حين شبت لهم من الباس نار * ثم هبت لهم من النصر ريح
أثر يندب المؤثر لما * طال بعد الدثو منه النزوح
ساكن الدار روحها كيف يبقى * جسد بعد ما تولى الروح

ومما قاله في الشيخ أبي العباس السبتي رضي الله عنه على لسان سلطانه الغني بالله وهو يومئذ بفاس

ياولي الاله أنت جواد * وقصدنا الى حماك المنيع
راعنا الدهر بالخطوب فجئنا * نرتجي من علاك حسن الصنيع
قد دنا لك الا كف نرجى * عودة العز تحت شمل جميع
فانتجعنا وسيلة تربك الزا * كي وزلفى الى العليم السميع
كم غريب أسرى اليك فوافى * برضى عاجل وخير سريع

وقال يخاطب عميد البلاد المراكشية المتميز بالرأي والسياسة والهمة وافاضة العدل وكف اليد والتجافي عن مال الجباية عامر بن محمد بن على الهنتاتي

تقول لي الاظعان والشوق في الحشا * له الحكم يمضي بين ناه وآمر

اذا جبل التوحيد أصبحت فارعا * نخيم قرير العين فى دار عامر
وزر تربة المعلوم ان مزارها * هو الحج يسعى نحوه كل ضامر
ستلقى بمثوى عامر بن محمد * ثغور الامانى من ثنايا البشائر
ولله ماتبلوه من سعد وجهه * ولله ماتلقاه من يمن طائر
وتستعمل الامثال فى الدهر منكما * بخير مزور أو باغبط زائر

لم يكن همى أبقاك الله تعالى مع فراغ البال واسعاف الآمال ومساعدة الايام والليال اذ الشمل جميع والزمان كله ربيع والدهر سميع مطيع الا زيارتك فى جبلك الذى يعصم من الطوفان وواصل أمنه بين النوم والاجفان وان أرى الافق الذى طلعت منه الهدايه وكانت اليه العودة ومنه البدايه فلما حم الواقع وعجز عن خرق الدولة الاندلسية الراقع وأصبحت ديار الاندلس وهى البلاقع وحسنت من استدعائك اياى المواقع وقوى العزم وان لم يكن ضعيفا وعرضت على نفسى السفر بسبيلك فالفيته خفيفا والتمست الاذن حتى لا نرى فى قبلة السداد تحريفا واستقبلتك بصدر مشروح وزند العزم مقدوح والله سبحانه يحقق السول ويسهل بمثوى الاماثل المثول ويهيء من قبيل هنتاتة القبول بفضله انتهى ولما ذهب الى عامر بن محمد المذكور ورقى الجبل زار الموضع الذى توفى به السلطان أبو الحسن رحمه الله وقد ألم بذكر ذلك فى نفاضة الجراب اذ قال وشاهدت بجبل هنتاتة محل وفاة السلطان المقدس أمير المسلمين أبى الحسن رحمه الله حيث أصابه طارق الاجل الذى فصل الخطة وأصمت الدعوة ورفع المنازعة وعاينته مرفعا عن الابتذال بالسكنى مفروشا بالحصباء مقصودا بالابتهال والدعاء فلم أبرح يوم زيارته ان قلت

ياحسنها من أربع وديار * أضحت لباغى الأمن دار قرار
وجبال عز لاتذل أنوفها * الا لعز الواحد القهار
ومقر توحيد وأس خلافة * آثارها تنبي عن الاخبار
ما كنت أحسب أن أنهار الندى * تجرى بها فى جملة الانهار
ما كنت أحسب أن أنوار الحجا * تلتاح فى قنن وفى أحجار
مجت جوانبها البرود وان تكن * شبت بها الاعداء جذوة نار
هدت بناها فى سبيل وفائها * فكأنها صرعى بغير عقار
لما توعدها على المجد العدا * رضيت بعيث النار لا بالعار
عمرت بحلة عامر وأعزها * عبد العزيز بمرهف بتار
فرسانها أحرزاقصب الندى * والباس فى طلق وفى مضمار
ورثاعن الندب الكبير أبيهما * محض الوفاء ورفعة المقدار
وكذا الفروع تطول وهى شبيهة * بالاصل فى ورق وفى أثمار
أزرت وجوه الصيد من هنتاتة * فى جوها بطالع الاقمار
لله أى قبيلة تركت لها الن * ـظراء دعوى الفخر يوم فخار
نصرت أمير المسلمين وملكه * قد أسلمته عزائم الانصار
وارت عليا عندما ظلم الردا * والروع بالاسماع والابصار
وتخاذل الجيش اللهام وأصبح الا * بطال بين تقاعد وفرار
كفرت صنائعه فيمم دارها * مستظهرا منها بعز جوار
وأقام بين ظهورها لايتقى * وقع الردى وقد ارتمى بشرار

فكأنها الانصار لما ان سمت * فيما تقدم غربة المختار
لما غدا لحظا وهم أجفانه * نابت شفارهم عن الاشفار
حتى دعاه الله بين بيوتهم * فاجاب ممتثلا لامر البارى
لو كان يمنع من قضاء الله ما * خلصت اليه نوافذ الاقدار
قدكان يأمل ان يكافئ بعض ما * أولوه لولا قاطع الاعمار
ما كان يقنعه لوامتد المدى * الا القيام بحقها من دار
فيعيد ذاك الماء ذائب فضة * ويعيد ذاك الترب ذوب نضار
حتى تفوز على النوى أوطانها * من ملكه بجلائل الاوطار
حتى يلوح على وجوه وجوههم * أثر العناية ساطع الانوار
ويسوغ الامل القصى كرامها * من غير ما ثنيا ولا استعصار
ما كان يرضا الشمس أو بدر الدجا * عن درهم فيهم ولا دينار
أوان يتوج أو يقلد هامها * ونحورها باهلة ودرارى
حق على المولى ابنه ايثارما * بذلوه من نصر ومن ايثار
فلمثلها ذخر الجزاء ومثله * من لا يضيع صنائع الاحرار
وهو الذى يقضى الديون وبره * يرضيه فى علن وفى اسرار
حتى تحج محله رفعوا بها * علم الوفاء لاعين النظار
فيصير منها البيت بيتا ثانيا * للطائفين اليه أى بدار
تغنى قلوب القوم عن هدى به * ودموعهم تكفى لرمى جمار
حييت من دار تكفل سعيها الـ * محمود بالزلفى وعقبى الدار
وضفت عليك من الاله عناية * ما كرليل فيك اثر نهار

ويعنى بالمولى ابنه السلطان أباسالم بن أبى الحسن ثم سار ابن الخطيب الى اغمات فزار مشاهدها وشاهد معاهدها فحكى عن نفسه رحمه الله قال وقفت على قبر المعتمد بن عباد فى مدينة اغمات فى حركة اعملتها الى الجهات المراكشية باعثها لقاء الصالحين ومشاهدة الآثار سنة احدى وستين وسبعمائة وهو بمقبرة اغمات فى نشز من الارض وقد حفت به سدرة والى جنبه قبر اعتماد حظيته مولاة رميك وعليهما أثر التغرب ومعاناة الخمول من بعد الملك فلم تملك العين دمعها اعندر ؤيتهما فانشدت فى الحال

قدزرت قبرك عن طوع باغمات * رأيت ذلك من أولى المهمات
لم لا أزورك ياأندى الملوك يدا * ويا سراج الليالى المدلهمات
وأنت من لو تخطى الدهر مصرعه * الى حياتى لجادت فيه أبيات
أناف قبرك فى هضب يميزه * فتنتحيه حفيات التحيات
كرمت حيا وميتا واشتهرت علا * فأنت سلطان أحياء وأموات
ماريء مثلك فى ماض ومعتقدى * ألا يرى الدهر فى حال ولا آت

ولما انكفأ ابن الخطيب رحمه الله راجعا من سفرته هذه وانتهى الى سلا أقام بها منتبذا عن سلطانه رافضا الملك وأسباب طول مقامه بالمغرب على مانذكره ان شاء الله

﴿بقية أخبار ابن الخطيب بسلا حرسها الله﴾

قدقدمنا ان ابن الخطيب كان قدعزم على التخلى عن الدنيا والانقطاع الى الله تعالى وانه اختار أن يكون مقامه بسلا لكونها مبدأ أعون له على مراده من غيرها حسبما يؤخذ ذلك من مواضع من كلامه

من ذلك انه لما وصف أمصار الاندلس والمغرب فى مقاماته المشهورة وصف مدينة سلا بقوله العقيلة المفضله والبطيحة المخضله والقاعدة المؤصله والسورة المفصله ذات الوسامة والنظاره والجامعة بين البداوة والحضاره معدن القطن والكتان والمدرسة والمارستان والزاوية كأنها البستان والوادى المتعدد الاجفان والقطر الامين عند الرجفان والعصير العظيم الشان والاسواق السارة حتى برقيق الحبشان اكتنفها المسرح والخصب الذى لا يبرح والبحر الذى يأسو ويجرح وشقها الوادى الذى يتمم محاسنها ويشرح وقابلها الرباط الذى ظهر به من المنصور الاغتباط حيث القصبة والساباط ثم يقع الانحطاط الى شالة مرعى الذمم ونتيجة الهمم ومشمخ الانوف ذوات الشمم وعنوان الرمم حيث الحسنات المكتتبه والاوقاف المرتبه والقباب كالازهار مجودة بذكر الله آناء الليل وأطراف النهار وطلل حسان المثل فى الاشتهار وهى على الجملة من غيرها أوفق ومغارمها لاحترام الملوك الكرام أرفق ومقبرتها المنضدة تعجب فى الانتظام معدودة فى المواقف العظام ويتأتى بها للعباد الخلوه وتوجد عندها للهموم السلوه كما قال ابن الخطيب

وصلت حثيث السير فيمن فلى الفلا * فلا خاطرى لما نأى وانجلا انجلا

ولا انصفت كربى بقلبى سلوة * فلما سرى فيه نسيم سلا سلا

وكنى بالشابل رزقا طريا وسمك التفضيل حريا يبرز عدد قطر الديم ويباع ببخس القيم ويم الجائشر النائية والخيم اه *(وما قاله)* فى حق سلا من كونها تتأتى بها للعباد الخلوة هو كذلك معروف عند صلحاء المغرب وعباده من لدن قديم ولذا لما قدم أبو العباس ابن عاشر رضى الله عنه من الاندلس وتنقل فى بلاد المغرب مثل فاس ومكناسة لم يطب له القرار الا بسلا وقد صرح رضى الله عنه بذلك حيث قال

سلا كل قلب غير قلبى ما سلا * أيسلو بفاس والاحبة فى سلا

بها خيموا فالقلب خيم عندهم * فاجروا دموعى مرسلا ومسلسلا

ولما ذكر أبو العباس الصومعى رحمه الله فى كتابه الموضوع فى مناقب الشيخ أبى يعزى رضى الله عنه استحباب زيارة الاولياء قال مانصه ولا سيما فى مشاهد الاخيار اذا اجتمعوا فى مكان من الامكنة المشرفة كما كانوا يجتمعون قبل هذا برباط شاكر وبساحل دكالة وبسلا وبجبل العلم وعند الشيخ أبى يعزى فى أيام الربيع وغير ذلك اه *(وأقول)* على ذكر سلا فقد كتب الى وأنا بمراكش حرسها الله الاخ فى الله الفقيه الاديب المحاضر أبو عبد الله محمد بن عزوز الرباطى أصلا المراكشى دارا بطاقة يقول فيها مانصه الحمد لله وحده السيد الاخ الذى ثوب اخائه ما أنسج الفقيه العلامه اللابس من أسلحة العلوم الدرع واللامه أبا العباس السيد أحمد الناصرى سلام عليك سلاما ذكى العرف رائع الصرف وبعد فقد اشتقنا الى لذيذ مذاكرتكم وحلو فكاهتكم والآن نحب من السيادة أن تشرفونا بنقل قدمكم وتكرمونا بطلعتكم السعيده بكرة غد ان شاء الله وعلى المحبة والسلام فى فاتح رجب الفرد سنه أربع وتسعين ومائتين وألف وألحق بأسفلها مانصه

سلا البحر ما بحر بنت بشطه * كبحر علوم فيك أنشئ صالحا

فهذا هو الفياض بالعلم والتقى * وذلك هو الفياض بالماء مالحا

ولم ندر هل البيتان له أو تمثل بهما وعلى كل حال فما قاله حفظه الله انما حمله عليه حسن نيته وصفاء طويته وأما المكتوب اليه بهما فلا والله لا علم ولا تقى الا ان يتغمدنا الله برحمته ثم انى أجبته بنثر تركته للاختصار ووصلته بابيات أقول فيها مانصه

بعثت أبا عبد الاله مدائحا * هو الدر حسنا والشذور لوائحا

فنبهت فكرا طالما بات نائما * وروضت ذهنا طالما ظل جامحا

وشيدت من ذكرى وقد كان خاملا * وهيجت من قلبى الشجى القرائحا
وطوقتنى النعمى بتقريضك الذى * به ظل مجدى للنجوم مصافحا
والاتفاق درى وان جددته * وما قيمتى لولم تكن لى مادحا
فانت أديب العصر حقا ومن غدا * لعمرى لابواب المعارف فاتحا
فخذ من أخيك العى واسترعيوبه * وسامح فظنى أن تكون مسامحا
فوصفك يعيى كل أشدق بارع * ولوظل فى بحر البلاغة سابحا
فلقيت من ذى العرش كل كرامة * ووقيت من هذا الزمان الطوائحا
ولا زال هذا الدهر طوعك خادما * علاك وطرف السعد نحوك طامحا

ومما مدح به سلا وأهلها قول الامام العلامة الهمام أبى على الحسن بن مسعود اليوسى رضى الله عنه

مرسى سلا مأوى الشمم * والمجد عن طول الامم *
بلد بحسبك منظره منه ومخبره أتم * مسرى الهموم ومسرح الابصار مسلاة الغمم
مترفلا فى حلة من حسنه جنب العلم * كالحرة الحسناء فى كنف الهمام المحترم
وتراه من جناته متلالئا بين الاجم * كالدر بين زمرذ فى قرط مارية انتظم
وكوجه خود حفه شعر السوالف فى دلم * وكغرة فى أدهم والصبح فى جنح الاحم
والثغر من زنجية ترنو اليه وقد بسم * والبدر ما بين الدجى والشيب فى سود اللمم
يعلو فويق جبينه علم تدلى من أمم * فكأنه تاج اللجين على جبينى ذى عظم
أوكالكبير مرمة لا أودى بنهضته الهرم * فى رأسه صلع وفيما تحت جبهته غمم
أوكالجواد بأنفه من ذلك القصر الرثم * يكفيك منه هواؤه لا خبث فيه ولا وخم
عجبا صحيح والهوى أبدا عليل ذو سقم * وزلاله العذب الذى يشفى الفؤاد من الضرم
حاكى العقار وفاقها بصفاء لون والشيم * أبناء مجد فى الالى كانوا اراعون الذمم
من نبلهم دون العويص ونبلهم خلف الحرم * ونفيسهم نقع الفلا ونفوسهم بيض الرخم
من كل أبيض وجهه تجلى به سدف الظلم * فى الخطب بدر لامع ولدى الندى بحر خضم
وأحبة كانوا لنا كالماء بالراح التأم * لم يعد بين بيننا ولو الفراق بنا ألم
البين بين جسومنا الا بين أنفسنا بحم * والعهد حبل ما انفصا عنه الوداد ولا انفصم
والصدق نهج قد علا فى كل أوجهه علم * والبر مرعاه قرى من فيه للحسنى قرم
والنفس أرض قد كرى منها المعين ذو والكرم * والدين روض قد رعى فيه من العقبى رعم
والعلم ورد ما حلا الالمن ترع الحلم * والسر برق ما أضا الالمن غسل الاضم
والدهر دولاب سما فيه سوى أهل الشمم * من ذاق مورده الصرى يوما فللدنيا صرم

ولنرجع الى بقية أخبار ابن الخطيب ولما استقر بسلا واطمأن جنبه بها قال

أيا أهل هذا القطر ساعده القطر * بليت فدلونى لمن يرفع الامر
تشاغلت بالدنيا وغت مفرطا * وفى شغلى أو نومتى سرق العمر

ثم حرص على لقاء الشيخ ابن عاشر رضى الله عنه حتى ظفر به فعظم سروره بذلك وتبجح به اذ قال فى نفاضة الجراب ولقيت من أولياء الله تعالى بسلا الولى الزاهد الكبير المنقطع القرين فرارا عن زهرة الدنيا وعزوفا عنها واغراقا فى الورع وشهرة بالكشف واجابة الدعوة وظهور الكرامات أبا العباس ابن عاشر رحمه الله تعالى لقاءه على تعذره لصعوبة تأتيه وكثافة هيبته قاعدا بين القبور فى الخلاء رث الهيئة مطرق اللحظ كثير الصمت مفرط الانقباض والعزلة قد ضرسه أهل الدنيا وتطارحهم فهو شديد الاشمئزاز من

قاصده بمجرد الوثبة من طارقه نفع الله تعالى به اهـ كلامه فى النفاضة وقال رحمه الله تعالى من قصيدته العينية السلاوية التى وجهها الى سلا أيام خاف بها أهله وولده

بولى الله فابدأوا ابتدر * واحد الآحاد فى باب الورع

ومراده بولى الله ابن عاشر المذكور ثم ان ابن الخطيب بعد رجوعه من مراكش جعل يتتاب رباط شالة مدفن الملوك من بنى مرين ومنهم السلطان أبو الحسن رحمه الله للدعاء وقراءة القرآن بها وتعاهدها وقد كتب بذلك الى السلطان أبى سالم وطلب منه أن يشفع له عند أهل الاندلس فى رد متاعه الذى أتلفوه عليه أيام النكبة ونص الكتاب مولاى المرجو لاتمام الصنيعة وصلة النعمة واحراز الفخر أبقاكم الله تعالى تضرب بكم الامثال فى البر والرضا وعلو الهمة ورعى الوسيلة مقبل موطئ قدمكم المنقطع الى تربة المولى والدكم ابن الخطيب من الضريح المقدس بشالة وقد حط رحل الرجاء فى القبة المقدسة وتيمم بالتربة الزكية وقعد بازاء لحد المولى أبيكم ساعة ايابه من الوجهة المباركة وزيارة الربط المقصودة والترب المعظمة وقد عزم أن لا يبرح طوعا من هذا الجوار الكريم والدخيل المرعى حتى يصله من مقامكم ما يناسب هذا التطارح على قبر هذا المولى العزيز على أهل الارض ثم عليكم والتماس شفاعته فى أمر سهل عليكم لا يجتز انفاد مال ولا اقتحام خطر اغاهو اعمال لسان وخط بنان وصرف عزم واحراز فخر واطابة ذكر وأجر وذلك أن العبد عرفكم يوم وداعكم أنه ينقل عنكم الى المولى المقدس بلسان المقال ما يحضر مما يفتح الله تعالى فيه ثم ينقل عنه لكم بلسان الحال ما يتلقى عنه من الجواب وقال لى صدر دولتكم وخالصتكم وخالصة المولى والدكم سيدى الخطيب يعنى ابن مرزوق سنى الله تعالى أمله من سعادة مقامكم وطول عمركم أنت يافلان والحمد لله ممن لا ينكر عليه الوفاء بهذين الفرضين وصدر عنكم من البشر والقبول والانعام ما صدر جزاكم الله تعالى جزاء المحسنين وقد تقدم تعريف مولاى بما كان من قيام العبد بما نقله الى التربة الزكية عنكم حسبما أداه من حضر ذلك المشهد من خدامكم والعبد الآن يعرض عليكم الجواب وهو أنى لما فرغت من مخاطبته بمرءى من الملا الكبير والجم الغفير أكببت على اللحد الكريم داعيا ومخاطبا وأصغيت باذنى نحو قبره وجعل فؤادى يتلقى ما يوحيه اليه لسان حاله فكأنى به يقول لى قل لمولاك ياولدى وقرة عينى المخصوص برضاى وبرى وستر حرمى ورد ملكى وصان أهلى وأكرم صنائعى ووصل عملى أسلم عليك وأسأل الله تعالى أن يرضى عنك ويقبل عليك الدنيا دار غرور والآخرة خير لمن اتقى وما الناس الا هالك وابن هالك ولا تجد الا ما قدمت من عمل يقتضى العفو والمغفرة أو ثناء يجلب الدعاء بالرحمة ومثلك من ذكر فتذكر وعرف فما أنكر وهذا ابن الخطيب قد وقف على قبرى وتهمم بى وسبق الناس الى رثائى وأنشدنى ومجدنى وبكانى ودعالى وهنأنى بمصير أمرى اليك وعفر وجهه فى تربتى وأملنى لما انقطعت منى آمال الناس فلو كنت ياولدى حيا لما وسعنى أن أعمل معه الا ما يليق بى وأن أستقل فيه الكثير وأحتقر العظيم لكن لما عجزت عن جزائه وكلته اليك وأحلته يا حبيب قلبى عليك وقد أخبرنى أنه سليب المال كثير العيال ضعيف الجسم قد ظهر فى عدم نشاطه أثر السن وأمل أن ينقطع بجوارى ويستتر بدخيلى وخدمتى ويرد عليه حقه بخدمتى ووجهى ووجوه من ضاجعنى من سلفى ويعبد الله تعالى تحت حرمتك وحرمتى وقد كنت تشوقت الى استخدامه فى الحياة حسبما يعلمه حبيبنا الخالص المحبة وخطيبنا العظيم المزية القديم القربة أبو عبد الله بن مرزوق فاسأله يذكرك واستخبره يخبرك فانا اليوم أريد أن يكون هذا الرجل خديمى بعد الممات الى أن نلحق جميعا برضوان الله تعالى ورحمته التى وسعت كل شئ وله ياولدى ولد نجيب يخدم ببابك وينوب عنه فى ملازمة بيت كتابك وقد استقر ببابك قراره وتعين بامر لك مرتبه ودثاره فيكون الشيخ خديم الشيخ والشاب خديم الشاب هذه رغبتى منك وحاجتى اليك واعلم أن هذا الحديث لا بدله أن يذكر ويتحدث به فى الدنيا وبين أيدى

الملوك والكبراء فاعمل ما يبقى لك فخره ويخلد ذكره وقد أقام بمجاور اضريحى تاليا كتاب الله تعالى على منتظر ما يصله منك ويقروه على من السعى فى خلاص ماله والاحتجاج بهذه الوسيلة فى جبره واجراء ما يليق بك من الحرمة والكرامة والنعمة فالله الله يا ابراهيم اعمل ما يسمع عنى وعنك فيه ولسان الحال أبلغ من لسان المقال اهـ والعبد يا مولاى مقيم تحت حرمته وحرمة سلفه منتظر منكم قضاء حاجته ولتعلموا وتتحققوا أننى لو ارتكبت الجرائم ورزأت الاموال وسفكت الدماء وأخذت خسائف الملوك الاعزة ممن وراء النهر من التتار وخلف البحر من الروم ووراء الصحراء من الحبشة وأمكنهم الله تعالى منى من غير عهد بعد ان بلغهم تذممى بهذا الدخيل ومقامى بين هذه القبور الكريمة ما وسع أحدا منهم من حيث الحياء والحشمة من الاحياء والاموات وايجاب الحقوق التى لا يغفلها الكبار للكبار الا الجود الذى لا يتعقبه البخل والعفو الذى لا تفسده المؤاخذة فضلا عن سلطان الاندلس أسعده الله تعالى وعلا بعو الاتكم فهو فاضل وابن ملوك أفاضل وحوله أكياس ما فيهم من يجهل قدركم وقدر سلفكم لاسيما مولاى والدكم الذى أتوسل به اليكم واليهم فقد كان يتبنى مولاى أبا الحجاج ويشمله بنظره وصارخه بنفسه وأمده باموا له ثم صير الله تعالى ملكه اليكم وأنتم من أنتم ذاتا وقبيلا فقد قرت يا مولاى عين العبد عارأت فى هذا الوطن المراكشى من وفور حشودكم وكثرة جنودكم وترادف أموالكم وعددكم زادكم الله تعالى من فضله ولاشك عند عاقل انكم ان انحلت عروة تأميلكم وأعرضتم عن ذلك الوطن الاندلسى استولت عليه يد عدوه وقد علم تطارحى بين الملوك الكرام الذين خضعت لهم التيجان وتعلقى بثوب الملك الصالح والد الملوك الكرام مولاى والدكم وشهرة حرمة شالة معروفة حاش لله أن يضيعها أهل الاندلس وما توسل اليهم قط بها الا الآن وما يجهلون اغتنام هذه الفضيلة الغريبة وأملى منكم أن يتعين من بين يديكم خديم بكتاب كريم يتضمن الشفاعة فى رد ما أخذ لى ويخبر بعثوى مترا ميا على قبر والدكم ويقرر ما ألزمتكم بسبب هذا الترامى من الضرورة المهمة والوظيفة الكبيرة عليكم وعلى قبيلكم حيث كانوا وتطلبون منه عادة المكارمة بحل هذه العقدة ومن المعلوم أنى لو طلبت بهذه الوسائل من صلب ماوسعهم بالنظر العقلى الاحفظ الوجه مع هذا القبيل وهذا الوطن فالحياء والحشمة بأيان العذر عن هذا فى كل ملة ونحلة واذا تم هذا الغرض ولاشك فى اتمامه بالله تعالى تقع صدقتكم على القبر الكريم بى وتعينونى لخدمة هذا المولى وزيارته وتفقده ومدح النبى صلى الله عليه وسلم ليلة المولد فى جواره وبين يديه وهو غريب مناسب لبركم به الى أن أحج بيت الله بعناية مقامكم وأعود داعيا مثنيا مستدعيا للشكر والثناء من أهل المشرق والمغرب وأتعوض من ذمتى بالاندلس ذمة بهذا الرباط المبارك يرثها ذريتى وقد ساومت فى شئ من ذلك منتظرا ثمنه مما يباع بالاندلس بشفاعتكم ولو ظننت أنهم يتوقفون لكم فى مثل هذا أو يتوقع فيه وحشة أو جفاء والله ما طلبته لكنهم أسرى وأفضل وانقطاعى أيضا لوالدكم مما لا يسع مجدكم الا عمل ما يليق بكم فيه وها أنا أرتقب جوابكم بما لى عندكم من القبول ويسعنى مجدكم فى الطلب خروج الرسول لاقتضاء هذا الغرض والله سبحانه يطلع من مولاى على ما يليق به والسلام وكتب فى الحادى عشر من رجب سنة احدى وستين وسبعمائة وفى مدرج الكتاب بعد نثر هذه القصيدة

مولاى ها أنا فى جوار أبيكا * فابذل من الصبر المقدر فيكا
اسمعه ما يرضيه من تحت الثرى * والله يسمعك الذى يرضيكا
واجعل رضاه اذا نهدت كتيبة * تهدى اليك النصر أو تهديكا
واجبر بجبرى قلبه تنل المنا * وتطالع الفتح المبين وشيكا
فهو الذى سن المبرور بأمه * وأبيه فاشرع شرعه لبنيكا
وابعث رسولك منذرا ومحذرا * وبما تؤمل نيله يأتيكا

قد هز عزمك كل قطر نازح * وأخاف عاملو كابه ومليكا
فاذا سموت الى مرام شاسع * فغصونه غر المنا تجنيكا
ضمنت رجال الله منك مطالبي * لما جعلتك فى الثواب شريكا
فلئن كفيت وجوهها فى مقصدى * ورعيتها بركاتها تكفيكا
واذا قضيت حوائجي وأريتني * أملا فربك ما أردت يريكا
واشدد على قولى يدا فهو الذى * برهانه لا يقبل التشكيكا
مولاى ما استأثرت عنك بمهجتي * انى ومهجتى التى تفديكا
لكن رأيت جناب شالة مغنما * يضفى على العز فى ناديكا
وفروض حقك لا تفوت فوقتها * باق اذا استجزيته يجزيكا
ووعدتنى وتكرر الوعد الذى * أبت المكارم أن يكون أفيكا
أضفى عليك الله ستر عناية * من كل محذور الطريق يقيكا
ببقائك الدنيا تحاط وأهلها * فالله جل جلاله يبقيكا اه

﴿وقال أيضا فى الغرض المذكور﴾

عن باب والدك الرضى لا أبرح * يأسو الزمان لاجل ذا أو يجرح
ضربت خيامى فى حماه فصبيتي * تجنى النعيم به وبهمى تسرح
حتى يراعى وجهه فى وجهتى * بعناية تشفى الصدور وتشرح
أيسوغ عن مثواه سيرى خائبا * ومنابر الدنيا بذكرك تصدح
أنا فى حماه وأنت أبصر بالذى * يرضيه منك فوزن عقلك أرجح
فى مثلها سيف الحمية ينتضى * فى مثلها زند الحفيظة يقدح
وعسى الذى بدأ الجميل يعيده * وعسى الذى سد المذاهب يفتح اه

فأجابه السلطان أبو سالم رحمه الله بما صورته من عبد الله المستعين بالله ابراهيم أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى الحسن ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى سعيد ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين يوسف بن يعقوب بن عبد الحق أيد الله أمره وأعز نصره الى الشيخ الفقيه الاجل الاسنى الاعز الاحظى الاوجه الانوه الصدر الاحفل المصنف البليغ الاعرف الاكمل أبى عبد الله ابن الشيخ الاجل الاعز الاسنى الوزير الارفع الانجد الاصيل الاكمل المرحوم المبرور أبى محمد ابن الخطيب وصل الله عزته ووالى رفعته سلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد حمد الله تعالى والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله المصطفى الكريم والرضا عن آله وصحبه أعلام الاسلام وأئمة الرشد والهدى وصلة الدعاء لهذا الامر العلى العزيز المنصور المستعينى بالنصر الاعز والفتح الاسنى فانا كتبناه اليكم كتب الله تعالى لكم بلوغ الامل ونجح القول والعمل من منزلنا الاسعد بضفة وادى ملوية عنه الله وصنع الله جميل ومنه جزيل والحمد لله ولكم عندنا المكانة الواضحة الدلائل والعناية المتكفلة برعى الوسائل ذلكم بما تميزتم به من التمسك بالجناب العلى المولوى العلوى جدد الله تعالى عليه ملابس غفرانه وسقاه غيوث رحمته وحنانه وبما أهديتم الينا من التقرب لدينا بخدمة ثراه الطاهر والاشتمال بطارف حرمته السامية المظاهر والى هذا وصل الله حظوتكم ووالى رفعتكم فانه ورد علينا خطابكم الحسن عندنا قصده المقابل بالاسعاف المستعذب ورده فوقفنا على ما نصه واستوفينا ما شرحه وقصه فآثرنا حسن تلطفكم فى التوسل بأكبر الوسائل الينا ورعينا أكمل الرعاية حق ذلكم الجناب العزيز علينا وفى الحين

عينا لكمال مطلبكم وتمام مأربكم والتوجه بخطابنا في حقكم والاعتمال بوفقكم خديمينا أبا البقاء بن تاشكورت وأبازكرياء بن فرقاجة أنجدهما الله وتولاهما وأمس تاريخه انفصلا مودعين الى الغرض المعلوم بعد التأكيد عليهما فيه وشرح العمل الذى يوفيه فكونوا على علم من ذلكم وابسطوا له جملة آمالكم وانا لنرجو ثواب الله فى جبر أحوالكم وبرء اعتلالكم والله سبحانه يصل مبرتكم ويتولى تكرمتكم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته كتب فى الرابع والعشرين من رجب سنة احدى وستين ❊ فراجعه ابن الخطيب بما نصه ❊ مولاى خليفة الله بحق وكبير ملوك الارض عن حجة ومعدن الشفقة والحكمة ببرهان وحكمه أبقاكم الله تعالى على الدرجة فى المنعمين وافرى الحظ عند جزاء المحسنين وأراكم ثمرة برأبيكم فى البنين وصنع لكم فى عدوكم الصنع الذى لا يقف عند معتاد وأذاق العذاب الاليم من أراد فى مثابتكم بالحاد عبدكم الذى ملكتم رقه وآويتم غربته وسترتم أهله وولده وأسنيتم رزقه وجبرتم قلبه يقبل موطئ الاخمص الكريم من رجلكم الطاهرة المستوجبة بفضل الله تعالى لموقف النصر الفارعة هضبة العز المعملة الخطو فى مجال السعد وميسر الحظ ابن الخطيب من شالة التى تأكد عليكم الرضى احترامها وتجدد بعيكم عهدها واستبشر علكم دفينها وأشرق بحسناتكم نورها وقد وردعلى العبد الجواب المولوى البر الرحيم المنعم المحسن بما يليق بالملك الاصيل والقدر الرفيع والهمة السامية والعزة القعساء من رعى الدخيل والنصرة للذمام والاهتزاز لبر الاب الكريم فتاب الرجاء وانبعث الامل وقوى العضد وزار اللطف فالحمد لله الذى أجرى الخير على يدكم الكريمة وأعانكم على رعى ذمام الصالحين المتوسل اليكم أولا بقبورهم ومتعبداتهم وتراب أجداثهم ثم بقبر مولاى ومولاكم ومولى الخلق أجمعين الذى تسبب فى وجودكم واختصكم بحبه وغمركم بلطفه وحنانه وعلمكم آداب الشريعة وأورثكم ملك الدنيا وهيأتكم دعواته بالاستقامة الى ملك الآخرة بعد طول المدى وانفساح البقاء وفى علومكم المقدسة ما تضمنت الحكايات عن العرب من النصرة عن طائر داست أفراخه ناقة فى جوار رئيس منهم وما انتهى اليه الامتعاض لذلك مما أهينت فيه الانفس وهلكت الاموال وقصارى من امتعض لذلك أن يكون كبعض خدامكم من عرب تامسنا فما الظن بكم وأنتم الكريم ابن الكريم ابن الكريم فيمن لجأ أولا الى حماكم بالاهل والولد عن حسنة تبرعتم بها وصدقة جاملتكم الحرية على بذلها ثم فيمن حط رحل الاستجارة بضريح أكرم الخلق عليكم دامع العين خافق القلب واهى القزعة يتغطى بردائه ويستجير بعليائه كأننى ترامت عليهم فى الحياة امام الذعر الذى يذهل العقل ويحجب عن التمييز بقصر داره ومضجع رقاده ماهن يوم الا وأجهر بعد التلاوة باليعقوب بالمرين نسأل الله تعالى أن لا يقطع عنى معروفكم ولا يسلبنى عنايتكم ويستعملنى ما بقيت فى خدمتكم ويتقبل دعائى فيكم ولحين وصول الجواب الكريم نهضت الى القبر المقدس ووضعته بازائه وقلت يا مولاى يا كبير الملوك وخليفة الله وبركة بنى مرين صاحب الشهرة والذكر فى المشرق والمغرب عبدك المنقطع اليك المترامى بين يدى قبرك المتوسل الى الله ثم اليك ولدك بك ابن الخطيب وصله من مولاه ولدك ما يليق بمقامه من رعى وجهك والتقرب الى الله تعالى برعيك والاشتهار فى مشرق الدنيا ومغربها ببرك وأنتم من أنتم من اذا صنع صنيعة كملها واذا من منة تممها واذا أسدى يدا أبرزها طاهرة بيضاء غير معيبة ولا ممنونة ولا منتقصة وأنا بعد تحت ذيل حرمتك وظل دخيلك حتى يتم أملى ويخلص قصدى وتحف نعمتك بى ويطمئن الى مأمنك قلبى ثم قلت للطلبة أيها السادة بينى وبينكم تلاوة كتاب الله تعالى منذ أيام ومناسبة النحلة وأخوة التألف بهذا الرباط المقدس والسكنى بين أظهركم فأمنوا على دعائى باخلاص من قلوبكم واندفعت فى الدعاء والتوسل الذى أرجو أن يتقبله الله تعالى ولا يضيعه وخاطب العبد مولاه شاكرا لنعمته مشيدا بصنيعته مسرورا بقبوله

وشانه

وشانه من التعلق والتطارح شانه حتى يكمل القصد ويتم الغرض معمور الوقت بخدمة برفعها ودعاء برده والله المستعان اهـ ولما وصل كتاب السلطان أبي سالم الى أهل الاندلس أعظموا وسيلته وقبلوا شفاعته وردوا على ابن الخطيب ما تأتى رده مما كان ضاع له وأتلف عليه واستمر مقيما بسلا سنتين وزيادة ثم استدعاه سلطانه الغني بالله الى الاندلس بعد رجوعه اليها واحتوائه على ملكها فأجاب حياء لا رغبة ومكرها لا بطلا الى ان كان ما نذكره من شأنه بعد ذلك ان شاء الله ونوادره بسلا وماجرياته كثيرة وفيما ذكرناه كفاية

﴿ انتقاض الحسن بن عمر الفودودي وخروجه بتادلا ثم مقتله عقب ذلك ﴾

قد قدمنا أن السلطان أبا سالم لما استولى على ملك فاس والمغرب عقد للحسن بن عمر على مراكش ووجهه اليها تخففا منه وريبة بمكانه من الدولة فاستقر بها وتأثلت له بها رياسة نفسها عليه أهل مجلس السلطان وسعوا فيه عنده حتى تنكر له وأظلم الجو بينهما وأحس الحسن بن عمر بذلك فخشي على نفسه وخرج من مراكش في صفر سنة احدى وستين وسبعمائة فلحق بتادلا منحرفا عن السلطان ومرتكبا للخلاف فتلقاه بنو جابر من عرب جشم وأجاروه واعصوصبوا عليه فسرح اليه السلطان أبو سالم وزيره الحسن ابن يوسف الورتاجني فاحتل بتادلا وانشمر الحسن بن عمر الى الجبل بها فاعتصم به ومعه كبير بني جابر الحسن بن علي الورديغي فأحاطت بهم العساكر وأخذوا بمخنقهم وداخل الوزير بعض أهل الجبل من برابرة صناكة في الثورة بهم وسرب اليهم المال فثاروا بهم وانفض جمعهم وتقبضوا على الحسن بن عمر وقادوه برمته الى الحسن بن يوسف فاعتقله وانكفأ راجعا به الى الحضرة فدخلها في يوم مشهود استركب السلطان فيه الجند وجلس ببرج الذهب مقعده من ساحة البلد وحمل الحسن بن عمر على جمل فطيف به بين تلك الجموع ولما قرب من مجلس السلطان أومأ الى تقبيل الارض من فوق جمله ثم ركب السلطان الى قصره وانفض الجمع وقد شهر الحسن بن عمر وأصحابه فصاروا عبرة لمن اعتبر ولما دخل السلطان قصره جلس على كرسيه واستدعى خاصته وجلساءه وأحضر ابن عمر فوبخه وقرر عليه ذنوبه فتناوى بالمعاذير ونزع الى الانكار ﴿ قال ابن خلدون ﴾ وحضرت هذا المجلس يومئذ فيمن حضره من الخاصة فكان مقاما تسيل فيه العيون رحمة وعبرة ثم أمر به السلطان فسحب على وجهه ونتفت لحيته وضرب بالعصي وتل الى محبسه ثم قتل بعد ليال قعصا بالرماح خارج البلد ونصب شلوه بباب المحروق رحمه الله تعالى

﴿ نهوض السلطان أبي سالم الى تلمسان واستيلاؤه عليها ﴾

لما استوسق للسلطان أبي سالم ملك المغرب ومحى أثر الخوارج منه سمت همته الى تملك تلمسان كما كان لابيه وأخيه من قبل وأكد عزمه على ذلك ما كان من فرار عبد الله بن مسلم الزردالي عاملهم على درعة اليها فأجمع السلطان أبو سالم النهوض اليها وعسكر بظاهر فاس الجديد منتصف سنة احدى وستين وسبعمائة ولما توافت لديه الحشود وتكاملت بسدته الجنود ارتحل الى تلمسان واتصل خبره بوضنه بسلطانها أبي حمو ابن يوسف الزياني ووزيره عبد الله بن مسلم الزردالي فنادوا في العرب من بني عامر بن زغبة وبني معقل فأجابوهم كافة الا شرذمة قليلة من الاحلاف ثم خرج أبو حمو وأشياعه عن تلمسان الى الصحراء والتفت عليه العرب بحللها ولما دخل السلطان أبو سالم تلمسان واستولى عليها خالفه أبو حمو في عربه الى المغرب فنزلوا آكرسيف ووطاط وبلاد ملوية وحطموا زروعها وانتسفوا بركتها وخربوا عمرانها وبلغ السلطان أبا سالم ما كان من افسادهم فأهمه أمر المغرب وكان في جملته من بني زيان محمد بن عثمان ابن السلطان أبي تاشفين ويكنى أبا زيان فعقد له على تلمسان وأعطاه الآلة وجمع له جيشا من مغراوة وبني توجين ودفع لهم أعطياتهم وانكفأ راجعا الى فاس فأجفل أبو حمو والعرب أمامه ثم خالفوه الى

تلمسان فطردوا عنها أبا زيان واستولوا عليها وثبت قدم أبي حمو بها وعاد أبو زيان الى المغرب لاحقا بالسلطان أبي سالم فقبله وعقد المهادنة مع أبي حمو واستقر الامر على ذلك وقد كان ابن الخطيب عند مابلغه استيلاء السلطان أبي سالم على تلمسان هنأه بقصيدة طويلة يقول في مطلعها

أطاع لساني في مديحك احساني * وقد لهجت نفسي بفتح تلمسان

ويقول في أثنائها وقد ألم بشئ من علم الاحكام النجومية لميل السلطان اليه

ولله من ملك سعيد ونصبة * قضى المشترى فيها بعزلة كيوان

وسجل حكم العدل بين بيوتها * وقوفا مع المشهور من رأى يونان

فلم تخش سهم القوس صفحة بدرها * ولم تشك فيها الشمس من بخس ميزان

ولم يعترض مبتزها قطع قاطع * ولا نازعت نوبهرها كف عدوان

تولى اختيارالله حسن اختيارها * فلم يحتج الفرغان فيها الفرغان

ولا صرفت فيها دقائق نسبة * ولا حققت فيها طوالع بلدان

﴿وفادة السودان من أهل مالي على السلطان أبي سالم واغرابهم في هديتهم بالزرافة الحيوان المعروف﴾

قد تقدم لنا ماجرى من المواصلة بين السلطان أبي الحسن والسلطان منساموسى وأخيه أو ابنه من بعده منساسليمان وتردد الوفود واسناء الهدايا بينهم وقد كان السلطان منساسليمان قد هيأ هدية نفيسة بقصد أن يبعثها الى السلطان أبي الحسن مكافأة له على هديته فهلك السلطان أبو الحسن خلال ذلك ثم هلك السلطان منساسليمان بعده واختلف أهل مالي وافترق أمرهم وتقاتلوا على الملك الى ان جمع الله كلمتهم على السلطان منسازاطة واستوسق له الامر ثم نظر في اعطاف ملكه وأخبر بشأن الهدية التي كان منساسليمان قد هيأها لملك المغرب فامر بانفاذها اليه وضم اليها الزرافة الحيوان الغريب الشكل العظيم الهيكل المختلف الشبه بالحيوانات وفصلوا بها من بلادهم فوصلوا الى حضرة فاس في صفر من سنة اثنتين وستين وسبعمائة ﴿قال ابن خلدون﴾ وكان يوم وفادتهم يوما مشهودا جلس لهم السلطان ببرج الذهب بمجلسه المعد لعرض الجنود ونودي في الناس بالبروز الى الصحراء فبرزوا ينسلون من كل حدب حتى غص بهم الفضاء وركب بعضهم بعضا في الازدحام على الزرافة اعجابا بخلقتها وحضر الوفد بين يدي السلطان وأدوا رسالتهم بتأكيد الود والمخالصة والعذر عن ابطاء الهدية بما كان من اختلاف أهل مالي وتواثبهم على الامر وتعظيم سلطانهم وماصار اليه والترجمان يترجم عنهم وهم يصدقونه بالنزع في أوتار قسيهم عادة معروفة لهم وحيوا السلطان بان جعلوا يحثون التراب على رؤسهم على سنة ملوك العجم وأنشد الشعراء في معرض المدح والتهنئة ووصف الحال ثم ركب السلطان الى قصره وانفض ذلك الجمع وقد طار به طائر الاشتهار واستقر الوفد تحت جراية السلطان أبي سالم الى ان هلك قبل انصرافهم فوصلهم القائم بالامر من بعده وانصرفوا الى مراكش ثم منها الى ذوي حسان عرب السوس الاقصى من بني معقل المتصلين ببلادهم ومن هنالك لحقوا بسلطانهم والامر كله لله وكان مما قيل في الشعر في ذلك اليوم قول ابن خلدون من قصيدة يقول في مطلعها

قدحت يد الاشواق من زندي * وهفت بقلبي زفرة الوجد

الى ان قال في وصف الزرافة

ورقيمة الاعطاف حالية * موشية بوشائع البرد

وحشية الانساب ما أنست * في موحش البيداء بالقرد

تسمو بجيد بالغ صعدا * شرف الصروح بغير ما جهد

طالت دروس الشامخات به * ولربما قصرت عن الوهد
قطعت اليك تنائفا وصلت * اسآدها بالنص والوخد
تحدى على استصعابها ذللا * وتبيت طوع القن والقد
بسعودك اللاتى ضمن لنا * طول الحياة بعيشة رغد
جاءتك فى وفد الاحابش لا * يرجون غيرك مكرم الوفد
وافوك أنضاء تقلبهم * أيدى السرى بالغور والنجد
كالطيف يستقرى مضاجعه * أو كالحسام يسل من غمد
يثنون بالحسنى التى سبقت * من غير انكار ولا جحد
ويرون لحظك من وفادتهم * فخرا على الاتراك والهند
يامستعينا جل فى شرف * عن رتبة المنصور والمهدى
جازاك ربك عن خليقته * خير الجزاء فنعم ماتسدى
وبقيت للدنيا وساكنها * فى عزة أبدا وفى سعد

وقول الكاتب البارع أبى عبد الله بن زمرك الاندلسى من قصيدة يقول فى مطلعها

لولا تألق بارق التذكار * ماصاب واكف دمعى المدرار
لكنه مهما تعرض خافقا * قدحت يد الاشواق زند اوارى

الى ان قال فى الغرض المذكور

وغريبة قطعت اليك على الونى * بيدا تبيد بها هوم السارى
تنسيه طيته التى قد أمها * والركب فيها ميت الاخبار
يقتادها من كل مشتمل الدجا * فكأنما عيناه جذوة نار
تشدو بحمد المستعين حداتها * يتعللون به على الاكوار
ان مسهم لفح الهجير أباههم * منه نسيم تنائك المعطار
خاضوا بها لجج الفلا فتخلصت * منها خلوص البدر بعد سرار
سلمت بسعدك من غوائل مثلها * وكفى بسعدك حامى الذمار
وأتتك ياملك الزمان غريبة * قيد النواظر نزهة الابصار
موشية الاعطاف رائقة الحلى * رقمت بدائعها يد الاقدار
راق العيون أديمها فكأنه * روض تفتح عن شقيق بهار
مابين مبيض وأصفر فاقع * سال اللجين به خلال نضار
يحكى حدائق نرجس فى شاهق * تنساب فيه أراقم الانهار
تحدو قوائم كالجذوع وفوقها * جبل أشم بنوره متوارى
وسمت بجيد مثل جذع مائل * سهل التعطف لين خوار
تستشرف الجدرات منه ترائبا * فكأنما هو قائم بمنار
تاهت بكلكلها وأتلع جيدها * ومشى بها الاعجاب مشى وقار
خرجوا لها الجم الغفير وكلهم * متعجب من لطف صنع البارى
كل يقول لصحبه قوموا انظروا * كيف الجبال تقاد بالاسيار
ألقت ببابك رحلها ولطالما * ألقى الغريب به عصا التسيار
علمت ملوك الارض أنك فخرها * فتسابقت لرضاك فى مضمار

يتبوّؤن به وان بعد المدى * من جاهك الاعلى أعز جوار
فارفع لواء الفخر غير مدافع * واسحب ذيول العسكر الجرّار
واهنأ بأعياد الفتوح مخوّلا * ماشئت من نصر ومن أنصار
واليك هامن روض فكرى نفحة * شف الثناء بها على الازهار
فى فصل منطقها وراثق رسمها * مستمتع الاسماع والابصار
وتميل من أصغى لها فكأنني * عاطيته منها كؤس عقار

﴿مقتل السلطان أبي سالم رحمه الله والسبب فى ذلك﴾

كان السلطان أبو سالم رحمه الله قد غلب على هواه الخطيب أبو عبد الله بن مرزوق وألقى زمام الدولة بيده فنقم خاصة السلطان وحاشيته ذلك عليه وسخطوا الدولة من أجله ومرضت قلوب أهل الحل والعقد من تقدمه فتربصوا بالدولة الدوائر الى ان كانت أواخر سنة اثنتين وستين وسبعمائة فتحول السلطان أبو سالم عن دار الملك من فاس الجديد الى القصبة من فاس القديم واختط بها ايوانا فخما لجلوسه فلما استولى عمر بن عبد الله بن على بن سعيد الفودودى أحد كبراء الدولة ووزرائها على دار الملك اذ كان السلطان أبو سالم قد خلفه أمينا عليها حدّثته نفسه بالتوثب وسهل ذلك عليه ما كان قد عرفه من مرض القلوب على السلطان لمكان ابن مرزوق فداخل قائد جند النصارى غرسية بن أنطول واتعدوا لذلك ليلة الثلاثاء السابع عشر من ذى القعدة من السنة المذكورة فعمدوا الى تاشفين الموسوس ابن أبى الحسن فخلعوا عليه وألبسوه شارة الملك وقربوا اله مركبا وأجلسوه مجلس السلطان وأكرهوا شيخ الحامية والناشبة محمد بن الزرقاء على البيعة له وجاهروا بالخلعان وقرعوا الطبول ودخلوا الى بيت المال ففرضوا العطاء من غير تقدير ولا حساب وماج الجند بفاس الجديد بعضهم فى بعض واختطفوا ما وصلوا اليه من العطاء ثم انتهبوا ما كان بالمخازن الخارجة من السلاح والعدّة وأضرموا النيران فى بيوتها استترا على ماضاع منها وأصبح السلطان أبو سالم بمكانه من قصبة فاس القديم وكان قد تحوّل اليها فرارا من قاطع فلكى تخوّفه اياه بعض منجميه فكان البلاء فيه موكلا بالمنطق فلما علم بالكائنة ركب واجتمع اليه من حضر من أوليائه وغدا على فاس الجديد وطاف بها يروم اقتحامها فامتنعت عليه ثم اضطرب معسكره بكدية العرائس لحصارها ونادى فى الناس بالاجتماع اليه ولما كان وقت الهاجرة دخل فسطاطه للقيلولة فتسايل الناس عنه الى فاس الجديد فوجا بعد فوج بمرءى منه الى ان انفض عنه خاصته وأهل مجلسه فطلب النجاء بنفسه وركب فى لمة من الفرسان وفيهم وزيراه سليمان بن داود ومسعود بن عبد الرحمن بن ماساى ومقدم الموالى والجند ببابه سليمان بن ونصار وأذن لابن مرزوق فى الدخول الى داره ومضى هو على وجهه فمن معه ولما غشيهم الليل انفضوا عنه حتى بقى وحده ورجع الوزيران الى دار الملك فتقبض عليهما رئيس الثورة عمر بن عبد الله الفودودى ومشاركه فيها غرسية بن انطول النصرانى واعتقلاهما متفرقين وبعث عمر بن عبد الله الطلب فى أثر السلطان أبى سالم فعثروا عليه نائما من الغد فى بعض المجاشر بوادى ورغة وقد غير لباسه اختفاء بشخصه وتواريا عن العيون بمكانه فتقبضوا عليه وحملوه على بغل وطير وا بالخبر الى عمر بن عبد الله فأزعج لتلقيه شعيب بن ميمون بن وردار وفتح الله ابن عامر بن فتح الله السدراتى وأمرهما بقتله وانفاذ رأسه فلقياه بخندق القصب ازاء كدية العرائس فأمر ابعض جند النصارى أن يتولى ذبحه ففعل وحملوا رأسه فى مخلاة ووضعوه بين يدى الوزير الثائر ومشيخته وكان ذلك يوم الخميس الحادى والعشرين من ذى القعدة سنة اثنتين وستين وسبعمائة ودفن بالقلة خارج باب الجيسة بأعلى جبل العرض المعروف بجبل الزعفران ﴿قال ابن الخطيب فى الاحاطة﴾ كان السلطان أبو سالم رحمه الله بقية البيت وآخر القوم دماثة وحياء وبعدا عن الشرور وركونا للعافية

قال وأنشدت على قبره الذي ووريت به جثته قصيدة أديت فيها بعض حقه

بنى الدنيا بنى لمع السراب * لدوا للموت وابنوا للخراب اه

ومن أعيان وزرائه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق العجيسي الخطيب المشهور الذي مر ذكره آنفا ومن قضاة عسكره أبو القاسم محمد بن يحيى الاندلسي البرجي ومن أعيان كتابه الرئيس أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون صاحب التاريخ وأبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان النجاري من أهل مالقة صاحب كتاب السياسة وغيره * ومما نظمه هذا الفاضل عن اذن السلطان أبي سالم رحمه الله ليكتب في طرة قبة رياض الغزلان من حضرته قوله

هذا المحل المنى بالامن معمور * من حله فهو بالامان محبور
مأوى النعيم به ماشئت من ترف * تهوى محاسنه الولدان والحور
ويطلع الروض منه مصنعا عجبا * يضاحك النور من لألائه النور
ويسطع الزهر من أرجائه أرجا * ينافح الند نشر منه منشور
مغنى السرور سقاه الله ما حملت * غر الغمام وحلته الازاهير
أنظر الى الروض تنظر كل معجبة * مما ارتضاه لرأى العين تحبير
مر النسيم به يبغى القرا فقرا * دراهم النور تبديد وتنثير
وهامت الشمس فى حسن الظلال به * ففرقت فوقه منها دنانير
والدوح ناعمة تهتز من طرب * مما وصوت غناء الطير مجهور
كأنما الطير فى أفنانها صدحت * بشكر مالكها والفضل مشكور
والنهر شق بساط الارض تحسبه * سيفا ولكنه فى السلم مشهور
ينساب للجنة الخضراء أزرقه * كالايم جدانسياب وهو مذعور
هذى مصانع مولانا التى جمعت * شمل السرور وأمر السعد مأمور
وهذه القبة الغراء ما نظرت * لشكلها العين الا عز تنظير
ولا يصورها فى الفهم ذو فكر * الا ومنه لكل الحسن تصوير
ولا يرام بحصر وصف ما جمعت * من المحاسن الا صد تقصير
فيها المقاصير تحميها مهابته * لله ما جمعت تلك المقاصير
كأنها الافق تبدو النيرات به * ويستقيم بها فى السعد تسيير
وينشأ المزن فى أرجائه وله * من عنبر الشحر انشاء وتسخير
وينهمى القطر منه وهو منسكب * ماء من الورد يذكو منه تعطير
وتخفق الريح منه وهى ناسمة * مما أهب به مسك وكافور
ويشرق الصبح منه وهو من غرر * غر تلألأ منهن الاسارير
وتطلع الشمس فيه من سنا ملك * تبسم الدهر منه وهو مسرور

ومضى فى مدح السلطان والله تعالى يتغمد الجميع برحمته وكرمه

﴿الخبر عن دولة السلطان أبي عمر تاشفين الموسوس ابن أبي الحسن المريني﴾

هذا السلطان كان محجوبا بالوزير عمر بن عبد الله الفودودي لا يملك معه ضرا ولا نفعا أمه أم ولد اسمها ميمونة صفته طويل القامة عظيم الهيكل بعيد ما بين المنكبين أعين أدعج وكان فارسا بطلا قوى الساعد الا أنه كان ناقص العقل ولما ثار عمر بن عبد الله بالسلطان أبي سالم وسعى فى هلاكه الى أن قتل كما مر استبد بأمر الدولة ونصب هذا الموسوس يموه به على الناس فبويع ليلة الثلاثاء التاسع

عشر من ذى القعدة سنة اثنتين وستين وسبعمائة حسبما سبق وكان نقصان عقل تاشفين من أجل الاسر الذى أصابه بوقعة طريف أيام والده السلطان أبى الحسن الى ان اقتدى وبقى ناقص العقل مختل المزاج الى أن كان من أمره ما كان

﴿الفتك بغرسية بن انطول قائد النصارى ومقتل جنده معه والسبب فى ذلك﴾

لما قبض عمر بن عبد الله على الوزير بن مسعود بن عبد الرحمن بن ماساى وسليمان بن داود وسجنهما متفرقين فاخذ اليه ابن ماساى لمكان صهره منه ودفع لغرسية سليمان بن داود وكان سليمان بن ونصار قد فرّ مع السلطان أبى سالم كامر ولما رجع عنه فيمن رجع نزل على غرسية فقبله وأكرمه وكان يعاقره الخمر فاوضه ذات ليلة فى الثورة بعمر بن عبد الله واعتقاله واقامة سليمان بن داود المسجون بداره مقامه لما هو عليه من السن ورسوخ القدم فى الامر ونمى الخبر بذلك الى عمر بن عبد الله فارتاب وكان خلوا من العصبية ففزع الى قائد المركب السلطانى من ناشبة الاندلس ورماتها وهو يومئذ ابراهيم البطروجى فعاقده على أمره وبايعه على الاستماتة دونه ثم رأى أن ذلك لا يكفيه ففزع ثانيا الى يحيى ابن عبد الرحمن شيخ بنى مرين وصاحب شوراهم فشكى اليه فاشكاه ووعده الفتك بابن أنطول وأصحابه وانبرم عقد ابن انطول وسليمان بن ونصار أيضا على عمر بن عبد الله وغدوا الى القصر وداخل ابن انطول طائفة من النصارى استظهارا بهم وتوافت بنو مرين بمجلس السلطان على عادتهم وحضر ابن أنطول والبطروجى ويحيى بن عبد الرحمن وغير هؤلاء من الوجوه فسأل عمر بن عبد الله من ابن انطول تحويل سليمان بن داود من داره الى السجن فأبى وضنّ به عن الاهانة حتى سأل مثلها من ابن ماساى صاحبه فامر عمر بالتقبض عليه فكثر فى وجوه الرجال واخترط سكينه للمدافعة فتواثبت بنو مرين عليه وقتلوه لحينه واستلحموا من وجدوا بالدار من جند النصارى عند دخولهم مع قائدهم وفرّ بعضهم الى معسكرهم ويعرف بالملاح جوار فاس الجديد وأرجف الغوغاء بالمدينة أن ابن أنطول قد غدر بالوزير فقتلوا جند النصارى حيث وجدوهم من سكك المدينة وتزاحفوا الى الملاح لاستلحام من بقى به منهم وركبت بنو مرين لحماية جندهم من معرة الغوغاء وانتهب يومئذ الكثير من أموالهم وآنيتهم وأمتعتهم وقتل النصارى أيضا كثيرا من مجان المسلمين كانوا يعاقرون الخمر بالملاح ثم سكنت الهيعة وما كادت واستبد عمر بن عبد الله بدار الملك واعتقل سليمان بن ونصار الى الليل ثم بعث من قتله بمحبسه وحوّل سليمان ابن داود الى بعض الدور من دار الملك فاعتقله بها واستولى على أمره ثم خاطب عامر بن محمد الهنتاتى فى اتصال اليد به واقتسام ملك المغرب بينه وبينه وبعث اليه بابى الفضل ابن السلطان أبى سالم اعتده عنده ليوم ما ثم فسد ما بينه وبين مشيخة بنى مرين فاجتمعوا على كبيرهم يحيى بن عبد الرحمن وعسكروا بباب الفتوح واستدعوا عبد الحليم بن أبى على ابن السلطان أبى سعيد من تلمسان على ما نذكره

﴿ظهور عبد الحليم بن أبى على بن أبى سعيد ومحاصرته لفاس الجديد ثم فراره عنها﴾

قد قدمنا فى أخبار السلطان أبى الحسن أن أخاه أبا على صاحب سجلماسة كان قد انتقض عليه فامكنه الله منه فقتله وكفل أولاده فلم يميز بينهم وبين أولاده فى شئ من الاشياء ولما أفضى الامر الى أبى عنان بعث جماعة من اخوته وقرابته الى الاندلس تحت حياطة ابن الاحمر وكان فيهم أولاد أبى على هؤلاء ثم بعد حين سرحوا وقدموا تلمسان على سلطانها أبى حمو ابن يوسف فكانوا عنده الى هذا التاريخ فلما فسد ما بين عمر بن عبد الله وشيوخ بنى مرين بعثوا الى تلمسان جماعة منهم لاستقدام عبد الحليم المذكور فسرّحه أبو حمو وأعانه بشئ من الآلة وجمع عليه من رغب فى طاعته وزحف الى فاس فتلقته جماعة بنى مرين بسبو ونزلوا على فاس الجديد يوم السبت سابع محرم سنة ثلاث وستين

وسبعمائة

وسبعمائة واضطربوا معسكرهم بكدية العرائس وحاصروا دار الملك سبعة أيام وتتابعت وفودهم وحشودهم ثم ان عمر بن عبد الله برز يوم السبت القابل فى مقدمة السلطان تاشفين بمن معه من جند المسلمين والنصارى براجحة وناشبة ووكل بالسلطان من جاء به فى الساقة على التعبية المحكمة وناوشهم الحرب فزحفوا اليه فاستطرد لهم ليتمكن الناشبة من عقرهم من الاسوار حتى فشت فيهم الجراحات ثم صمم نحوهم فانفرج القلب وانفضت الجموع ثم زحف السلطان تاشفين فى الساقة فابذعروا فى الجهات وافترق بنو مرين الى مواطنهم ولحق يحيى بن عبد الرحمن بمراكش مع مبارك بن ابراهيم شيخ الخلط ولحق عبد الحليم واخوته بتازا بعد ان شهد لهم رجال الدولة بصدق الجلاد وحسن البلاء فى ذلك المقام ثم ان الوزير عمر بن عبد الله راجع بصيرته فى تقديم المعتوه للامر وعلم ان الامر لا يستقيم له بذلك فبادر باستقدام أبى زيان محمد بن أبى عبد الرحمن يعقوب ابن السلطان أبى الحسن وكان عند الطاغية بدار الحرب فقدم وخلع الوزير المذكور سلطانه الموسوس يوم الاثنين الحادى والعشرين من صفر سنة ثلاث وستين وسبعمائة فكانت دولته ثلاثة أشهر ويومين ومات وسنه ستون سنة والله تعالى أعلم

﴿الخبر عن دولة السلطان المتوكل على الله أبى زيان محمد بن أبى عبد الرحمن يعقوب بن أبى الحسن المرينى﴾

هذا السلطان كان محجورا للوزير عمر بن عبد الله أيضا كنيته أبو زيان لقبه المتوكل على الله أمه أم ولد اسمها فضة صفته آدم اللون شديد الادمة معتدل القامة منفرج الانف دقيق العينين ﴿وقال ابن الخطيب فى الاحاطة﴾ حاله فاضل سكون منقاد مشتغل بخاصة نفسه قليل الكلام حسن الشكل درب بركض الخيل مفوض للوزراء عظيم التأنى لاغراضهم وكان قبل ولايته عند الطاغية بالاندلس فرّ اليه خوفا على نفسه ولما التبست الامور على عمر بن عبد الله طلبه الى الطاغية فسمح به بعد اشتراط واشتطاط وفصل من اشبيلية فى المحرم فاتح سنة ثلاث وستين وسبعمائة ونزل بسبتة وبها سعيد بن عثمان من قرابة الوزير عمر بن عبد الله أرصده لقدومه فطير اليه بالخبر فحينئذ خلع عمر تاشفين الموسوس وبعث الى السلطان أبى زيان بالبيعة والآلة والفساطيط ثم جهز عسكر اللقائه فتلقوه بطنجة وأغذ السير الى الحضرة فنزل منتصف صفر بكدية العرائس واضطرب معسكره بها وتلقاه يومئذ الوزير عمر بن عبد الله اليابانى وبادعه وأخرج فسطاطه فاضطربه بمعسكره وتلوم السلطان أبو زيان هنالك ثلاثا ثم دخل فى اليوم الرابع الى قصره واقتعد أريكته وتودع ملكه ﴿وقال ابن الخطيب فى الاحاطة﴾ كان دخوله داره مغرب ليلة الجمعة بطالع الثامن من السرطان وبه السعد الاعظم كوكب المشترى من السيارة السبعة اهـ ولما تم له الامر خاطبه ابن الخطيب من سلا مهنئا له بقوله

يا ابن الخلائف ياسمى محمد * يامن علاه ليس يحصر حاصر
ابشر فأنت مجدد الملك الذى * لولاك أصبح وهو رسم داثر
من ذا يعاند منك وارثه الذى * بسعوده فلك المشيئة دائر
ألقت اليك يد الخلافة أمرها * اذ كنت أنت لها الولى الناصر
هذا وبينك للصريخ وبينها * حوب مضرسة وبحر زاخر
من كان هذا الصنع أول أمره * حسنت له العقبى وعز الآخر
مولاى عندى فى علاك محبة * والله يعلم ماتكن ضمائر
قلبى يحدثنى بانك جابر * كسرى وحظى منك حظ وافر
بشرى بجدودك قد حططت حقيبتى * فوسيلتى لعلاك نور باهر
وبذلت وسعى واجتهادى مثل ما * يلقى للملك سيف أمرك عامر
فهو الولى لك الذى اقتحم الردى * وقضى العزيمة وهو سيف باتر

وولى جدك فى الشدائد عندما * خذلت علاه قبائل وعشائر
فاستهدمنه النصح واعلم انه * فى كل معضلة طبيب ماهر
ان كنت قد عجلت بعض مدائحى * فهى الرياض وللرياض بواكر

ثم أتبعها بنثر أضربنا عنه اختصارا والله تعالى الموفق

﴿وفادة ابن الخطيب من سلا على السلطان أبى زيان بن أبى عبد الرحمن رحمهما الله﴾

﴿وقال فى الاحاطة﴾ وفدت على السلطان أبى زيان بن أبى عبد الرحمن بن أبى الحسن من محل الانقطاع بسلا وأنشدته قولى

لمن علم فى هضبة الملك خفاق * أفاقت به من غشية الهرج آفاق
تقبل رياح النصر عنه غمامة * تمد لها أيد وتخضع أعناق
وبيعة شورى أحكم السعد عقدها * وأجمل اجماع عليها واصفاق
قضى عمر فيها بحق محمد * فحصل عهد للوفاء وميثاق
أحلما ترى عيناى أم هى فترة * أعندكما فى مشكل الامر مصداق
وفاض لفضل الله فى الارض تبتغى * ومجتمعات لا تريب وأسواق
وسرح تهنيه الكلاءة بالكلا * وقام لسقى الغيث قام له ساق
وقد كان طيف الحلم لا يدمل الخطا * وللفتنة العمياء فى الارض اطباق
وللغيث امسالك وفى الارض رجفة * وللدين والدنيا وجوم واطراق
فكل فريق فيه للبغى راية * وكل طريق فيه للعيث طراق
أجل انه من آل يعقوب وارث * يحن له البيت العتيق ويشتاق
له من جناح الروح ظل مسجف * ومن رفرف العز الالهى رستاق
أطل على الدنيا وقد عاد ضوءها * دجى وعلى الاحداق للدعر احداق
فأشرقت الارجاء من نور ربها * وساح بها لله لطف واشفاق
فمن ألسن بالشكر لله أعلنت * وكان لها من قبل همس واطباق
وليس لامر أبرم الله ناقض * وليس لمسعى النجح فى الله اخفاق
محمد قد أحييت دين محمد * وللخلق ادماء تفيض وارماق
ولولم تنب غطى على شفق الضحا * دم لسيوف البغى فى الارض مهراق
فأين بحثهون من الفلك سابح * له باختيار الله حط وايساق
افلك والدأماء تظهر طاعة * اليك وصفح الماء أزرق رقراق
الى هدف السعد انبرى منه والدجا * تضل الجنى سهم من السعد رشاق
خططت لتقويم القوام جداول * وصحت من التوفيق واليمن أوفاق
تبارك من أهداك للخلق رحمة * ومستبعد أن يهمل الخلق خلاق
هو الله يبلو الناس بالخير فتنة * وبالشر والايام سم وترياق
سمت منك أعناق الورى لخليفة * له فى مجال السعد عدو واعناق
وقالوا بنان ما استقل بكفه * تفيض على العافين أم هى أرزاق
وأطنب فيك المادحون وأغرقوا * فلم يجد الاطناب ولم يغن اغراق
ألست من القوم الذين أكفهم * غمام ندى ان أخلف الغيث غيداق
ألست من القوم الذين وجوههم * بدور لها فى ظلمة الروع اشراق

رياض اذا العافى استظل ظلالها * ففيها جنى ملء الاكف وايراق
أبوك ولى العهد لوسالم الردى * وجدك قد فاق الملوك وان فاقوا
فمن ذا له جد كجدك أو أب * لا لىء والمجد المؤثل نساق
وحسب العلى فى آل يعقوب انهم * هم الاصل فى العلياء والناس الحاق
أسود سروج أو بدور أسرة * فان حاربوا راعوا وان سالموا راقوا
يطول لتحصيل الكمال سهادهم * فهم للمعالى والمكارم عشاق

﴿ومنها﴾

لقد نسيت احسان جدك فرقة * ترن على أعناقهم منه أطواق
أجازت خروج ابن ابنه عن تراثه * ولم تدر ما ضمت من الذكر أوراق
ومن دون ما راموه لله قدرة * ومن دون ما أموه للفتح اغلاق
خذ العفو وابذل فيهم العرف ولتسع * جريرة من أبدى لك الغدر أخلاق
فربتما تنبو مهندة الظبى * وتهفو حلوم القوم والقوم حذاق
وما الناس الا مذنب وابن مذنب * ولله ارفاد عليهم وارفاق
ولا تربح فى كل الامور سوى الذى * خزائنه ما ضرها قط انفاق
اذا هو أعطى لم يضر منع مانع * وان حشدت طسم وعاد وعملاق
عرفت الردى واستأثرت بك العدا * تخوم لمحط الصليب واعماق
فسر لليسرى واحبابك الورى * وللروع ارعاد عليك وابراق
فجاز صنيع الله وازدد بشكره * مواهب جود غيثها الدهر دفاق
وأوف لمن أوفى وكاف الذى كفى * فانت كريم طهرت منك اعراق
وتهنيك يا مولى الملوك خلافة * شجتها تباريح اليك وأشواق
فقد بلغت أقصى المنى بك نفسها * وكم فاز بالوصل المهنا مشتاق
فلا راع منها السرب للدهر رائع * ولا نال منها جدة السعد اخلاق
أمولاى براع الدهر سربى وغالنى * فطرفى مذعور وقلبى خفاق
وليس لكسرى غيرك اليوم جابر * ولا لبدى الا بجدك اعلاق
ولى فيك ود واعتداد غرسته * فراقت به من يانع الحمد أوراق
وقد عيل صبرى فى ارتقابى خليفة * تحل به للضر عنى أوهاق
وأنت حسام الله والله ناصر * وأنت أمين الله والله رزاق
وأنت الامان المستجار من الردى * اذا راع خطب أو توقع املاق
وأهون ما يرجى لديك شفاعة * اذا لم يكن عزم حثيث وارهاق
ودونك ها من ذائع الحمد خالص * له فيك تقييد يروق واطلاق
اذا قال اما كل سمع لقوله * فصغو وأما كل أنف فنشاق
ودم خافق الاعلام بالنصر كلما * ذهبت لسعى لم يكن فيه اخفاق

قال وعدت منه ببر كثير واحترام شهير يشير بذلك الى ما أكرمه به وكتب له من الظهير الذى يتضمن كمال الاحترام والتوقير ونصه هذا ظهير كريم من أمير المسلمين فلان أيده الله ونصره وسنى له الفتح المبين ويسره للشيخ الفقيه الاجل الاسنى الاعز الاحظى الارفع الامجد الاسمى الاوحد الانوه الارقى العالم العلم الرئيس الاعرف المتفنن الابرع المصنف المفيد الصدر الاحفل الافضل الاكمل أبى عبد الله ابن الشيخ

الفقيه الوزير الاجل الاسنى الاعز الارفع الامجد الوجيه الانوه الاحفل الافضل الحسيب الاصيل الاكمل المبرور المرحوم أبي محمد ابن الخطيب قابله أيده الله بوجه القبول والاقبال وأضفى عليه ملابس الانعام والافضال ورعى له خدمة السلف الرفيع الجلال وما تقرر من مقاصده الحسنة في خدمة أمرنا العال وأمر في جملة ما سوغه من الآلاء الوارفة الظلال الفسيحة المجال بان يجدد له حكم ما بيده من الاوامر المتقدم تاريخها المتضمنة تعشية خمسمائة دينار من الفضة العشرية في كل شهر عن مرتب له ولولده الذى لنظره من محبى مدينة سلا حرسها الله ومن حيث جرت العادة ان تمشى له ورفع الاعتراض بابها فيما يجلب له من الادم والاقوات على اختلافها من حيوان وسواه وفيما يستفيده خدامه بخارجها وأحوازها من عنب وقطن وكتان وفاكهة وخضر وغير ذلك فلا يطلب في شئ من ذلك بغرم ولا وظيف ولا يتوجه فيه اليه بتكليف يتصل له حكم جميع ما ذكر في كل عام تجديدا تاما واحتراما عاما اعلن بتجديد الحظوة واتصالها واتمام النعمة واكمالها من تواريخ الاوامر المذكورة الى الآن ومن الآن الى ما يأتي على الدوام واتصال الايام وان يحمل جانبه فيمن يشركه أو يخدمه محمل الرعى والمحاشاة في السخر مهما عرضت والوظائف اذا افترضت حتى يتصل له تالد العناية بالطارف وتتضاعف أسباب المنن والعوارف بفضل الله وتحرر له الازواج التي يحرثها بتامسنا غنت من كل وجيبة وتحاشى من كل مغرم أو ضريبة بالتحرير التام بحول الله وعونه ومن وقف على هذا الظهير الكريم فليعمل بمقتضاه وليمض ما أمضاه ان شاء الله وكتب في العاشر من شهر ربيع الآخر من سنة ثلاث وستين وسبعمائة وكتب في التاريخ اه وقوله وكتب في التاريخ هو العلامة السلطانية في ذلك الزمان يكتب بقلم غليظ وبعض ملوك المغرب يكتب عند العلامة صح في التاريخ

﴿وفادة عامر بن محمد الهنتاتي على السلطان أبي زيان بن أبي عبد الرحمن رحمهما الله﴾

كان الوزير عمر بن عبد الله اليابانى مودة ومصافاة مع الرئيس الشهير أبي ثابت عامر بن محمد الهنتاتى كبير جبل درن والبلاد المراكشية وكان الوزير عمر المذكور قد بعث اليه بصهره وظهيره على الملك مسعود بن عبد الرحمن بن ماساى يكون عنده عدة وعتاد اليوم ما فلما بويع السلطان أبو زيان استقدم عمر بن عبد الله صهره المذكور لوزارته وكان عامر بن محمد مجمعا القدوم على السلطان المذكور فقدم في صحبته مسعود ونزلا من الدولة بخير منزل وعقد السلطان أبو زيان لمسعود المذكور على وزارته باشارة الوزير عمر بن عبد الله فاضطلع بها ودفعه عمر اليها استمالة اليه وثقة بمكانه واستظهارا بعصبيته وعقد مع عامر بن محمد الحالف على مقاسمة المغرب شق الابلة وجعل امارة مراكش لابى الفضل ابن السلطان أبي سالم اسعافا لغرض عامر بن محمد في ذلك وخطب اليهم عامر بنت السلطان أبي بكر الحفصى التي توفى عنها السلطان أبو عنان فاجابوه وجاوا أولياءها على العقد عليها وانكفأ راجعا الى مكان عمله بمراكش يجر الدنيا وراءه عزا وثروة وتابعا وذلك في جمادى الاولى من سنة ثلاث وستين وسبعمائة فاستقل بامر الناحية الغربية من مراكش وجبال المصامدة وما اليها من الاعمال واستبد بها ونصب أبا الفضل ابن السلطان أبي سالم صورة واستوزر له وتمكن سلطانه وعلا ذكره وصارت كأنها دولة مستقلة فصرف اليه النازعون من بني مرين عن الدولة وجوه مفرهم ولجؤا اليه فاجارهم على السلطان واجتمع اليه منهم ملأ واتسع الخرق على الراقع واضطربت الاحوال بالمغرب وخرج على السلطان أبي زيان الامير عبد الحليم بن أبي على بن أبي سعيد وتغلب على سجلماسة وأعمالها ثم غلب عليه أخوه عبد المؤمن بن أبي على فخرج عبد الحليم الى المشرق لقضاء فريضة الحج واستمر عبد المؤمن بسجلماسة وأقام بها دولة كما كان لوالده من قبل الى ان فتحها الوزير مسعود بن عبد الرحمن بن ماساى وأضافها الى ممالكه فاس ثم انتقض الوزير مسعود أيضا وبايع الامير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن بن أبي على ونصبه للامر وصار يشوش به

على

على الدولة وشرق عمر بن عبد الله بدائه فى أخبار طويلة ولما لم يتم له أمر عبرهو وسلطانه البحر من مرسى غساسة الى الاندلس فاتح سنة سبع وستين وسبعمائة وأقبلا على الجهاد واستراح الوزير عمر وسلطانه أبو زيان من شغبهما والله غالب على أمره

﴿مقتل السلطان أبى زيان بن أبى عبد الرحمن رحمه الله﴾

لما طال استبداد الوزير عمر بن عبد الله على السلطان أبى زيان وحجره اياه اذ كان وضع عليه الرقباء والعيون حتى من حرمه وأهل قصره عزم على الفتك بالوزير المذكور وتناجى بذلك مع بعض ندمائه وأعد له طائفة من العبيد كانوا يختصون به فنمى ذلك الى الوزير بواسطة بعض الحرم كانت عيناله عليه فعاجله وكان قد بلغ من الاستبداد عليه ان كان الحجاب مرفوعا له عن خلوات السلطان وحرمه فدخل عليه وهو فى وسط حشمه فطردهم عنه ثم غطه حتى فاظ وأمر به فالقى فى بئر بروض الغزلان واستدعى الخاصة فأراهم مكانه بها وأنه سقط عن دابته وهو سكران وذلك فى محرم فاتح سنة ثمان وستين وسبعمائة كذا عند ابن خلدون ﴿وقال فى الجذوة﴾ توفى يوم الاحد الثانى والعشرين من ذى الحجة سنة سبع وستين وسبعمائة وله ثمان وعشرون سنة ودفن بجامع قصره فكانت دولته أربع سنين وعشرة أشهر ويوما واحدا والله أعلم

﴿الخبر عن دولة السلطان أبى فارس عبد العزيز بن أبى الحسن رحمه الله﴾

هذا السلطان هو الذى أنعش دولة بنى مرين بعد تلاشيها وأعاد اليها شبابها بعد هرمها وتقاضيها وأزال عنها وصمة الحجر والاستبداد وأعادها من العز الى حالها المعتاد وهو الذى ذكره ابن خلدون فى أول تاريخه الكبير وألفه برسمه وحلى ديباجته باسمه أمه مولدة اسمها مريم صفته آدم اللون شديد الادمة طويل القامة يشرف على الناس بطوله نحيف الجسم أعين أدعج أخنس فى وجهه أثر جدرى وكان عفا متمسكا بالدين محبا فى الخير وأهله لم يشرب خمرا ولا وقع فى فاحشة قط وبالجملة فقد كان من صالحى الملوك رحمه الله ﴿ولما﴾ كان من الوزير عمر بن عبد الله البابانى الى السلطان أبى زيان رحمه الله ما كان من الخنق والالقاء فى البئر استدعى عبد العزيز بن أبى الحسن هذا وكان فى بعض الدور من القصبة بفاس محتاطا عليه من قبل الوزير المذكور فأحضره بالقصر وأجلسه على سرير الملك وبايعه وفتحت الابواب لبنى مرين وسائر الخاصة والعامة فازدحموا على تقبيل يده معطين الصفقة بطاعته فتم أمره وثبت ملكه وذلك يوم الاحد الثانى والعشرين من ذى الحجة سنة سبع وستين وسبعمائة ثم ان الوزير عمر جرى معه على عادته من الاستبداد ومنع التصرف فى شئ من أمور الملك فأنف السلطان عبد العزيز من ذلك وتأفف منه ودارت بينه وبين الوزير أمور والى ان عمل السلطان على الفتك به فأعد له جماعة من الخصيان بزوايا داره ثم أحضره وو بخه وثار به أولئك الخصيان فتناولوه هبرا بالسيوف وصاح الوزير المذكور صيحة أسمع بها بطانته خارج الدار فوثبوا على الابواب فكسروها واقتحموا الدار فاذا صاحبهم مدرج بدمائه قد فرغ منه فولوا الادبار هاربين ثم تتبع السلطان عبد العزيز حاشية الوزير بالاعتقال والقتل حتى أتى على الجميع فى خبر طويل واستبد بملكه واضطلع به وأدار الامور فيه على ما ينبغى والله تعالى أعلم

﴿انتقاض أبى الفضل بن أبى سالم ثم مقتله بعد ذلك﴾

وقد قدمنا ان أبا الفضل بن أبى سالم كان قد عقد له الوزير عمر بن عبد الله على مراكش اسما فقط وكافله عامر ابن محمد الهنتاتى فلما قتل السلطان عبد العزيز الوزير المذكور سولت لابى الفضل نفسه مثلها فى عامر بن محمد لاستبداده عليه وأغراه بذلك بطانته فأحس عامر بالشر فتمارض بداره من مراكش

ثم استأذنه فى الصعود الى معتصمه من الجبل ليمرضه هنالك حرمه وأقاربه فارتحل بجملته واحتمل بحصنه وكان أعز من الابلق الفرد فيئس أبو الفضل من الاستمكان منه ثم أغرته بطانته اذ فاتهم عامر بالفتك بعبد المؤمن بن أبى على وكان قد انضاف اليه بعد اجفاله عن سجلماسة فسكر أبو الفضل ذات ليلة وبعث عن قائد الجند من النصارى فأمره بقتل عبد المؤمن بمكان معتقله من قصبة مراكش فجاء برأسه اليه وطار الخبر بذلك الى عامر فارتاع وحمد الله اذ خلصه من غائلته وبعث بيعته الى السلطان عبد العزيز وأغراه بأبى الفضل ورغبه فى ملك مراكش ووعده بالمظاهرة فأجمع السلطان أمره على النهوض اليها ونادى فى الناس بالعطاء وقضى أسباب حركته وارتحل من فاس سنة تسع وستين وسبعمائة وقد استبد أبو الفضل بمراكش وأعمالها وأقام بها رسم الملك واستوزر واستلحق وجعل شوراه لمبارك بن ابراهيم بن عطية الخلطى ولما نهض السلطان عبد العزيز من فاس اتصل خبره بأبى الفضل وهو بمنازل اعامر بن محمد فانفض معسكره ولحق بتادلا ليعتصم بجبل بنى جابر منها فاتبعه السلطان عبد العزيز اليها ونازله وأخذ بمخنقه وقاتله ففل عسكره ثم داخل بعض بنى جابر فى بعج الهزيعة عليه على مال يعطيه لهم ففعلوا وانهزمت جيوشه وتقبض على أشياعه وسيق مبارك بن ابراهيم الى السلطان عبد العزيز فاعتقله الى ان قتله مع عامر بن محمد كما نذكر ولحق أبو الفضل بقبائل صناكة وراء بنى جابر فداخل بنو جابر صناكة فى شأنه وبذلوا لهم عن السلطان مالا دثرا فى اسلامه فأسلموه وبعث السلطان اليهم وزيره يحيى بن ميمون فجاء به أسيرا وأحضره أمام السلطان فوبخه ثم اعتقله بفسطاط مجاور له ثم غط من الليل فكان مهلكه فى رمضان سنة تسع وستين وسبعمائة لمضى ثمان سنين من امارته على مراكش وبعث السلطان عبد العزيز الى عامر بن محمد يختبر طاعته فأبى عليه وجاهر بالخلاف الى ان كان من شأنه ما نذكره

﴿انتقاض عامر بن محمد الهنتاتى وحصار السلطان عبد العزيز اياه وظفره به﴾

كان عامر بن محمد الهنتاتى مجير السلطان أبى الحسن من ابنه أبى عنان على ما وصفناه من بلوغ الغاية فى الرياسة والاعتزاز على الدولة وطول الاستبداد بمراكش وأحوازها وكان قد حصل فى مدة رياسته على ثروة عظيمة وجاه كبير وكان له معتصم بجبل درن أعز من بيض الانوق قد حصن فيه ماله وسلاحه وذخيرته وكان كلما هاجه هيج صعد اليه وأمن على نفسه فلما صفا الامر للسلطان عبد العزيز جعل عامرا هذا من أهم أمره فنصب له واستعد لقتاله وعقد على وزارته لابى بكر بن غازى بن يحيى بن الكاس ونهض اليه من فاس سنة سبعين وسبعمائة فحاصره فى جبله سنة كاملة ولما طال الحصار على عامر وشيعته اختلفت كلمتهم عليه وفسد ما بينه وبين ابن أخيه فارس بن عبد العزيز بن محمد فبعث الى السلطان وسهل له الطريق لاقتحام الجبل فزحفت العساكر والجنود وشارفت المعتصم ولما استيقن عامر ان قد أحيط به بعث الى ابنه أبى بكر أن يلحق بالسلطان مختاراله ومشيراعليه بالتى هى أحسن وأسلم فالقى الولد بنفسه الى السلطان فقبله وبذل له الامان وألحقه بجملته وانتبذ عامر عن الناس وذهب لوجهه ليخاص الى السوس فرده الثلج وقد كانت السماء أرسلت به منذ أيام حتى تراكم بالجبل بعضه على بعض وسد المسالك فاقتحمه عامر حتى هلك فيه بعض حرمه ونفق مركوبه وعاين الهلكة العاجلة فرجع أدراجه مختفيا حتى أوى الى غار مع أدلاء كان قد استخلصهم وبذل لهم مالا على أن يسلكوا به ظهر الجبل الى صحراء السوس فأقاموا ينتظرون امساك الثلج وقد شدد السلطان عبد العزيز فى التنقير عنه والبحث فعثر عليه بعض البربر بالغار المذكور فسيق الى السلطان فأحضره بين يديه ووبخه فاعتذر واعترف بالذنب ورغب فى الاقالة فحمل الى مضرب بنى له بازاء فسطاط السلطان واعتقل هنالك واطلقت الايدى على معاقل عامر ودياره فانتهب من الاموال والسلاح والذخيرة والزرع والاقوات ما لاعين

رأت

رأت ولا أذن سمعت واستولى السلطان على الجبل ومعاقله في رمضان من سنة احدى وسبعين وسبعمائة لحول من يوم حصاره وعقد على هنتاتة لابن أخي عامر وهو فارس بن عبد العزيز بن محمد بن على الهنتاتي وارتحل الى فاس فاحتل بها آخر رمضان المذكور ودخلها في يوم مشهود برز فيه الناس وحمل عامر وسلطانه تاشفين من بني عبد الحق كان نصبه للامر يموه به على عادته فحملا معا على جملين وقد فرغ عليهما البابس رث وعبثت بهما أيدي الاهانة فكان ذلك عبرة لمن رآه ولما قضى السلطان عبد العزيز نسك عيد الفطر أحضر عامرا فقرعه بذنوبه وأتى بكتاب بخطه يخاطب فيه أباحمو ابن يوسف الزياني ويستنجده على السلطان فشهد عليه به وأمر السلطان بامتحانه فلم يزل يجلد حتى أنتن لحمه وضرب بالعصى حتى ورمت أعضاؤه وهلك بين يدي الوزعة وجنب تاشفين سلطانه الى مصرعه فقتل قعصا بالرماح وجنب مبارك بن ابراهيم الخلطي من محبسه بعد الاعتقال فالحق بهم ولكل أجل كتاب وصفا الجو للسلطان عبد العزيز من المنازعين وتفرغ لغزو تلمسان على مانذكره ان شاء الله

﴿ارتجاع الجزيرة الخضراء من يد الاصبنيول﴾

قد قدمنا ما كان من استيلاء الطاغية على الجزيرة الخضراء أيام السلطان أبي الحسن رحمه الله فاستمرت في ملكتهم الى هذا التاريخ فنشأت بينهم فتنة وتقاتلوا على الملك وأعروا ثغورهم الموالية للمسلمين من الحامية والجند فبقيت عورة وتشوف المسلمون الى ارتجاع الجزيرة الخضراء التي قرب عهدهم بانتظامها في ملكة المسلمين وكان السلطان عبد العزيز في شغل عن ذلك بفتنة أبي الفضل بن أبي سالم وعامر بن محمد وانتقاضهما فبعث الى ابن الاحمر صاحب الاندلس أن يزحف اليها بعساكره وعليه عطاؤهم وامدادهم بالمال والاساطيل على أن تكون مثوبة جهاده خالصة له فأجاب ابن الاحمر الى ذلك وبعث اليه السلطان عبد العزيز باحمال المال وأوعز الى أساطيله بسبتة فانعمرت وأقلعت حتى احتلت عرسي الجزيرة الخضراء لحصارها وزحف ابن الاحمر بعساكر المسلمين على آثرها بعد ان قسم فيهم العطاء وأزاح العلل وأعد الآلات للحصار فنازلها أياما قلائل ثم أيقن النصارى بالهلكة لبعدهم عن الصريخ ويأسهم من مدد ملوكهم فألقوا باليد وسألوا النزول على الصلح فأجابهم ابن الاحمر اليه ونزلوا عن البلد وأقيمت فيه شعائر الاسلام ومحيت منه كلمة الكفر وكتب الله أجرها لمن أخلص في معاملته وكان ذلك سنة سبعين وسبعمائة وولى ابن الاحمر عليهما من قبله ولم تزل الى نظره الى ان وقع الاختيار على هدمها خشية استيلاء النصرانية عليها مرة أخرى فهدمت أعوام الثمانين وسبعمائة وأصبحت خاوية كأن لم تغن بالامس

﴿نهوض السلطان عبد العزيز الى تلمسان واستيلاؤه عليها وفرار سلطانها أبي حمو ابن يوسف عنها﴾

كان أبو حمو ابن يوسف الزياني قد فسد ما بينه وبين عرب سويد وقبض على بعض رؤسائهم محمد بن عريف فاستصرخوا عليه السلطان عبد العزيز وكانت القوارص لا تزال تسرى اليه من أبي حمو المذكور فصادفوا منه صاغية الى ما التمسوا منه واعتزم على النهوض الى تلمسان وبعث الحاشرين الى الجهات المراكشية فتوافى الناس اليه على طبقاتهم واجتمعوا عنده أيام منى سنة احدى وسبعين وسبعمائة فافاض العطاء وأزاح العلل ولما قضى نسك عيد الاضحى عرض الجند ونهض الى تلمسان فاحتل بتازا واتصل خبره بابي حمو فجمع الجموع وهم باللقاء ثم اختلفت كلمة أصحابه وتفرق عنه العرب من بني معقل فاجفل هو وأشياعه من بني عامر بن زغبة فدخلوا القفر وتقدم السلطان عبد العزيز فاحتل بتلمسان يوم عاشوراء من سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة فدخلها في يوم مشهود واستولى عليها وعقد لوزيره أبي بكر بن غازي بن الكاس على عساكر من بني مرين والعرب وسرحه في اتباع أبي حمو فادركه

ببعض بلاد زناتة الشرق فاجهضوه عن ماله ومعسكره فانتهب باسره واكتسحت أموال العرب الذين معه ونجا بذمائه الى مصاب وتلاحق به ولده وقومه متفرقين على كل مفازة ثم دخلوا القفر بعد ذلك ودوّخ الوزير المذكور بلاد المغرب الاوسط وشرد عصاته واستنزل ثواره فى أخبار طويلة واستولى السلطان عبد العزيز على سائر الوطن من الامصار والاعمال وعقد عليها الولاة والعمال واستوسق له ملك المغرب الاوسط كما كان لسلفه واستمر مقيما بتلمسان الى ان كان ماذكره

﴿نزوع الوزير ابن الخطيب عن سلطانه الغني بالله الى السلطان عبد العزيز بتلمسان﴾

قد قدمنا ما كان من رجوع الغنى بالله ابن الاحمر الى ملكه بالاندلس سنة ثلاث وستين وسبعمائة ولما استولى على غرناطة وثبت قدمه بها بعث عن مخلفه بفاس من الاهل والولد والقائم بالدولة يومئذ عمر بن عبد الله فاستقدم عمر بن الخطيب من سلا وبعثهم الى نظره فسر السلطان ابن الاحمر بمقدمه وردّه الى منزلته ودفع اليه تدبير المملكة وخلط بنيه بندمائه وأهل خلوته وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد وانصرفت اليه الوجوه وعلقت به الآمال وغشى بابه الخاصة والكافة وغصت به بطانة السلطان وحاشيته فتوافقوا على السعاية فيه وقد صم السلطان عن قبولها ونمى الخبر بذلك الى ابن الخطيب فشمر عن ساعده للرحلة عن الاندلس واللحاق بالمغرب وكان له حنين اليه ورغبة فى الايالة المرينية من قبل ذلك فقدّم الوسائل الى السلطان عبد العزيز وأوعز اليه بما عزم عليه من اللحاق بحضرته فوعده السلطان بالجميل وبسط أمله فحينئذ استأذن السلطان الغنى بالله فى تفقد الثغور والغربية من أرض الاندلس فاذن له وسار اليها فى جماعة من فرسانه ومعه ابنه على فلما حاذى جبل طارق مال اليه فخرج قائد الجبل لتلقيه وقد كان السلطان عبد العزيز قد أوعز اليه بذلك وجهز اليه الاسطول من حينه فاحتمل بسبتة ثم سار منها فقدم على السلطان عبد العزيز بتلمسان سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة فاهتزت له الدولة وأركب السلطان خاصته لتلقيه وأحله بمجلسه محل الامن والغبطة ومن دولته بمكان الشرف والعزة وأخرج لوقته كاتبه أبا يحيى بن أبى مدين سفيرا الى الاندلس فى طلب أهله وولده فجاءهم على أكمل الحالات من الامن والتكرمة ثم نزل بعد ذلك مدينة فاس القديمة فاستكثر بها من شراء الضياع وتأنق فى بناء المساكن واغتراس الجنات وحفظت عليه رسومه السلطانية وتوقيراته وأقام مطمئنا بخير دار عند أعز جار

﴿وفاة السلطان عبد العزيز بن أبى الحسن رحمه الله﴾

كان السلطان عبد العزيز قد أصابه مرض النحول فى صغره ولاجل ذلك تجافى السلطان أبو سالم عن بعثه مع الابناء الى الاندلس فأقام بالمغرب ولما شب أفاق من مرضه وصلح بدنه ثم عاوده وجعه فى مثواه بتلمسان وتزايد نحوله ولما كمل الفتح واستفحل الملك اشتد به الوجع فصابره وكتمه عن الناس خشية الارجاف ثم عسكر خارج تلمسان للحاق بالمغرب ولما كانت ليلة الخميس الثانى والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وسبعمائة قضى نحبه رحمه الله بظاهر تلمسان بين أهله وولده وسيق الى فاس فدفن بجامع قصره وسنه يومئذ أربع وعشرون سنة وكانت دولته ست سنين وأربعة أشهر ومن نظمه ماذكره ابن الاحمر فى نثير الجمان مذيلا بيتى والده السلطان أبى الحسن اللذين هما قوله

أرضى الله فى سر وجهر * وأحمى العرض من دنس ارتياب
وأعطى الوفر من مالى اختيارا * وأضرب بالسيوف طلى الرقاب

فقال هو وأحسن

وأرغب خالقى فى العفو عنى * واطلب حلمه يوم الحساب

وأرجوعونه في عز نصر * على الاعداء محروس الجناب
وعبدك واقف بالباب فارحم * عبيدا خائفا ألم العقاب

﴿الخبر عن دولة السلطان السعيد بالله أبي زيان محمد بن عبد العزيز بن أبي الحسن﴾

هذا السلطان ممن ولى الامر وهو صبي وفيه ألف ابن الخطيب كتابه المسمى باعلام الاعلام بمن بويع من ملوك الاسلام قبل الاحتلام كنيته أبو زيان أمه عائشة بنت القائد فارح العلج صفته آدم اللون شديد الادمة ولما مات السلطان عبد العزيز رحمه الله بظاهر تلمسان خرج الوزير أبو بكر بن غازي بن الكاس على الناس وقد احتمل أبا زيان ابن السلطان عبد العزيز فعزاهم عن سلطانهم ثم طرح ابنه بين أيديهم فازدحموا عليه باكين متفجعين يعطونه الصفقة ويقبلون يديه للبيعة ثم أخرجوه للعسكر وأنزلوه بفساطيط أبيه وتم أمره وكفله الوزير المذكور فكان اليه الابرام والنقض والصبي كالعدم اذلم يكن في سن التصرف ثم ان الوزير ارتحل بالناس وجدّ السير فدخل حضرة فاس وأجلس الصبي لبيعة العامة فبايعوا ثم توافت لديه وفود الامصار على العادة واستبد الوزير أبو بكر واستعمل على الجهات وجلس بمجلس الفصل واشتغل بامر المغرب ابراما ونقضا ولما انفصل بنو مرين عن تلمسان عاد اليها سلطانها أبو حمو ابن يوسف الزياني والتفت عليه بنو عبد الواد من كل جانب ومحى دعوة بني مرين من ضواحي المغرب الاوسط وأمصاره واتصل الخبر بالوزير أبي بكر بن غازي فهم بالنهوض اليه ثم ثنى عزمه ما كان من خروج الامير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن بن أبي علي بن أبي سعيد بناحية بطوية فان السلطان ابن الاحمر كان قد سرحه من الاندلس صحبة وزيره مسعود بن عبد الرحمن بن ماساي لطلب ملك المغرب تشغيبا على الوزير أبي بكر بن غازي ثم أتبعه بالامير أبي العباس أحمد ابن السلطان أبي سالم الذي كان محتاطا عليه بطنجة فزحف الامير أبو العباس المذكور الى فاس وظاهره ابن عمه الامير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن فحاصروا الوزير أبا بكر بن غازي وسلطانه أبا زيان بن عبد العزيز وضربوا على فاس الجديد سياجا بالبناء للحصار وأنزلوا به أنواع القتال بعد ان بعث ابن الاحمر رسله الى الامير عبد الرحمن باتصال اليد بابن عمه الامير أبي العباس ومظاهرته على ملك سلفه بفاس واجتماعهما المنازلتها وعقد بينهما الاتفاق والمواصلة وأن يختص عبد الرحمن بملك سلفه من سجلماسة وأعمالها فتراضيا وزحفا الى فاس كما قلنا وأمدهم ابن الاحمر بجمع من جنده فاستمر الحال على حصار فاس الى أن أذعن الوزير أبو بكر لخلع سلطانه أبي زيان ومبايعة الامير أبي العباس فخلعه يوم الاحد السادس من محرم فاتح سنة ست وسبعين وسبعمائة وغرب الى الاندلس فكانت دولته سنة وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما والله غالب على أمره

﴿الخبر عن الدولة الاولى للسلطان المستنصر بالله أبي العباس أحمد بن أبي سالم بن أبي الحسن﴾

هذا السلطان يقال له ذو الدولتين لانه ولى الملك مرتين كما سيأتي أمه حرة بنت أبي محمد السبائي كنيته أبو العباس لقبه المستنصر بالله صفته أبيض اللون ربعة تعلوه صفرة رقيقة أدعج أسود الشعر أكحل الحاجبين ضيق البلج أسيل الخدين براق الثنايا جميل الوجه مليح الصورة ظريف المنزع لطيف الشمائل حسن الشكل اذا ركب بويع أولا بطنجة في شهر ربيع الآخر سنة خمس وسبعين وسبعمائة ثم بويع البيعة العامة بالمدينة البيضاء بعد استيلائه عليها يوم الاحد السادس من محرم سنة ست وسبعين وسبعمائة وكان الامير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن عندما أشرفوا على فتح فاس شرط عليهم ولاية مراكش عوضا عن سجلماسة فعقدوا له على كره مخافة ان تفترق كلمتهم ولا يتم أمرهم ففعلوا وطووا له على البث فارتحل الى مراكش واستولى عليها ثم فارقه وزيره مسعود بن عبد الرحمن وأجاز البحر الى الاندلس فاستقر بها في ايالة ابن الاحمر واستقل السلطان أبو العباس بن أبي سالم بملك فاس وأعمالها

واستوزر محمد بن عثمان بن الكاس وفوض اليه أموره فغلب على هواه وجعل أمر الشورى الى سليمان ابن داود فاستقل بها وحاز رياسة المشيخة واستحكمت المودة بينه وبين ابن الاحمر وجعلوا اليه المرجع فى نقضهم وابرامهم فصارله بذلك تحكم فى الدولة المرينية وأصبح المغرب كأنه من بعض أعمال الاندلس وذلك بما كان لابن الاحمر من اعانة السلطان أبى العباس على ملك المغرب حتى تم له وبما كان تحت يده من أبناء الملوك المرشحين للأمر فكان أبو العباس وحاشيته يصانعونه لاجل ذلك والله تعالى أعلم

﴿محنة الوزير ابن الخطيب ومقتله رحمه الله﴾

لما لجأ ابن الخطيب الى بنى مرين وأصاب عندهم دارا وقرارا عز ذلك على ابن الاحمر وسعى بطانته عنده فى ابن الخطيب لعداوتهم له ثم بلغه انه يغرى السلطان عبد العزيز بتملك أرض الاندلس وقطع دعوة بنى الاحمر منها فعظم عليه ذلك ودبر الحيلة فى قتل ابن الخطيب وتتبع أعداؤه كلمات زعموا أنها صدرت منه فى بعض تآليفه فاحصوها عليه ورفعوها الى قاضى غرناطة أبى الحسن النباهى فاسترعاها وسجل عليه بالزندقة وبعث ابن الاحمر برسم الشهادة مع هدية لم يسمع بمثلها الى السلطان عبد العزيز وطلب منه اقامة الحد على ابن الخطيب أو اسلامه اليه فصم السلطان عبد العزيز عن ذلك وأنف لذمته أن تخفر ولجوار ان يؤذى وقال للوفد هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه وأما أنا فلا يخلص اليه بذلك أحد ما كان فى جوارى ثم وفر الجراية والاقطاع له ولبنيه ولمن جاء من فرسان الاندلس فى جملته ثم لما مات السلطان عبد العزيز رحمه الله وولى ابنه أبو زيان وقام بامره الوزير أبو بكر بن غازى عاود ابن الاحمر الكلام فى شأن ابن الخطيب وبعث بهدية أخرى الى الوزير المذكور وطلب منه اسلامه اليه فأبى الوزير وأساء الرد وعادت رسل ابن الاحمر اليه مخفقين وقد رهبوا سطوته فعند ذلك عمد ابن الاحمر الى الامير عبد الرحمن بن أبى يفلوسن وكان عنده بالاندلس فاطمعه فى ملك المغرب وأركبه البحر فقذف به بساحل بطوية من بلاد الريف تشغيبا على الوزير أبى بكر بن غازى كما مر ثم ثاب له رأى آخر فأغرى محمد بن عثمان بن الكاس وهو ابن عم أبى بكر بن غازى المذكور وكان يومئذ بسبتة قائما على ثغرها فادخله فى البيعة لابى العباس بن أبى سالم وكان يومئذ بسبتة محتاطا عليه فى جملة من القرابة والتزم أن يمده بالمال والرجال حتى يتم أمره لكن بشرط أن ينزل له عن جبل طارق ويبعث له بالقرابة الذين بطنجة ليكونوا تحت يده ويسلم اليه ابن الخطيب متى قدر عليه فكان الامر كذلك فان السلطان أبا العباس لما استولى على الامر نزل لابن الاحمر عن جبل طارق فمحى دعوة بنى مرين من وراء البحر ثم ملك بعد ذلك سبتة فاستولى عليها وبعث اليه بالقرابة المذكورين فاوسع لهم جنابه بغرناطة ثم قبض السلطان أبو العباس ووزيره محمد بن عثمان على ابن الخطيب وطيروا بالاعلام لابن الاحمر فحينئذ بعث وزيره أبا عبد الله بن زمرك وكان من تلامذة ابن الخطيب وبه تخرج فقدم على السلطان أبى العباس وأحضروا ابن الخطيب بالمشور فى مجلس الخاصة وأهل الشورى من الفقهاء وعرضوا عليه بعض كلمات وقعت له فى بعض كتبه فعظم عليه النكير فيها فوبخ ونكل وامتحن بالعذاب بمشهد ذلك الملا ثم تل الى محبسه وتفاوضوا فى قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه فافتى بعض الفقهاء بقتله فدس سليمان ابن داود اليه بعض الاوغاد من حاشيته فطرقوا السجن ليلا ومعهم زعانفة من أهل الاندلس جاؤا فى صنيف ذلك الوفد فقتلوه خنقا فى محبسه وأخرجوا شلوه من الغد فدفن فى مقبرة باب المحروق ثم أصبح من الغد طريحا على شافة قبره وقد جمعوا له أعوادا فاضرموها عليه نارا فاحترق شعره واسود بشره وأعيد الى حفرته وكان فى ذلك انتهاء محنته وعجب الناس من هذه السفاهة التى جاء بها سليمان بن داود واعتدوها من هناته وعظم النكير فيها عليه وعلى قومه وأهل دولته وكان ابن الخطيب رحمه الله أيام مقامه بالسجن يتوقع مصيبة الموت فتجيش هواتفه بالشعر يبكى نفسه فما قال فى ذلك

بعدنا وان جاورتنا البيوت * وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأنفاسنا سكنت دفعة * كجهر الصلاة تلاه القنوت
وكنا عظاما فصرنا عظاما * وكنا نقوت فها نحن قوت
وكنا شموس سماء العلى * غربنا فناحت عليها السموت
فكم جدلت ذا الحسام الظبي * وذو البخت كم جدلته البخوت
وكم سيق للقبر في خرقة * فتى ملئت من كساه التخوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب * وفات ومن ذا الذي لا يفوت
فمن كان يفرح منكم له * فقل يفرح اليوم من لا يموت

وكانت نكبته رحمه الله أوائل سنة ست وسبعين وسبعمائة وعند الله تجتمع الخصوم

﴿بقية أخبار أمير مراكش عبد الرحمن بن أبي يفلوسن رحمه الله﴾

قد تقدم لنا ما كان من معاقدة السلطان أبي العباس والامير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن على ولاية سجلماسة أولا ثم التعويض عنها بمراكش ثانيا فلما فتح السلطان أبو العباس فاسا وفى للامير عبد الرحمن بعقده فسار الى مراكش واستولى عليها وعلى أعمالها واقتسمت مملكة المغرب الاقصى يومئذ بنصفين وكان الحد بين الدولتين ثغر آزمور فكانت في ايالة صاحب فاس وما وراءها الى مراكش في ايالة صاحب مراكش ثم كانت بينهما بعد ذلك مواصلات ومناقضات ومسالمات ومحاربات يطول جلبها واتصل ذلك الى منتصف سنة أربع وثمانين وسبعمائة فظفر السلطان أبو العباس بعبد الرحمن بعد محاصرته بقصبة مراكش تسعة أشهر ولما أشرف السلطان أبو العباس على فتحها وانفض الناس من حول الامير عبد الرحمن ونزلوا من الاسوار ناجين الى السلطان وبقي هو في قصبته منفردا بات ليلته يراود ولديه على الاستماتة وهما سليم وأبو عامر وركب السلطان أبو العباس من الغد في التعبية الى القصبة فاقتحمها بمقدمته ولقيه الامير عبد الرحمن وولداه مسابقين الى الميدان ومباشرين القتال بين أبواب دورهم فجالوا معهم جولة قتل فيها الولدان قتلهم علي بن ادريس وزيان بن عمر الوطاسي ﴿قال ابن خلدون﴾ وطالما كان زيان يمتري ثدي نعمتهم ويجرذيله خيلاء في جاههم فذهب مثلا في كفران النعمة وسوء الجزاء والله لا يظلم مثقال ذرة وكان ذلك خاتم جمادى الآخرة سنة أربع وثمانين المذكورة لمضي عشر سنين من امارة عبد الرحمن على مراكش ثم رحل السلطان أبو العباس منقلبا الى فاس وقد استولى على سائر أعمال المغرب وظفر بعدوه ودفع النازعين عن ملكه والله غالب على أمره

﴿ذكر الشاوية وبيان نسبهم وأوليتهم وشرح لقبهم وتسميتهم﴾

﴿ذكر ابن خلدون﴾ ان الشاوية من ولد حسان بن أبي سعيد الصبيحي نسبة الى صبيح بالتصغير بطن من سويد وسويد احدى قبائل بني مالك بن زغبة الهلاليين وكان دخول حسان وأخيه موسى ابني أبي سعيد الى المغرب الاقصى أيام السلطان يعقوب بن عبد الحق رحمه الله قدموا في صحبة عبد الله بن كندوز العبد الوادي ثم الكمي وكان عبد الله هذا قد نزع عن يغمراسن بن زيان الى السلطان يعقوب المذكور فقدم عليه قبل فتح مراكش فاهتز السلطان يعقوب لقدومه وأحله بالمكان الرفيع من دولته وأنزل قومه بجهات مراكش وأقطعهم البلاد التي كفتهم مهماتهم وجعل انتجاع ابله وراحلته وسائر ظهره في أحيائهم فقدم عبد الله بن كندوز على رعايتها حسان وأخاه موسى الصبيحيين وكانا عارفين برعاية الابل والقيام عليها فاقاموا يتقلبون في تلك البلاد ويتعدون في نجعتها الى أرض السوس وكانت ماشية السلطان يعقوب متفرقة في سائر المغرب فجمعها العبد الله بن كندوز وجمعها عبد الله لحسان الصبيحي

المذكور فكان حسان يباشر أمور السلطان فى شأن تلك الماشية ويطالعه بهمانه فحصلت له مداخلة معه جلبت اليه الحظ حتى ارتفع قدره ونشأ بنوه فى ظل الدولة وعزها وتصرفوا فى الولايات منها وانفردوا بخطة الشاوية فلم تزل ولايتها متوارثة فيهم منقسمة بينهم لهذا العهد الى ما كانوا يتصرفون فيه من غير ذلك من الولايات وكان لحسان من الولد على ويعقوب وطلحة وغيرهم ومن حسان هذا تفرعت شعوبهم فى ولده ﴿قال ابن خلدون﴾ وهم لهذا العهد يتصرفون فى الدولة على ما كان اسلافهم من ولاية الشاوية والنظر فى رواحل السلطان والظهر الذى يحمل من الابل ولهم عدد وكثرة ونباهة فى الدولة اهـ ﴿قلت﴾ ولفظ الشاوية نسبة الى الشاء التى هى جماعة الغنم مثلا قال فى الصحاح والنسبة الى الشاء شاوى قال الراجز لا ينفع الشاوى فيها شاته * ولا حماراه ولا علاته

وان سميت به رجلا قلت شاء وان شئت شاوى اهـ واعلم ان الشاوية اليوم يطلقون على سكان تامسنا من قبائل شتى بعضها عرب وبعضها زناتة و بربر غير ان لسان الجميع عربى وكان أصل جمهورهم من هؤلاء الذين ذكر ابن خلدون ثم انضافت اليهم قبائل أخر واختلطوا بهم فاطلق على الجميع شاوية تغليبا وهكذا وقع فى سائر عرب المغرب الاقصى الموطنين بتلوله فانهم وقع فيهم اختلاط كبير حتى نسوا أنسابهم وأصولهم الاولى الا فى النادر وذلك بسبب تعاقب الاعصار وتناسخ الاجيال وتوالى المجاعات والانتجاعات ووقعات الملوك بهم فى كثير من الاحيان وتفريق بعضهم من بعض ونقل بعضهم الى بلاد بعض ومع ذلك فاسماؤهم الاولى لا زالت قائمة فيهم لم تتغير الى الآن فيها يهتدى الفطن الى التنقير عن أنسابهم والحاق فروعهم باصولهم متى احتاج الى ذلك والله تعالى أعلم

﴿نهوض السلطان أبى العباس الى تلمسان وفتحها وتخريبها﴾

لما نهض السلطان أبو العباس الى مراكش وحاصر بها عبد الرحمن بن أبى يفلوسن خالفه الى المغرب أبو حمو ابن يوسف الزيانى فى جمع من أولاد حسين عرب معقل وذلك باغراء عبد الرحمن المذكور فدخلوا الى أحواز مكناسة وعاثوا فيها ثم عدوا الى مدينة تازا فحاصروها سبعا وخربوا قصر الملك هنالك ومسجده المعروف بقصر تازروت وبينما هم على ذلك بلغهم الخبر اليقين بفتح مراكش وقتل الامير عبد الرحمن فاجفلوا من كل ناحية ومر أبو حمو فى طريقه الى تلمسان بقصر ونزمار بن عريف السويدى فى نواحى بطوية المسمى بمرادة فهدمه ووصل السلطان أبو العباس الى فاس فاراح بها أياما ثم أجمع النهوض الى تلمسان فانتهى الى تاوريرت وبلغ الخبر الى أبى حمو فاضطرب رأيه واعتزم على الحصار وجمع أهل البلد عليه فاستعدوا له ثم بدا له فخرج فى بعض تلك الليالى بولده وأهله وخاصته وأصبح مخيما بالصفيصيف فاهرع أهل البلد اليه بعيالهم وأولادهم متعلقين به تفاديا من معرة هجوم العسكر عليهم فلم يزعه ذلك عن قصده وارتحل ذاهبا الى البطحاء ثم قصد بلاد مغراوة فنزل فى بنى أبى سعيد قريبا من شلف وأنزل أولاده الاصاغر وأهله بحصن تاجحومت وجاء السلطان أبو العباس الى تلمسان فملكها واستقر بها أياما ثم هدم أسوارها وقصور الملك بها باغراء وليه ونزمار جزاء بما فعله أبو حمو فى تخريب قصر تازروت وحصن مرادة ثم خرج من تلمسان فى اتباع أبى حمو ونزل على مرحلة منها وهنالك بلغه الخبر باجازة موسى بن أبى عنان من الاندلس الى المغرب وانه خالفه الى دار الملك فانكفأ راجعا عوده على بدءه ورجع أبو حمو الى تلمسان فاستقر ملكه بها الى ان كان ما نذكره ان شاء الله

﴿خلع السلطان أبى العباس بن أبى سالم وتغريبه الى الاندلس والسبب فى ذلك﴾

قد قدمنا ما كان من تحكم ابن الاحمر فى مملكة المغرب ودالته على السلطان أبى العباس بما أنه كان السبب فى ولايته وبما تحت يده من القرابة المرشحين الذين أرصدهم للتشغيب على دار الملك بالمغرب متى رأى من

أحدهم مالا يوافق هواه وكان مع كثرة تحكمه فيهم يتجنى عليهم في بعض الاوقات بما يأتونه من تقصير في شفاعة أو مخالفة في أمر لا يجدون عنها محيصا فيضطغن ذلك عليهم وكان يعتمد على السلطان أبي العباس بشئ من هذه الهنات فلما نهض الى تلمسان واستولى عليها سنة خمس وثمانين وسبعمائة اتصل بابن الاحمر أن دار الملك بفاس قد بقيت عورة من الجند والحامية فانتهز الفرصة وبادر بتسريح موسى ابن السلطان أبي عنان الى المغرب واستوزر له مسعود بن عبد الرحمن بن ماساى رئيس الفتنة وقطب رحاها وكان عنده بالاندلس بعد مفارقة عبد الرحمن بن أبي يفلوسن فنزل موسى بن أبي عنان سبتة فاستولى عليها وسلمها لابن الاحمر فدخلت في طاعته ثم تقدم الى فاس فدخلها من يومه واستقر قدمه بها واتصل الخبر بالسلطان أبي العباس وهو بتلمسان فجاء مبادرا ونزل بتازا فاقام بها أربعا ثم تقدم الى الموضع المعروف بالركن فانتقض عليه رؤساء جيشه وتسللوا عنه الى موسى طوائف وأفرادا ولما رأى ما نزل به رجع الى تازا بعد ان انتهب معسكره وأضرمت النار في خيامه وذلك يوم الاحد الموفى ثلاثين من ربيع الاول سنة ست وثمانين وسبعمائة ثم بعث موسى بن أبي عنان من أتاه بالسلطان أبي العباس في الامان فقدم عليه وقيده وبعث به الى ابن الاحمر فبقي عنده محتاطا عليه الى ان كان من أمره ما نذكره ان شاء الله وكانت دولته هذه عشر سنين وشهرين وأربعة وعشرين يوما ومن وزرائه في هذه الدولة محمد بن عثمان بن الكاس الجذولي ومن كتابه عبد المهيمن بن أبي سعيد بن عبد المهيمن الحضرمي تغمد الله الجميع برحمته

﴿الخبر عن دولة السلطان المتوكل على الله أبي فارس موسى بن أبي عنان بن أبي الحسن﴾

أمه مولدة اسمها تاملالت صفته أسمر مائل الى السواد قصير القامة جاحظ العينين عظيم اللحية تملأ صدره قائم الانف واذا تكلم علا لسانه فمه فيخرج من بين شفتيه ويتحرك فيقبح كلامه بويع يوم الخميس الموفى عشرين من شهر ربيع الاول سنة ست وثمانين وسبعمائة وقام بامر دولته وزيره مسعود بن ماساى مستبدا عليه ولما استقر أمره بالحضرة وجه اليه ابن الاحمر أمه وعياله وكانوا عنده وهناه وزيره أبو عبد الله بن زمرك بتوشيح يقول في مطلعه

قد نظم الشمل أتم انتظام * ولاحت الاقمار بعد المغيب
وضاحك الروض ثغور الغمام * عن مبسم الزهر البرود الشنيب

الى ان قال في آخره

مولاي يهنيك وحق الهنا * قد نظم الشمل كنظم السعود
قد فزت بالفخر ونيل المنى * وأنجز السعد جميع الوعود
وقرت العين وزال العنا * وكلما مر صنيع يعود
ولم يزل ملكك حلف الدوام * يحوز في التخليد أوفى نصيب
يتلو عليك الدهر بعد السلام * نصر من الله وفتح قريب

﴿خروج الحسن بن الناصر بغمارة ونهوض الوزير ابن ماساى اليه﴾

كان الحسن بن الناصر بن أبي علي بن أبي سعيد قد لحق من مقره بالاندلس بحضرة تونس في سبيل طلب الملك وكان الوزير مسعود بن ماساى قد قتل محمد بن عثمان بن الكاس وافترقت حاشيته في الجهات فطلبوا بطن الارض دون ظهرها ولحق منهم ابن أخيه العباس بن المقداد بتونس فعثر على الحسن بن الناصر بها فتاب له رأي في الرجوع به الى المغرب لطلب الامر فخرج به من تونس وقطع المفاوز الى ان انتهى الى جبال غمارة ونزل على أهل الصفيحة منهم فأكرموا مثواه ومنقلبه وأعلنوا بالقيام بدعوته واستوزر العباس بن المقداد وبلغ الخبر الى مسعود الوزير فجهز العساكر مع أخيه مهدي بن عبد الرحمن

ابن ماساى فحاصره بجبل الصفيحة أياما فامتنع عليه فنهض اليه مسعود بنفسه على ماتذكره

﴿وفاة السلطان موسى بن أبي عنان رحمه الله﴾

لما كان من استبداد ابن ماساى على السلطان موسى ما قدمناه استنكف من ذلك وداخل بطانته في الفتك به فنمى ذلك اليه وحصلت له نفرة من السلطان طلب لاجلها البعد عنه وبادر الى الخروج لمدافعة الحسن بن الناصر القائم بغمارة واستخلف على دار الملك أخاه يعيش بن عبد الرحمن بن ماساى فلما انتهى الى قصر كتامة بلغه الخبر بوفاة السلطان موسى وكانت وفاته في جمادى الآخرة طرقه المرض فهلك ليوم وليلة من مرضه وكان الناس يرمون يعيش أخا الوزير بانه سمه قاله ابن خلدون ﴿وقال ابن القاضي في الجذوة﴾ توفي السلطان موسى بن أبي عنان مسموما يوم الجمعة الثالث من شهر رمضان سنة ثمان وثمانين وسبعمائة وله احدى وثلاثون سنة فكانت دولته سنتين وأربعة أشهر وولى بعده محمد بن أحمد بن أبي سالم اهـ ومن كتابه أبو الفضل محمد بن محمد بن أبي عمرو التميمي وأبو القاسم محمد بن سودة المرى ومن قضاته أبو عبد الله محمد بن محمد المغيلي والله تعالى أعلم

﴿الخبر عن دولة المنتصر بالله السلطان أبي زيان محمد بن أبي العباس بن أبي سالم بن أبي الحسن﴾

أمه حرة وهي رقية بنت السلطان أبي عنان صفته أبيض اللون قائم الانف أسيل الخدين بويع بعد خاله موسى بن أبي عنان يوم الجمعة الثالث من شهر رمضان سنة ثمان وثمانين وسبعمائة وسنه يوم بويع خمس سنين وخلع يوم الجمعة الخامس عشر من شوال من السنة المذكورة وغرب الى الاندلس مع أبيه فكانت دولته ثلاثة وأربعين يوما تحت استبداد الوزير مسعود عفا الله عنه

﴿الخبر عن دولة السلطان الواثق بالله أبي زيان محمد بن أبي الفضل بن أبي الحسن﴾

أمه أم ولد اسمها عسيلة صفته أسود اللون عظيم الخلق رحب الوجه طويل القامة والساقين ممتلئ الانف عظيم الساعدين وكان قبل ولايته عند ابن الاحمر بالاندلس في جملة القرابة ولما استوحش الوزير مسعود من السلطان موسى بن أبي عنان بعث ابنه يحيى الى ابن الاحمر يسأل منه اعادة السلطان أبي العباس الى ملكه فأخرجه ابن الاحمر من الاعتقال وجاء به الى جبل الفتح يروم اجازته الى العدوة فلما توفي السلطان موسى بدا للوزير مسعود في أمره ودس لابن الاحمر في رده وأن يبعث اليه بالواثق هذا ورآه أليق بالاستبداد والحجر فأسعفه ابن الاحمر في ذلك ورد السلطان أحمد الى مكانه بالحمراء وجيء بالواثق فحضر بجبل الفتح عنده فاجازه الى سبتة واتفق أن جماعة من الحاشية انتقضوا على الوزير مسعود ولحقوا بسبتة فقدم عليهم الواثق بها ورجعوا به الى المغرب وتقلبوا في نواحيه الى ان وصلوا الى جبل مغيلة قرب فاس فبرز الوزير مسعود في العساكر ونزل قبالتهم وقاتلهم هنالك أياما ثم وقع الاتفاق على ان يبايع مسعود للواثق بشرط الاستبداد فتم العقد على ذلك ﴿وقال في الجذوة﴾ بويع السلطان الواثق بالله أبو زيان محمد بن أبي الفضل يوم الجمعة الخامس عشر من شوال سنة ثمان وثمانين وسبعمائة وقام بأمره الوزير مسعود بن ماساى ثم حدثت الفتنة بين الوزير المذكور وابن الاحمر بسبب ان الوزير طلب منه اعادة سبتة الى الايالة المرينية وكان موسى بن أبي عنان قد نزل له عنها كما مر وكان طلبه على سبيل الملاطفة فاستشاط ابن الاحمر غضبا وأساء الرد فجهز ابن ماساى العساكر لحصار سبتة مع العباس بن عمر بن عثمان الوسنافي ويحيى بن علال بن آمصمود والرئيس محمد بن أحمد الابكم من بني الاحمر فاستولى عليها ثم سرح ابن الاحمر السلطان أبا العباس من اعتقاله وبعثه الى المغرب لطلب ملكه والتشغيب على ابن ماساى الجاحد لاحسانه بزعمه فعبر السلطان أبو العباس البحر الى المغرب

فاحتل

فاحتل بسبتة واستولى عليها ثم تقدم الى فاس فحاصرها وضيق على ابن ماساى وسلطانه الواثق بالله وأهرع الناس الى الدخول فى طاعته حتى من مراكش فاستمر الحصار على فاس الجديد ثلاثة أشهر ثم أذعن الوزير مسعود للطاعة على شرط أن يبقى وزيرا ويغرب سلطانه الى الاندلس فاجيب وخلع الواثق بالله ثم خرج الى السلطان أبى العباس فبايعه وتقدم أمامه فدخل دار ملكه يوم الخميس خامس رمضان سنة تسع وثمانين وسبعمائة ولحين دخوله قبض على الواثق بالله فقيده وبعث به الى طنجة فقتل بها بعد ذلك وسنه يوم قتل ثمان وثلاثون سنة وبه انقبر ومن وزرائه يعيش بن على بن فارس اليابانى ومسعود ابن رحو ابن ماساى ومن كتابه منصور بن أحمد بن محمد التميمى وأبو يحيى محمد بن محمد بن أبى القاسم بن أبى مدين ومن قضاته أبو يحيى محمد بن محمد السكاك رحمهم الله تعالى عنه

﴿الخبر عن الدولة الثانية للسلطان أبى العباس بن أبى سالم بن أبى الحسن﴾

لما دخل السلطان أبو العباس حضرة فاس الجديد فى التاريخ المتقدم بويع البيعة العامة فى اليوم الثالث من دخوله وهو يوم السبت السابع من رمضان سنة تسع وثمانين وسبعمائة لمضى ثلاث سنين وخمسة أشهر وستة أيام من خلعه ولما ملك أمر نفسه قبض على الوزير ابن ماساى وعلى اخوته وحاشيته وامتحنهم امتحانا بليغا فهلكوا من العذاب ثم سلط على مسعود من العذاب والانتقام مالا يعبر عنه واعتد عليه بما كان يفعله فى دور بنى مرين النازعين عنه اليه فانه كان متى هرب منهم أحد عمد الى بيوته فنهبها فامر السلطان أبو العباس بعقابه فى اطلالها فكان يؤتى به الى كل بيت منها فيضرب عشرين سوطا الى أن برح به العذاب وتجاوز الحد ثم أمر به فقطعت أربعته فهلك عند قطع الثانية وذهب مثلا للآخرين

﴿ظهور محمد بن عبد الحليم بن أبى على بسجلماسة ثم اضمحلاله بعد ذلك﴾

قد قدمنا أن الامير عبد الحليم بن أبى على بن أبى سعيد كان تغلب على سجلماسة ثم غلبه عليها أخوه عبد المؤمن وسافر عبد الحليم الى المشرق فهلك فى سفرته تلك وكان قد ترك ابنه محمدا هذا رضيعا فشب متقلبا بين الدول من ملك الى آخر على ان أكثر مقامه انما كان عند أبى حمو صاحب تلمسان ولما حاصر السلطان أبو العباس فاس الجديد كان محمد هذا عند العرب الاحلاف فلما اشتد الحصار على مسعود بن ماساى دس الى الاحلاف أن ينصبوا محمد بن عبد الحليم للامر ويجلبوا به على المغرب ليأخذ بحجزة السلطان أبى العباس عنه ففعلوا ودخل محمد بن عبد الحليم سجلماسة فملكها حتى اذا استولى السلطان أبو العباس على فاس الجديد وأوقع بمسعود بن ماساى واخوته خرج محمد بن عبد الحليم عن سجلماسة ولحق باحياء العرب فسارت طائفة منهم معه الى أن أبلغوه مأمنه ونزل على أبى حمو بتلمسان الى أن هلك فسار الى تونس ونزل على صاحبها أبى العباس الحفصى ثم ارتحل بعد وفاته الى المشرق لحج الفريضة والله تعالى أعلم

﴿نكبة الكاتب ابن أبى عمرو وحركات بن حسون ومقتلهما﴾

كان محمد بن محمد بن أبى عمرو التميمى وقد تقدم ذكر والده فى دولة السلطان أبى عنان كاتبا عند السلطان أبى العباس فى دولته الاولى فلما خلع وولى موسى بن أبى عنان تقرب اليه بسالف المخالصة لابيه من أبى عنان فقد كان أعز بطانته كامر فاستخلصه السلطان موسى للشورى ورفع منزلته على منازل أهل الدولة وجعل اليه كتابة علامته على المراسم السلطانية كما كان لابيه وكان يفاوضه فى مهماته ويرجع اليه فى أموره حتى غص به أهل الدولة وسعى هو عند السلطان موسى فى جماعة من بطانة السلطان أبى العباس فاتى عليهم النكال والقتل لكلمات كانت تجرى بينهم وبينه فى مجالس المنادمة عند السلطان أبى العباس حقدها عليهم فلما ظفر بالحظ من السلطان موسى سعى بهم عنده فقتلهم وكان القاضى

أبوا سحق ابراهيم اليزناسني من بطانة السلطان أبي العباس وكان يحضر مع ندمائه فحقد عليه ابن أبي عمرو وأغرى به السلطان موسى فضربه وأطافه وجاء بها اشنعاء غريبة في القبح ثم سفر ابن أبي عمرو عن سلطانه موسى الى الاندلس فكان عبر بمجلس السلطان أبي العباس من محل اعتقاله فلا يلم به ورعما يلقاه فلا يحييه ولا يوجب له حقا فأحفظ ذلك السلطان أبا العباس فلما ردّ الله عليه ملكه وفرغ من ابن ماساى قبض على ابن أبي عمرو هذا وأودعه السجن ثم امتحنه بعد ذلك الى أن هلك تحت السياط وحمل الى داره وبينما أهله يحضرونه الى قبره اذا بالسلطان قد أمر بان يسحب في نواحي المدينة ابلاغا في النكال فحمل من نعشه وقد ربط في رجله حبل وسحب في سكك المدينة ثم ألقى على بعض المزابل ثم قبض السلطان على حركات بن حسون شيخ العرب وكان مجلبا في الفتنة وكان العرب المخالفون من معقل لما أجاز السلطان أبو العباس الى سبتة وحركات هذا ابتداء لا راودوه على طاعة السلطان فامتنع أولا ثم أكرهوه وجاؤا به الى السلطان فطوى على ذلك حتى اذا استقام أمره وملك حضرة فاس الجديد قبض عليه وامتحنه الى أن هلك والى الله عاقبة الامور

﴿أخبار تلمسان واستيلاء السلطان أبي العباس عليها﴾

كان السلطان أبو حمو ابن يوسف الزياني قد عاد الى تلمسان وثبت قدمه بها كما قلنا الى أن خرج عليه ابنه أبو تاشفين آخر سنة ثمان وثمانين وسبعمائة فوقعت بينهما حروب وشرق أبوه بدائه ثم عادت له الكرة عليه في أخبار طويلة فاستمد أبو تاشفين السلطان أبا العباس فامده بابنه الامير أبي فارس ووزيره محمد بن يوسف بن علال عقد لهما على جيش كثيف من بني مرين وغيرهم فانتصر أبو تاشفين على أبيه فقتله وبعث برأسه الى السلطان أبي العباس ثم تقدم فدخل تلمسان آخر سنة احدى وتسعين وسبعمائة واستمر بها مقيما الدعوة السلطان أبي العباس فكان يخطب له على منابر تلمسان ويبعث اليه بالضريبة كل سنة كما شرط على نفسه عند توجيه العساكر معه واستمر على ذلك الى أن مات سنة خمس وتسعين وسبعمائة فتغلب على تلمسان أخوه الامير يوسف بن أبي حمو ولما اتصل الخبر بالسلطان أبي العباس خرج من الحضرة الى تازا ومن هنالك بعث ابنه الامير أبا فارس في العساكر الى تلمسان فاستولى عليها وأقام فيها دعوة والده وفرّ يوسف بن أبي حمو الى بعض الحصون فاعتصم به الى ان كان ما نذكره

﴿وصول هدية صاحب مصر السلطان الظاهر برقوق الى السلطان أبي العباس بتازا والسبب في ذلك﴾

كان العلامة الرئيس ولي الدين ابن خلدون قد استوطن في آخر عمره مصر القاهرة ونزل من سلطانها بالمنزلة الرفيعة قال رحمه الله وكان يوسف بن علي بن غانم أمير أولاد حسين من معقل ثم من أولاد جرار منهم قد حج سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة واتصل بصاحب مصر الملك الظاهر برقوق أول الملوك الجراكسة من الترك قال فتقدمت الى السلطان المذكور فيه وأخبرته بمحله من قومه فاكرم تلقيه وحمله بعد قضاء حجه هدية الى صاحب المغرب يطرفه فيها بتحف من بضائع بلده على عادة الملوك فلما قدم يوسف بها على السلطان أبي العباس أعظم موقعها وجلس في مجلس حفل لعرضها والمباهاة بها وشرع في المكافأة عليها بتخير الجياد والبضائع والثياب حتى اذا استكمل من ذلك ما رضيه وعزم على بعثها مع يوسف بن علي حاملها الاول وانه يبعثه بها من موضع مقامه بتازا اخترمته المنية دون ذلك

﴿وفاة السلطان أبي العباس بن أبي سالم رحمه الله﴾

كانت وفاة السلطان أبي العباس بمحل مقامه من تازا وهو يشارف أحوال ابنه أبي فارس ووزيره صالح ابن حمو اليابابي وكان قد قدمهما لفتح تلمسان والبلاد الشرقية فاصابه حمامه هنالك ليلة الخميس السابع

من محرم فاتح سنة ست وتسعين وسبعمائة وحمل الى فاس فدفن بالقلة وسنه يومئذ تسع وثلاثون سنة فكانت دولته الثانية ست سنين وأربعة أشهر ومن وزرائه فى هذه الدولة صالح بن حمو اليابانى ومحمد ابن يوسف بن علال الصنهاجى ومن حجابه أبو العباس أحمد بن على القبائلى ومن كتابه الشريف أبو القاسم محمد بن عبد الله الحسنى السبتى والقائد محمد بن موسى بن محمود الكردى ويحيى بن الحسن بن أبى دلامة التسولى ومن قضاته القاضى أبو اسحق ابراهيم بن محمد بن ابراهيم اليزناسنى ﴿قال فى الجذوة﴾ وكان السلطان أبو العباس شاعرا مفلقا بديع التشبيه فمن نظمه قوله

أما الهوى ياصاحبي فألفته * وعهدته من عهد أيام الصبا

ورأيته قوت النفوس وحليها * فجذته دينا الى ومذهبا

ولبست دون الناس منه حلة * كان الوفاء لها الطراز امذهبا

لكن رأيت له الفراق منغصا * لاحرحبا بفراقنا لا مرحبا

﴿ومن أخبار السلطان أبى العباس ماحكاه فى نفح الطيب﴾ أن الاديب الكاتب أبا الحسن على ابن الوزير لسان الدين ابن الخطيب كان مصاحبا للسلطان أبى العباس هذا فحضر معه ذات يوم فى بستان سح فيه ماء المذاكرة الهتان وقد أبدى الاصيل شواهد الاصفرار وأزمع النهار لما اقدم الليل على الفرار فقال السلطان أبو العباس لما لان جانبه وسالت بين سرحات البستان جداوله ومذانبه

يافاس انى وأيم الله ذو شغف * بكل ربع به مغناه يسبينى

وقد أنست بقرب منك ياأملى * ونظرة فيكم بالانس تحيينى

فاجابه أبو الحسن ابن الخطيب بقوله المصيب

لاأوحش الله ربعا أنت زائره * يابهجة الملك والدنيا مع الدين

ياأحمد الحمد أبقاك الاله لنا * فخر الملوك وسلطان السلاطين

﴿ومن أخباره أيضا﴾ ان كاتبه أبا زكرياء يحيى بن أحمد بن عبد المنان دخل عليه عشاء فقال له أنعم الله صباح مولانا فانكر السلطان ذلك وظن انه ثمل فتفطن أبو زكرياء لما صدر منه وتدارك ذلك فانشد مرتجلا

صبحته عند المساء فقال لى * ماذا الكلام وظن ذاك مزاحا

فأجبته اشراق وجهك غرنى * حتى توهمت المساء صباحا

﴿الخبر عن دولة السلطان المستنصر بالله أبى فارس عبد العزيز ابن أبى العباس بن أبى سالم رحمه الله﴾

﴿من الاتفاق الغريب﴾ أن سلطان فاس والمغرب فى هذا التاريخ كان اسمه عبد العزيز بن أحمد وسلطان تونس وافريقية كان اسمه أيضا عبد العزيز بن أحمد وكانت ولايتهما فى سنة واحدة الا ان مدة الحفصى طالت جدا أم هذا السلطان أم ولد اسمها الجوهر صفته شاب السن ربعة من القوم أدعج العينين جميل الوجه (لما توفى) السلطان أبو العباس بن أبى سالم رحمه الله بتازا كان ابنه أبو فارس هذا بتلمسان فاستدعاه رجال الدولة منها فقدم عليهم بتازا وبايعوه بها يوم السبت التاسع من محرم سنة ست وتسعين وسبعمائة ولما تم أمره أطلق أبا زيان بن أبى حمو الزيانى وكان معتقلا عنده بفاس لالتجائه الى أبيه من قبل فى خبر ليس تفصيله من غرضنا وبعثه الى تلمسان أميرا عليها من قبله فسار اليها أبو زيان وملكها وأقام فيها دعوة السلطان أبى فارس ثم خرج عليه أخوه يوسف بن أبى حمو واتصل باحياء بنى عامر بن زغبة وعزم على الاجلاب عليهم بهم فسرب أبو زيان فيهم الاموال فقتلوه وبعثوا اليه برأسه فسكنت أحوال تلمسان وذهبت الفتنة بذهاب يوسف واستقامت أمور دولة السلطان أبى فارس قاله ابن خلدون وهو آخر ماورخه من دولة المغرب ﴿واعلم﴾ ان مانسوقه بعد هذا من الاخبار عن هذه الدولة المرينية لم يسمح لنا الوقت بالوقوف عليه فى تأليف يخصها أو موضوع يقص أخبارها نسقا

وينصها وانما تتبعنا ما أثبتناه من ذلك فى مواضع ذكرت فيها بحسب التتبع لا بالقصد الاول وعلى الله تعالى فى الهداية الى الصواب المعوّل

﴿بقيـــة أخبار السلطان عبد العزيز ووفاته﴾

قالوا كان السلطان عبد العزيز بن أبى العباس رحمه الله كثير الشفقة رقيق القلب منقبضا عن الغـدر متوقفا فى سـفك الدماء وكان فارسا عارفا بركض الخيل ويحسـن قرض الشـعر ويحب سماعه فمن نظمه وقد نزل المطر يشكر الله تعالى عليه قوله

الله يلطف بالعباد فواجب * أن يشكروا فى كل حال نعمته
فهو الذى فيهم ينزل غيثه * من بعد ما قنطوا وينشر رحمته

توفى رحمه الله يوم السبت ثامن صفر سـنة تسع وتسعين وسـبعمائة ودفن مع أبيه بالقـلة فكانت دولته ثلاث سنين وشهرا ومن وزرائه صالح بن حمو الياباني ويحيى بن علال بن آمصمود الهسكورى ومن كتابه يحيى بن الحسن بن أبى دلامة ومن قضاته عبد الرحيم بن أبى اسحق اليزناسنى رحمهم الله تعالى بمنه

﴿الخبر عن دولة السلطان المستنصر بالله أبى عامر عبد الله بن أبى العباس بن أبى سالم رحمه الله تعالى﴾

هذا السلطان شقيق الذى قبله أمه الجوهر المتقدمة صفته أدعج العينين حسن الانف لامى العذار بويع بعد أخيه عبد العزيز يوم السبت الثامن من صفر سـنة تسع وتسعين وسـبعمائة وكان التصرف والنقض والابرام فى هذه المدة كلها للوزراء وتوفى السلطان المذكور بعد صلاة العصر من يوم الثلاثاء الموفى ثلاثين من جمادى الآخرة سنة ثمانمائة فكانت دولته سنة وخمسة أشهر سوى أيام ومن وزرائه صالح بن حمو ويحيى بن علال ومن قضاته عبـد الرحيم اليزناسنى ومن حجابه أبو العباس أحمـد بن على القبائلى وفارح بن مهدى العلج والله تعالى أعلم ﴿وأما﴾ أخبار الغنى بالله ابن الاحمر بالاندلس فانه كان أسقط رياسة الجهاد من بنى مرين بها ومحا رسمها من مملكته أيام أجاز عبد الرحمن بن أبى يفلوسن للتشغيب على أبى بكر بن غازى بن الكاس حسبما تقدم وصار أمر الغزاة والمجاهدين اليه وباشر أخو الهم بنفسـه واستمر الحال على ذلك الى ان هلك سنة ثلاث وتسعين وسـبعمائة فولى مكانه ابنه أبو الحجاج يوسف وبايعه الناس وقام بامره خالد مولى أبيه وتقبض على اخوته سعد ومحمد ونصر فكان آخر العهد بهم ولم يوقف لهم بعد على خبر ثم سعى عنده فى خالد القـائم بدولته وانه أعدّ السم لقتله وان يحيى بن الصائغ اليهودى طبيب دارهم قد داخـله فى ذلك فقتل بمجالدوتناوشـته السيوف بين يديه لسـنة أو نحوها من ملكه ثم حبس الطبيب المذكور فذبح فى محبسه ثم هلك سنة أربع وتسعين وسـبعمائة لسنتين أو نحوها من ولايته وقد وقفت لبعض الاصبنوليين واسمـه منويل باولو القشتيلى على كتاب موضوع فى أخبار المغرب الاقصى فنقلت منه بعض أخبار لم أجدها الا عنده وهو وان كان ينقل الغث والسمين والرخيص والثمين الا ان الناقد البصـير يميز حصباءه من درّه ويفرق بين حشفه وتمره فمن ذلك انه حكى عن السلطان أبى الحجاج المذكور وما صورته قال كانت مراسلات السلطان المرينى يعنى السلطان أبا العباس مع السلطان يوسف بن الغنى بالله صاحب غرناطة حسـنة فى الظاهر تدل على الموافقة والمحبة وكان المرينى فى البـاطن يحب الاستيلاء على مملكة غرناطة ولما لم يمكنه ذلك بالسـيف عدل الى اعمال الحيلة فاهدى الى السلطان أبى الحجاج كسى رفيعة احداها مسمومة فلبسها فهلك لحينه ومع ذلك فلم يدرك المرينى غرضـه فانه لم يلبث الا يسـيرا حتى توفى أيضا اهـ ولما توفى أبو الحجاج بويع ابنه محمد بن يوسف وقام بامره القائد أبو عبـد الله محمد الخصاصى من صنائع أبيه ﴿قال ابن خلدون﴾ والحال على ذلك لهذا العهد ولنذكر ما كان فى هذه المدة من الاحداث * ففى سنة خمسين وسبعمائة كان الوباء الذى عم المسكونة شرقا وغربا على ما نبهنا عليه

فيما مضى ﴿وفى سنة خمس وستين وسبعمائة﴾ توفى الولى الزاهد أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر الاندلسى نزيل سلا العارف المشهور قال أبو عبد الله بن صعد التلمسانى فى كتابه النجم الثاقب فيما لاولياء الله من المناقب كان ابن عاشر أحد الاولياء الابدال معدودا فى كبار العلماء مشهورا باجابة الدعاء معروفا بالكرامات مقدما فى صدور الزهاد منقطعا عن الدنيا وأهلها ولو كانوا من صالحى العباد ملازما للقبور فى الخلاء المتصل بحر مدينة سلا منفردا عن الخلق لا يفكر فى أمر الرزق وله أخبار جليلة وكرامات عجيبة مشهورة ممن جمع الله له العلم والعمل وألقى عليه القبول من الخلق شديد الهيبة عظيم الوقار كثير الخشية طويل التفكر والاعتبار قصده أمير المؤمنين أبو عنان وارتحل اليه سنة سبع وخمسين وسبعمائة فوقف ببابه طويلا فلم يأذن له وانصرف وقد امتلأ قلبه من حبه واجلاله ثم عاود الوقوف ببابه مرارا فما وصل اليه فبعث اليه بعض أولاده بكتاب كتبه اليه يستعطفه لزيارته ورؤيته فاجابه بما قطع رجاءه منه وأيأسه من لقائه فاشتد حزنه وقال هذا ولى من أولياء الله تعالى حجبه الله عنا اهـ ومناقب الشيخ ابن عاشر وكراماته كثيرة وقد ألف فيها أبو العباس ابن عاشر الحافى من علماء سلا كتابه المسمى بتحفة الزائر فى مناقب الشيخ ابن عاشر فانظره ﴿وفى سنة ست وسبعين وسبعمائة﴾ وهى السنة التى قتل فيها ابن الخطيب كان الجوع بالمغرب قال أبو العباس ابن الخطيب القسنطينى المعروف بابن قنفذ فى كتابه أنس الفقير ما حاصله انه رجع من هجرته بالمغرب الاقصى فى السنة المذكورة الى بلده قسنطينة فاجتاز فى طريقه بتلمسان قال وفى هذه السنة كانت المجاعة العظيمة وعم الخراب المغرب فأقمت بتلمسان نحو شهر أنتظر تيسر سلوك الطريق فالتجأت الى قبر الشيخ أبى مدين ودعوت الله عنده فوقع ما أملته وارتحلت بعد أيام يسيرة فرأيت فى الطريق من الخير ما كان يتعجب منه من شاهده وكان أمر الطريق فى الخوف والجوع بحيث ان كل من نقدم عليه يتعجب من وصولنا سالمين ثم عند ارتحالنا من عنده يتأسف علينا حتى ان منهم من سمعناه ضرب الاكف خلفنا تحسرا علينا حتى انتهى سفرنا على وفق اختيارنا والحمد لله ﴿وفى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة﴾ توفى الشيخ الفقيه المحدث أبو عبد الله محمد بن محمد بن عمران الفنزارى السلاوى المعروف بابن الجراد صاحب لامية الجمل وشرح الدرر وغيرهما من التآليف الحسان قال صاحب بلغة الامنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة فى الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب فى حق الشيخ المذكور كان محدثا حافظا راوية له معرفة بالرجال والمغازى والسير وكان رجلا صالحا حسن السيرة صادق اللهجة انتفع به الناس وظهرت بركته على كل من عرفه أو لازم مجالسه أو قرأ عليه من صغير أو كبير قال وذلك عندنا معروف بسبتة مشهور بين أهلها وانتقل الى بلده سلا وتوفى بها فى السنة المذكورة ﴿قلت﴾ وقبره مشهور بها الى الآن وعليه قبة صغيرة وهو من مزارات سلا خارج باب المعلقة عن يمين الخارج على نحو غلوة وأهل سلا يسمونه سيدى الامام السلاوى رحمه الله ورضى عنه ﴿وفى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة﴾ توفى الشيخ الامام العارف المحقق الربانى أبو عبد الله محمد بن ابراهيم النفزى المعروف بابن عباد شارح الحكم العطائية وأحد تلامذة الشيخ ابن عاشر المذكور آنفا قال صاحبه وأخوه فى الله الشيخ أبو زكرياء السراج فى حقه ما نصه كان حسن السمت طويل الصمت كثير الوقار والحياء جميل اللقاء حسن الخلق والخلق عالى الهمة متواضعا معظما عند الخاصة والعامة نشأ ببلده رندة على أكمل طهارة وعفاف وصيانة وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ثم اشتغل بعد بطلب العلوم النحوية والادبية والاصولية والفروعية حتى رأس فيها وحصل معانيها ثم أخذ فى طريق الصوفية والمباحثة عن الاسرار الالهية حتى أشير اليه وتكلم فى علوم الاحوال والمقامات والعلل والآفات وألف فيها تآليف عجيبة وتصانيف بديعة غريبة وله أجوبة كثيرة فى مسائل العلوم

نحو مجلدين ودرس كتبا وحفظها كلها أوجلها الى ان قال ولقى ببلاد الشيخ الحاج الصالح السنى الزاهد الورع أحمد بن عاشر وأقام معه ومع أصحابه سنين عديدة قال رحمه الله قصدتهم لوجدان السلامة معهم وتوفى رحمه الله بفاس بعد صلاة العصر من يوم الجمعة ثالث رجب من السنة المذكورة وحضر جنازته السلطان أبو العباس بن أبى سالم فمن دونه وهمت العامة بكسر نعشه تبركا به رحمه الله ورضى عنه ومن فوائده التى نقلها عن شيخه ابن عاشر ماذكره فى رسائله قال كنت قد ماخرجت فى يوم مولد النبى صلى الله عليه وسلم صائما الى ساحل البحر فوجدت هنالك سيدى الحاج أحمد بن عاشر رحمه الله ورضى عنه وجماعة من أصحابه ومعهم طعام يأكلونه فأرادونى الاكل فقلت انى صائم فنظر الى سيدى الحاج نظرة منكرة وقال لى هذا يوم فرح وسرور يستقبح فى مثله الصوم كالعيد فتأملت قوله فوجدته حقا وكأنه أيقظنى من النوم اه ﴿واعلم﴾ انه فى آخر هذا القرن الثامن تبدلت أحوال المغرب بل وأحوال المشرق ونسخ الكثير من عوائد الناس ومألوفاتهم وأزيائهم ﴿قال ابن خلدون فى مقدمة تاريخه﴾ بعد ان ذكر ان الاحوال العامة للآفاق والاجيال والاعصار هى أس المؤرخ الذى تنبنى عليه أكثر مقاصده مانصه وأما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة فقد انقلبت أحوال المغرب الذى نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة واعتاض من أجيال البربر أهله على القدم عن طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بما كثروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الاوطان وشاركوهم فيما بقى من البلدان بملكتهم وبأسهم هذا الى مانزل بالعمران شرقا وغربا فى منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذى تحيف الامم وذهب باهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها وجاء الدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلص من ظلالها وفل من حدها وأوهن من سلطانها وتداعت الى التلاشى والاضمحلال أحوالها وانتقص عمران الارض بانتقاص البشر فخربت الامصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن وكأنى بالمشرق قد نزل به مثل مانزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه وكأنما نادى لسان الكون فى العالم بالخمول والانقباض فبادر بالاجابة والله وارث الارض ومن عليها واذا تبدلت الاحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم باسره وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث الى آخر كلامه رحمه الله فافهم هذه الجملة وتفطن لاحوال الدول التى سردنا أخبارها فيما مضى وأحوال التى نسرد أخبارها فيما بعد وتأمل الفرق بين ذلك والسبب فيه والله تعالى الموفق للصواب بمنه

﴿الخبر عن دولة السلطان أبى سعيد عثمان بن أبى العباس بن أبى سالم﴾

هذا السلطان هو ثالث الاخوة الاشقاء من بنى أبى العباس الذين ولوا الامر من بعده ولاء أمه الجوهر أم أخويه قبله بويع بعد صلاة العصر له من يوم الثلاثاء الموفى ثلاثين من جمادى الآخرة سنة ثمانمائة وسنه يومئذ ست عشرة سنة وكان النقض والابرام وسائر التصرفات فى دولته للوزراء والحجاب والسلطان متفرغ لاستيفاء لذاته ومن أكبر حجابه أبو العباس القبائلى الذى نذكر خبره الآن

﴿حجابة أبى العباس القبائلى ونكبته ومقتله والسبب فى ذلك﴾

بيت بنى القبائلى بيت مشهور فى الوزارة والحجابة والكتابة من لدن الدولة الموحدية بمراكش الى هذا التاريخ وكان الرئيس الفقيه أبو العباس أحمد بن على القبائلى كاتبا مشهورا وحاجبا مذكورا وكان قد بذ الاقران وتصدر على الاعيان وبلغ من الجاه ونفوذ الكلمة مبلغا عظيما وكان يحابى بالخطط السلطانية الاقارب والارحام لا يعدل بها عمن سواهم فاضطغنت عليه القلوب وكثرت فيه السعايات الى ان نفذ أمر الله فأوقع به السلطان أبو سعيد وقعة شنعاء كان من خبرها انه كان للحاجب المذكور ولد اسمه

عبد الرحمن وكان من فضلاء وقته وكان لعبد الرحمن هذا ولد اسمه علي وكان من نجباء الابناء فكان لجده أبي العباس لذلك ميل اليه ومحبة وافتتان به فاتفق ان مرض هذا الحافد ذات يوم فنزل جده أبو العباس من الحضرة بفاس الجديد لعيادته بدار ولده عبد الرحمن من عدوة القرويين من فاس القديم وكانت الدار بزنقة الجيلة من الطالعة فبات الشيخ عند حافده تلك الليلة وكان منذ ولي خطة الحجابة لم يغب عن دار الملك ليلة واحدة بل كان يأخذ في ذلك بالحزم بحيث يسد أبواب الحضرة ويفتحها ويباشر سائر الامور السلطانية بنفسه فلما أراد الله انفاذ قدره غطى على عقله وبصره فتساهل في تلك الليلة وبعث ولده أبا القاسم ليقوم مقامه في غلق الابواب وفتحها مع صاحب السقيف ومساهمه في القيام بالامور السلطانية أبي محمد عبد الله الطريفي الآتي ذكره فغلقا الابواب على العادة ولما كان الصباح من الغد تقدم الولد أبو القاسم لاخذ المفاتيح من دار الخلافة فانوجهت اليه وتولى فتح الابواب وحده دون أن يحضر الطريفي المشارك له في ولاية السقيف فلما جاء أبو محمد المذكور ورأى الابواب مفتحة بدون حضوره أخذه من ذلك ما قدم وما حدث وأسرّها في نفسه حتى اذا كان المساء وحضر الوقت المعهود لغلق الابواب طلع للحضرة ولد آخر من ولد الحاجب القبائلي يعرف بأبي سعيد فبادر أبو محمد فسد الابواب في وجهه قبل أن يصل اليه وأمسك المفاتيح عنده واستبدبها فطلب منه أبو سعيد أن يفتح له الباب فتجهمه وامتنع وكأنه أمر دبر بليل ثم تقدم القائد أبو محمد المذكور الى السلطان أبي سعيد فاعلمه بما اتفق له مع أولاد الحاجب فأوعز اليه السلطان أن لا يفتح الباب بعد غلقه الا وقت فتحه المعتاد وزاد في الوصية بان لا يفتح ولا يغلق الا بحضر السعيد ابن السلطان أبي عامر رحمه الله ولما رجع أبو سعيد الى والده بعدوة القرويين من فاس أعلمه بما اتفق له مع القائد الطريفي فامتلأ غيظا وقامت قيامته وكانت فيه دالة على السلطان فتخلف عن الحضور ولم يذكر ما قالته الحكماء اذا عاديت من عليك فلا تمله انه يهلكك ثم استعطفه السلطان فأبى أن يعطف ثم بعث اليه ببراءة بخطه لم يزل بها بصدده من الموجدة فكتب الحاجب جوابها وأقسم أن لا يطأ بساطا فيه فارح بن مهدي العلج وكان فارح هذا بعين النجلة من السلطان فلما وقف السلطان أبو سعيد على جواب الحاجب حمي أنفه وأظلمت الدنيا في عينيه وأمر بالايقاع بالحاجب في الحين فذبح هو وولده عبد الرحمن يوم الخميس الموفي ثلاثين من شوال سنة اثنتين وثمانمائة وكان عبد الرحمن هذا فاضلا شاعرا فمن شعره في الغزل قوله

أتسمع في الهوى قول اللواحي * وقد أبصرت خشف بني رياح
غزال خلف الصب المعنى * من الوجد المبرّح غير صاح
وقد قتلت ولا اثم عليها * مراض جفونه كل الصحاح
يقول ولحظه بالعقل يزرى * علام تطيل وصفي وامتداحي
فقلت فنون سحر فيك راقت * قضت للقلب بالعشق الصراح
جبينك والمقلد والثنايا * صباح في صباح في صباح

وبقي الحافد أبو الحسن علي بن عبد الرحمن المذكور مرتبا في جملة الكتاب وكان فاضلا شاعرا أيضا ولما مرض السلطان أبو سعيد في شعبان سنة سبع وثمانمائة وصح من مرضه وهنأته الشعراء بقصائد كثيرة فكان من جملتهم أبو الحسن المذكور فقال

هنيئا لنا ولكل الانام * براحة خير الملوك الهمام
امام أقام رسوم العلى * وحل من المجد أعلى السنام
به قرت العين لما بدا * صحيحا وما أن به من سقام
وهل هو الا كبدر الدجا * يوارى قليلا وراء الغمام

ويظهر طورا فيجلو به * عن الناس ياصاح ساجى الظلام
أو الليث يعكف فى غيله * فتحذر منه السباع اهتجام
أمولاى عثمان بحر الندى * ومردى العداة ونجل الكرام
لقد رفع الله مقداركم * فنفسى الفداء لكم من امام
أمولاى عبدك قد ضره * أفول رضاكم وبعد المرام
وأضحى كئيبا لابعادكم * مشوقا لتقبيل ذاك المقام
فكن راحما يا امام الورى * عطوفا بعملوكك المستهام
لعل الذى ناله ينقضى * وتشمل منك هبات جسام
فأيدك الله بالنصر ما * ترنم فوق الغصون حمام

﴿حجابة فارح بن مهدى وأوليته وسيرته﴾

﴿قال ابن خلدون﴾ فارح بن مهدى من معلوجى السلطان يعنى أبا العباس وأصله من موالى بنى زيان ملوك تلمسان اه ﴿وقال فى الجذوة﴾ هو من موالى السلطان أبى سعيد بن أبى العباس ولا منافاة بين الكلامين والله أعلم ولما افتصل أبو العباس القبائلى ولى الحجابة من بعده فارح بن مهدى هذا ﴿وقال فى الجذوة﴾ ولم يكن من أهل العلم لكنه كان شيخا مجربا للامور عارفا مجيدا فى التدبير قد أعطى الرياسة حقها والخطط مستحقها وكان ممسكا عنانه فلا يميل مع نفسه ولا يسحب أردانه ولا يوحش سلطانه موسوما عند الخلافة بالامانة ملحوظا لديها بعين المروءة والصيانة وكان السلطان أبو سعيد يعتنى به لاجل كبر سنه وتربيته الحرة آمنة بنت السلطان أبى العباس كانت تبدى له وجهها فى حالى صغرها وكبرها فكانت له بذلك مزية لم تكن لغيره بهذا ذكره التاورتى ولعل فيه تعريضا بالحاجب قبله ولما تكلم أبو عبد الله محمد العربى الفاسى فى كتابه مرآة المحاسن على مدينة تيجساس وصفها بقوله انها فى شرقى تطاون على مسيرة يوم منها فى موضع كثير الحجارة والصخر فى سفح جبل من غربيها وتحتها من شماليها جرف كثير الصخر عظيمه على مكسر موج البحر ولها نهر نفاع يجلب اليها منه جدول ولها بسيط تركبه الجداول من كل جهة فتسقى الزرع والكتان والثمار فأهلها فى أمن من القحط الى ان قال ولم تزل عامرة الى حدود ثمانمائة فجلا عنها أهلها بسبب جور فارح بن مهدى الوالى عليها من قبل بنى مرين فخلت من سكانها وانتقلوا الى القبائل وغيرها ولم يزل سورها ماثلا الى الآن اه ﴿قلت﴾ وفى هذه المدة خربت تطاون القديمة أيضا فزعم منويل فى تاريخه أن قراصين المسلمين من أهل تطاون وغيرهم كانت تغير على سواحل اصبيانيا وتغنم مراكبها ولما كانت سنة ألف وأربعمائة مسيحية الموافقة لسنة ثلاث وثمانمائة هجرية بعث الطاغية الريكى الثالث كوادرة لغزو تطاون ومراكبها فانتهت الى وادى مرتيل وأفسدت قراصين المسلمين التى به ثم نزلت عساكر الاصبنيول للبر فاقتحمت مدينة تطاون بعد ان جلا أهلها عنها وخربتها وعاثت فيها وبقيت خربة نحو تسعين سنة ثم جدد بناؤها على يد الرئيس أبى الحسن على المنظرى الغرناطى كما سيأتى وكانت وفاة فارح بن مهدى فى الثانى والعشرين من ربيع الاول سنة ست وثمانمائة والله تعالى أعلم

آمنة الحرة هى التى ينسب اليها البستان

﴿حجابة أبى محمد الطريفى وسيرته﴾

لما توفى الحاجب فارح بن مهدى ولى الحجابة من بعده أبو محمد عبد الله الطريفى وكان من فضلاء الحجاب وهو الذى بنى مسجد السوق الكبير بفاس الجديد وحبس عليه كتبا كثيرة فكان ذلك من حسناته الباقية نفعه الله بقصده

(حدوث)

﴿حدوث الفتنة بين السلطان أبي سعيد والسلطان أبي فارس الحفصي والسبب في ذلك﴾

لما توفي السلطان أبو العباس الحفصي صاحب تونس ولي الامر من بعده ابنه أبو فارس المذكور فوزع الوظائف من الامارة والوزارة وولاية الاعمال على اخوته فاعتضد بهم وكان من جملتهم أخوه أبو بكر بن أبي العباس بقسنطينة فنازعه بها ابن عمه الامير أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء الحفصي صاحب بونة وألح عليه في الحصار فصمد اليه السلطان أبو فارس الحفصي وأوقع به على سيبوس وقعة شنعاء انتهت به هزيمتها الى فاس مستصرخا صاحبها وهو يومئذ أبو فارس المريني فأقام أبو عبد الله بفاس الى سنة عشر وثمانمائة في دولة السلطان أبي سعيد فاتفق ان فسد ما بين السلطان أبي فارس الحفصي وبين اعراب افريقية من سليم فقدمت طائفة منهم حضرة فاس مستنجدين السلطان أبا سعيد على صاحبهم أبي فارس فالفوا عنده الامير أبا عبد الله المنهزم بسيبوس كامر فعقد له السلطان أبو سعيد على جيش من بني مرين وغيرهم وبعثه مع العرب فلما انتهى الى بجاية تلقته اعراب افريقية طائعة وهون عليه المرابط شيخ حكيم منها أمر تونس فرد الجيش المريني وقصدها بمن انضم اليه من الحشود فأخذ بجاية من أبي يحيى وفر في البحر وعقد أبو عبد الله عليها لابنه المنصور ثم زحف الى السلطان أبي فارس فخالفه الى بجاية فافتكها من يد ابنه المنصور ووجهه مع جماعة من كبار أهلها معتقلين الى الحضرة وعقد عليها لاحمد ابن أخيه ونهض لقتال ابن عمه أبي عبد الله المذكور وفتزع المرابط عنه الى السلطان أبي فارس لعهد كان بينهما فانفض جمع أبي عبد الله وقتل واحتز رأسه ووجهه السلطان أبو فارس مع من علقه بباب المحروق أحد أبواب فاس اغاظة للسلطان أبي سعيد وذلك سنة اثنتي عشرة وثمانمائة ثم تحرك السلطان أبو فارس الى جهة المغرب قاصدا أخذ الثار من السلطان أبي سعيد فاستولى على تلمسان ثم قصد حضرة فاس فلما اشارفها جنح السلطان أبو سعيد الى السلم فوجه اليه بهدايا جليلة فقبل ذلك أبو فارس وكافأ عليه وانكفأ راجعا الى حضرته ولحقته في طريقه بيعة أهل فاس وانتظم له ملك المغرب وبايعه صاحب الاندلس أيضا قاله صاحب الخلاصة النقية وهو الاديب أبو عبد الله محمد الباجي أحد كتاب الدولة التركية بتونس

﴿استيلاء البرتقال على مدينة سبتة أعادها الله﴾

كان جنس البرتقال وهو البردقيز في هذه السنين قد كثر بعد القلة واعتز بعد الذلة وظهر بعد الخمول وانتعش بعد الذبول فانتشر في الاقطار وسما الى تملك الامصار فانتهى الى أطراف السودان بل وأطراف الصين على ما قيل وألح على سواحل المغرب الاقصى فاستولى في سنة ثمان عشرة وثمانمائة على مدينة سبتة أعادها الله بعد محاصرته لها حصارا طويلا وسلطان المغرب يومئذ أبو سعيد بن أحمد صاحب الترجمة وسلطان البرتقال يومئذ خوان الاول (وذكر منويل في تاريخه) ان سلطان المغرب يومئذ عبد الله ابن أحمد أخو أبي سعيد المذكور وسيأتي كلامه بتمامه (وذكر صاحب نشر المثاني) في كيفية استيلاء البرتقال على سبتة قصة تشبه قصة قصير مع الزباء قال رأيت بخط من يظن به التثبت والصدق ان النصارى جاؤا بصناديق مقفلة يوهمون انها سلعا وأنزلوها بالمرسى كعادة المعاهدين وذلك صبيحة يوم الجمعة من بعض شهور سنة ثمان عشرة وثمانمائة وكانت تلك الصناديق مملوءة رجالا عددهم أربعة آلاف من الشباب المقاتلة فخرجوا على حين غفلة من المسلمين واستولوا على البلد وجاء أهله الى سلطان فاس مستصرخين له وعليهم المسوح والشعر والوبر والنعال السود رجالا ونساء وولدانا فاذن لهم علاج المسلمين ثم ردهم الى الفحص قرب بلادهم لعجزه عن نصرتهم حتى تفرقوا في البلاد والامر لله وحده قال وسمعت من بعضهم ان الذي جرأ النصارى على ارتكاب تلك المكيدة هو أنهم كانوا قد قاطعوا أمير سبتة على أن يفوض اليهم التصرف في المرسى والاستبداد بغلتها ويبذلوا له خراجا معلوما في كل سنة فكان حكم

المرسى حينئذ لهم دون المسلمين ولو كان المسلمون هم الذين يلون حكم المرسى ما تركوهم ينزلون ذلك العدد من الصناديق مقفلة لا يعلمون ما فيها والله أعلم بحقيقة الامر ولما استولى البرتقال على سبتة اعتنى بها وحصنها واستمرت فى ملكهم مدة تزيد على مائتين وخمسين سنة ثم ملكها منهم طاغية الاصبنيول فى سبيل مهادنة وشروط انعقدت بينهم بمدينة اشبونة فى حدود الثمانين وألف وأخبار السلطان أبى سعيد كثيرة وقد أرخ دولته وسيرته الكاتب أبو اسحق ابراهيم بن أحمد التاورتى رحمه الله وتوفى السلطان المذكور سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة وولى الامر من بعده ابنه عبد الحق الاخير كذا ذكره فى جذوة الاقتباس وقد ذكر منويل فى أمر أبى سعيد ووفاته ما يخالف هذا قال لما كانت دولة السلطان أبى سعيد المرينى كان المسلمون أهل جبل طارق قد سئموا ملكة ابن الاحمر صاحب غرناطة وتحققوا بان المرينى أقوى منه شوكة وأقدر على تخليصهم مما عسى ان ينالهم به الاصبنيول من حصار ونحوه فبعثوا اليه يخطبون ولايته ويعرضون عليه الدخول فى طاعته ان هو أمدهم بما يدفعون به فى نحر ابن الاحمر فأعجب أبا سعيد ذلك وللحين بعث اليهم أخاه عبد الله بن أحمد المعروف بسيدى عبو ومعه طائفة من الجيش امدادا لهم وكان قصد أبى سعيد ببعث أخيه عبد الله الحصول على احدى الفائدتين اما فتح جبل طارق ان كان الظهور له أو الاستراحة منه ان كان عليه لانه كان يشوش عليه فجاء الاخ المذكور حتى نزل بازاء جبل طارق ففتح أهل البلد الباب وأدخلوه وأدخلوا جنده وتحصن قائد الغرناطى وعسكره بقلعة الجبل وطير الاعلام بذلك الى صاحبه فبعث اليه جيشا قويت به نفسه فنزل من القلعة وانضم اليه مدده وقاتلوا الجيش المرينى فهزموه وقبضوا على عبد الله باليد وعلى جماعة من أصحابه وبعثوا بهم أسرى الى صاحب غرناطة فعمد صاحب غرناطة الى عبد الله وأنزله فى محل معتبر وأحسن اليه فتخلف ظن السلطان أبى سعيد فيما كان يحب لاخيه من التلف وغاظه فعل ابن الاحمر معه من الاحسان والابقاء عليه ثم ان أبا سعيد دبر حيلة بان بعث من قبله رجلا الى أخيه ليسقيه السم ويستريح منه مع ان غوغاء أهل المغرب وقبائله المنحرفة عن السلطان كانوا قد تشوفوا لقدومه عليهم وقيامهم معه فبطلت حيلة أبى سعيد فى السم ولم يحصل على طائل ثم ان ابن الاحمر اتفق مع عبد الله على ان يمده بالعسكر والمال ويسرحه الى المغرب ليستولى على ملكه ويأخذ له بالثار من أخيه فقبل عبد الله ذلك وأمده ابن الاحمر وسرحه الى المغرب فلما احتل به تبعه عدد وافر من قبائله الذين كانوا مستثقلين لوطأة أبى سعيد فنهض اليه أبو سعيد فكانت الكرة عليه ورجع مفلولا فى يسير من الجند الى فاس فتقبض عليه أهلها وسجنوه وأعلنوا بنصر أخيه عبد الله وفتحوا الباب فدخل الحضرة واستولى عليها وتم أمره وسجن أخاه أبا سعيد الى ان مات قال ولما استقل عبد الله بامر المغرب كله هدأت ارعيته واستقامت الاحوال الا انه تكدر عيشه بذهاب سبتة التى استولى عليها طاغية البرتقال خوان الاول بعد ما حاصرها أشد الحصار وكان ذلك على السلطان من أعظم النحوس وتكدر المسلمون غاية لفوات هذه المدينة العظيمة منهم ثم ثاروا على السلطان عبد الله واعتوروه رماحهم حتى فاظ ولما قتل تنازع الملك بعده اثنان من اخوته وبعد قتال شديد ولم ينتصف أحدهما من صاحبه اتفق أهل الحل والعقد على أن يولوا عبد الحق بن أبى سعيد اﻫ كلام منويل وهذا السلطان عبد الله الذى زاده منويل بين أبى سعيد وعبد الحق لم يذكره صاحب جذوة الاقتباس ويبعد أن يكون هذا الخبر الذى ساقه منويل لا أصل له والله تعالى أعلم بحقيقة الامر ومن جملة حجاب السلطان أبى سعيد الرئيس أبو فارس عبد العزيز بن أحمد الملياني ﴿قال فى الجذوة﴾ أصله من زرهون وتولى حجابة السلطان المذكور قال فغدر مولاه ومخدومه وهتك ستره وخرب داره وعبث بحريمه وقتل أولاده واخوانه ورفع الاذناب وحط الرؤساء وكان فساد المغرب على يده وقد ذكره التاورتى فأثنى عليه ﴿قال فى الجذوة﴾ ووجدت فى طرة ذمه وتنقيصه والله أعلم ومن وزراء السلطان أبى سعيد

صالح بن حموا اليابانى ويحيى بن عـلال بن آمصمود الهسكورى وقد تقدم ذكرهما ومن كتابه الفقيه الاديب أبو زكرياء يحيى بن الحسن بن أبى دلامة وكان صاحب العـلامة عند السلطان المذكور وممن شهد له أهل عصره بالتبريز فى النظم الفائق ثم ابنه محمد من بعده ومن قضاته الفقيه أبو محمد عبد الرحيم ابن ابراهيم اليزناسنى وقد تقدم ذكره والله تعالى أعلم

﴿الخبر عن دولة السلطان عبد الحق بن أبى سعيد بن أبى العباس بن أبى سالم المرينى رحمه الله﴾

هذا السلطان هو آخر ملوك بنى عبد الحق من بنى مرين وهو أطولهم مدة وأعظمهم محنة وشدة وهو أبو محمد عبد الحق بن أبى سـعيد عثمان بن أبى العباس أحمد بن أبى سالم ابراهيم بن أبى الحسن على بن أبى سعيد عثمـان بن أبى يوسف يعـقوب بن عبـد الحق الزناتى المرينى أمه علجة اصبنيوليـة على ماذكره منويل وفى أيامه ضـعف أمر بنى مرين جدا وتداعى الى الانحـلال وكان التصرف للوزراء والحجاب شأن دولة أبيه من قبله على ماذكره

﴿زحف البرتقال الى طنجة ورجوعهم عنها بالخيبة﴾

(قال منويل) كان لطاغية البرتقال خمسة اخوة شجعان فأرادوا أن يدركوا الفخر باستيلائهم على ثغر من ثغور المغرب يضيفونه الى سبتة ويوسعون به ماملكوه من أعمالها فركبوا اقراصينهم فى ستة آلاف عسكرى ونزلوا بسبتة ثم زحفوا الى طنجة سـنة احدى وأربعين وثمـانمـائة وحاصروها وضيقوا على أهلها ثم عاجلهم سلطان فاس وسلطان مراكش وأرهقوهم عن فتحها وأوقعوا بهـم وقبضوا على كبير عسـكرهم فرناندو وجماعة من أصحابه وعادوا بهـم أسرى الى فاس فلما صارت عظماء البرتقال فى يد المسلمين وأسرهم جنحوا الى السلم فسالمهم المسلمون على ان يردّوا لهم سبتة ويسرحوا لهم كبيرهم وأصحابه الذين معه فرضى البرتقال بذلك وانعقد الصلح عليه ثم كان من قدر الله ان هلك كبير البرتقال الذى وقع الشرط عليه فى سجن فاس واستمرت سبتة فى يد العدو وعدّ ذلك من سوء بخت المسلمين والامر لله وحـده ﴿وقد ذكر صاحب المرآة﴾ أن البرتقال استولى على طنجة سنة احدى وأربعين وثمـانمـائة وهو غير صواب وانمـا كان الحصار فقط والله تعالى أعلم

﴿أخبار الوزراء والحجاب وتصرفاتهم﴾

كان من جملة وزراء السلطان عبد الحق الوزير صالح بن صالح بن حموا اليابانى قالوا وهو الذى أوقع بالفقيه القاضى أبى محمد عبد الرحيم بن ابراهيم اليزناسـنى فقتله ذبحا سـنة أربع وثلاثين وثمـانمـائة ومن وزراء السلطان المذكور الوزير أبو زكرياء يحيى بن زيان الوطاسى قالوا وفى سـنة ست وأربعين وثمـانمـائة غزا الوزير المذكور الشاوية وكانوا قد تمردوا على الدولة وأعضل داؤهـم فقتل الوزير المذكور جمعهـم وخرب منازلهـم ثم كانت وفاته سنة اثنتين وخمسـين وثمـانمـائة قتله عرب انقاد على سبيل الغـدر قعصا بالرماح وحمل قتيلا الى فاس فدفن بالقلة خارج باب الجيسة وولى الوزارة بعده على بن يوسف الوطاسى قالوا فكانت أيامه مواسم لديانته وصيانته وحفظه أمور الملك ورفقه بالرعية مع العدل وحسن الادارة ثم توفى بتامسنا خامس رمضان سنة ثلاث وستين وثمـانمـائة وحمل الى فاس فدفن بالقلة أيضا وفى هذه السـنة أو التى قبلها استولى البرتقال على قصر المجاز وهو المعروف بقصر مصمودة والقصر الصغير وهو الآن خراب والله أعلم

﴿وزارة يحيى بن يحيى الوطاسى ومقتله ومقتل الوطاسيين معه والسبب فى ذلك﴾

لما توفى الوزير على بن يوسف رحمه الله قدم للوزارة بعـده أبو زكرياء يحيى بن يحيى بن زيان الوطاسى قالوا

تغيير العوائد مضر بالدولة

فكانت ولاية هذا الوزير هي مبدأ الشر ومنشأ الفتنة وذلك أنه لما استقل بالحجابة أخذ في تغيير رسم الملك وعوائد الدولة وزاد ونقص في الجند ونقض جل ما أبرمه قبله الوزراء وعامل الرعية بالعسف ومن جملة ما نقم عليه أنه عزل قاضي فاس الفقيه أبا عبد الله محمد بن محمد بن عيسى بن علال المصمودي وقدم مكانه الفقيه يعقوب التسولي وكان المصمودي من الدين وتحري العدل بمكان فلما رأى السلطان عبد الحق فعل الوزير واستحواذه على أمور الدولة وتبين له أن الوطاسيين قد التحفوا معه رداء الملك وشاركوه في بساط العز وكادوا يغلبونه على أمره سطا بهم سطوة استأصلت جمهورهم الا من جاء الاجل منهم فتقبض على الوزير يحيى وعلى أخويه أبي بكر وأبي شامة وعلى عمهم فارس بن زيان وقريبهم محمد بن علي ابن يوسف وأتى الذبح على جميعهم واستمر البحث عن محمد الشيخ ومحمد الحلو أخوي الوزير المذكور فلم يوجدا لذهاب الشيخ في ذلك اليوم للصيد واختفاء الحلو عند قيام الهيعة فكان ذلك من لطف الله بهما واتصل بهما ما جرى على عشيرتهم وبني أبيهم فذهبا الى منجاتهما وكان من أمرهما ما نذكره وكانت هذه الحادثة الصماء بعد مضي سبعين يوما من وزارة يحيى بن يحيى المذكور وصفا للسلطان عبد الحق أمره ورأى أن قد شفا نفسه من الوطاسيين ونقى بساط حضرته من قضضهم وأبرأ جسم ملكه من مرضهم والله غالب على أمره

﴿رياسة اليهوديين هرون وشاويل وما نشأ عن استبدادهما من المحنة والفتنة﴾

قالوا كان السلطان عبد الحق منذ أوقع ببني وطاس لم تسمح نفسه باعطاء منصب الوزارة لاحد ثم نمى اليه أن العامة وكثيرا من الخاصة قد نقموا عليه ابقاءه بالوطاسيين وأن أذنهم صاغية الى محمد الشيخ صاحب آصيلا وكان قد استولى عليها بعد فراره حسبما نذكره وربما شافهه البعض منهم بذلك فولى عليهم اليهوديين المذكورين تأديبا لهم وتشفيا منهم زعموا فشرع اليهوديان في أخذ أهل فاس بالضرب والمصادرة على الاموال واعتز اليهود بالمدينة وتحكموا في الاشراف والفقهاء فمن دونهم وكان اليهودي هرون قد ولى على شرطته رجلا يقال له الحسين لا يألو جهدا في العسف واستلاب الاموال واستمر الحال على ذلك والناس في شدة ﴿وفي سنة سبع وستين وثمانمائة﴾ انتزع الاصبنيول جبل طارق من يد ابن الاحمر

﴿استيلاء البرتقال على طنجة﴾

ثم في سنة تسع وستين وثمانمائة استولى البرتقال على طنجة زحفوا اليها من سبتة في ألوف من العساكر واستولوا عليها واستمرت بايديهم أكثر من مائتين وخمسين سنة ثم بذلوها للطاغية النجليز سنة أربع وسبعين وألف في سبيل الهادية والصهر الذي انعقد بينهما كما سيأتي

﴿مقتل السلطان عبد الحق بن أبي سعيد والسبب في ذلك﴾

ثم ان اليهودي عمد الى امرأة شريفة من أهل حومة البليدة فقبض عليها والبليدة حومة بفاس قديما وكانت بدار الكومي قرب درب جنيارة فانحى عليها بالضرب ولما ألهبتها السياط جعلت تتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم فحمي اليهودي وكاد يتميز غيظا من سماع ذكر الرسول وأمر بالابلاغ في عقابها وسمع الناس ذلك فأعظموه وتمشت رجالات فاس بعضهم الى البعض فاجتمعوا عند خطيب القرويين الفقيه أبي فارس عبد العزيز بن موسى الورياكلي وكانت له صلابة في الحق وجلادة عليه بحيث يلقي نفسه في العظائم ولا يبالي وقالوا له ألا ترى الى ما نحن فيه من الذلة والصغار وتحكم اليهود في المسلمين والعبث بهم حتى بلغ حالهم الى ما سمعت فنجع كلامهم فيه والصعن أغراهم بالفتك باليهود وخلع طاعة السلطان عبد الحق وبيعة الشريف أبي عبد الله الحفيد فأجابوه الى ذلك واستدعوا الشريف

المذكور

المذكور فبايعوه والتفت عليه خاصتهم وعامتهم وتولى كبر ذلك أهل حومة القلقليين منهم ثم تقدم الوريا كلي بهم الى فاس الجديد فصمدوا الى حارة اليهود فقتلوهم واستلبوهم واصطلموا نعمتهم واقتسموا أموالهم وكان السلطان عبد الحق يومئذ غائبا في حركة له ببعض النواحي ﴿وقال في نشر المثاني﴾ خرج السلطان عبد الحق بجيشه الى جهة القبائل الهبطية وترك اليهودي يقبض من أهل فاس المغارم فشدد عليهم حتى قبض على امرأة شريفة وأوجعها ضربا وحكى ما تقدم فاتصل بعبد الحق الخبر وانفض مسرعا الى فاس واضطرب عليه أمر الجند ففسدت نياتهم وتنكرت وجوههم وصاروا في كل منزلة تنفض عنه طائفة منهم فأيقن عبد الحق بالنكبة وعاين أسباب المنية ولما قرب من فاس استشار هرون اليهودي فيما نزل به فقال اليهودي له لا تقدم على فاس لغليان قدر الفتنة بها وانما يكون قدومنا على مكناسة الزيتون لانها بلدنا وبها قوادنا وشيعتنا وحينئذ يظهر لنا ما يكون فما استتم اليهودي كلامه حتى انتظمه بالرمح رجل من بني مرين يقال له تيان وعبد الحق ينظر وقال أوما زلنا في تحكم اليهود واتباع رأيهم والعمل باشارتهم ثم تعاورته الرماح من كل جانب وخر صريعا لليدين والفم ثم قالوا للسلطان عبد الحق تقدم أمامنا الى فاس فليس لك اليوم اختيار في نفسك فأسلم نفسه وانتهبت محلته وفشت أمواله وحلت به الاهانة وجاؤا به الى ان بلغوا عين القوادس خارج فاس الجديد فاتصل الخبر بأهل فاس وسلطانهم الحفيد فخرج الى عبد الحق وأركبه على بغل بالبردعة وانتزع منه خاتم الملك وأدخله البلد في يوم مشهود حضره جمع كبير من أهل المغرب وأجمعوا على ذبحه وشكروا الله على أخذه ثم جنب الى مصرعه فضربت عنقه صبيحة يوم الجمعة السابع والعشرين من رمضان سنة تسع وستين وثمانمائة ودفن ببعض مساجد البلد الجديد ثم أخرج بعد سنة ونقل الى القلة فدفن بها وانقرضت بهلاكه دولة بني عبد الحق من المغرب والبقاء لله وحده ﴿ونقل الثقات﴾ أن الشيخ أبا العباس أحمد زروق رحمه الله كان قد ترك الصلاة خلف الفقيه أبي فارس الورياكلي لما صدر منه في حق السلطان عبد الحق وكان يقول لا آمن الغندور على صلاتي يعيبه بذلك والغندور في لسان المغاربة ذو النخوة والاباية وما أشبه ذلك والله يتغمدنا والمسلمين برحمته آمين ولنذكر ما كان في هذه المدة من الحوادث فنقول ﴿في سنة سبع وثمانمائة﴾ توفي الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن علي بن صالح المكودي عالم فاس وأديبها ونحويها صاحب المقصورة وشرح الخلاصة وغير ذلك من التآليف قيل هو آخر من درس كتاب سيبويه في النحو بفاس ﴿وفي سنة ثمان عشرة وثمانمائة﴾ توفي الشيخ أبو عبد الله محمد بن عمر بن الفتوح التلمساني ثم المكناسي يقال ان سبب انتقاله من تلمسان أنه كان شابا حسن الصورة جميل الشارة فمرت به امرأة جميلة فجعل ينظر اليها من طرف خفي فقالت اتق الله يا ابن الفتوح يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور فتأثر لقولها واتعظ وتاب الى الله تعالى وجعل من تمام توبته أن يهاجر من الارض التي قارف الذنب فيها فارتحل الى فاس فأقام بها مدة وانتفع الناس به ثم انتقل بعدها الى مكناسة فتوفي بها في السنة المذكورة قالوا وهو أول من أدخل مختصر الشيخ خليل مدينة فاس والمغرب ﴿وفي سنة ست وأربعين وثمانمائة﴾ كان الوباء العظيم بالمغرب هلك فيه جمع من كبار العلماء والاعيان ويسمى هذا الوباء عند أهل فاس وباء عزونة ﴿وفي سنة تسع وأربعين وثمانمائة﴾ في ذي القعدة منها توفي الشيخ أبو محمد عبد الله العبدوسي مفتي فاس وعالمها الكبير ومحدثها الشهير وكان من أهل الصلاح والخير والايثار ﴿وفي سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة﴾ في أواخر ذي القعدة منها توفي امام الجماعة بفاس الشيخ أبو عبد الله محمد بن قاسم الاندلسي الاصل المعروف بالقوري ودفن بباب الحمراء منها ﴿وفي سنة تسع وتسعين وثمانمائة﴾ في أواخر صفر منها توفي الشيخ العارف بالله المحقق أبو العباس أحمد البرنسي الشهير بزروق وكانت وفاته بمسراتة من أعمال طرابلس والله أعلم

﴿بقية أخبار بني الاحمر واستيلاء العدو على غرناطة وسائر الاندلس منها وانقراض كلمة الاسلام منها﴾

كانت دولة بني الاحمر في هذه المدة متماسكة والفتنة بين أعياصها متشابكة والعدو فيما بين ذلك يخادعهم عما بأيديهم ويراوغهم ويسالمهم تارة ويحاربهم الى ان كانت دولة السلطان أبي الحسن علي ابن السلطان سعد ابن الامير علي ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمد الغني بالله فنازعه أخوه أبو عبد الله محمد بن سعد المدعو بالزغل قدم من بلاد النصارى وبويع بمالقة وبقي بها مدة وعظم الخطب واشتدت الفتن وشرق المسلمون بداء الخلاف الواقع بين هذين الاخوين وتكالب العدو عليهم ووجد السبيل الى تفريق كلمتهم والتمكن من فسخ عهدهم وذمتهم وذلك أعوام الثمانين وثمانمائة ثم انقاد أبو عبد الله لابي الحسن فسكنت أحوال الاندلس بعض الشيء ثم خرج عليه ولده أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن وأسره النصارى في بعض الوقعات فراجع الناس طاعة أبي الحسن ثم نزل لاخيه أبي عبد الله الزغل عن الامر لآفة أصابته في بصره ثم ان العدو عمد لاسيره أبي عبد الله بن أبي الحسن فوعده ومناه وأظهر له من أكاذيبه وخدعه غاية مناه وبعثه للتشغيب على عمه طلبا لتفريق كلمة المسلمين وعكس مرادهم وتوصلا الى ما بقي عليه من حصون المسلمين وبلادهم وطالت الفتنة بين العم وابن الاخ وكل عقد كان بين العدو وبينه انحل وانفسخ وخبث العامة الذين هم أتباع كل ناعق في ذلك ووضعت وكان ذلك من أعظم الاسباب المعينة للعدو على التمكن من أرض الاندلس والتهامها واستئصال كلمة الاسلام منها ثم ان ابن الاخ استولى على غرناطة بعد خروج العم عنها الى الجهاد ففت ذلك في عضده وعطف الى وادي آش فاعتصم بها وحاصر العدو مالقة فقاتله أهلها بكل ما أمكنهم حتى اذا لم يجدوا للقتال مساغا نزلوا على الامان فاستولى العدو عليها أواخر شعبان سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة ثم استولى بعد ذلك على وادي آش وأعمالها صلحا ودخل في طاعته صاحبها أبو عبد الله العم بعد ان استهوى العدو قواده بالاموال الجزيلة ثم ان العدو خذله الله راسل أبا عبد الله بن أبي الحسن صاحب غرناطة وعرض عليه الدخول في الخطة التي دخل فيها عمه من النزول له عن البلاد على أموال جزيلة يبذلها له ويكون تحت حكمه مخيرا في أي بلاد الاندلس شاء فشاور رعيته فاتفق الناس على الامتناع والقتال فعند ذلك أرهف العدو حده وجعل غرناطة وأهلها من شأنه بعد ان استولى أثناء هذه الفتن والتضريبات على حصون كثيرة لم نتعرض لذكرها حتى لم يبق له الا غرناطة وأعمالها وقد اختصرنا معظم هذه الاخبار اذ لم تكن من موضوع الكتاب وانما ألممنا بهذه النبذة تتميما للفائدة وزيادة في الامتاع ولما كان اليوم الثاني والعشرون من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وثمانمائة خرج العدو بمحلاته الى مرج غرناطة وأفسد الزرع ودوخ الارض وهدم القرى وأمر ببناء موضع بالسور والحفير فأحكمه وكان الناس يظنون أنه عازم على الانصراف فاذا به قد صرف عزمه الى الحصار والاقامة وصار يضيق على غرناطة كل يوم ودام القتال سبعة أشهر واشتد الحصار بالمسلمين غير أن النصارى على بعد والطريق بين غرناطة والبشرات متصلة بالمرافق والطعام يأتي من ناحية جبل شلير الى أن تمكن فصل الشتاء وكلب البرد ونزل الثلج فانسد باب المرافق وانقطع الجالب وقل الطعام واشتد الغلاء وعظم البلاء واستولى العدو على أكثر الاماكن خارج البلد ومنع المسلمين من الحرث والسبب وضاق الحال وبان الاختلال وعظم الخطب وذلك أول سنة سبع وتسعين وثمانمائة وطمع العدو في الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع والغلاء دون الحرب والقتال ففر ناس كثيرون من الجوع الى البشرات ثم اشتد الامر في شهر صفر من السنة وقل الطعام وتفاقم الخطب فاجتمع ناس مع من يشار اليه من أهل العلم كأبي عبد الله المواق شارح المختصر وغيره وقالوا انظروا لانفسكم وتكلموا مع سلطانكم فاحضر السلطان أبو عبد الله بن أبي الحسن أهل دولته وأرباب مشورته وتكلموا في هذا الامر وأن العدو يزداد مدده كل يوم ونحن لا مدد لنا وكنا نظن أنه يقلع عنا في فصل

الشتاء فخاب الظن و بنى وأسس وأقام وقرب منا فانظر والانفسكم وأولادكم فاتفق الرأى على ارتكاب أخف الضررين وشاع ان الكلام وقع بين النصارى ورؤساء الاجناد قبل ذلك فى اسلام البلد خوفا على نفوسهم وعلى الناس ثم عددوا مطالب وشروطا أداروها وزادوا أشياء على ماكان فى صلح وادى آش منها أن صاحب رومة يوافق على الالتزام والوفاء بالشرط اذا مكنوه من حمراء غرناطة والمعاقل والحصون و يحلف على عادة النصارى فى العهود وتكلم الناس فى ذلك وذكروا ان رؤساء أجناد المسلمين لما خرجوا للكلام فى ذلك امتن عليهم النصارى بمال جزيل وذخائر ثم عقدت بينهم الوثائق على شروط قرئت على أهل غرناطة فانقادوا اليها ووافقوا عليها وكتبوا البيعة لصاحب قشتالة فقبلها منهم ونزل سلطان غرناطة أبو عبد الله عن الحمراء ولا حول ولا قوة الا بالله ﴿وفى﴾ ثانى ربيع الاول من السنة أعنى سنة سبع وتسعين وثمانمائة استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد ان استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الاعيان رهنا خوف الغدر وكانت الشروط سبعة وستين شرطا منها تأمين الصغير والكبير فى النفس والاهل والمال وابقاء الناس فى أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ومنها اقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم الا بشريعته وأن تبقى المساجد كما كانت والاوقاف كذلك وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحدا وأن لا يولى على المسلمين نصرانى أو يهودى ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم وأن يفتك جميع من أسر فى غرناطة حيث كانوا وخصوصا أعيانا نص عليهم ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا لغيره والسلطان يدفع ثمنه لمالكه ومن أراد الجواز الى العدوة لا يمنع و يجوزون فى مدة عينت فى مراكب السلطان لا يلزمهم الا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم والكراء وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره وأن لا يجبر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم وان من تنصر من المسلمين يوقف أياما حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى فان أبى الرجوع الى الاسلام تمادى على ما أراد ولا يعاتب على من قتل نصرانيا أيام الحرب ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى ولا يسفر لجهة من الجهات ولا يزيدون على المغارم المعتادة وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة ولا يطلع نصرانى للسور ولا يتطلع على دور المسلمين ولا يدخل مسجدا من مساجدهم ويسير المسلم فى بلاد النصارى آمنا فى نفسه وماله ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن ولا يمنع مؤذن ولا صائم ولا مصل ولا غيره من أمور دينه ومن ضحك منهم يعاقب و يتركون من المغارم سنين معلومة وان يوافق على كل الشروط صاحب رومة و يضع خط يده وأمثال هذا مما تركناه كره وبعد انبرام ذلك ودخول النصارى للحمراء والمدينة جعلوا قائدا بالحمراء وحكاما ومقدمين بالبلد ولما علم بذلك أهل البشرات دخلوا فى هذا الصلح وشملهم حكمه على هذا الوجه ثم أمر العدو بيناء ما يحتاج اليه فى الحمراء وتحصينها وتجديد بناء قصورها واصلاح سورها وصار الطاغية يختلف الى الحمراء نهارا ويبيت بمحلته ليلا الى ان اطمأن من خوف الغدر فدخل المدينة وتطوف بها وأحاط خبرا بما يرومه منها ثم أمر سلطان المسلمين ان ينتقل لسكنى البشرات وانها تكون له فى سكناه بأندرش فانصرف اليها وأخرج الاجناد منها ثم احتال عدو الله فى نفيه لبر العدوة وأظهر أن السلطان المذكور طلب منه ذلك ثم كتب لصاحب المرية انه ساعة وصول كتابى هذا لا سبيل لاحد أن يمنع مولاى أبا عبد الله من السفر حيث أراد من بر العدوة ومن وقف على هذا الكتاب فليصرفه وليقف معه وفاء بما عهد له فانصرف السلطان أبو عبد الله فى الحين بنص هذا الكتاب وركب البحر فنزل بمليلة واستوطن فاسا وكان قبل ذلك قد طلب الجواز لناحية مراكش فلم يسعف بذلك وحين جوازه لبر العدوة لقى شدة وغلاء و ... ثم ان النصارى نكثوا العهد ونقضوا الشروط عروة عروة الى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة أربع وتسعمائة بعد أمور وأسباب أعظمها

عليهم انهم قالوا ان القسيسين كتبوا على جميع من أسلم من النصارى أن يرجع قهر الدينه ففعلوا ذلك وتكلم الناس ولا جهد لهم ولا قوة ثم تعدوا ذلك الى أمر آخر وهو أن يقولوا للرجل المسلم ان جدك كان نصرانيا فأسلم فترجع أنت نصرانيا ولما تفاحش هذا الامر قام أهل البيازين على الحكام فقتلوهم وهذا كان السبب الاعظم فى التنصر قالوا الان الحكم خرج من عند السلطان ان من قام على الحاكم فليس الا الموت الا أن يتنصر فينجو من الموت وبالجملة فانهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة وامتنع قوم من التنصر واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق واندرش وغيرهما فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبيا الا ما كان من جبل بالنقة فان الله تعالى أعانهم على عدوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة وأخرجوا على الامان الى فاس بعيالهم وما خف من أموالهم دون الذخائر ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله فى خفية ويصلى فشدد النصارى فى البحث عنهم حتى انهم أحرقوا كثيرا منهم بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلا عن غيرها من الحديد وقاموا فى بعض الجبال على النصارى مرارا فلم يقيض الله تعالى لهم ناصرا الى ان كان اخراج النصارى اياهم جملة أعوام سبعة عشر وألف بعد ان ساكنوهم بغرناطة وأعمالها نحوا من مائة وعشرين سنة كانوا فيها تحت ذمة النصارى كما رأيت والامر لله وحده ولما أجلاهم العدو عن جزيرة الاندلس خرجت ألوف منهم بفاس وألوف أخر بتلمسان ووهران وخرج جمهورهم بتونس فتسلط عليهم فى الطرقات الاعراب ومن لا يخشى الله تعالى من الاوباش ونهبوا أموالهم وهذا ببلاد تلمسان وفاس ونجا القليل من هذه المضرة وأما الذين خرجوا بنواحى تونس فسلم أكثرهم وكذلك بتطاوين وسلا وبمتيجة الجزائر ولما استخدم سلطان المغرب الاقصى وهو المنصور السعدى منهم عسكرا جرارا وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد فى البحر ما هو مشهور وحصنوا قلعة سلا وهى رباط الفتح وبنوا بها القصور والحمامات والدور ﴿قال أبو عبد الله المقرى فى نفح الطيب﴾ وهم الآن يعنى فى حدود الثلاثين وألف بهذا الحال ووصل جماعة منهم الى القسطنطينية العظمى والى مصر والشام وغيرهما من بلاد الاسلام وانقضى أمر الاندلس وعادت نصرانية كما كانت أول مرة والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين ﴿وفى﴾ السنة التى استولى الاصبنيول على غرناطة انكشفت لهم أرض المالو كان التى كانت مجهولة قبل هذا التاريخ لسائر الامم وذلك أن الحكماء الاقدمين من اليونان وغيرهم أجمعوا على أن شكل الارض كرة وأن الماء قد غمر أحد جانبيها كله بحيث صارت الارض فيه كأنها بيضة مغرقة فى طست ماء قد رسب فيه أكثرها وبرز أقلها وأجمعوا على أن هذا البارز منها هو المسكون ببنى آدم وغيرهم من الحيوانات وهو المقسم الى سبعة أقسام تسمى الاقاليم ولم يهتدوا الى أن الجانب الآخر منكشف عنه الماء ولا انه مسكون كهذا الجانب بل جزموا بانه ماء صرف يسمى البحر المحيط واستمر هذا الاعتقاد عندهم ونقله الخلف عن السلف ووضعوا فيه التآليف العديدة الى أن كانت سنة سبع وتسعين وثمانمائة وهى السنة التى استولى فيها الاصبنيول على غرناطة وسائر الاندلس فاتفق ان ظهر فى تلك المدة رجل من فرنج جنوة اسمه كلنب بضم الكاف واللام كانت حرفته الملاحة والسفر فى البحر وكان بعيد الهمة مولعا بالشهرة مغرى بالد كروحسن الصيت فخطر بباله أن جانب الارض الذى أغفل الحكماء الاولون ذكره وزعموا انه بحر صرف ربما يكون مسكونا كهذا الجانب وكان جنس البرتقال فى هذه المدة قد كثرت أسفارهم فى البحر وملكوا عدة محال من جزائره الخالدات فحصل لكلنب الجنويزى بعض غيرة ونفاسة منهم وأراد أن يأتى باعظم مما فعلوا فعزم على التلجيج فى البحر المحيط والابعاد فيه عسى أن يظفر بمراده فتطارح على ملك البرتقال واسمه يومئذ يوحنا الثانى فى أن يعينه على ما هو بصدده وعدة بما يكون سببا فى نيل مقصده فلم يلتفت الى قوله ولا عرج على رأيه ومن قبل ما كان أهل جنوة

يحمقونه وينسبونه الى النهور ويمثل هذه الآراء فلما لم يجد عنده تلك البرتقال مراده تطارح على ملكة الاصبنيول وهي يومئذ ايسابيلا الشهيرة الذكر عندهم فأسعفته وهيأت له ثلاث سفائن وشحنتها بالرجال والسلاح والزاد والمال ودفعت ذلك اليه فسافر بها كلنب في البحر المحيط على سمت المغرب حتى أرسى ببعض الجزائر الخالدات فأراح بها أياما ثم سافر على السمت المذكور ملججا مدة من شهر ولما طال السفر على أصحابه الذين معه أرادوا قتله وبينما هم في ذلك ظهرت له أرض الماركان فسار حتى أرسى بأجفانه على ساحلها في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة سنة سبع وتسعين وثمانمائة المذكورة فعثر منها على أرض واسعة ذات أقطار ونواحي وجبال وأنهار تفوت الحصر حتى قيل أنها تساوي نصف هذا المسكون من الارض أو تزيد واذا فيها خلق كثير من بني آدم كهذه الآدميين الا انهم لم يفقهوا قوله ولا فقه قولهم فعاد كلنب الى ملكة الاصبنيول بعد ان بنى هنالك حصنا وترك به بعض الجند وساق من تلك الارض بعض الغرائب من حيوان وغيره اثباتا للمدعاه فلما قدم على الملكة بعد مغيبه سبعة أشهر واحد عشر يوما أعظمت قدره وتوهت باسمه وسرت بما أتى به من ذلك كله وعدت ذلك من سعادتها الى ما تسنى لها من الظفر بجزيرة الاندلس والاستيلاء عليها وتبين للفرنج حينئذ ان الارض معمورة من كلا الجانبين لا من جانب واحد كما اعتقده الاقدمون فحينئذ تسارعت أجناسهم الى أرض الماركان واقتسموها واعتنوا بعمرانها وسموها الدنيا الجديدة فكانت من أعظم الاسباب في انتعاشهم وتقويتهم وضخامة دولهم واتساع خطط ممالكهم والامور كلها بيد الله ﴿ومن جملة﴾ ما كان مفقودا بأرض الماركان نوع الخيل وكذا غيرها من الحيوانات الاهلية ولما رأوا الآدمي راكبا على الفرس مسرجا ظنوه قطعة واحدة وان الفارس وفرسه حيوان واحد خلق على تلك الكيفية الى غير ذلك وأخبار أرض الماركان وكيفية العثور عليها ثم التردد اليها واعمارها بعد ذلك طويلة وملخصها ما ذكرناه والله تعالى الموفق بمنه

﴿أخبار البرتقال بالمغرب الاقصى على الجملة﴾

﴿اعلم﴾ ان هذا المغرب الاقصى حرسه الله وكلأه بعين حفظه لم يزل بجميع ثغوره وسواحله وأقطاره منذ الفتح الاسلامي الى المائة التاسعة محفوظ الجوانب من طروق أمم الفرنج وغيرهم من أعداء الدين محفوف الاكناف بالحامية من جنود المسلمين مرهوب الشوكة ملوكه عند أمم النصرانية جيلا بعد جيل وأمة بعد أمة ودولة بعد دولة لم تكن الفرنج تحدث نفسها بغزو شيء من بلاده أو طروق ثغر من ثغوره أو الاستيلاء على شيء من سواحله ولم يكن أهله أيضا يتوقعون ذلك منهم ولا يخشونه بل هم الذين كانوا يغزون الفرنج في عقر دارهم وأعز بلادهم ويحامون عن بلاد الاندلس وسواحل افريقية وغيرها متى هاج أهلها هيج من ذلك حسبما تقدمت الاخبار المفصحة عن ذلك ولم يبلغنا أن جنسا من أجناس الفرنج فيما قبل المائة التاسعة غزا شيأ من أطراف المغرب الاقصى أو ثغرا من ثغوره بقصد الاستيلاء والتملك الا ما كان من مدينة سلا التي دخلها الاصبنيول غدرا أيام الفتنة بين اليعقوبين ثم خرجوا عنها لمدة يسيرة حسبما مر والا ما كان من محاصرة أهل جنوة لسبتة ثم الاقلاع عنها كذلك ونحو هذا مما لا يعتبر فلما دخلت المائة التاسعة ومضى صدرها وتداعت دول المغرب من بني أبي حفص بافريقية وبني زيان بالمغرب الاوسط وبني مرين بالمغرب الاقصى وبني الاحمر بالاندلس وأشرفت على الهرم وحدثت الفتن بين المسلمين ودامت فيهم واشتغلوا بأنفسهم دون الالتفات الى جهاد العدو ومطالبته في أرضه وبلاده على ما كان لهم من العادة قبل ذلك وافق ذلك ابتداء ظهور الجلالقة وهم الاصبنيول والبرتقال وهم البرطقير بجزيرة الاندلس واستفحال أمرهم فكثرت أسفار البرتقال في البحر المحيط ودام تغلبهم فيه ومرنوا عليه حتى حصلوا على عدة جزائر منه وكشفوا بعض الروس الساحلية من أرض السودان وغيرها

ثم شمر هوا الثمالث سواحل المغرب الاقصى فهجموا عليها وجالدوا أهلها دونها حتى تمكنوا منها ونشبوا فيها فقويت شوكتهم وعظم ضررهم على الاسلام وطمحت نفوسهم للاستيلاء على ما وراء ذلك حسبما تقف عليه مبينا فى مواضعه ان شاء الله فاستولوا فى سنة ثمان عشرة وثمانمائة على مدينة سبتة بعد محاصرتهم لها ست سنين على ما فى بعض تواريخ الافرنج ثم فى سنة اثنتين وستين وثمانمائة استولوا على قصر المجاز ثم استولوا فى سنة تسع وستين وثمانمائة على طنجة ثم فى حدود سنة ست وسبعين وثمانمائة ملكوا آصيلا وفى هذا التاريخ نفسه أو قبله بيسير استولوا على مدينة آنفى وبعض سواحل السوس ثم فى حدود سنة سبع وتسعمائة نزلوا بأرض الجديدة فيما بين آزمور وتيط وبنوا بها حصن البريجة وطال مقامهم بها ثم فى سنة عشر وتسعمائة استولوا على مدينة العرائش ثم بعد ذلك بيسير فى حدود العشر وتسعمائة على ما تقتضيه تواريخ الفرنج ملكوا حصن آكادير وما اتصل به من سواحل السوس الاقصى ثم ملكوا فى حدود اثنتى عشرة وتسعمائة رباط آسفى ثم عطفوا على ثغر آزمور فاستولوا عليه فى سنة أربع عشرة وتسعمائة ثم المعمورة وهى المهدية ملكوها أيضا فى حدود سنة عشرين وتسعمائة وفى هذا التاريخ نفسه رجعوا الى مدينة آنفى بعد هدمها فبنوها وسكنوها (وبالجملة) فلم يبق من ثغور المغرب الاقصى بيد المسلمين الا القليل مثل سلا ورباط الفتح وفجئ المسلمون من هذا البرتقال بالامر العظيم ودهوا منه بالخطب الجسيم واستحوذ عدو الله على بلاد الهبط وضايقهم بها حتى انحازوا الى الامصار المتزوية عن الاطراف والقرى النائية عن السواحل وكان ذلك كله فيما بين انقراض دولة بنى وطاس وظهور دولة الشرفاء السعديين ولقد ذكر فى مرآة المحاسن ان قصر كتامة كان فى صدر المائة العاشرة مقصد التجار وسوقا تجلب اليه بضائع العدوتين وسلعها قال اذ كان القصر المذكور ثغرا بين بلاد المسلمين وبين بلاد النصارى تحط به رحال تجار المسلمين من آفاق المغرب وتجار الحربيين من آصيلا وطنجة وقصر المجاز وسبتة ولانه كان محل عناية سلطان المغرب اذ ذاك محمد الشيخ بن أبى زكرياء الوطاسى فان القصر قاعدة بلاد الهبط التى كانت موقد شرارة السلطان المذكور ومشب ناره وموشج عصبيته مع مجاورته لبلاد الحرب فكان نظره مصروفا اليه واختصاصه موقوفا عليه وتقبيل بنوه من بعده مذهبه فيه اهـ كلامه فهذا يدلك على ما كان عليه العدو خذله الله من المضايقة للمسلمين فى ثغورهم وبلادهم ولله الامر من قبل ومن بعد ولما نزل باهل المغرب الاقصى ما نزل من غلبة عدو الدين واستيلائه على ثغور المسلمين تباروا فى جهاده وقتاله واعملوا الخيل والرجل فى مقارعته ونزاله وتوفرت دواعى الخاصة منهم والعامة على ذلك وصرفوا وجوه العزم لتحصيل الثواب فيما هنالك فكم من رئيس قوم قام لنصرة الدين غيرة واحتسابا وكم من ولى عصر أو عالم مصر باع نفسه من الله ورأى ذلك صوابا حتى لقد استشهد منهم أقوام وأسر آخرون وبلغ الله تعالى جميعهم من الثواب ما يرجون فممن استشهد منهم فى سبيل الله سيدى عيسى بن الحسن المصباحى دفين الدعداعة بأرض البروزى من بلاد طليق وأبو الحسن على بن عثمان الشاوى من أصحاب الشيخ أبى محمد الغزوانى وأبو الفضل فرج الاندلسى ثم المكناسى وأبو عبد الله محمد القصرى المعروف بسقين قتله النصارى عند ضريح الشيخ أبى سلهام وكان قد قصده للزيارة ففتكوا به هنالك وكل هؤلاء معدود فى أولياء الله تعالى وممن أسر منهم ثم خلصه الله الشيخ أبو محمد عبد الله بن ساسى دفين تانسيفت من أحواز مراكش والشيخ أبو محمد عبد الله الكوش دفين جبل العرض من أحواز فاس و والد صاحب دوحة الناشر وهو أبو الحسن على بن مصباح الحسنى عرف بابن عسكر والشيخ العلامة أبو العباس أحمد ابن القاضى المكناسى أحد قضاة سلا وهو صاحب جذوة الاقتباس والمنتقى المقصور وغيرهما من التآليف الحسان أسر وهو ذاهب الى الحج وأبو عبد الله محمد بن أبى الفضل التونسى المعروف بخروف نزيل فاس

شيخ

وشيخ الجماعة بها هؤلاء كلهم أصابه الاسر ثم خلصه الله بعد حين وغير هؤلاء ممن لم يحضرنا ذكرهم أجزل الله ثوابهم ويسر بمنه حسابهم ولقد ألف الناس فى ذلك العصر التآليف فى الحض على الجهاد والترغيب فيه وقال الخطباء والوعاظ فى ذلك فاكثروا ونظم الشعراء والادباء فيه ونثروا فمن ألف فى ذلك الباب فافاد الشيخ المتفنن البارع الصوفى أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن يجبش التازى ﴿قال فى الدوحة﴾ وقفت له على تأليف ألفه فى الحض على الجهاد فى سبيل الله فكان مما ينبغى أن يتداول باليدين ويكتب دون المداد باللجين أودعه نظما ونثرا وممن نظم فى ذلك فاجاد الشيخ الصالح المتصوف المجاهد أبو عبد الله محمد بن يحيى البهلولى ﴿قال فى الدوحة﴾ كان هذا الشيخ ممن لازم باب الجهاد وفتح له فيه وله فى ذلك أشعار وقصائد زجليات وغيرها وكان معاصر السلطان أبى عبد الله محمد بن محمد الشيخ الوطاسى المعروف بالبرتقالى فكان اذا جاءه زائرا حضه على الغزو فيساعده على ما أراد من ذلك ولما توفى السلطان المذكور ودالت الدولة لولده السلطان أحمد وغص بالشرفاء القائمين عليه ببلاد السوس عقد الهدنة مع النصارى المجاورين له ببلاد الهبط وصاحبهم سلطان البرتقال فبلغ ذلك الشيخ أبا عبد الله المذكور فآلى على نفسه أن لا يلقى السلطان المذكور ولا يمشى اليه ولا يقبل منه ما كان عينه له والده من جزية أهل الذمة بفاس لقوته وضروريانه فمكث على ذلك الى ان حضرته الوفاة وكان فى النزع وأصحابه دائرون به فقال له بعضهم ياسيدى أخبرك ان السلطان أمر بالغزو ونادى به وحض الناس عليه والمسلمون فى شره لذلك وفرح ففتح الشيخ عينيه وتهلل وجهه فرحا وحمد الله وأثنى عليه ففاضت نفسه وهو مسرور بذلك ولهذا الشيخ زجليات ومقطعات حسان فى الحض على الجهاد منها اللامية المشهورة التى خاطب بها السلطان أبا عبد الله المذكور ومطلعها

قل للامير محمد * ياطلعة الهلال لو ليلة فى السواحل * من أفضل الليال

﴿ومنها القصيدة التى مطلعها﴾

ظهر الرمل مرادى * والعسكر ياكرام نفسى على الجهاد * سبلت والسلام

﴿ومنها القصيدة التى أولها﴾

قسم للجهاد رعاك الله منتهجا * نهج الرشاد الى الاقوام لو فهموا

من بعد اندلس مازلت محتدما * لو كان يمكننى فى الليل احتزم

الى غير ذلك مما يطول ذكره ﴿قال صاحب الدوحة﴾ حدثنى الفقيه العدل أبو العباس أحمد الدغمورى القصرى قال كان الشيخ أبو عبد الله يقول ماغزونا غزوة قط الا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ويخبرنى بجميع مايتفق لى ولاصحابى فى تلك الغزوة وله رضى الله عنه فى شأن الجهاد والرجولية حكاية ظريفة وهى انه غزا مرة غزوة الى الثغور الهبطية ثم قدم منها مع أصحابه فوجد جنازة فلانة بنت الشيخ أبى زكرياء يحيى بن بكار قد توفيت وصلى الناس عليها بجامع القرويين وامامهم الشيخ غازى ابن الشيخ أبى عبد الله محمد بن غازى الامام المشهور فوصل الشيخ أبو عبد الله ووجد جنازتها على شفير القبر والناس يحاولون دفنها فقال لهم مهلا ثم تقدم وأعاد الصلاة عليها مع أصحابه الذين قدموا معه فبادر الناس اليه بالانكار فى تكرير الصلاة على الجنازة بالجماعة مرتين فقال لهم على البديهة صلاتكم التى صليتم عليها فاسدة لكونها بغير امام فقالوا له كيف ذلك ياسيدى قال لان من شرط الامام الذكورية وهى مفقودة فى صاحبكم لان الذى لم يتقلد سيفا فى سبيل الله قط ولم يضرب به ولا عرف الحرب كما كان نبينا صلى الله عليه وسلم ولم يتعبد بالسيرة النبوية فكيف يعد اماما ذكرا بل امامكم والله من جملة النساء اهـ ﴿وحكى﴾ أيضا فى ترجمة الشيخ أبى محمد عبد الله الورياكلى الذى قال له العلامة ابن مرزوق وقد عزم على الرحلة الى بلاد المشرق فى طلب العلم ليس أمامك أحد أعلم منك قال فرجع من هنالك فوجد النصارى

قد تغلبوا على طنجة وأصيلا فلازم الثغور الهبطية لاجل الرباط والجهاد فى سبيل الله وبث العلم ونشره قال وكان من عادته أن يشتغل بالتدريس فى فصلى الشتاء والربيع ويخرج فى الصيف والخريف فيربط فى ثغور القبائل الهبطية الى آخر كلامه وأمثال هذا كثير ذكرنا منه هذه النبذة اليسيرة لتقف بها على أحوال القوم وما كانوا عليه من الرغبة فى الجهاد والمثابرة عليه قدس الله أرواحهم وجعل فى دار النعيم غدوهم ورواحهم * وقد آن أن نشرع فى الاخبار عن دولة بنى وطاس بعد ان نذكر دولة الشريف العمرانى الذى بايعه أهل فاس يوم مقتل السلطان عبد الحق بن أبى سعيد رحمه الله

﴿الخبر عن دولة الشريف أبى عبد الله الحفيد وأوليته﴾

هذا الشريف هو أبو عبد الله محمد بن على الادريسى الجوطى العمرانى من بيت بنى عمران فرقة من أدارسة فاس وهم واسطة عقد البيت الادريسى وأوضحهم نسبا وأعلاهم حسبا ﴿قال ابن خلدون﴾ ليس فى المغرب فيما نعلمه من أهل هذا البيت الكريم من يبلغ فى صراحة نسبه ووضوحه مبلغ أعقاب ادريس رضى الله عنه قال وكبراؤهم لهذا العهد بنو عمران بفاس من ولد يحيى الجوطى بن محمد بن يحيى العدّام بن القاسم بن ادريس بن ادريس وهم نقباء أهل البيت هنالك والساكنون ببيت جدهم ادريس ولهم السيادة على أهل المغرب كافة اه (والجوطى) قال فى المرآة نسبة الى جوطة بجيم مضمومة وواو ساكنة وطاء مفتوحة وهاء تأنيث وهى قرية عظيمة على نهر سبو فى العدوة الجنوبية خربت ولم يبق منها الا آثار ولها مسيل شتوى يعرف بخرط جوطة نزلها السيد يحيى فنسب اليها وقبره هنالك معروف اه

﴿بيعة السلطان أبى عبد الله الحفيد والسبب فيها﴾

كان بنو مرين أيام ولايتهم على المغرب يعظمون هؤلاء الاشراف الادارسة ويوجبون حقهم ويتقربون الى الله تعالى برفع منزلتهم وجبر خواطرهم لما فاتهم من رتبة الخلافة التى كانت تكون لهم بطريق الاستحقاق الشرعى فكان بنو مرين لما جبلوا عليه من الجنوح الى مراسم الدين وانتحالها يرون فى أنفسهم كأنهم متغلبون مع وجود هؤلاء الاشراف فلذا كانوا يخضعون لهم ويتأدبون معهم ما أمكن ولقد حكى أبو عبد الله بن الازرق ان الشيخ الكبير أبا عبد الله المقرى كان يحضر مجلس السلطان أبى عنان لبث العلم وكان نقيب الشرفاء بفاس اذا دخل مجلس السلطان يقوم له السلطان وجميع من فى المجلس اجلالا له الا الشيخ المقرى فانه كان لا يقوم له فجرت بين الشريف والفقيه المذكور معاتبة ومراجعة فى حكاية مشهورة تركناها لعدم تعلق الغرض بها اذ الغرض هو الوقوف على ما كان عليه القوم من التجلة والتعظيم لاهل هذا البيت الكريم فلما اضطربت أحوال الدولة المرينية بفاس واجتمع رؤساء فاس الى الفقيه أبى فارس الورياكلى فى شأن اليهوديين اللذين كانا يحتكمان فى المدينة ويعتسفان أهلها أجمع رأيهم على مبايعة هذا الشريف الحفيد وكان يومئذ يلى نقابة الاشراف بفاس فاستدعوه فحضر وبايعوه فى العشر الاواخر من رمضان سنة تسع وستين وثمانمائة وتم أمره وكان من قتله السلطان عبد الحق ما تقدم ذكره والله أعلم

﴿فتنة الشاوية ووصولهم الى بلاد المغرب﴾

قد قدمنا ما كان من أمر الشاوية وفتنتهم فى أيام السلطان عبد الحق ولما كانت أيام الحفيد هذا تزايد ضررهم واستطار شررهم فزحفوا الى بلاد المغرب من أحواز مكناسة وفاس وعاثوا وأفسدوا ولما تكلم أبو عبد الله محمد العربى الفاسى فى مرآة المحاسن على الشيخ عبد الوارث اليالصوتى وانه أخذ عن

جماعة منهم أبو النجاء سالم الروداني الشاوى والشيخ أبو عبد الله الصغير السهلى والشيخ أبو محمد الغزوانى قال وكان الشيخ أبو النجاء أولا يقرأ بالمدرسة العنانية فلما نزل الشاوية الغرب خرج من فاس خائفا يترقب وذلك فى أيام الحفيد اه وبلاد الغرب تطلق فى عرف أهله على خصوص بسيط ازغار وما اتصل به الى ساحل البحر والله أعلم

﴿استيلاء البرتقال على مدينة آنفى وآصيلا﴾

رأيت فى بعض تواريخ الفرنج ان استيلاء البرتقال على آنفى كان فى حدود أربع وسبعين وثمانمائة وانهم هدموها وبقيت كذلك مدة تزيد على أربعين سنة ثم شرعوا فى تحصينها والبناء بها ولم يزالوا مقيمين بها الى حدود أربع وخمسين ومائة وألف وفى سنة ست وسبعين وثمانمائة استولوا على آصيلا وظفروا فيها ببيت مال الوطاسى وأسروا اولاده محمد المدعو بالبرتقالى وابنته وزوجتيه وجماعة من الاعيان وكان الخطب عظيما وبقى ولد الوطاسى عند البرتقال سبع سنين ثم افتكه والده بعد وكان يوم أسر صبيا صغيرا وأما مدينة فضالة فلم يقع عليها استيلاء وانما كانت بها كبانية خمسة نفر من تجار مدريد قاعدة قشتالة نزلوها بقصد التجارة باذن سلطان الوقت وكانت سلعهم توسق وتوضع من مرساها وبنوا بها البناء الموجود اليوم والله تعالى أعلم

﴿خلع السلطان أبى عبد الله الحفيد وانقراض أمره﴾

﴿قال فى الجذوة﴾ لما قامت عامة فاس على السلطان عبد الحق وأقاموا هذا النقيب من أهل مدينة فاس اماما استمر بها وابنه وزيره الى سنة خمس وسبعين وثمانمائة فعزل عن الامامة وكان الذى خلعه أبا الحجاج يوسف بن منصور بن زيان الوطاسى وكان ذلك سبب ذهاب الشريف المذكور الى تونس لمدة يسيرة من خلعه وبقيت حضرة فاس الجديد فى يد أخت أبى الحجاج المذكور وهى الزهراء المدعوة بزهور مع قائده السعيرى الى ان تولى الامر أبو عبد الله محمد الشيخ الوطاسى والله غالب على أمره

﴿الخبر عن دولة بنى وطاس وذكر نسبهم وأوليتهم﴾

﴿اعلم﴾ ان بنى وطاس فرقة من بنى مرين غير انهم ليسوا من بنى عبد الحق ولما دخل بنو مرين المغرب واقتسموا أعماله حسبما تقدم كان لبنى وطاس هؤلاء بلاد الريف فكانت ضواحيها لنزولهم وأمصارها ورعاياها لجبايتهم وكان بنو الوزير منهم يسمون الى الرياسة ويرومون الخروج على بنى عبد الحق وقد تكرر ذلك منهم حسبما مر ثم أذعنوا الى الطاعة وراضوا أنفسهم على الخدمة فاستعملهم بنو عبد الحق فى وجوه الولايات والاعمال واستظهروا بهم على أمور دولتهم فحسن أثرهم لديهم وتعدد الوزراء منهم فيها ﴿وذكر ابن خلدون﴾ ان بنى الوزير هؤلاء يرون ان نسبهم دخيل فى بنى مرين وانهم من أعقاب يوسف بن تاشفين اللمتونى لحقوا بالبدو ونزلوا على بنى وطاس وشجت فيه عروقهم حتى لبسوا اجلدتهم ولم يزل السر ومتربعا بين أعينهم لذلك والرياسة شامخة بانوفهم اه ولما كانت دولة السلطان أبى عنان واستولى على بجاية عقد عليها لعمر بن على الوطاسى من بنى الوزير هؤلاء فثار عليه أهلها واستلحموه فى خبر مر التنبيه عليه ثم لما كانت الدولة الاولى للسلطان أبى العباس بن أبى سالم وخاص ملك مراكش وأعمالها الى ابن عمه الامير عبد الرحمن بن أبى يفلوسن كان من جملة من تحيز اليه وصار فى جملته زيان بن عمر بن على المذكور فكانت له فى دولته الوجاهة الكبيرة والمنزلة الرفيعة

ثم لما فسد ما بين السلطان أبي العباس والامير عبد الرحمن كان زيان بن عمر في جملة النازعين الى السلطان أبي العباس فاتصل به وصار في جملته الى ان حاصر السلطان أبو العباس قصبة مراكش وبها يومئذ الامير عبد الرحمن فابلى زيان بن عمر في ذلك الحصار وكان أحد الذين باشر واقتل ولدى الامير عبد الرحمن ﴿قال ابن خلدون﴾ وطالما كان زيان هذا يمتري ندى نعمتهم ويجتذبه خيلاء في جاههم فذهب مثلا في كفران النعمة وسوء الجزاء والله لا يظلم مثقال ذرة ثم جاء بعده ابنه أبو زكرياء يحيى بن زيان فولى الوزارة للسلطان عبد الحق كامر ثم بعده ابنه يحيى أيضا وهو الذي قتله السلطان عبد الحق في جماعة من عشيرته وفر أخوه أبو عبد الله محمد الشيخ الى الصحراء وبقي متنقلا في البلاد الى ان كان من أمره ما نذكره

﴿الخبر عن دولة السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ بن أبي زكرياء الوطاسي رحمه الله﴾

قد تقدم انا ما كان من ايقاع السلطان عبد الحق ببني وطاس وافلات محمد الشيخ ومحمد الحلو من النكبة وان الشيخ كان قد خرج للصيد فاتصل به الخبر فذهب على وجهه لا يلوي على شيء وان الحلو اختفى حتى اذا سكنت الهيعة تسلل ولحق بالشيخ فسارا الى جهة الصحراء وجعلا يترددان فيما بينها وبين البلاد الهبطية حتى ملكا آصيلا وذلك قبل استيلاء البرتغال عليها ولما ملك الشيخ آصيلا واستفحل أمره بها تشوفت اليه الاعيان من أهل فاس والرؤساء من أهل دولة السلطان عبد الحق وصاروا يكاتبونه ويقدمون اليه الوسائل سرا وربما دعوه الى القدوم على أن يبذلوا له من الطاعة والنصرة ما شاء فاستمر الحال على ذلك الى ان قتل عبد الحق وبويع الحفيد فحينئذ أرهف الشيخ حده واستفرغ في المطالبة جهده الى ان استولى على الحضرة وصفا له ملك المغرب ﴿قال في المرآة﴾ لما بايع أهل فاس أبا عبد الله الحفيد قام محمد الشيخ الوطاسي في آصيلا واستتبع القبائل واستفحل أمره وحاصر فاسا وقتا بعد وقت الى ان دخلت في طاعته في رمضان سنة ست وسبعين وثمانمائة وخرج عنها الحفيد ودخلها محمد الشيخ المذكور في أوائل شوال من السنة المذكورة وهو مورث الملك لبنيه بها اه وقد تقدم لنا ان الذي خلع الشريف من الملك هو أبو الحجاج يوسف بن منصور الوطاسي وان حضرة فاس الجديد قد بقيت بعد ذهاب الشريف الى تونس في يد زهور الوطاسية والقائد السعيري الى ان قدم السلطان محمد الشيخ والله تعالى أعلم ﴿وقال منويل﴾ في أخبار محمد الشيخ هذا ما صورته كانت مملكة المغرب الاقصى في غاية الاضطراب والانتكاس حتى طمع في ملكها كل من كانت توسوس له نفسه بذلك واستولى ابن الاحمر على جميع الثغور التي كانت لبني مرين بارض الاندلس ولم يترك لهم قيد شبر واشرأبت أجناس الفرنج للتغلب على المغرب وفي تلك المدة كان بآصيلا محمد الشيخ الوطاسي وكان شجاعا مقداما وأحس من نفسه بالقدرة على الاستيلاء على كرسي فاس وتنحية الشريف عنه لا سيما مع ما كان الناس فيه من افتراق الكلمة فجمع جندا صالحا وزحف الى فاس فبرز اليه الشريف والتقوا باحواز مكناسة فوقعت بينهم حروب عظيمة كانت الكرة فيها على الوطاسي ثم جمع عسكرا آخر وزحف به الى فاس وحاصرها نحو سنتين والشريف فيها مع أرباب دولته وفي أثناء الحصار ورد عليه الخبر باستيلاء البرتغال على آصيلا وعلى بيت ماله الذي كان بها وعلى حظاياه وأولاده فافرج عن فاس ورجع مبادرا الى آصيلا فحاصرها ولما امتنعت عليه عقد مع البرتغال هدنة وعاد سريعا الى فاس فحاصرها وضيق على الشريف بها حتى خرج فارا بنفسه وأسلمها اليه فدخلها محمد الشيخ وتمت بيعته وتفرغ لتدويخ القبائل التي باحواز فاس وغيرها فدخلوا في طاعته واغتبطوا به اه كلامه

﴿رياسة بني راشد من شرفاء العلم بغمارة وبناؤهم مدينة شفشاون وما يتبع ذلك﴾

﴿وقال في نشر المثاني﴾ اختط بعض شرفاء العلم مدينة شفشاون بقصد تحصين المسلمين من نصارى سبتة اذ كانوا بعد استيلائهم عليها يتطاولون على أهل تلك المداشر في أواخر دولة بني وطاس ﴿وقال في المرآة﴾ كان ابتداء اختطاط مدينة شفشاون في الجهة المعروفة عندهم بالعدوة وهي عدوة وادي شفشاون في حدود سنة ست وسبعين وثمانمائة على يد الشريف الفقيه الصالح الناصح المجاهد أبو الحسن بن أبي محمد المعروف بأبي جمعة العلمي واسمه الحسن بن محمد بن الحسن بن عثمان بن سعيد بن عبد الوهاب بن علال ابن القطب أبي محمد عبد السلام بن مشيش ومات شهيدا قبل اتمام ما شرع فيه بتدبير النصارى دمرهم الله مع أهل النفاق اذ ذاك من أهل الحروب وقد جاءهم في سبيل الجهاد وبينما هو يتهجد من الليل في مسجد هنالك اذ أضرموه عليه نارا فمات رضوان الله عليه وقام مقامه فيما كان بسبيله من الجهاد والاستنفار له وتجييش الجيوش ابن عمه الامير الجليل الفاضل الاصيل أبو الحسن علي بن موسى بن راشد بن علي بن سعيد بن عبد الوهاب الى آخر النسب المتقدم فشرع في اختطاط مدينة شفشاون في العدوة الاخرى فبنى قصبتها وشيدها وأوطنها باهله وعشيرته ونزل الناس بها فبنوا وصارت في عداد المدن الى ان توفي سنة سبع عشرة وتسعمائة وورثها بنوه من بعده ولم يزالوا فيها بين سلم وحرب الى ان أخرجهم منها الشرفاء السعديون عند استيلائهم على بلاد المغرب والله تعالى أعلم

﴿ثورة عمرو بن سليمان السياف ببلاد السوس وشيء من أخباره﴾

هذا الرجل هو عمرو بن سليمان الشيظمي المغيطي المعروف بالسياف ويقال له المريدي بضم الميم وكان ابتداء أمره انه كان من تلامذة الشيخ أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي صاحب دلائل الخيرات نقل الثقات أنه كان يتردد الى الشيخ المذكور أيام حياته ويأتيه بألواح فيها كلام كثير منسوب الى الخضر عليه السلام فلا يقول له في ذلك شيأ غير انه أتى عليه مرات كثيرة ثم لما مات الشيخ المذكور رحمه الله سنة سبعين وثمانمائة ثار عمرو المذكور مظهرا الطلب بثار الشيخ والانتقام من الذين سموه اذ كان سمه بعض فقهاء عصره فتتبعهم حتى قتلهم ثم صار يدعو الناس الى اقامة الصلاة ويقاتلهم عليها فانتصر عليهم وشاع ذكره وتمكن ناموسه ثم تجاوز ذلك الى ان صار يدعو الناس الى نفسه ويقتل المنكرين عليه وعلى شيخه وأصحابه وسمى أصحابه المريدين بضم الميم قال زروق وما أحقها بالفتح وسمى المخالفين له الجاحدين ثم جعل ينفوه بالمغيبات ويزعم انه مأذون وربما ادعى النبوة وكان قد أخرج شلو الشيخ الجزولي من قبره وجعله في تابوت وصار يقدمه بين يديه في حروبه كتابوت بني اسرائيل فينتصر على من خالفه وقيل انه لم يدفنه وانما أخذه بعد موته فكفنه وجعله في التابوت وجمع الجموع وقاد الجيوش وسفك الدماء واستمرت فتنته في الناس عشرين سنة ﴿وقال الشيخ زروق رحمه الله﴾ بلغني أن شيخنا الفقيه أبا عبد الله القوري ورد عليه سؤال في شأن عمرو بن سليمان السياف فبادرت اليه كي أراه فقال لي قد خرج من يدي فقلت له فما مقتضاه قال مقتضاه انه يقول ان أحكام الكتاب والسنة ارتفعت ولم يبق الا ما يقول له قلبه قال زروق وشاع من أمره انه يقول انه وارث النبوة وان له أحكاما تخصه كما في قصة الخضر مع موسى عليهما السلام وان الخضر حي وني مرسل وانه يلقاه ويأخذ عنه بل يدعي ذلك من هو دونه من تلامذته (وحكى بعضهم) أن عمرا المذكور لما جعل شلو الشيخ في التابوت كان اذا رجع به من حربه وضعه في روضة عنده يسميها الرباط فاذا اجنه الليل أطاف الحرس بالروضة يحرسون التابوت من السراق ويوقد عليه كل ليلة فتيلة عظيمة في مقدار الثوب مغموسة في نحو مدي من الزيت ليقوى الضوء وينتشر ويبلغ من كل الجهات الى مسافة بعيدة فتنكشف الطرق عمن يأتي عليها كل ذلك مخافة ان يؤخذ منه شلو الشيخ

هو مذكور في المعيار في الدماء والحدود

فمنتصر به عليه ويقال ان ثورة عمرو المذكور وفتنته كانت أثرا من آثار دعوات الشيخ الجزولي رحمه الله فقد ذكر تلامذته كالشيخ التباع وغيره ان الشيخ الجزولي خرج عليهم من آخر الليلة التي قتل في صبيحتها فقالوا له ياسيدي الناس يزعمون أنك الفاطمي المنتظر فقال مايبحثون الا عمن يقطع رقابهم الله يسلط عليهم من يقطع رقابهم وكرر ذلك مرارا فكانوا يرون أن أثر دعوته ظهر في عمرو السياف والله أعلم وقتل عمرو المذكور سنة تسعين وثمانمائة واختلف فيمن قتله فقيل كان عمرو قد تزوج زوجة الشيخ الجزولي وبنته فلما رأتا ماهو عليه من الزندقة والفساد في الارض قتلتاه امتعاضا للدين ترصدتاه حتى اذا نام عدتا عليه فقتلتاه ثم رمت احداهما وهي بنت الشيخ بنفسها من كوة هنالك في البيت الذي كانوا به فوصلت الى الارض سالمة ونجت وبقيت الاخرى وهي الزوجة بالبيت فدخلوا عليها فقتلوها وقيل انما قتلته زوجته وربيبته وقيل غير ذلك والله أعلم ولما هلك عمرو السياف دفن الناس الشيخ الجزولي وقيل هو دفنه بموضع يعرف بتاصروت ثم نقل بعد الى مراكش على مانذكران شاء الله ولما ذكر الشيخ أبو العباس الصومعي في كتابه الموضوع في مناقب الشيخ أبي يعزى قصة نقل الشيخ الجزولي الى مراكش وانه وجد طريا لم يتغير بعد وفاته بنحو سبعين سنة قال وأعجب من هذا ان عمرا المغيطي السياف زعموا انه وجد كذلك ولعله أدركته بركة هذا الشيخ مع ما كان عليه والفضل بيد الله اه ﴿وفي سنة احدى وتسعين وثمانمائة﴾ استدعى السلطان محمد الشيخ الامام أبا عبد الله بن غازي من مكناسة الى فاس فولى الخطابة أولا بالمسجد الجامع من فاس الجديد ثم ولى الامامة والخطابة ثانيا بمسجد القرويين من فاس وصار شيخ الجماعة بها واستوطنها الى ان مات رحمه الله ﴿وفي سنة خمس وتسعين وثمانمائة﴾ تحرك السلطان محمد الشيخ الى دبدو ثم عاد الى حضرته (وفيها أيضا) في يوم الخميس السابع من ذي القعدة توفي الوزير أبو عبد الله محمد الحلو الوطاسي ودفن بالقبلة خارج باب الجيسة ﴿وفي سنة سبع وتسعين وثمانمائة﴾ استولت الرينة ايسابيلا صاحبة مادريد قاعدة بلاد قشتالة على حمراء غرناطة ومحت دولة بني الاحمر من جزيرة الاندلس ولم يبق للمسلمين بها سلطان وتفرق أهلها في بلاد المغرب وغيرها أيادي سبا وقد تقدم الخبر عن ذلك مستوفى

﴿بناء مدينة تطاوين﴾

(قال منويل) لما استولى الاصبنيول على غرناطة خرج جماعة كبيرة من أهلها الى المغرب فنزلوا في مرتيل قرب تطاوين ولما نزلوا به لم يقدموا شيأ على الوفادة على سلطان فاس محمد الشيخ الوطاسي فأجل مقدمهم ورحب بهم فقالوا ان ضيافتنا عندك أن تعين لنا موضعا نبني فيه بلدا يكننا ونحفظ فيه عيالنا من أهل الريف فاجابهم الى مرادهم وعين لهم مدينة تطاوين الخربة منذ تسعين سنة وولى عليهم كبيرهم أبا الحسن عليا المنظري وكان رجلا شجاعا من كبار جند ابن الاحمر وكان قد أبلى معه في حرب غرناطة البلاء الحسن ثم انتقل الى المغرب كما قلنا ولما عقد له الشيخ الوطاسي على أصحابه رجع بهم الى تطاوين وشرع في بناء أسوار البلد القديم فجدده وبنى المسجد الجامع به واستوطنه هو وجماعته ثم أخذ في جهاد البرتقال بسبتة وبلاد الهبط الى ان أسر منهم ثلاثة آلاف فاستخدمهم في اتمام مابقي عليه من بناء تطاوين واتصلت الحرب بينهم وبين برتقال سبتة كاتصالها بين أهل آزمور وبرتقال الجديدة اه وقوله ان بناء تطاوين كان عقب أخذ غرناطة مخالف لما يقوله أهل تطاوين من أن تاريخ بنائها رمز (تفاحة) وان ذلك كان باعانة الشريف أبي الحسن علي بن راشد فيظهر والله أعلم ان أبا الحسن المنظري كان قد قدم من الاندلس قبل أخذ غرناطة بسنين يسيرة موافق الرمز المذكور والله أعلم

﴿قدوم أبي عبد الله ابن الاحمر مخلوعا على السلطان محمد الشيخ الوطاسي رحمهما الله﴾

لما استولى طاغية الاصبنيول على حضرة غرناطة وسائر الاندلس انتقل سلطانها أبو عبد الله ابن الاحمر الى حضرة فاس فاستوطنها تحت كنف السلطان محمد الشيخ بعد ان خاطبه من انشاء وزيره أبي عبد الله محمد العربي العقيلي بقصيدة بارعة يقول في صدرها

مولى الملوك ملوك العرب والعجم * رعيا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن * جار الزمان عليه جور منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلبا * وأقطع الخطب ما يأتي على الرغم
حكم من الله حتم لا مرد له * وهل مرد لحكم منه منحتم

وهي طويلة ثم وصلها برسالة يقول فيها بعد الحمد لله والصلاة على نبيه ما نصه أما بعد فيا مولانا الذى أولانا من النعم ما أولانا لاحط الله لكم من العزة أرواقا ولا أذوى لدوحة دولتكم أغصانا ولا أوراقا ولا زالت مخضرة العود مبتسمة عن زهرات البشائر متحفة بثمرات السعود محطورة بسحائب البركات المتداركات دون بروق ولا رعود هذا مقام العائذ بمقامكم المتعلق بأسباب ذمامكم المترجي لعواطف قلوبكم وعوارف انعامكم المقبل الارض تحت أقدامكم المتلجلج اللسان عند محاولة مفاتحة كلامكم وماذا الذى يقول من وجهه خجل وفؤاده وجل وقضيته المقضية عن التنصل والاعتذار تجل بيد أني أقول لكم ما أقوله لربي واجترائي عليه أكثر واجترامي اليه أكبر اللهم لا بريء فاعتذر ولا قوي فانتصر لكني مستقيل مستعتب مستغفر وما أبرئ نفسي ان النفس لامارة بالسوء هذا على طريق التنزل والاتصاف بما تقتضيه الحال ممن يتحيز الى حيز الانصاف وأما على جهة التحقيق فاقول ما قالته الام ابنة الصديق والله اني لاعلم أني ان أقررت بما يقوله الناس والله يعلم أني منه بريئة لاقول ما لم يكن ولئن أنكرت ما تقولون لا تصدقوني فاقول ما قاله أبو يوسف فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون على اني لا أنكر عيوبي فانا معدن العيوب ولا أجحد ذنوبي فانا جبل الذنوب الى الله أشكو عجري وبجري وسقطاتي وغلطاتي نعم كل شيء ولا ما يقوله المتقول المشنع المهول الناطق بفم الشيطان المسول ومن أمثالهم سبني وأصدق ولا تفتر ولا تخلق أفمثلي كان يفعل أمثالها ويحتمل من الاوزار المضاعفة أحمالها ويهلك نفسه ويحبط أعمالها عياذا بالله من خسران الدين وايثار الجاحدين والمعتدين قد ضللت اذا وما أنا من المهتدين وأيم الله لو علمت شعرة في فودي تميل الى تلك الجهة لقطعتها بل لقطفت ما تحت عمامتي من هامتي وقطفتها غير أن الرعاع في كل أوان أعداء الملك وعليه أحزاب وأعوان كان أحمق أو أجهل من أبي تروان أو أعقل أو أعلم من أشج بني مروان رب متهم بري ومسر بل بسربال وهو منه عري وفي الاحاديث صحيح وسقيم ومن التراكيب المنطقية منتج وعقيم ولكن ثم ميزان عقل تعتبر به أوزان النقل وعلى الراجح الاعتماد ثم اساغة الاحاد المتصل المتماد وللمرجوح الاطراح ثم التزام الصراح بعد النقض من الراح وأكثر ما تسمعه الكذب وطبع جمهور الخلق الا من عصمه الله تعالى اليه منجذب ولقد قذفنا من الاباطيل بأحجار ورمينا بما لا يرمى به الكفار فضلا عن الفجار وجرى من الامر المنقول على لسان زيد وعمرو ما لديكم منه حفظ الجار واذا عظم الالكاء فعلى تكأة التجلد الاتكاء أكثر المكثرون وجهد في تعثيرنا المتعثرون ورمونا عن قوس واحده وتطمونا في سلك الملاحده أكفرا أيضا كفرا غفرا اللهم غفرا أعد نظرا يا عبد قيس فليس الامر على ما خيل لك ليس وهل زدنا على ان طلبنا حقنا ممن رام محقه ومحقنا فطاردنا في سبيله عداة كانوا لنا غائظين فانفتق علينا فتق لم نكن له رتق

وما كنا للغيب حافظين وبعد فاسأل أهل الحل والعقد والتمييز والنقد فعند جهينتهم تلقى الخبر يقينا وقد رضينا بحكمهم رغمنا فيو بقنا أو يبرئنا فيقينا ايه يامن انسرأب الى ملامنا وقدح حتى فى اسلامنا رويدا رويدا فقد وجدت قوة وايدا ويحك اغاطال لسانك علينا وامتد بالسوء الينا لان الزمان لنا مصغر ولك مكبر ولامر عليك مقبل وعنا مدبر كما قاله كاتب الحجاج المتبر وعلى الجملة فهبنا اصرنا الى تسليم مقالك جدلا وذهبنا فاقررنا بالخطا فى كل ورود وصدر فلله در القائل

ان كنت أخطأت فما أخطا القدر * وكأنا بعنسف اذا وصل الى هنا وعدم انصافا بعلمه الهنا قد ازور متجانفا ثم افتر متهانفا وجعل يتمثل بقولهم * اذ عبر واة لواء قاد برقترب * وبقولهم المرء بعجزه المحال فيعارض الحق بالباطل والحالى بالعاطل وينزع بقول القائل رب سمع هائل وليس تحته طائل وقد فرغنا أول أمس من جوابه ور كنا الضغن يلصق حرارة الجوى به وسنلم الآن بما يوسعه تبكيتا ويقطعه تسكيتا فنقول له نشدناك الله تعالى هل اتفق لك قط وعرض خروج أمر ما عن القصد منك فيه والغرض مع اجتهادك أثناءه فى اصدارك وايرادك فى وقوعه على وفق اقتراحك ومرادك أوجميع ما تزاوله بادارتك لا يقع الامطابقا لارادتك أوكل ما تقصده وتنويه تحرزه كما تشاء وتحويه فلا بد أن يقر اضطرارا بان مطلوبه يشذ عنه مرارا بل كثيرا ما يفلت صيده من أشراكه ويطلبه فيعجز عن ادراكه فنقول ومستأنسا من هذا القبيل أيها النبيه النبيل ثم نسرد له من الاحاديث النبوية ماشينا مما يساير نافى غرضنا منه ويماشينا كقوله صلى الله عليه وسلم كل شئ بقضاء وقدر حتى العجز والكيس وقوله أيضا لو اجتمع أهل السموات والارض على أن ينفعوك بشئ لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه ولو اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه أو كما قال صلى الله عليه وسلم فاخلق به ان يلوذ با كناف الاحجام ويزم على نفث فيه كأنما ألجم بلجام حينئذ نقول له والحق قد أبان وجهه وجلاه وقهره بحجته وعلاه ليس لك من الامر شئ قل ان الامر كله لله وفى محاجة آدم وموسى ما يقطع لسان الخصم ويرحض عن اثواب أعراضنا ماعسى ان يعلق بها من درن الوصم وكيفما كانت الحال وان ساء الرأى والانتحال ووقعنا فى أوجال وأوحال فثل عرشنا وطويت فرشنا ونكس لوانا وملك مثوانا فنحن أمثل من سوانا ومافى الشر خيار ويد الالطاف تكسر من صولة الاغيار فحتى الآن لم نفتقد من اللطيف تعالى لطفا ولا عدمنا أدوات أدعية تعطف بلا مهلة على جملتنا المقطوعة جمل النعم الموصولة عطفا والا فتلك بغداد دار السلام ومتبوء الاسلام المحفوف بفرسان السيوف والاقلام مثابة الخلافة العباسية ومقر العلماء والفضلاء أولى السير الاويسية والعقول الاياسية قد نوزلت بالجيوش ونزلت وزوولت بالزحوف وزلزلت وتحيف جوانبها الحيف ودخلها كفار التتار عنوة بالسيف ولا تسل اذ ذاك عن كيف أيام تجلت عروس المنية كاشفة عن ساقها مبديه وجرت الدماء فى الشوارع والطرق كالانهار والاوديه وقيد الائمة والقضاة تحت ظلال السيوف المنتضاة بالعمائم فى رقابهم والارديه وللتجبيع سيول تخوضها الخيول فتخضبها الى ارساغها وتهم ظماءها بورودها فتنكل عن تجرعها ومساغها فطرح عرضها ومستعصمها وراح ولم يغد ظالمها ومتظلمها وخربت مساجدها ودیارها واصطلم بالحسام أشرارها وخيارها فلم يبق من جمهور أهلها عين تطرف حسبما عرفت أو حسبما تعرف فلا تك متشككا متوقفا فحديث تلك الواقعة الشنعاء أشهر عند المؤرخين من قفا فأين تلك الجحافل والآراء المدارة فى المحافل حين أراد الله تعالى بادالة الكفر لم تجدولا فلا مظفر اذن من سلمت له نفسه التى هى رأس ماله وعياله وأطفاله اللذان هما من أعظم آماله وكل أوجل أوقل رياشه وأسباب معاشه الكفيلان بانتعاشه وانتعاشه ثم وجد مع ذلك سبيلا الى الخلاص فى حال مياسرة ومساهلة دون تعصب واعتياص بعد ما ظن كل الظن أن لا محيد

ولا مناص فما أحقه حينئذ وأولاه أن يحمد خالقه ورازقه ومولاه على ما أسداه اليه من رفده وخيره ومعافاته مما ابتلى به كثيراً من غيره ويرضى بكل ايراد واصدار تتصرف فيهما الاحكام الالهية والاقدار فالدهر غدار والدنيا دار مشحونة بالاكدار والقضاء لا يرد ولا يصد ولا يغالب ولا يطالب والدائرات تدور ولا بد من نقص وكمال للبدور والعبد مطيع لا مطاع وايس يطاع الا المستطاع والخالق القدير جلت قدرته في خليقته علم غيب للاذهان عن مداه انقطاع ومالي والتكلف لما لا أحتاج اليه من هذا القول بين يدي ذي الجلالة والمجادة والفضل والطول فله من العقل الارجح ومن الخلق الاسجح ما لا تناط معه تهمتي بصفره ولا تنفق عنده وشاية الواشي لا عدم من نفره ولا فاز قدحه بظفره والمولى يعلم أن الدنيا تلعب بالاعب وتجز براحتها الى المتاعب وقد بيا الاكياس من الناس خدعت وانحرفت عن وصالهم أعقل ما كانوا وقطعت وفعلت بهم ما فعلت بيسار الكواعب الذي جبت وجدعت ولئن رهصت وهصرت فقد نبهت وبصرت ولئن قرعت ومعضت لقد أرشدت ووعظت وياويلنا من تنكرها النائره ورميها الناثي غمرة أبي عمره أيام قلبت لنا ظهر المجن وغيم أفقها المصمي وأدجن فسرينا ما عاينا حبالها تبته ورأينا منها ما لم نحتسب كما تقوم الساعة بغتة فمن استعاذ من شيء فليستعذ مما صرنا اليه من الحور بعد الكور والانحطاط من النجد الى الغور

فبينا نسوس الناس والامر أمرنا ❊ اذا نحن فيهم سوقة نتنصف

فتبا لدنيا لا يدوم نعيمها ❊ تقلب تارات بنا وتصرف

وأبيها الغدا رهقتنا ارهاقا وجرعتنا من صاب الاوصاب كأساً دهاقا ولم نفزع الى غير بابكم المنيع الجناب المتفتح حين سدت الابواب ولم نلبس غير لباس نعمائكم حين خلعنا ما ألبسنا الملك من الاثواب والى أمه يلجأ الطفل لجأ اللهفان وعند الشدائد تمتاز السيوف من الاجفان ووجه الله تعالى يبقى وكل من عليها فان والى هنا ينتهي القائل ثم يقول حسبي هذا وكفان ولا ريب في اشتمال العلم الكريم على ما تعارفته الملوك بينها في الحديث والقديم من الاخذ باليد عند زلة القدم وقرع الانسان وعض البنان من الندم دينا تدينته مع اختلاف الاديان وعادة اطردت على تعاقب الازمان والاحيان ولقد عرض علينا صاحب قشتالة مواضع معتبرة خير فيها وأعطى من أمانه المؤكد فيه خطه بأيمانه ما يقنع النفوس ويكفيها فلم نر ونحن من سلالة الاحمر مجاورة الصفر ولا سوغ لنا الايمان الاقامة بين ظهراني الكفر ما وجدنا عن ذلك مندوحة ولو شاسعه وأهمنا من المطالب الشاغبة همة شمرلنا لاسعه وادكرنا أي ادكار قول الله تعالى المنكر لذلك غاية الانكار ألم تكن أرض الله واسعة وقول الرسول عليه الصلاة والسلام المبالغ في ذلك بابلغ الكلام أنا بريء من مؤمن مع كافر تترا آ ناراهما وقول الشاعر الحاث على حث المطيه المتثاقلة عن السير في طريق منجاتها البطيه

وما أنا والتلدد نحو نجد ❊ وقد غصت تهامة بالرجال

ووصلت أيضاً من الشرق الينا كتب كريمة القاصد لدينا تستدعي الانحياز الى تلك الجنبات وتضمن ما لامزيد عليه من الرغبات فلم نختر الا دارنا التي كانت دار آبائنا من قبلنا ولم نرتض الانضواء الالمن بحبله وصل حبلنا وبريش نبله ريش نبلنا اذلالا على محل اخاء متوارث لا عن كلاله واستنادا الاوصاه أجداد لا نظارهم وأقدارهم اصالة وجلاله اذ قدروينا عن سلف من أسلافنا في الايصاء لمن يخلف بعدهم من أخلافنا أن لا يبتغوا اذا دهمهم أمر بالحضرة المرينية بدلا ولا يجدوا عن طريقها في التوجه الى فريقها معدلا فاخترقنا الى الرياض الاريضة الفجاج وركبنا الى البحر الغرت ظهر البحر الاجاج فلا غرو ان نرد منه على ما يقر العين ويشفي النفس الشاكية من ألم البين ومن توصل هذا التوصل وتوسل بمثل ذلك التوسل نظارحا على سدة امير المومنين المحارب للمحاربين والمؤمن

للمستأمنين فهو الخليق الحقيق بأن يسوغ اصفاء مشاربه ويبلغ أوفى ما آربه على توالى الايام والشهور والسنين ويخلص من الثبور الى الحبور ويخرج من الظلمات الى النور خروج الجنين ولعل شعاع سعادته يفيض علينا ونفحة قبول اقباله تسرى الينا فتخامرنا أريحية تحملنا على أن نبادر لانشاد قول الشريف الرضى فى الخليفة القادر

عطفا أمير المؤمنين فاننا * فى دوحة العلياء لا نتفرق

ما بيننا يوم الفخار تفاوت * أبدا كلانا فى المعالى معرق

الا الخلافة ميزتك فاننى * أنا عاطل منها وأنت مطوق

لا بل الاحرى بنا والاحجى والانجح لسعينا والارجى أن نعدل عن هذا المنهاج ويقوم وافدنا بين يدى علاه مقام الخاضع المتواضع الضعيف المحتاج وينشد ما قال فى الشيرازى ابن حجاج

الناس يفدونك اضطرارا * منهم وأفديك باختيارى

وبعضهم فى جوار بعض * وأنت حتى أموت جارى

فعش لخبزى وعش لمائى * وعش لدارى وأهل دارى

ونستوهب من الوهاب تعالى جلت أسماؤه وتعاظمت نعماؤه رحمة تجعل فى يد الهداية أعنتنا وعصمة تكون فى مواقف المخاوف جنتنا وقبولا يعطف علينا نوافر القلوب وصنعا يسنى لنا كل مرغوب ومطلوب ونسأله وطالما بلغ السائل سؤلا ومأمولا متابا صادقا على موضوع الندم محمولا ثم عزاء حسنا وصبرا جميلا عن أرض أورثها من شاء من عباده معقبا لهم ومديلا وسادلا عليهم من ستور الاملاء الطويلة سدولا سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا فليطر طائر الوسواس المرفرف مطيرا كل ذلك كان فى الكتاب مسطورا لم نستطع عن مورده صدورا وكان أمر الله قدرا مقدورا ألا وان لله سبحانه فى مقامكم العالى الذى أيده وأعانه سرا من النصر يترجم عنه لسان من النصل وترجع فروع البشائر الصادقة بالفتوحات المتلاحقة من قاعدته المتأصلة الى أصل فمثله يجب اللياذ والعياذ ولشبهه يحق الالتجاء والارتجاء ولامر ما آثرناه واخترناه بعد ان استرشدنا الله سبحانه واستخرناه ومنه جل جلاله نرغب أن يخير لنا ولجميع المسلمين ويؤب بنا من حمايته ووقايته الى معقل منيع وجناب رفيع آمين آمين آمين ونرجو أن يكون ربنا الذى هو فى جميع الامور حسبنا قد خار لنا حيث أرشدنا وهدانا وساقنا توفيقه وحدانا الى الاستجارة بملك حفى كريم وفى أعز جارا من أبى دواد وأحمى أنفا من الحرث بن عباد يشهد بذلك الدانى والقاصى والحاضر والباد ان أغاث ملهوفا فالاسود بن قنان يذكر وان أنعش حشاشة هالك فكعب بن مامة على فعله وحده يشكر جليسه كجليس القعقاع بن شور ومذاكره كذاكر سفيان المنتسب من الرباب الى ثور الى التحلى بأمهات الفضائل التى أضدادها أمهات الرذائل وهى الثلاث الحكمة والعدل والعفة التى تشملها الثلاثة الاقوال والافعال والشمائل وينشؤ عنها ما شئت من عزم وحزم وعلم وحلم وتيقظ وتحفظ واتقاء وارتقاء وصول وطول وتبجح تأمل فبنور حلاه المشرق يفتخر المغرب على المشرق وبجده السامى خطره فى الاخطار وبيته الذى ذكره فى النباهة والنجابة قد طار يباهى جميع ملوك الجهات والاقطار وكيف لا وهو الرفيع المنتمى والنجار الراضع من الطهارة صفو اللبان الناشئ من السراوة وسط أحجار فى ضئضئ المجد وبحبوح الكرم وسراوة أسرة المملكة التى أكنافها حرم وذؤابة الشرف التى مجادتها لم ترم من معشر أى معشر بخلوا ان وهبوا ما دون أعمارهم وجبنوا ان لم يحموا سوى ذمارهم بنو مرين وما أدراك ما بنو مرين سم العداة وآفة الجزر النازلون بكل معترك والطيبون معاقد الازر لهم عن الهفوات انتفاء وعندهم من السير النبوية اكتفاء انتسبوا الى بر

ابن قيس نخرجوا في البرعن القيس مالهم القديم المعروف قدنفدفي سبيل المعروف وحديثهم الذي نقلته رجال الزحوف من طريق القنى والسيوف على الحسن من المقاصد موقوف تحمد من صغيرهم وكبيرهم ذابلهم ولدنهم فلله آباء أنجبوهم وأمهات ولدنهم شم الانوف من الطراز الاول اليهم في الشدائد الاستناد وعليهم في الازمات المعول ولهم في الوفاء والصفاء والاحتفاء والعناية والحماية والرعاية الخطو الوساع والباع الاطول كأنما عناهم بقوله جرول

أولئك قوم ان بنوا أحسنوا البنا * وان عاهدوا وفوا وان عقدوا اشدوا

وان كانت النعماء فيهم جزوابها * وان أنعموا الاكدروها ولا كدوا

وتعذلني أبناء سعد عليهم * وماقلت الا بالذي علمت سعد

وبقول الوثيق مبناه البليغ معناه

قوم اذاعقدوا عقدا لجارهم * شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا

يزيحون عن النزيل كل نازح قاصم وليس له منهم عائب ولا واصم فهو أحق بما قاله في منقر قيس بن عاصم لا يفطنون لعيب جارهم * وهم لحفظ جوارهم فطن

حلاهم هذه الغريزة التي ليست باستكراه ولا جعل وأمير المؤمنين دام نصره قسيمهم فيها حذو النعل بالنعل ثم هو عليهم وعلى من سواهم بالاوصاف الملوكية مستعل ارفض منهم منه عن غيث مات يحوآثار اللزبه وانشق عليهم منه عن ليث ضار منقبض على براثنه للوثبه فقل لسكان الفلا لا تغرنكم أعدادكم وأمدادكم فلا يبالي السرحان المواشي سواء مشى اليها النقرا أو الجفلا بل يصدمهم صدمة تحطم منهم كل عرنين ثم يبتلع بعد أشلاءهم المعفرة ابتلاع التنين فهو هو كما عرفوه وعهدوه وألفوه أخو المنايا وابن جلا وطلاع الثنايا مجتمع أشده قد احتنكت سنه وبان رشده جاد مجد محتزم بحزام الحزم مشمر عن ساعد الجد

لا يشرب الماء الا من قليب دم * ولا يبيت له جار على وجل

أسدي القلب آدمي الروا لابس جلد النمر بزني العناد والنوى

وليس بشاري عليه دمامة * اذا ماسعى يسعى بقوس وأسهم

ولكنه يسعى عليه مفاضة * دلاص كأعيان الجراد المنظم

فالنجاء النجاء سامعين له طائعين والوجل الوجل لاحقين به خاضعين قبل أن تساقوا اليه مقرنين في الاصفاد ويعي الفداء بنفائس النفوس والاموال على الفاد حينئذ يعض ذو الجهل والفدامه على يديه حسرة وندامه اذا رأى أبطال الجنود تحت خوافق الرايات والبنود قد لفحتهم نار ليست بذات خمود وأخذتهم صاعقة مثل صاعقة الذين من قبلهم عاد وثمود زعقات تؤز الكتائب أزا وهمز المحققا الخيل بعد المد المشبع للأعنة همزا وسلا للهندية سلا وهز للخطية هزا حتى يقول النسر للذئب هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ثق خليفة الله بذلك في كل من رام أذى رعيتك أو أذاك فتلك عادة الله سبحانه في ذوي الشقاق والنفاق الذين يشقون عصا المسلمين ويقطعون طريق الرفاق وينصبون حبائل البغي والفساد في جميع النواحي والآفاق فلن يجعلهم الله عز وجل من الآمنين أني وكيف وقد أفسدوا وخانوا وهو سبحانه لا يصلح عمل المفسدين ولا يهدي كيد الخائنين وها نحن قد وجهنا الى كعبة مجدكم وجوه صلوات التقديس والتعظيم بعد ما زينا معاطفها باستعطافكم بدر ثناء أبهى من در العقد النظيم منتظمين في سلك أوليائكم متشرفين بخدمة عليائكم ولا فقد عزة ولا عدمها من قصد مثابتكم العزيزة وخدمها وان المتراضي على سنائكم لجدير بحرمتكم واعتنائكم وكل ما هو في تبوأ من كنفكم حصنا حصينا عاش بقية عمره محروسا من الضيم مصونا وقد قيل في بعض الكلام من

فعدت به نكاية الايام أقامته اغاثة الكرام ومولانا أيده الله تعالى ولى ما يزفه الينا من مكرمة بكر ويصنعه لنا من صنيع حافل يخلد في صحائف حسن الذكر ويروى معنعن حديث حمده وشكره طرس عن قلم عن بنان عن لسان عن فكر وغيره من ينام عن ذلك فيوقظ ويسترسل مع الغفلة حتى يذكر ويوعظ وما عهد منه وجد الامر يعانى داعى الندى والتكرم بريئا من الضجر بالمطالبة والتبرم حافظا للجوار الذى أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بحفظه مستفرغا وسعه فى رعيه المستمر ولحظه آخذا من حسن الثناء فى جميع الاوقات والآناء بحظه

فهو من دوحة السنا فرع عز * ليس يحتاج مجتنيه لهز
كفه فى الامحال أغزر وبل * رذراه فى الخوف أمنع حرز
حلمه يسفر اسمه لك عنه * فتفهم يامدعى الفهم لغزى
لا تسلنه شيأ ولا تستلنه * نظرة منه فيك تغنى وتجزى
فنداه هو الفرات الذى قد * عام فيه الانام عوم الاوز
وحماه هو المنيع الذى تر * جع عنه الخطوب مرجع عجز
فدعو اذهنه يزاول قولى * فهو أدرى بما تضمن رمزى
دام يحيى بكل صنع ومن * ويعافى من كل بوس ورجز

وكأنا به قد حمل على شاكلة جلاله من مستظلاله وتمهيد خلاله وتلقى ورودنا بتهلله واستهلاله وتأنيسنا بجميل قبوله واقباله ويردنا على حوض كوثره المترع بزلاله والله سبحانه يسعد مقامه العلى ويسعدنا به فى حله وارتحاله ومآنه وحاله ويؤيد جنده المظفر ويؤيدنا بتأييده على نزال عدوه واستنزاله وهز الذوابل لاطفاء ذباله وهو سبحانه وتعالى المسؤل أن يريه قرة العين فى نفسه وأهله وخدامه وأمواله وأنظاره وأعماله وكافة شؤنه وأحواله ونحن نصل بالسلام وأولى على المقام الجليل مقام الخليفة المولى وأزكى الصلاة والسلام على خاتمة أنبيائه ورسله سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى جميع أصحابه وآله صلاة وسلاما داعيين أبد موصولين بدوام الابد واتصاله ضامنين لمجددهما ومرددهما صلاح فساد أعماله وبلوغ غاية آماله وذلك بمشيئة الله تعالى واذنه وفضله وافضاله (انتهت الرسالة وما كادت) ووصل السلطان ابن الاحمر المخلوع بعد نزوله بمليلة الى مدينة فاس باهله وأولاده معتذرا عما أسلفه مما وقفا على ما خلفه وبنى بفاس بعض قصور على طريق بناء الاندلس وتوفى بها سنة أربعين وتسعمائة ودفن بزاوية المصلى خارج باب الشريعة وخلف ذرية من بعده (قال فى نشر المثانى) انقرضوا ولم يبق منهم أحد وزعم منويل أنه هلك فى وقعة أبى عقبة فى حرب الوطاسيين مع السعديين قال ولم يحسن هذا الرجل بدفع على ملكه قد دفع عن ملك غيره

(نسبة ثورة البرتغال على ساحل البريجة وبنائهم مدينة الجديدة صانها الله سبحانه وتعالى عنه)

(قال مؤلفه عفا الله عنه) قد وقفت لبعض البرتغاليين ومعه لبرمارية على تأليف فى أخبار الجديدة من لدن بنوها الى أن انتزعها المسلمون منهم فنقلت منه ما تمس الحاجة اليه فى هذه الترجمة (قال هذا المؤلف) لما كانت سنة ألف وخمسمائة وثلاث مسيحية (قلت) ويوافقها من تاريخ الهجرة سنة سبع وتسعمائة تقريبا بعث سلطان البرتقال واسمه منويل من دار ملكه اشبونة عمارة فى البحر للاستيلاء على بعض ثغور المغرب فالجأهم هيجان البحر وموجه الى ساحل البريجة فيما بين آزمور وتيط وكانت البريجة على ما يقوله مؤرخو الفرنج خالية من السكان الا برجا قديما كانوا يسمونه برج الشيخ ولا زال مسمى بهذا الاسم الى الآن فارسى البرتغاليون على الساحل المذكور ونزلت طائفة منهم الى البر فطافوا بالبريجة

وما حولها وأعجبهم المكان فعزموا على المقام به واتفق رأيهم أن يتركوا جماعة هنالك يحفظون المحل ويرجع باقيهم الى ملكهم ليستأذنوه فيما عزموا عليه فتركوا اثنى عشر رجلا بالبريجة بعد ان حصنوها وشحنوها بما يحتاجون اليه من عدة وقوت ونحوهما ورجع الباقون الى الملك فأخبروه بشأنهم فأذن لهم وبعث معهم جماعة من البنائين والعملة ليبنوا لهم ما يتحصنون به فقدموا على اخوانهم وشرعوا فى ادارة السور على قطعة من الارض فنذر بهم أهل تلك البلاد من المسلمين وتسابقوا اليهم على الصعب والذلول ففر النصارى الى البريجة وتحصنوا بها وأفسد المسلمون كل ما كانوا عملوه فى تلك الايام وأحجروهم بحصنهم ووضعوا عليهم الرصد الى أن فترعزمهم وأيسوا من نجاح سعيهم فعاد جلهم أو كلهم الى أشبونة وأعادوا الكلام على ملكهم منويل فى شأن البريجة ووصفوا له حسن البقعة وصحة هوائها ومنزلتها من البحر ومن قبائل أهل المغرب من أهل تامسنا ودكالة وغيرهم وأنها عسى أن تكون سلما للاستيلاء على غيرها من بلاد المغرب لاسيما ودولة المسلمين به يومئذ قد تلاشت وملكهم قد ضعف فوقر ذلك فى نفس الملك واستأنف العزم وبعث معهم حصة من العسكر تحصل بها الكفاية وتتأتى بها المدافعة والممانعة مع جماعة وافرة من البنائين والمهندسين وحملهم ما يحتاجون اليه من آلة وغيرها فانتهوا الى الموضع المذكور بعد سبع سنين من مقدمهم الاول وتحينوا غفلة أهل البلاد وشرعوا فى بناء حصن مربع على كل ربع منه برج وثيق ودأبوا فى العمل ليلا ونهارا فلم تمض الامدة يسيرة حتى فرغوا منه وامتنعوا على المسلمين به وكان انشاؤهم لهذا الحصن على البريجة القديمة بان جعلوها أحد أرباعه وأضافوا اليها ثلاثة أرباع أخر وأداروا السور على الجميع واتخذوا فى داخل هذا الحصن ماجلا عظيما لخزن الماء وهو النطفية فى لسان الجيل بنوه مربعا بتربيع الحصن مساحة كل ربع منه مائة وثلاثون شبرا وجوانبه وقبوه من حجر النصف العجيب النحت المحكم الوضع والالتئام محمولا ذلك القبو على ستة أقواس فى كل ربع ﴿قال هذا المؤلف﴾ وامتلأ نحو بلكاظة من هذا الماجل بسبع عشرين بوطة من الماء ثم شيدوا على أحد أرباع هذا الحصن طربا عظيما مرتفعا جدا ليس صادق التربيع ولا الاستدارة غير مهندس الشكل ثم بنوا فى أعلاه على أحد جوانبه بناء آخر لطيفا مستديرا صاعدا فى الجو يرقا اليه على مدارج لطيفة وجعلوا فى أعلاه صاريا خارجا من جوفه وناقوسا للحراسة يشرف الحارس منه على نحو خمسة وعشرين ميلا من سائر جهاته وجميع هذه البناآت التى ذكرها هذا المؤلف من الحصن وما معه لا زالت قائمة العين والاثر الى الآن الا الطرى فانه قد اتخذ فى هذه الايام التى هى سنة سبع وتسعين ومائتين وألف منار المسجد الجامع وذلك أن عامل الجديدة فى هذا العصر وهو الرئيس الفاضل أبو عبد الله محمد بن ادريس الجرارى حفظه الله استأذن الخليفة وهو السلطان الاعظم المولى الشريف أبو على الحسن بن محمد العلوى نصره الله فى جعله منار الكون المنار القديم قصيرا لا يسمع الناس الاذان فأذن أعزه الله فى ذلك وهذا العامل اليوم جاد فى اصلاحه والزيادة فيه وقد أشرف على التمام وكذلك استأذن هذا العامل حضرة السلطان المذكور فى ادارة جدار من داخل سور المدينة يكون سترة على منازل أهلها وبيوتهم لان السور المذكور كان مرتفعا على البلد بحيث يكون الصاعد عليه متكشفا على البيوت واستأذنه فى اصلاح القبة المشرفة على البحر المعروفة بقبة الخياطين وكانت قد تلاشت وباتخاذ سجن متسع محكم عن يمين الداخل من باب المدينة المذكورة لانه لم يكن بها سجن معتبر فأجابه الخليفة المذكور الى ذلك كله أدام الله علاه وقد تم جل ذلك وعادت القبة الى أحسن حالاتها التى كانت عليها أيام البرتقال والله لا يضيع أجر من أحسن عملا * ولنرجع الى موضوعنا الذى كنا فيه فنقول ثم شرع نصارى البرتقال بعد الفراغ من الحصن المذكور فى ادارة سور المدينة على أوثق وجه وأحكمه وذلك أنهم عمدوا الى بقعة مربعة من الارض مساحة كل ربع منها ثلاثمائة وخمس وسبعون خطوة وجعلوا مركزها

الحصن المذكور ثم أداروا بها سورين عاديين ثخن الخارج منهما نحو خمسة عشر شبرا والداخل على نحو الثلاثين منه وبينهما فضاء مردوم بالتراب والحجارة الصغيرة فصار السوران بذلك سورا واحدا سعته خمسون شبرا وهذا في غير الربع الموالي للبحر أما هو فليس فيه ردم وإنما هو سور واحد مصمت أضيق مما عداه بيسير وارتفاع هذه الاسوار من داخل البلد نحو ستين شبرا ومن خارجه نحو السبعين ثم أداروا خارج السور خندقا فسيحا وجعلوا عمقه أربعة عشر شبرا بحيث يعلوه ماء البحر لأ ما بين جوانبه واتخذوا للمدينة ثلاثة أبواب أحدها للبحر وهو باب المرسى وقد سدّ بالبناء في هذه السنين واثنان للبر وجعلوا أمامهما قنطرتين بالعمل الهندسي بحيث ترفعان وتوضعان وقت الحاجة الى ذلك فصارت المدينة بهذا كله في غاية المناعة وكان بنو وطاس في هذه المدة أشغل من ذات النحيين مع برتقال سبتة وطنجة وسائر بلاد الهبط فلذا تأتى لهؤلاء النصارى أن يفعلوا ما فعلوه في هذه المدة اليسيرة وجعلوا داخل المدينة خمس حارات وسموا كل حارة باسم كبير من قدمائهم على عادتهم في ذلك واتخذوا بها أربع كنائس واتخذوا المخازن والاهراء للاختزان وسائر المرافق ومن جملتها اهري كان يسع ستمائة فنيكة من الحب وأوطنوها بأهاليهم وعيالهم وكان فيها جماعة من أشرافهم وذوي بيوتاتهم من أهل أشبونة وغيرها وكانوا يعدون فيها أربعة آلاف نفس ما بين المقاتلة والعيال والذرية وكانوا يأملون الاستيلاء منها على مراكش فخيب الله رجاءهم ثم ذكر هذا المؤلف ما كان يقع بين المسلمين ونصارى الجديدة من الحروب والغارات مما لعلنا نشير الى بعضه في محله ان شاء الله

﴿استيلاء البرتقال على سواحل السوس وبناؤهم حصن فونتي قرب آكادير وما قيل في ذلك﴾

﴿ذكر بعض المؤرخين من الفرنج﴾ أن استيلاء البرتقال على آكادير كان في مدة ملكهم منويل المذكور آنفا وان ذلك كان على حين غفلة من أهل تلك البلاد ﴿قال منويل﴾ لما علم طاغية البرتقال منويل أن مرسى آكادير جيدة لمناعتها وكثرة تجارتها بسبب مجاورتها القبائل السوس أراد الاستيلاء عليها وكان يظن أن ذلك لا يتأتى له لحصانتها وكثرة القبائل المجاورين لها ثم خاطر وبعث اليها جيشا فاستولوا عليها على حين غفلة من أهلها وحصنوها وبنوا بها دورا وبرجا جيدا وأخذوا في التجارة بها مع أهل السوس وكثرت أرباحهم ثم لما ضعفت شوكتهم خرجوا عنها وعن آسفي وآزمور ﴿قلت﴾ مراده بآكادير حصن فونتي القريب منه والا فآكادير انما بني بعد هذا التاريخ بكثير كما سيأتي ثم مقتضى ما ذكره أن يكون زمان استيلائهم عليه موافقا أو قريبا لزمان استيلائهم على البريجة ومقتضى ما نقله في النزهة عن ابن القاضي أن يكون استيلاؤهم عليه في حدود سنة خمس وسبعين وثمانمائة فانه لما وصف حال السلطان محمد الشيخ السعدي الآتي ذكره ان شاء الله قال وكان له بخت عظيم في الجهاد فتح حصن النصارى بسوس بعد ان أقاموا به اثنتين وسبعين سنة اه وكان فتحه اياه في حدود سبع وأربعين وتسعمائة والظاهر أنهم استولوا على بعض حصون السوس في التاريخ الاول وعلى بعضها في الثاني والله أعلم

﴿وفاة السلطان محمد الشيخ الوطاسي رحمه الله﴾

﴿ذكر ابن القاضي في الجذوة﴾ أن وفاة السلطان المذكور كانت سنة عشر وتسعمائة قال ومن جملة وزرائه أخوه الناصر بن أبي زكرياء والله أعلم وولي الامر من بعده ابنه محمد البرتقالي على ما نذكره

﴿الخبر عن دولة السلطان محمد بن محمد الشيخ الوطاسي المعروف بالبرتقالي رحمه الله﴾

لما توفي السلطان محمد الشيخ بويع ابنه محمد البرتقالي في التاريخ المتقدم وكان نصارى سبتة وطنجة وأصيلا قد استحوذوا على بلاد الهبط وضايقوا المسلمين بها حتى ألجؤهم الى قصر كتامة فكان هو الثغر

يومئذ

يومئذ بين بلاد المسلمين وبلاد النصارى كما مر وكان السلطان محمد هذا قد عنى بجهادهم وترديد الغزو اليهم والاجلاب عليهم حتى شغل بذلك عن البلاد المراكشية وسواحلها فكان ذلك سبب الظهور الدولة السعدية بها سنة خمس عشرة وتسعمائة على ما نذكره ان شاء الله

﴿استيلاء البرتقال على ثغر آسفي حرسه الله﴾

﴿قال منويل﴾ كان البرتقال قد تشوفوا للاستيلاء على آسفي وكان أهلها فيهم شجاعة أكثر من غيرهم من أهل الثغور فزحفوا اليها وجرى بينهم و بين أهلها قتال شديد هلك فيه عدد كبير من البرتقال وعظم عليهم أن تمتنع منهم بلدة صغيرة ليس لها حامية سوى أهلها ثم طاولوها بالحصار حتى قل القوت عند أهل آسفي وأشرفوا على الهلاك فحينئذ شارطوا البرتقال وأسلموها اليهم على الامان فاستولوا عليها وحصنوها غاية لتوقعهم كرة المسلمين عليهم فكان كذلك فانهم زحفوا اليهم بعد ثلاث سنين من أخذها ووقع بينهم وبين البرتقال حرب شديدة كانت صفوف المسلمين تترادف فيها كأمواج البحر وقتل قواد عسكر البرتقال وكبارهم ثم قدمت عليهم شكوادره من مادرة بالعسكر والزاد فقويت نفوس البرتقال وارتحل المسلمون عنها بعد ان أشرفوا على الفتح وتبعهم البرتقال لينتهزوا فيهم الفرصة فكر المسلمون عليهم واستلبوهم وهذا أول حصار كان على آسفي ثم بعد سنين قلائل زحف المسلمون اليها أيضا ومعهم عدد من المدافع وقاتلوا قتالا صعبا وزحفوا الى السور فهدموا منه ثلمة كبيرة واشتد القتال عليها بما خرج عن العادة ثم رحل المسلمون من غير فتح وأعرضوا عنها مدة لم يحسنوا أنفسهم بقتال وعمرت آسفي بالنصارى وانتقل اليها التجار وبنوا بها الدور وكانوا يسوقون منها الحب ويحملونه فى السفن الى بلادهم ولعل ذلك لهدنة كانت لهم مع المسلمين ثم عادت للمسلمين بعد نحو ثلاث وعشرين سنة ﴿وقال﴾ الشيخ أبو عبد الله محمد العربى الفاسى فى مرآة المحاسن ما نصه قرأت بخط شيخنا أبى عبد الله القصار أن صاحب آسفي أخرج الشيخ أبا عبد الله محمد بن سليمان الجزولى عنها فدعا عليهم فسئل منه العفو فقال أربعين سنة فأخذها النصارى بعدها اهـ وهذا يقتضى أن استيلاءهم عليها كان فى حدود عشر وتسعمائة لان وفاة الشيخ الجزولى رحمه الله كانت فى سنة سبعين وثمانمائة كما مر وعند الفرنج ما يقتضى ان استيلاءهم عليها كان بعد ذلك بسنتين أو ثلاث والله أعلم

﴿زحف السلطان أبى عبد الله البرتقالى الى آصيلا﴾

﴿قال منويل﴾ لما أفضى الامر الى السلطان محمد بن محمد الشيخ الوطاسى أراد أن يأخذ بثاره من البرتقال الذين أسروه لسبع سنين فزحف الى آصيلا فى حدود أربع عشرة وتسعمائة وحاصرها وطال قتاله عليها ثم اقتحمها المسلمون عليهم اقتحاما واقتتلوا فى وسط الازقة والاسواق يومين ثم جاء المدد الى البرتقال من طنجة وجبل طارق فقويت نفوسهم وخرج المسلمون عنهم لكن ما خرجوا حتى هدموها وأحرقوها ولم يتركوا لهم بها الا الخرابات ثم جد البرتقال فى اصلاحها وأقاموا بها برهة من الدهر الى ان رجعت للمسلمين

﴿استيلاء البرتقال على ثغر آزمور حرسه الله﴾

﴿قال منويل﴾ بعث طاغية البرتقال سنة أربع عشرة وتسعمائة الى ثغر آزمور شكوادره فيها ألفان من العسكر وأربعمائة خيالة فدافعهم زيان الوطاسى ابن عم السلطان ونشبت مراكب البرتقال فى الساحل وتكسر جلها وعاث فيها المسلمون ورجع الباقى مفلولا ثم بعد أربع سنين بعث اليها الطاغية منويل شكوادره فيها عشرون ألفا من العسكر وألفان وسبعمائة خيالة فانتهوا الى آزمور

وحاصروها بحرا وزحفوا اليها من الجديدة برا ووقع حرب شديدة بينهم وبين أهل آزمور وأهل البادية ثم انهزم المسلمون وخرجوا من باب تركه لهم البرتقال قصدا قال لانه يقال في المثل الفار منك في الحرب اجعل له قنطرة من فضة يعبر عليها ﴿وقال في النزهة﴾ كان نزول النصارى بآزمور سنة أربع عشرة وتسعمائة قال وفي هذه السنة بني النصارى حجر باديس وفي أواخر المحرم منها أخذ النصارى يعني الاصبنيول مدينة وهران ونكبوا أهلها فامنهم الا أسير أو قتيل الى ان أعادها الله للاسلام على يد الاتراك في حدود العشرين ومائة وألف اه ﴿قلت﴾ أهل آزمور يزعمون أن استيلاء البرتقال على مدينتهم كان مكررا وسيأتي ما يفهم منه ذلك والله أعلم ﴿ومن﴾ أخبار السلطان أبي عبد الله ما وقفت عليه في تاريخ البرتقاليين من ان السلطان المذكور كتب لطاغيتهم منويل يطلب منه ان يتقدم بالوصاة لاصحاب قراصينه البحرية أن لا يتعرضوا لمركبين له كان قد عزم على بعثهما الى الجزائر ثم منها الى تونس وكان الطاغية لم يجبه أو أبطأ بالجواب فكرر اليه الكتاب ثانيا في القضية المذكورة وسرد هذا المؤرخ نص الكتابين معا مترجمين بلغته وذكر ان تاريخ الاول منهما الثالث والعشرون من جمادى سنة عشرين وتسعمائة وتاريخ الثاني الثامن والعشرون من ذي القعدة من السنة اه

﴿استيلاء البرتقال على ثغر المعمورة حرسه الله﴾

﴿قال في نشر المثاني﴾ ان الذي اختط حصن المعمورة هو المهدي الشيعي على يد بعض عماله وزعم بعض الفرنج أن المعمورة من بناء يعقوب المنصور الموحدي قال ولما كان زمان منويل البرتقالي بلغه أن مينا المعمورة جيدة وبلادها نفاعة فبعث اليها طائفة من جنده فوصلوا الى ساحلها ونزلوا في البر المقابل لها وبنوا هنالك برجا لحصارها ثم أردفهم ملكهم المذكور بعمارة تشتمل على مائتي مركب مشحونة بثمانية آلاف من المقاتلة قال وكان خروج هذه العمارة من مدينة اشبونة في اليوم الثالث عشر من يونيه العجمي سنة ألف وخمسمائة وخمس عشرة مسيحية ﴿قلت﴾ ويوافقها من تاريخ الهجرة تقريبا سنة احدى وعشرين وتسعمائة فوافت مينا المعمورة في الثالث والعشرين من يونيه المذكور وحاصروها وألحوا عليها بالقتال أياما وبلغ الخبر بذلك الى السلطان أبي عبد الله البرتقالي فبعث أخاه الناصر صريخا في جيش كثيف فوصل سادس اغشت من السنة المذكورة وقاتل البرتقال قتالا شديدا وهزمهم هزيمة قبيحة ثم كانت لهم الكرة على المسلمين فهزموهم واستولوا على المعمورة وثبت قدمهم بها وحصنوها بالسور الموجود بها الآن واستمروا بها نحو خمس سنين ثم استرجعها المسلمون منهم في دولة السلطان المذكور والله تعالى أعلم وفي السنة التي استولوا على المعمورة رجعوا الى موضع مدينة آنفى فشرعوا في بنائها ومن يومئذ سميت الدار البيضاء وبقوا بها مدة طويلة الى زمن السلطان المولى عبد الله بن اسمعيل على ما زعم منويل

﴿أخبار السلطان أبي عبد الله البرتقالي مع الشيخ أبي محمد الغزواني رضي الله عنه﴾

أصل الشيخ أبي محمد عبد الله الغزواني دفين حومة القصور من مراكش من غزوان قبيلة من عرب تامسنا وكان في ابتداء أمره يقرأ العلم بمدرسة الوادي من عدوة الاندلس بفاس فحصلت له ارادة فسافر الى مراكش ولازم الشيخ التباع وتخرج به ثم انتقل الى بلاد الهبط فنزل بها على قبيلة يقال لهم بنو فرنكار واجتمع عليه الناس واشتهر أمره وعظم صيته فبلغ ذلك السلطان أبا عبد الله وكان يومئذ ببلاد الهبط قد خرج اليها بقصد الغارة على نصارى آصيلا وكان معه في هذه الحركة الشيخ أبو عبد الله محمد بن غازي الامام المشهور فتوهم السلطان المذكور من أمر الشيخ الغزواني وخشي على الدولة عاقبة أمره وأغراه به مع ذلك الفقيه ابن عبد الكبير البادسي السفياني الاصل وكان هذا الفقيه يصحب الولاة والعمال

ويخرج فى بعوثهم قاضيافكثرت سعايته بالشيخ حتى وقر ذلك فى نفس السلطان فبعث اليه فحضر وأمر بالقبض عليه بالموضع المعروف بتاجناوت وجعله فى سلسلة وبعث به الى فاس وتقدم فى شأنه الى ابن شقرون صاحب شرطته بقصبة فاس القديم وكان الشيخ ابن غازى قد مرض فى هذه الغزوة وأمر السلطان بحمله الى منزله من فاس فلما وصل الى قرب عقبة المساجين اشتدبه الحال وأمر أصحابه أن يرحوا به هنالك فبينما هو كذلك اذ مربه الشيخ الغزوانى فى سلسلته فسأل الموكلين به أن يعوجوابه على الشيخ ابن غازى كى يعوده ويؤدى حقه فلما وقف عليه طلب ابن غازى منه الدعاء فدعاله بخير وانصرف فلما غاب عنه قال ابن غازى لاصحابه احفظوا وصيتى فانى راحل عنكم الى الله تعالى بلاشك قالواله ياسيدى ماعندك باس فقال ان الله وعدنى أن لا يقبض روحى حتى يرينى وليامن أوليائه وقد أرانيه الساعة فدلنى ذلك على انقضاء الاجل فحملوه من حينه الى منزله فكان آخر العهد به هكذا ساق هذا الخبر صاحب الدوحة فى ترجمتى الشيخين المذكورين وكانت وفاة ابن غازى أواخر جمادى الاولى سنة تسع عشرة وتسعمائة ﴿وقال صاحب المرآة﴾ عن بعض شيوخه بعد ان ذكر سعاية ابن عبد الكبير بالشيخ الغزوانى مانصه فتحرك الشيخ الغزوانى لزيارة ضريح الشيخ أبى سلهام فعرض له العروسى قائد القصر الكبير وناوله كتاب السلطان يأمر فيه بقدوم الشيخ الى فاس دار الملك اذذاك فقال له الشيخ طاعة السلطان واجبة وقال للزائرين معه بلغت النية فتوجه الشيخ الى فاس من ذلك المكان وكلما بات فى منزل ذهبت جماعة من الذين معه فلم يصل معه الا القليل وكان الشيخ أبو البقاء عبد الوارث اليالصوتى اذذاك ساكنا بفاس ولم يكن صحب الشيخ قبل ذلك فلما دخل الشيخ حضرة فاس لقيه أبو البقاء المذكور فسلم عليه فشد الشيخ يده على يده فلم يرسلها حتى عاهده على الرجوع فلما انفصل عنه اشترى خبزا وعنبا وحمل ذلك الى الشيخ وأصحابه فوجدهم عند القاضى أبى عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله اليفرنى المكناسى وهو مؤلف المجالس المكناسية فوجدهم فى المسجد القريب من دار القاضى المذكور بدرب السعود فناولهم مامعه ووجد الشيخ موكلا به وأصحابه يدخلون ويخرجون ثم دخل القاضى على الشيخ بالمسجد فقال له ماهذا الذى يذكر عنك قال أبو البقاء فتكلمت أنا وقلت ان هذا الرجل قد نزل بلدا عظيمة المناكر وأخذت أعدد منا كرها وصار هذا السيد ينهاهم عن ذلك فهدى الله على يده من هدى وشنئه من أبى فقام القاضى وركب الى دار السلطان ثم رجع الى منزله فبات ومن الغد ركب الى دار السلطان أيضا ومعه الشيخ الغزوانى فلما اطمأن بهم مجلس السلطان وكان فيه صاحب تازا وهو أبو العباس أحمد ابن الشيخ أخو السلطان المذكور سكت الجميع وتكلم كاتب السلطان وامام صلاته ﴿قال صاحب المرآة﴾ ولم يسم لنا فقال للشيخ ماهذا الذى يذكر عنك فقال له الشيخ أنت لا تتكلم حتى تغتسل من جنابتك فاستشاط الكاتب غضبا فقال له أخو السلطان هؤلاء القوم يعنون بالجنابة غيرما تعنيه العامة يشير الى مافى الحكم فقال له السلطان من أين تعرف هذا فقال له من سيدى محمد بن عبد الرحيم بن يجيش ففرح السلطان بمعرفة أخيه ذلك وقال للشيخ نحن نريد قربك وأن تكون معنا فى هذه المدينة فقال له على بركة الله فانتقل الى فاس القديم وبنى خارج باب القليعة داخل باب الفتوح وأقام هنالك ماشاء الله قيل سبع سنين الى ان كانت سنة تعذر فيها المطر وأخذ الناس فى استخراج السواقى للحرث فاخرج الشيخ من وادى اللبن ساقية لم يكن فى سواقى السلطان وغيره مثلها فبعث اليه أخو السلطان وهو الناصر الملقب بالكديد بالكاف المعقودة والدال المشددة على لغة العامة وقال له نحن أحق بتلك الساقية فقال له الشيخ خذها وأخذ فى الرحيل الى مراكش ولما توجه تلقاءها أخذ خنيفه فى يده وجعل يشير به من جهة فاس الى جهة مراكش ويقول أيايا سلطنة الى مراكش ﴿قال صاحب المرآة﴾ هذا حديث شيخنا أبى عبد الله النيجى قال وآخنيف معروف وهو نوع من البرانس السود ومعنى أيايا بلغة عامة المغرب سيرى معى

وموضع بني فزنكار أظنه تاصروت فان بها رسما منسوبا اليه الى الآن وانه منزله الذي كان يأوي اليه ومازالت آثاره هنالك والدار التي بها باب القلبة هي المتصيرة الى تلميذه الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي الهروي المعروف بالطالب ولعل سنة اخراج السواقي هي سنة ست وعشرين وتسعمائة فانه قد تعذر فيها المطر وحدث عنها الغلاء الكبير المؤرخ بسنة سبع وعشرين وتسعمائة وكأنه أشار الى انتقال السلطنة عن بني وطاس ملوك فاس الى الشرفاء السعديين ملوك مراكش يومئذ والله أعلم

نهوض السلطان أبي عبد الله البرتقالي الى مراكش ومحاصرته أبا العباس الاعرج السعدي بها

قد تقدم لنا أن ظهور الدولة السعدية ببلاد السوس كان في سنة خمس عشرة وتسعمائة ومازال أمرهم في الزيادة الى ان كانت دولة أبي العباس الاعرج منهم فاستفحل أمره وبعد صيته وفتك بنصارى السوس فكاتبه أمراء هنتانة أصحاب مراكش ودخلوا في طاعته فانتقل اليها وملكها في حدود الثلاثين وتسعمائة ولما اتصل خبره بالسلطان أبي عبد الله وهو يومئذ بفاس قامت قيامته . وأقبل في جموع عديدة ومعه وزيره ابن عمه المسعود بن الناصر كذا في النزهة والذي عند غيره ان الوزير الذي جاء معه هو الناصر أخو السلطان المذكور ولما رأى أبو العباس السعدي مالا قبل له به تحصن بمراكش وشحن أسوارها بالرماة فتقدم السلطان أبو عبد الله ونصب الانفاض على مراكش ودام الحصار عليها أياما فيحكى انه قيل للشيخ أبي محمد الغزواني وكان قد استوطن مراكش يومئذ ان أهل مراكش سئموا الحصار فركب الشيخ في جماعة من أصحابه وخرج من باب فاس المعروف اليوم بباب الخميس فوجد رماة السلطان أبي عبد الله يرمون من على الاسوار من أهل البلد فوقف الشيخ ينظر فجاءت رصاصة ضربت صدره وخرقت الجبة التي عليه والتصقت بلحمه كأنها وقعت في صخرة صماء فقبض عليها بيده وقال هذه خاتمة حربهم ثم رجع الى منزله فوردت الانباء على السلطان أبي عبد الله في تلك الليلة بان بني عمه قد قاموا عليه بفاس ونبذوا دعوته فأصبح من الغد راحلا الى فاس وظهر مصداق ماقال الشيخ الغزواني ولم يعد لبني وطاس وصول بعدها الى مراكش ولا الى أعمالها والله تعالى أعلم

ذكر وزراء السلطان أبي عبد الله وماقيل فيهم

كان من جملة وزرائه ابن عمه المسعود بن الناصر وهو الذي زحف معه الى مراكش على مافي النزهة وكان من جملة وزرائه القائمين بأمره أخوه الناصر بن محمد الشيخ المعروف عند عامة فاس بابي علاقة وبالكديد على ما مر (قال في الجذوة) لقب بذلك لكثرة سفكه الدماء واقدامه عليه فكان يقتل الناس ويجزرهم كثيرا وكذا بمكناسة أيام وزارته بها كذا حدثت غير واحد ممن أدركه ورآه وتوفي الوزير المذكور سنة ثلاثين وتسعمائة

وفاة السلطان أبي عبد الله رحمه الله

كانت وفاة السلطان أبي عبد الله البرتقالي سنة احدى وثلاثين وتسعمائة على مافي الجذوة ويؤخذ من النزهة أنها كانت سنة اثنتين وثلاثين بعدها والله أعلم وولي الامر من بعده أخوه أبو حسون بولاية عهده اليه

الخبر عن الدولة الاولى للسلطان أبي حسون بن محمد الشيخ الوطاسي

هو أبو الحسن علي بن محمد الشيخ ابن أبي زكرياء يحيى بن زيان الوطاسي ويعرف بابي حسون البادسي (قال في النزهة) بويع بفاس سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة ثم قبض عليه ولد أخيه أبو العباس أحمد ابن محمد البرتقالي وخلعه وأشهد عليه بالخلع آخر ذي الحجة من السنة المذكورة انتهى

﴿الخبر عن دولة السلطان أبي العباس أحمد بن محمد الوطاسي رحمه الله تعالى﴾

هو أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله محمد البرتقالي ابن أبي عبد الله محمد الشيخ ابن أبي زكرياء يحيى بن زيان الوطاسي بويع يوم خلع عمه أبي حسون آخر ذي الحجة متم سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة ﴿قال ابن القاضي﴾ وقد رأيت البيعة التي كتبت له بخط الامام أبي محمد عبد الواحد بن أحمد الونشريسي من انشائه وعليها خطوط جماعة من فقهاء فاس كأبي العباس الحباك والفقيه أبي العباس أحمد الماواسي وغيرهما اه ﴿قال أبو عبد الله اليفرني في النزهة﴾ وانظر ما وجه كتب البيعة لأحمد مع ان خلع أبي حسون لم يكن لموجب والونشريسي من أهل الورع ولعله لامر لم يظهر لنا والله أعلم اه ﴿وقال ابن عسكر في الدوحة﴾ لما توفي السلطان أبو عبد الله البرتقالي ودالت الدولة لولده السلطان أبي العباس أحمد وغص بالشرفاء القائمين عليه ببلاد السوس وزوحمهم عقد الهدنة مع النصارى المجاورين له ببلاد الهبط وصاحبهم سلطان البرتقال فبلغ ذلك الشيخ أبا عبد الله محمد بن يحيى البهلولي وكان له رغبة في الجهاد وممن له وصلة بالسلطان أبي عبد الله فكان اذا جاءه زائرا حضه على الغزو فيساعده على ما أراد من ذلك فلما بلغ الشيخ المذكور ما عقده السلطان أبو العباس من الصلح آلى على نفسه أن لا يلقى السلطان المذكور ولا يمشي اليه ولا يقبل منه ما كان عينه له والده من جزية أهل الذمة بفاس لقوته وقوت عياله فمكث على ذلك الى ان حضرته الوفاة وكان في النزع وأصحابه دائرون به فقال له بعضهم ياسيدي أخبرك ان السلطان أمر بالغزو وأمر بالنداء به وحض الناس عليه والمسلمون في شره لذلك وفرح ففتح الشيخ عينيه وتهلل وجهه فرحا وحمد الله وأثنى عليه ففاضت نفسه وهو مسرور بذلك اه

﴿وقعة آنماي بين الوطاسيين والسعديين﴾

قد تقدم لنا في خبر السلطان أبي عبد الله أنه لما حاصر مراكش وأصابت الرصاصة الشيخ الغزواني قال هذه خاتمة حربهم ولم يعد لبني وطاس وصول الى مراكش ولا الى أحوازها ﴿قال في النزهة﴾ فكان أبو العباس الاعرج يتلاقى مع أبي العباس الوطاسي بتادلا وأحوازها قال وكانت بينهما معركة بموضع يقال له آنماي وذلك في ذي القعدة سنة خمس وثلاثين وتسعمائة فافترقا على اصطلاح اه وآنماي موضع قرب مراكش بزاوية الشيخ أبي العزم رحال الكوش

﴿عقد الصلح بين السلطانين أبي العباس الوطاسي وأبي العباس السعدي رحمهما الله تعالى﴾

لما رأى أهل المغرب ما وقع بين السلطان أبي العباس أحمد الوطاسي صاحب فاس وأبي العباس أحمد السعدي المعروف بالاعرج صاحب مراكش من التقاتل على الملك والتهالك عليه وفناء الخلق بينهم دخلوا في الصلح بينهم والتراضي على قسمة البلاد وحضر لذلك جماعة من العلماء والصلحاء منهم أبو حفص عمر الخطاب دفين جبل زرهون وأبو الرواين المحجوب دفين مكناسة الزيتون وكان صاحب حال وجذب فجعل الناس يوصونه بالسكوت مخافة أن يفسد عليهم أمرهم فلما دخلوا على أبي العباس الاعرج وأخيه وزيره محمد الشيخ وتكلموا فيما جاؤا لاجله وجدوا فيهما شدة وغلظة وامتناعا من مساعدتهم على ما أرادوا فحلف أبو حفص الخطاب لا دخلوها يعني فاسا ما دمت على وجه الارض فدخلوها حتى مات بعد مدة فكان بعضهم يقول لو كان بنو وطاس يعرفون شيأ ما دفنوا أبا حفص الخطاب يعني لتركوه في تابوت على وجه الارض لانه حلف لا دخلوها ما دام على وجه الارض حكاه صاحب ممتع الاسماع ﴿وذكر في شرح زهرة الشماريخ﴾ أن الصلح انبرم بين الطائفتين على أن للاشراف من تادلا الى السوس ولبني وطاس من تادلا الى المغرب الاوسط وان ممن حضر الصلح المذكور قاضي الجماعة بفاس

أبا الحسن على بن هرون المطغرى بالطاء المهملة مطغرة تلمسان والامام الشهير أبا مالك عبد الواحد بن أحمد الونشريسى وغيرهما من مشايخ فاس ويذكر أنه لما تواطأت كلمة الحاضرين على الصلح وعقدوا شروطه وهدأت الاصوات وسكن اللجاج أتى بدواة وقرطاس ليكتب الصلح فلما وضعت الدواة بين يدى أحد من الفقهاء الحاضرين الاوجم وانقبض ودفعها عن نفسه استحياء فى ذلك المحفل أن يكتب مالا يناسب الجهتين فقام قاضى الجماعة المذكور وأخذ الدواة وأساودها ووضعها بين يدى أبى مالك المذكور فانشأ أبو مالك فى الحين خطبة بليغة ونسج الصلح على منوال عجيب واخترع اسلوبا غريبا تحير فيه الحاضرون وعجبوا من ثبات جاشه وجوم قريحته فى مثل ذلك المشهد العظيم الذى تخرس فيه ألسن الفصحاء هيبة واكبارا فقام قاضى الجماعة وقبله بين عينيه وقال جزاك الله عن المسلمين خيرا وماهى بأول بركتكم يا آل أبى بكر وكان ذلك كله فى حدود أربعين وتسعمائة اه

﴿غزوة الحمر قرب آصيلا حرسها الله﴾

ذكر صاحب الدوحة فى ترجمة الشيخ أبى الحسن على بن عثمان الشاوى رحمه الله أنه استشهد فى وقعة الحمر التى كانت فى حدود أربعين وتسعمائة بين النصارى والقائد عبد الواحد بن طلحة العروسى على مقربة من آصيلا قال حدثنى غير واحد ممن يوثق به ممن حضر الوقعة وبعضهم يصدق بعضا قالوا لما انهزم الناس استقبل الشيخ أبو الحسن النصارى وسيفه فى يده وهو يتلو بردة البوصيرى فكان ذلك آخر العهد به ولما رجع الناس من الغد ليحملوا قتلاهم لم يوقف له على عين ولا أثر والغا وجد غنبازا من لباسه عند النصارى وفيه أثر طعنة فى صدره اه كلام الدوحة ﴿وفى المرآة﴾ أن الشيخ المذكور مات فى حياة شيخه الغزوانى شهيدا فى الجهاد سنة خمس وعشرين وتسعمائة اه ولعله الصواب والعروسى المذكور هو من أمراء بنى عبد الحميد العروسيين أصحاب قصر كتامة وكانت لهم رياسة وسياسة وجهاد فى العدو الى ان انقرض أمرهم أعوام الخمسين وتسعمائة ﴿قال فى الدوحة﴾ أخبرنى غير واحد من فقهاء قصر كتامة أن الشيخ أبا الرواين جاء الى القصر وصاحبه يومئذ القائد عبد الواحد العروسى فى عصبة من أقاربه أولاد عبد الحميد فصعد أبو الرواين صومعة المسجد ثم نادى بأعلى صوته يابنى عبد الحميد اشتروا منى القصر والا خرجتم منه فى هذه السنة فسمع القائد عبد الواحد ذلك فقال ان كان القصر له أو بيده فلينتزعه منا مابقى لنا الا كلام الحمق نلتفت اليه ومن الغد خرج الشيخ أبو الرواين من البلد وهو يقول القائد عبد الواحد وأهله يخرجون من القصر ولا يعودون اليه أبدا فكان كذلك بقدرة الله تعالى

﴿وقعة أبى عقبة بوادى العبيد وما كان فيها بين الوطاسيين والسعديين من القتال الشديد﴾

هذه الوقعة من أعظم الوقعات التى كانت تكون بين الوطاسيين والسعديين ومازالت العامة تتحدث بها فى أنديتها الى الآن ويبالغون فى وصفها والاخبار عنها وقد ذكرها شعراؤهم فى أزجالهم الملحونة وهى محفوظة فيما بينهم وذلك انه لما طمى عباب السعديين على بلاد الحوز وكادوا يلجون على الوطاسيين دار ملكهم من فاس نهض اليهم السلطان أبو العباس الوطاسى أواخر سنة اثنتين وأربعين وتسعمائة يجر الشوك والمدر فى جمع كثيف من الجند وقبائل العرب فى حللها وظعنها وجاء أبو العباس السعدى فى قبائل الحوز بحللها وظعنها كذلك فكان اللقاء بشرع أبى عقبة احد مشاوع وادى العبيد من تادلا فنشبت الحرب وتقاتل الناس وبرز أهل الحفائظ منهم والترات وقاتل الناس على حرمهم وأحسابهم وعزهم فافنى بعضهم بعضا الا قليلا ودامت الحرب أياما على ماقيل الى ان كانت الهزيمة على الوطاسيين عشية يوم الجمعة ثامن صفر سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة ﴿قال فى الجذوة﴾ فرجع السلطان أبو العباس الوطاسى الى فاس وبقيت محلته وقصبة تادلا بيد الشريف السعدى قال وتسمى هذه السنة سنة أبى عقبة

﴿وقال في المرآة﴾ ومما اشتهر من كرامات الشيخ أبي طلحة الزبير بن محمد المصباحي الشاوي الزناتي أنه لما التقى مقاتلة فاس وسلطانهم أبو العباس أحمد الوطاسي ومقاتلة مراكش وسلطانهم أبو العباس أحمد الاعرج ومعه أخوه المتولي بعده أبو عبد الله محمد الشيخ سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة على مشرع أبي عقبة من وادي العبيد انهزم السلطان أبو العباس الوطاسي وتفرقت جموعه وتبعته الخيل فكادوا يقبضون عليه فحضر هنالك رجل على فرس أنثى فجعل يحول بينه وبينهم ويقول له سر يا أحمد ولا تخف ولم يزل معه الى ان رجعوا عنه وأمن الطلب وقد عرف السلطان صفته وتحققها ولم يزل يسأل عن صاحب تلك الصفة حتى قيل له هذه صفة أبي طلحة المصباحي وتحقق ذلك ولما كان خروج السلطان المذكور الذي وصل فيه تطاوين وتزوج بها الحرة بنت الامير السيد أبي الحسن علي بن موسى بن راشد الشريف وذلك في ربيع الاول سنة ثمان وأربعين وتسعمائة وبتطاوين بني بها قصد أبا طلحة المذكور ونزل عليه فلما رآه عرفه وأيقن انه الرجل الذي أغاثه فاكب عليه السلطان وذكر ما وقع له معه فقال الشيخ يارب كيف العيش مع هذه الشهرة فاقبضني اليك فمات عقب ذلك من سنته ﴿قال في المرآة﴾ سمعت هذه الحكاية من غير واحد وسألت شيخنا أبا القاسم بن أبي طلحة المذكور فقال لي أعقل مجيء السلطان وأنا صغير جدا أقعد في حجر أبي وعند ركبته اه ﴿قلت﴾ والامير أبو الحسن بن راشد المذكور هو الذي اختط مدينة شفشاون كما مر ﴿وذكر في المرآة﴾ ان وفاته كانت سنة سبع عشرة وتسعمائة فيكون السلطان المذكور انما تزوج ابنته بعد وفاته ولعله خطبها من أخيها الامير أبي عبد الله محمد بن أبي الحسن والله أعلم ﴿واعلم﴾ ان ما سلكناه هنا من تقديم قضية الصلح على وقعة أبي عقبة هو ما يقتضيه التاريخ الذي صرحوا به وسيأتي بعد هذا ما ربما يفهم منه أن الامر بالعكس والجواب ان قضية الصلح تكررت حسبما يؤخذ مما مر والله أعلم ﴿وفي هذه السنة أيضا﴾ عقد السلطان أبو العباس الوطاسي مع برتقال آسفي صلحا على ثلاث سنين ودخل في هذا العقد آسفي والجديدة وآزمور وكتب البرتقال بذلك الى ملكهم ووقعت الحادثة في البلاد وتفرغ الوطاسي لقتال السعديين

﴿بناء السلطان أبي العباس الوطاسي قنطرة الرصيف بفاس حرسها الله﴾

كان السلطان أبو العباس أحمد بن محمد الوطاسي قد جدد بناء قنطرة الرصيف بحضرة فاس وذلك منتصف سنة احدى وخمسين وتسعمائة وفي ذلك يقول الفقيه أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الوانشريسي مشيرا الى التاريخ المذكور

جسر الرصيف أبو العباس جدده * فخر السلاطين من أبناء وطاس
فجاء في غاية الاتقان مرتفقا * لمن يمر به من عدوتي فاس
وكان تجديده في نصف عام غنا * من هجرة المصطفى المبعوث للناس

﴿وقال الفقيه أبو مالك أيضا﴾

أيا اهل فاس سدد الله سدكم * برأي أبي العباس حامي حمى فاس
وأحيا به أشجاركم وثماركم * على رغم قوم منكرين من الناس
فدام ودام السعد يخدم مجده * وفاز من الشكر الجميل باجناس

﴿وقال الشيخ أبو زكرياء يحيى السراج﴾

ألا سدد الله رأي الذي * بتسديده سد سدا حصينا
وخلد في عزه ملكه * وأولاه فتحا ونصرا مبينا
امام الهدى أحمد المرتضى * مبيد العدا عدة المسلمينا

﴿وقال الامام أبو الحسن علي بن هرون﴾

لقد سدّد الله رأي العماد ✽ وأبطل في الستر أي الجهول
وقرّب مارامه من بعاد ✽ بمولاي أحمد مدحي يطول
فطردا وعكسا السني بعاد ✽ عقول الملوك ملوك العقول

﴿وقعة وادي درنة تادلا وأسر الامير أبي زكرياء الوطاسي ومهلكه رحمه الله﴾

ذكر في المرآة عند الكلام على أبي عبد الله محمد بن يوسف الفاسي وهو والد الشيخ أبي المحاسن رضي الله عنه أن أبا عبد الله المذكور كانت له وجاهة كبيرة عند أمير القصر أبي زكرياء يحيى بن أبي عبد الله البرتقالي وهو يومئذ أخو السلطان أبي العباس الوطاسي قال فانتفع بوجاهة أبي عبد الله الفاسي خلق كثير ولم يسامح هو نفسه في نيل شيء من الدنيا بسبب ذلك الجاه الى ان أسر الامير أبو زكرياء المذكور في وقعة وادي درنة من تادلا للشرفاء على بني وطاس في رجب سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة ومات في تلك الليالي القريبة غما وأسفا رحمه الله ﴿قلت﴾ وكان سلطان السعديين يومئذ محمد الشيخ الملقب بالمهدي فانه تغلب على أخيه الاعرج وانتزع منه الملك وسجنه كما يأتي ان شاء الله تعالى

﴿استيلاء السلطان محمد الشيخ السعدي على فاس وقبضه على بني وطاس ومهلك سلطانهم أبي العباس رحمه الله تعالى بفضله﴾

لما غلب السلطان محمد الشيخ السعدي على أخيه أبي العباس الاعرج واستولى على مراكش طمحت نفسه للتوغل في بلاد الغرب وقرأه فتفرغ لحرب بني وطاس ونكث ما كان بينه وبينهم من الصلح ورهوامنه بحجر الارض وردد اليهم البعوث والسرايا وأكثر فيهم من شن الغارات وصار يستلبهم البلاد شيأ فشيأ الى ان استولى عليها وكان أول ما ملك من أمصار الغرب مكناسة الزيتون افتتحها عقب سنة خمس وخمسين وتسعمائة بعد حصار ومقاتلة ثم تقدم الى فاس فألح عليها بالقتال وضايقها بالحصار مدة قريبة من السنة ثم استولى عليها بعد ان أسر سلطانها أبا العباس الوطاسي وصار في قبضته وكان دخوله اياها أوائل سنة ست وخمسين وتسعمائة ولما دخلها تقبض على الوطاسيين أجمع وبعثهم مصفدين الى مراكش عدا أباحسون المخلوع فانه فر الى الجزائر الى ان كان من أمره ما نذكره ثم ان الشيخ السعدي غدر بني وطاس فيما قيل بعد ان أظهر العفو عنهم وسرح سلطانهم أبا العباس من نقافه والله أعلم ﴿وفي الجذوة﴾ كانت وفاة السلطان أبي العباس الوطاسي بمراكش قرب الستين وتسعمائة اه وزعم منويل انه قتل مذبوحا بدرعة قال زحف أبو عبد الله محمد الشيخ السعدي الى فاس فبرز اليه أبو حسون الوطاسي وكان قائد جيش ابن أخيه ووقع بينهما قتال عظيم انهزم فيه أبو حسون الى فاس وحاصره السعدي بها سنتين ولما قلت الاقوات وعجز الوطاسيون عن الدفاع نزلوا على حكم السعدي فقبض على أبي العباس الوطاسي وفر أبو حسون الى الجزائر واستقل محمد الشيخ السعدي بامر المغرب وغرب الوطاسيين الى درعة فقتل أبا العباس الوطاسي الذي كان تملك الله ذبحا اه كلامه

﴿بقية أخبار السلطان أبي العباس الوطاسي وسيرته﴾

كان من جملة وزراء السلطان أبي العباس المذكور ابنه محمد ومن أخباره ما ذكره في الدوحة في ترجمة الشيخ أبي عثمان سعيد بن أبي بكر المشنزائي دفين مكناسة الزيتون قال من كراماته الشائعة ما اتفق له مع الوزير أبي عبد الله محمد ابن السلطان أبي العباس أحمد الوطاسي لما استوزره أبوه وولاه على مكناسة وكان بها فغضب ذات يوم على أحد المشاورية فهرب المشاوري الى زاوية الشيخ أبي عثمان فبعث الوزير

الى الشيخ بان عليه الامان و بعثه اليه فقال له الشيخ ان شئت أن تذهب الى سيدك فافعل فقال المشاور ياسيدى أخاف أن يقتلني فقال الشيخ ان قتلك فالله يقتله فذهب المشاورى الى الوزير و بقي عنده ليلتين وفى الثالثة قتله ولم يظهر له أثر فجاءت أمه الى الشيخ وقالت له ياسيدى ان ولدى قد قتله الوزير فقال لها سبق ذلك فى علم الله وان الآخر سيلحقه الآن يعني الوزير فوعك الوزير تلك الليلة وسلط عليه اكال فى جسمه فتمزق لحمه وتقطع شيأ فشيأ الى ان هلك الليال قلائل من مرضه فاعتبر الناس والسلطان بذلك ومن ذلك الوقت زاد الامراء وغيرهم فى احترام حرم زاوية الشيخ المذكور اه وكان السلطان أبى العباس اعتقاد فى المتصلحين وأرباب الاحوال فمن فوقهم من أهل العلم والدين من ذلك ماحكاه فى الدوحة أيضا فى ترجمة أبى الحسن على الصنهاجى المعروف بالدوار قال كان أبو الحسن المذكور من الملامتية وكان يدخل دور الملوك من بنى وطاس فيتلقاه النساء والصبيان يقبلون يديه وقدميه فلا يلتفت الى أحد ويعطونه الثياب الرفيعة والدخائر النفيسة ويلبسه السلطان يعنى أبا العباس من أشرف لباسه فاذا خرج تصدق بجميع ذلك ويمر على حوانيت الزياتين فيغمس اكمام الحلة التى تكون عليه ويبرقعها بالزيت أو بالسمن ولا يزال يدور فى الاماكن ويصرخ باسم الجلالة اه قالوا وكان السلطان أبو العباس المذكور واقفا عند اشارة الفقيه أبى مالك عبد الواحد بن أحمد الونشريسى وهو ابن صاحب المعيار لا يتعدى أمره ولا يخالف رأيه كما وقع له معه فى مسئلة رجل اسلامى يعرف بعبد الرحمن المنجور وكان تاجرا جامعا للمال فشهد عليه فى حكاية طويلة أربعون رجلا من العدول باستغراق ذمته فاخذه السلطان أبو العباس الوطاسى وقتله وصير أملاكه لبيت مال المسلمين فرغب أولاد المنجور من السلطان أن يؤدوا له عشرين ألف دينار ويرد اليهم أملاكهم ويسقط عنهم بينة الاستغراق فقال السلطان لحاجبه اذهب الى الشيخ عبد الواحد الونشريسى وشاوره فى ذلك وعرفه بانى فى الحاجة الى هذا المال لاجل هذه الحركة التى عرضت لى فذهب الحاجب اليه وأخبره بمقالة السلطان ورغبته فى قبول ذلك فقال له الشيخ والله لا ألقى الله بشهادة أربعين رجلا من عدول المسلمين لاجل سلطانك اذهب وقل له انى لا أوافق على ذلك ولا أرضاه فرجع الحاجب الى السلطان وأخبره بما قال الشيخ فرجع السلطان عما عزم عليه ونظير هذا ما اتفق له معه أيضا وهو ان الناس خرجوا يوم العيد للصلاة فانتظروا السلطان فأبطأ عليهم ولم يأت الى خروج وقت الصلاة وحينئذ أقبل السلطان أبو العباس فى أبهته فلما انتهى الى المصلى نظر الشيخ أبو مالك فرأى ان الوقت قد فات فرقى المنبر وقال معشر المسلمين أعظم الله أجركم فى صلاة العيد فقد عادت ظهرا ثم أمر المؤذن فأذن وأقام الصلاة فتقدم الشيخ أبو مالك وصلى بالناس الظهر فخجل السلطان أبو العباس واعترف بخطيئته رحم الله الجميع

الخبر عن الدولة الثانية للسلطان أبى حسون الوطاسى رحمه الله

لما دخل السلطان أبو عبد الله محمد الشيخ السعدى الى فاس سنة ست وخمسين وتسعمائة وقبض على بنى وطاس بها حسبما تقدم فر أبو حسون هذا الى ثغر الجزائر حنقا الدمه ومستجيشا الترك على السعدى وكانت الترك قد استولوا على المغرب الاوسط وانتزعوه من يد بنى زيان كما سيأتى فلم يزل أبو حسون عندهم يفتل لهم فى الذارب والسنام ويحسن لهم بلاد المغرب الاقصى ويعظمها فى أعينهم ويقول ان المتغلب عليها قد سلبنى ملكى وملك آبائى وغلبنى على تراث أجدادى فلو ذهبتم معى لقتاله لكنا نرجو الله تعالى أن يتيح لنا النصر عليه ويرزقنا الظفر به ولا تعدمون أنتم مع ذلك منفعة من ملء أيديكم غنائم وذخائر ووعدهم بمال جزيل فأجابوه الى ما طلب وأقبلوا معه فى جيش كثيف تحت راية باشاهم صالح التركمانى المعروف بصالح رئيس الى ان اقتحموا حضرة فاس بعد حروب عظيمة ومعارك

شديدة وفرّ عنها محمد الشيخ السعدي الى منجاته وكان دخول السلطان أبي حسون الى فاس ثالث صفر سنة احدى وستين وتسعمائة ولما دخلها فرح به أهلها فرحا شديدا وترجل هو عن فرسه وصار يعانق الناس كبيرا وصغيرا وشريفا ووضيعا ويبكي على ما دهمه وأهل بيته من أمر السعديين واستبشر الناس بقدومه وتيمنوا بطلعته وقبض على كبير فاس يومئذ القائد أبي عبد الله محمد بن راشد الشريف الادريسي واطمأنت به الدار ثم لم يلبث السلطان أبو حسون الا يسيرا حتى كثرت شكاية الناس اليه بالترك وانهم مدّوا أيديهم الى الحريم وعاثوا في البلاد فبادر بدفع ما اتفق معهم عليه من المال وأخرجهم عن فاس وتخلف بها منهم نفر يسير

﴿مجيء السلطان محمد الشيخ السعدي الى فاس واستيلاؤه عليها ومقتل السلطان أبي حسون رحمه الله﴾

لما فرّ السلطان محمد الشيخ السعدي من وقعة الاتراك بفاس وصل الى مراكش فاستقر بها وصرف عزمه لقتال أبي حسون فاخذ في استنفار القبائل وانتخاب الابطال وتعبية العساكر والاجناد فاجتمع له من ذلك ما اشتد به أزره وقوي به عضده ثم نهض بهم الى فاس فخرج اليه السلطان أبو حسون في رماة فاس وما انضاف اليهم من جيش العرب فكانت الهزيمة على أبي حسون فرجع الى فاس وتحصن بها فتقدم الشيخ السعدي وحاصره الى ان ظفر به في وقعة كانت بينهما بالموضع المعروف بمسلة فقتله واستولى على حضرة فاس وصفاله أمرها وكان استيلاؤه عليها يوم السبت الرابع والعشرين من شوال سنة احدى وستين وتسعمائة على الصواب خلاف ما وقع في الدوحة والله أعلم وبمقتل السلطان أبي حسون رحمه الله انقرضت الدولة المرينية بالمغرب والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين (وبقي علينا الالماع) باواخر دولة بني زيان ملوك تلمسان وكيف كان انقراض أمرهم فلنشر الى ذلك فنقول كانت دولة بني زيان على ما علمت من الاضطراب سائر أيام بني مرين وكان منهم في صدر المائة التاسعة السلطان الواثق بالله من أمثل ملوكهم وغلبهم على تلمسان في تلك المدة السلطان أبو فارس عبد العزيز ابن أحمد الحفصي فاخذوا بطاعته ثم بعد موته سنة سبع وثلاثين وثمانمائة اعتروا ببعض الشيء الى ان كانت دولة السلطان أبي عمرو عثمان بن محمد الحفصي فغزا تلمسان أعوام السبعين وثمانمائة مرتين وفي الثانية هدم أسوارها وعزم على استئصال أهلها الى ان تشفع اليه علماؤها وصلحاؤها فعفا عنهم وكان الباعث له على غزوها أولا ما بلغه من ان الامير محمد بن محمد بن أبي ثابت استولى عليها ففعل ما فعل وصاهرهم ببعض حفدته ﴿وقال صاحب بدائع السلك﴾ شاهدت بتلمسان وبعض أعمالها تصريح الخطيب باسم السلطان أبي عمرو عثمان صاحب تونس مقدما في الذكر على اسم صاحب تلمسان أبي عبد الله من أعقاب بني زيان لما بينهما من الشرط في ذلك وبقيت حال بني زيان متماسكة الى ان ظهر جنس الاصبنيول في صدر المائة العاشرة بعد ما تم له ملك الاندلس وعظمت شوكته فطمع التغلب على ثغور المغربين الادنى والاوسط فاستولى على بجاية سنة عشر وتسعمائة ثم على وهران سنة أربع عشرة وتسعمائة وفعل باهلها الافاعيل ثم سما للتملك الجزائر وشره لالتهامها وضايق المسلمين في ثغورهم وضعف بنو زيان عن مقاومته وكان الشيخ الفقيه الصالح أبو العباس أحمد بن القاضي الزواوي ممن له الشهرة والوجاهة الكبيرة في بسائط المغرب الاوسط وجباله وكانت دولة العثمانية من الترك في هذه المدة قد نجم عبابها وملكت أكثر المسكونة وظهر من قواد عساكرها البحرية قائدان عظيمان وهما خير الدين باشا وأخوه عروج باشا وكانا قد تابعا الغزو على بلاد الكفر برا وبحرا وأوقعا باهل دول الاوربا وقائع شهيرة وطار لهم ذكر في أقطار البلاد وتمكن ناموسهم من قلوب العباد فكاتبهم الفقيه أبو العباس المذكور وعرفهم بما المسلمون فيه من مضايقة العدو الكافر وقال ان بلادنا بقيت لك أولاخيك

أو للذئب فأقبل الترك نحوه مسرعين واستولى عروج باشا على ثغر الجزائر بعدما كاد العدو يملكه فتخلصه منه ثم استولى على تلمسان وغلب بني زيان على أمرهم وذلك سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة على ما في النزهة ثم ان أهل تلمسان أنكروا سيرة الترك وسئموا ملكتهم ويقال أن الترك عسفوهم وصادروهم على أموالهم وكان عروج قد أغرى بالفقيه أبي العباس المستدعي له فقتل شهيدا بعد الثلاثين وتسعمائة ورأى عروج ان أمر المغرب الاوسط لا يصفو له مع وجود الفقيه المذكور فدس عليه من قتله ثم نهض عروج الى بني يزناسن فكانت الكرة عليه وقتل هنالك مع جماعة من وجوه عسكره وتفرقت جموعه وعادت تلمسان الى بني زيان فجددوا بها رياستهم وأحيوا رمق دولتهم الى ان عاود الترك غزوها بعد حين وانتزعوها من يد صاحبها أبي العباس أحمد بن عبد الله من أعقاب يغمراسن بن زيان ﴿وقال في المرآة ما نصه﴾ قال الشيخ الامام قاضي الجماعة أبو محمد عبد الواحد بن أحمد الوانشريسي رحمه الله ومن خطه نقلت قدم حسن بن خير الدين التركي فاستولى على تلمسان في أواسط شعبان سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة وأخرج منها الامير أحمد ابن الامير عبد الله ووزيره منصور بن أبي غانم ولحقا بدبدوا مع من انضاف اليهما من أمراء تلمسان وكبرائها فغدر بهم عمر بن يحيى الوطاسي صاحب دبدو وأخذ أموالهم واعتقلهم وسرح منصورا في محرم سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة اهـ واستمرت تلمسان في يد الترك الى أواسط المائة الثالثة عشرة فاستولى عليها الفرنسيس على ما نذكره ان شاء الله ﴿واعلم﴾ انه كان في صدر هذه المائة العاشرة أمور عظام منها ظهور الفرنج بالديار المغربية واستيلاؤهم على ثغورها بما لم يعهد مثله قبل ذلك لا سيما البرتقال والاصبنيول حسبما تقدمت الاشارة اليه ومنها ظهور دولة آل عثمان ملوك التركمان بالديار المشرقية وما أضيف اليها الظهور الذي لا كفاء له وابتداء هذه الدولة وان كان قبل هذا التاريخ بنحو مائتي سنة لكن انما كان عنفوان شبابها وفيضان عبابها في هذه المدة لا سيما في دولة سلطانهم الاعظم وخاقانهم الافخم سليمان بن سليم خان فانه ملك أكثر المعمور وقام بدعوته من الامم الجمهور وهجمت عساكره على ديار الارباقة فقاتلوهم في أعز بلادهم واستلبوهم من طارفهم وتلادهم وخضعت ملوكها لعزته واستكانوا لصولته وأعطوه يد المقادة وآتوه من الطاعة والخضوع ما خالف العادة ثم أوطأ عساكره المغربين الادنى والاوسط فاستولى عليهما وكاد يتناول الاقصى ويضيفه اليهما على ما نقف عليه في أخبار السعديين ان شاء الله ومنها ظهور الاولياء وأهل الصلاح من الملامتية وأرباب الاحوال والجذب في بلاد الشرق والغرب لكنه انفتح به للتسورين على النسبة وأهل الدعوى باب متسع الخرق متعسر الرتق فاختلط المرعي بالهمل وادعى الخصوصية من لا ناقة له فيها ولا جمل وصعب على جل الناس التمييز حتى بين البهرج والابريز لا سيما العامي الغمر الذي لا يفرق بين الحصباء والدر ويرحم الله الشيخ اليوسي اذ قال في محاضرته ما نصه وقد طرق أسماع العوام من قبل اليوم كلام أهل الصولة كفحول القادرية والشاذلية رضي الله عنهم وكلام أرباب الاحوال في كل زمان فتعشقت النفوس ذلك وأذعن له الجمهور وخاضوا في التشبه بهم فانشأت أن تلقى جاهلا مسرفا على نفسه لم يعرف بعد ظاهر الشريعة فضلا عن أن يعمل فضلا عن ان يخلص الى الباطن فضلا عن أن يكون صاحب مقام الاوجد ته يصول ويقول وينابذ المنقول والمعقول وأكثر ذلك في أبناء الفقراء يريد الواحد منهم أن يتحلى بحلية أبيه ويستتبع أتباعه بغير حق ولا حقيقة بل لمجرد حطام الدنيا فيقول خدام أبي وزريبة أبي ويضرب عليهم المغرم كمغرم السلطان ولا يقبل ان يحبوا أحدا في الله أو يعرفوه أو يقتدوا به غيره واذا رأى من خرج يطلب دينه أو من يدله على الله تعالى يغضب عليه ويتوعده بالهلاك في نفسه وماله وقد يقع شيء من المصائب بحكم القضاء والابتلاء فيضيفه الى نفسه فيزداد بذلك هو وأتباعه ضلالا ثم يخترق لهم من الخرافات والامور المعتادة ما يدعيه سيرة ودينا

بدعتهم ويعتذرون به ثم يضمن لهم الجنة على مساوى أعمالهم والشفاعة يوم المحشر ويقبض على لحية من ذراعه فيقول للجاهل مثله أنت من هذه اللحية فيكتفى جهال العوام بذلك ويبقون فى خدمته ولداعن والد قائلين نحن خدام الدار الفلانية وفى زريبة فلان فلا نخرج عنها وكذا وجدنا آباءنا وهذا هو الضلال المبين وهؤلاء قطاع العباد عن الله الى آخر كلامه فقف عليه فى الفصل الخامس والعشرين منها فانه نفيس وبالله تعالى التوفيق ﴿وفى سنة احدى عشرة وتسعمائة﴾ توفى الفقيه أبو العباس أحمد بن عيسى الماواسى البطيوى الموقت المشهور ﴿وفى سنة اثنتى عشرة بعدها﴾ توفى الشيخ الفقيه أبو الحسن على بن قاسم التجيبى المعروف بالزقاق فقيه فاس وهو صاحب المنظومة اللامية فى علم القضاء وغيرها ﴿وفى سنة أربع عشرة وتسعمائة﴾ فى يوم الثلاثاء العشرين من صفر منها توفى الشيخ الامام أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسى مؤلف المعيار وغيره من التآليف الحسان أصله من تلمسان واستوطن مدينة فاس الى ان توفى بها فى التاريخ المذكور ﴿وفيها أيضا﴾ توفى الشيخ الكبير أبو فارس عبد العزيز بن عبد الحق الحرار المعروف بالتباع دفين حومة الفحول من مراكش من أصحاب الشيخ الجزولى رضى الله عنهما وصفه شيخه المذكور بالكيمياء وكان يقال النظرة فيه تغنى أفاض الله علينا من مدده ﴿وفى سنة تسع عشرة وتسعمائة﴾ توفى الشيخ الامام العلامة النظار أبو عبد الله محمد بن أحمد بن غازى العثمانى المكناسى ثم الفاسى وقد تقدم خبره مع الشيخ أبى محمد الغزوانى رحمهما الله ﴿وفى سنة ست وعشرين وتسعمائة﴾ انحبس المطر بفاس والمغرب واضطر الناس الى استخراج السواقى من الاودية والانهار لسقى زروعهم وثمارهم ﴿وفى سنة سبع وعشرين بعدها﴾ كان الغلاء والجوع الكبير الذى صار تاريخا فى الناس مدة ﴿وفى سنة ثمان وعشرين بعدها﴾ كان الوباء بالمغرب سنة الله فى خلقه وفى هذه المدة أعنى أعوام الثلاثين وتسعمائة على ما فى الدوحة توفى الشيخ أبو عبد الله محمد بن منصور السفيانى دفين جزيرة البسابس من بلاد أولاد جلون على مسيرة نصف يوم من مصب نهر سبو فى البحر من جهة الشرق وكان من أصحاب الشيخ التباع والروضة التى عليه بناها الشيخ أبو زيد عبد الرحمن المجذوب يقال انه لما أكملها رآه فى المنام وألبسه حلة خضراء ﴿وفى سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة﴾ فى ثانى يوم من ربيع الاول منها توفى الشيخ أبو محمد عبد الكريم بن عمر الحاحى المعروف بالفلاح ضجيع القاضى عياض فى روضته بحومة باب ايلان من مراكش وهو من أصحاب الشيخ التباع أيضا وفى هذه المدة على ما فى الدوحة توفى الشيخ أبو يشو امالك بن خدة الصبيحى من عرب صبيح كان من أهل العلم والفضل والدين ودفن على صفة نهر سبو اعلى نحو مرحلة من فاس وقبره مزارة الى الآن ﴿وفى سنة خمس وثلاثين وتسعمائة﴾ توفى الشيخ أبو محمد الغزوانى رضى الله عنه دفين حومة القصور من مراكش وقد تقدم شئ من خبره ﴿وفى أعوام أربعين وتسعمائة﴾ توفى الشيخ الكامل أبو عبد الله محمد بن عيسى السفيانى المختارى ثم الفهدى دفين مكناسة الزيتون وهو شيخ جليل القدر شهير الذكر رضى الله عنه ونفعنا به آمين

تم الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث أوله ابتداء دولة الاشراف السعديين من آل زيدان وذكر أوليتهم وتحقيق نسبهم رحمهم الله

فهرسة الجزء الثاني من كتاب الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

﴿تمت الفهرست﴾